كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقل والجسد

لعلَّ حلم الإنسان من قديم الزمان هو تكامل العقل والجسد. ولكن علينا أن نعترف أن ذلك المطلب بعيد المنال إلا في حالات نادرة. يقول المثل: «الجسم السليم في العقل السليم». هناك بعض الصحة في هذا نسبياً، ولكن ألا يصدق القول بالمقابل: «العقل السليم في الجسم السليم؟» القول الأول يشجع على ممارسة

الرياضة بشتى أنواعها، لأن عقل الإنسان يهديه إلى بناء جسمه، وتنشيط دورته الدموية، وتجديد خلاياه، وتقوية عضلاته كافة. ولكن القول الثاني يعطي الأهمية والأولوية للعقل، الناجم عن جسم صحيح ومتكامل. فهل الخيار حتمي بين العقل والجسد؟

الواقع أن معظم العلماء توصل عبر الدراسات والاختبارات الحديثة إلى أن الخيار الأمثل هو التكامل. والتكامل لا يتحقق إلا من خلال التوازن في بناء كل من العقل والجسد بصورة متوازية. إن هدف ذلك التكامل عبر التوازن بين «الحكمة» من جهة، و«القوة» من جهة ثانية، يجب ألا يكون هدفاً في حد ذاته، إذ إن الهدف الأبعد يكمن في بلوغ قمة الهرم. يمكن لكل إنسان أن يطلق أسماء مختلفة على ذلك العنصر الوليد والسامي والأعظم، الناجم عن التوازن والتكامل بين العقل والجسد. بعضهم يسميه «الروح»، وبعضهم يسميه «الضمير»، وبعضهم يسميه «الإرادة»، وبعضهم يسميه «الأخلاق»، وبعضهم يسميه «المنطق»، ولكن التسمية العربية الأكثر جاذبية هي «الوجدان».

يستهلك كل نشاط في الوجود جهداً وطاقة، كما يستغرق وقتاً. لذلك، في حين يمكن للإنسان أن يجمع ما بين أكثر من هواية متباينة، كالرياضة والمطالعة، أو كالرسم والرحلات، فإنه لا يمكنه أن يجمع بين أكثر من احتراف، إلا إذا كان ذلك في مجالات متناغمة ومتقاربة. قد يكون المرء ممثلاً وأديباً، أو مخرجاً ومصمماً، ولكن من الصعب على من يتدرب رياضياً بشكل محترف ست أو ثماني ساعات في اليوم أن يبدع في فن من الفنون. كما يصعب على عازف موسيقي أن يصبح بطلاً

رياضيـاً محترفاً. هناك مسرحية رائعة للأمريكي كليفورد أوديتس بعنوان «الفتى المذهـب» عـن عازف كمـان شاب ذي موهبة، لكـن ظروف الحيـاة القاسية تضطره إلى أن يصبـح ملاكمـاً محترفـاً، فلا يلبث أن يفقد بالتدريـج مرونة أصابعه التي اعتادت مداعبة الأوتار برقة، ويبدأ تحوله ينتقل من داخله الموسيقي الرقيق إلى نشاطـه الرياضـي العنيف وسـط بيئة أقرب ما تكـون إلى المافيـا، ليفقد أعز من يحـب. وعلى ذكر الرياضة -وأنا من المؤيدين والممارسين لها هوايةً وليس احترافاً منذ مطلع شبابي- أذكر حكاية طريفة قرأتها قبل أكثر من ثلاثة عقود في مجلة مصريـة شعبية، مفادهـا أن ثلاثة شبان مفتولي العضـلات، مفتونين باستعراض أجسادهـم، حاولوا معاكسة فتاة على شاطئ الإسكندرية، فتصدى لهم شاب عادي القوام لا يبدو عليه أثر يذكر للعضلات، كان بالصدفة يقرأ كتاباً ويستمتع بأشعة الشمس. وعندمـا حاولوا الاعتداء عليـه مغرورين بعضلاتهـم المنفوخة، لقنهم هـم الثلاثـة درسـاً لـن ينسوه في حياتهـم، إذ ضربهـم «علقة» ساخنـة أمام جميع المصطافين على الشاطئ، والبنت التي كانت ضحية لوقاحتهم، فانصرفوا يجرون أذيال العار والخيبة.

يقال: إن المرء إذا غضب، فإنه يحرك مئة عضلة في وجهه، أما إذا ابتسم، فإنه يحرك عضلتين فقط. إذن، لماذا نتعب عضلاتنا؟ علمتني تجارب الحياة أن أفضل سبيـل للنجـاح ليس بالضرورة الهـدوء الداخلي، لأن كثيراً مـن مديري الشركات، والمسؤولين، والصناعيين، والقادة العسكريين، والمنتجين، والمخرجين، والموسيقيين، والأدبـاء والرسامـين، يغلـون قلقاً في دواخلهـم. لكن، من المؤكـد، أن أفضل سبيل

للنجاح هو التحكم بالمشاعر والانفعالات، والهدوء المرتسم على خارج كل هؤلاء وهم يديرون أركان حربهم في كل مجال من المجالات. الرياضة ضرورية لجميع هؤلاء، مهما بلغت درجة انشغالهم، ومهما عظمت مسؤولياتهم، وإلا لما كانت ضمن المقررات في جميع المناهج الدراسية لدول العالم المتقدمة، ولتلك العريقة في حضاراتها، سواء كنا نتحدث عن الدول الاسكندنافية، أو دول أوروبة الغربية أو الشرقية، أو الأمريكيتين، أو دول الشرق الأقصى البارزة. فقط في دول العالم الثالث، والتي نطلق عليها لقب الدول النامية، هناك اهتمام أقل بالرياضة والفنون في مراحل الدراسة المختلفة. تلك الحصص عندنا عبارة عن ملء فراغ، أو تقطيع للوقت، ونادراً ما تعطى اختصاصيين وتجهيزات، إلا في المدارس الخاصة باهظة الأقساط، بمعنى أنها تعامل عموماً على أنها «ميزة»، وليس «حقاً» يقدم مجاناً لمختلف مستويات الطلبة اجتماعياً وطبقياً. أما الدول الغربية فأولت اهتماماً بالغاً لفوائد تصحيح أوضاع الجسم، وتوفير الطاقة، أو ترشيد الجهد، عبر بحوث قام فيها غالباً مسرحيون أو راقصون، ثم ما لبثوا أن سجلوا خلاصة تحليلاتهم في تمارين، مطلقين نظريات ما زالت قائمة ومتداولة حتى الآن، ليس على صعيد معاهد الفنون الدرامية فحسب، وإنما حتى في المصانع والشركات.

أول من سنتوقف عند نظريته ومنهجه هو الأوسترالي فريدريك ماثياس ألكساندر. فما قصة «تقنية ألكساندر» **Alexander Technique** الشهيرة في العالم الغربي بشكل خاص، سواء في معاهد التمثيل أم في المؤسسات الاقتصادية والمهنية الأخرى؟

ولد ألكساندر في أوستراليا عام ١٨٦٩م، وعمل في التمثيل والإلقاء. لكنه لاحظ ثمة خشونة وضيقاً في التنفس يؤثر على أدائه الصوتي، فبدأ يبحث عن السبب عن طريق مراقبته لنفسه بوساطة المرايا، إلى أن اكتشف أنه يدفع برأسه إلى الوراء، مما كان يضغط على حنجرته، ويجعله يستنشق الهواء من فمه، كما أن تلك الوضعية كانت تنعكس على وضع رقبته، ومن ثم على وضع عموده الفقري. بدأ ألكساندر بتصحيح أوضاع جسمه، وتوصل إلى نتائج إيجابية جداً. وعندما انتقل ليعيش في إنكلترا منذ العام ١٩٠٤م، لقيت تعاليمه صدىً كبيراً في الأوساط الراقية، مما جعله يؤسس مدرسة لتعليم الأساتذة «تقنيته» الخاصة بتوجيه كل إنسان للتخلص من العادات السيئة المتأصلة فيه، والعودة إلى الأوضاع الصحيحة للحركة والنطق، الأمر الذي يترك تأثيراً هائلاً حتى على التفكير والجهد ومجمل الحياة، وذلك عبر تأثير الجسم على العقل، ومن ثم على الروح أيضاً. وتتضمن «تقنية ألكساندر» استلهام مرونة الأطفال، استقامة جذوعهم، حركتهم التي يوجهها ويدفعها الفضول، والتعامل مع الأوزان والأثقال. ورغم أن ألكساندر رحل عن عالمنا في عام ١٩٥٥م عن عمر يناهز ٩٦ عاماً، إلا أن نظرياته تدرس على جانبي المحيط الأطلسي، في بريطانيا والولايات المتحدة، وهناك عديد من الأساتذة والأستاذات المتخصصات في منهجه يعملون في معاهد المسرح. وعندما كنت عميداً للمعهد العالي للفنون المسرحية في سورية، استقدمت إحدى المدربات المختصات من بريطانيا، وشاهدت بأم عيني النتائج المذهلة لعملها مع الطلبة، وهذه النتائج التي جاءت بعد أسبوعين من التدريب تجاوزت بكثير مجرد تصحيح

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوضاع الجسم، والاسترخاء الخلاق، وتحسين الإلقاء، في أنها فتحت مجال اتصال الممثل مع لا شعوره، وإثراء ذاكرته الحسية والعاطفية لتفجر انفعالاته حية متدفقة بما يمكنه أن يخدم مستقبله الفني، ويوظف في الموضع الملائم. هذه هي الغاية القصوى من تأثير تقنية ألكساندر على الجسد والعقل معاً، وبالتالي على الوجدان. لذلك، كثيراً ما استخدمت نظريات ألكساندر في أوروبة من قبل مدراء الشركات والمصانع لتحسين جهد وصحة العاملين، وللحصول على إنتاجية أفضل في العمل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمة العدد

كمال الصليبي والبحث عن الجوهر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. علي القيّم
رئيس التحرير

صباح الأول من أيلول الماضي، رحل عن عالمنا المؤرخ والمفكر والباحث العربي اللبناني الدكتور كمال الصليبي، عن ٨٢ عاماً، هذا الإنسان الذي دخل التاريخ من بابه الواسع، وصنع تاريخاً، وكتب تاريخاً، وعرض أفكاراً مثيرة للجدل، وقدّم نظريات أثارت حوارات ودراسات عديدة، وفتحت المجال لنقاشات معمّقة ساهمت في إضاءة جوانب كثيرة من حياة مجتمعاتنا، وخاصة الدينية والفكرية منها، وكان في كل ما كتب

وأنجز من مؤلفات ودراسات واعياً لرسالة الباحث والمفكر والمؤرخ الذي ينير الطريق، ويمهّد لفكر نهضوي تنويري طوال أكثر من خمسين عاماً..

لقد كان كمال الصليبي من المفكرين المغرمين بحركة التاريخ، ونبضها الحقيقي، الذي يمكن أن يؤدي إلى حدوث «تغيير ثوري» يعيد بناء الذات القومية الثقافية، أو الذات السياسية، وفق تعبير الدكتور رضوان السيد، فيصنع مجتمعاً جديداً بفكر جديد، واعتمد في دراساته على المنهج التأويلي الشاسع الذي قاده إلى تطوير عمله ومواضيعه من حيث الاهتمام، وبروز الوعي القومي العربي في كتاباته، التي امتلأت بأعمال العروبة والعربية المطلقة، فأضاف بذلك منهج استكشاف التحولات التاريخية، فأعاد تفسير وتعريب اليهودية والمسيحية عبر العهدين القديم والجديد، لتظهر فيهما خصوصية عربية منذ القرن السادس أو السابع قبل الميلاد، وقد أثارت هذه التأويلية الهائلة في قراءة النصوص، تأكيداً على الظهورية العربية الخالدة، وسخط من بعض الباحثين في التاريخين اليهودي والمسيحي، لكنها أكسبت الراحل الكبير شعبية واسعة في أوساط العروبيين والمسلمين..

كمال الصليبي صاحب شخصية متفردة بين المؤرخين والمفكرين العرب، ويعد من روّاد العروبة الجديدة، مع العلم أنه كتب في تاريخ لبنان والخصوصية اللبنانية خلال مرحلته البحثية الأولى، مالم يكتبه غيره، وهذه الكتب التي حملت عناوين: «تاريخ لبنان الحديث» و«منطلق تاريخ لبنان» و«بيت بمنازل كثيرة» كانت من أكثر الكتابات والمؤلفات والنصوص منهجية وجدّية وعلمية،

ووضع كتباً أخرى حملت عناوين «التوراة جاءت من جزيرة العرب» و«البحث عن يسوع» وبعض الشخصيات التوراتية، وقد تضمنت هذه الكتب نظريات وآراء ناقضت مفاهيم شائعة، راسخة على مستوى المنطقة العربية والعالم، مما جعل الآراء تختلف حوله، حتى وقتنا الراهن..

لقد اجتهد الراحل الكبير في ميادين عدّة من ميادين التاريخ، واستطاع بجدارة أن يدخل عمق المسائل التي تناولها في دراساته وأبحاثه، التي قلب من خلالها الأشياء، وقد أسس على آرائه نظرية تقوم على المقارنة ما بين أسماء المناطق الفلسطينية والشامية الواردة في الكتاب المقدس، وردّ أصولها إلى منطقة عسير والحجاز في الجزيرة العربية، وبناء على ذلك لم تنشأ «التوراة» وفق أقواله في فلسطين بل في الجزيرة العربية.. وتشابه الأسماء جعل كمال الصليبي يبتدع أسطورة جديدة، وقد فعل ذلك بأسلوب جذّاب، مستنداً بذلك بالدرجة الأولى إلى شهرته العلميّة، وقد سانده وأيده عالم ألماني شهير، ومع ذلك بقي كتابه حتى اليوم «التوراة جاءت من جزيرة العرب» من دون اعتراف علمي عام، على الرغم من أهميته الكبيرة، وأعتقد أن السبب يكمن في أن الصليبي غرق أكثر من اللازم في التأويل والاستنتاجات غير المثبتة، حيث لا آثار ولا معطيات «أركيولوجية» في الحجاز إلى يومنا هذا، تثبت افتراضات كمال الصليبي، فتشابه الأسماء بين فلسطين والحجاز، لا تعطينا الجزم بأن التوراة جاءت من جزيرة العرب، ولا يؤكد أن هيكل أورشليم كان بسراة عسير وليس في القدس..

* * *

يعدّ كمال الصليبي «شيخ المؤرخين في بلاد الشام» وأستاذهم، فقد كتب سلسلة من الكتب التي أرخت لهذه المنطقة، وكان في كثير مما كتب يتطلب الجرأة والتخيّل ووسع الأفكار القابلة للجدل، سواء في معالجة موضوع تاريخي معين، أو في رسم الصورة الشاملة، وهناك من يرى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أن استخدام المخيّلة لديه كان أساس كتابة التاريخ، ومن دونه لا تستقيم تماماً..

لقد أثارت كتاباته الاهتمام والانتباه والجدل، على المستوى العربي والدولي، لما حملته من قدرة عالية على التصور والتحليل والخروج بكشف جديد، ونتائج جديدة، ونظريات تخلخل البنى السائدة والراكدة، مما جعل كتابه في كثير من الأحيان ريادة معرفيّة مفتوحة الأفق، مع تميّزها بالرصانة والجدية والتعمّق، وكان يرى أن التاريخ يتوقف تصوره على المؤرخ، وعلى قابلية المؤرخ للتصور، وقد درّب نفسه وذهنه طويلاً على التجرد إلى حدّ أن الأمر ازدوج لديه ليصبح التاريخ نفسه ليس سوى التجرد، وقد تعلّم إتقان عمله من الموسيقى التي عرفها جيداً، وكان مولعاً بها وعازفاً بارعاً على آلة البيانو، كما كان يحفظ الكثير من الشعر العربي، الذي يعتبره مصدراً أساسياً للمؤرخ العربي، لذلك ليس غريباً أن نجد في كثير من كتاباته تلك اللمسة الأدبية الرائعة، وأعتقد جازماً أن أكثر مؤلفاته التي أثارت الجدل والنقاش والخلاف، كان كتابه الشهير «التوراة جاءت من جزيرة العرب» الذي صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٨٥م، وقد قرأته مرات عدّة، ووجدت فيه دراسة جيدة وجريئة، استحقت التقدير والاحترام من قبل فئة كبيرة من القرّاء والدارسين، لأنه نفى صلة بين إسرائيل واليهود بفلسطين، وقام بسرد عدد من الوقائع والمعلومات ليدعم بها «نظريته» التي تقول، إن حركة

الكنعانيين وبني إسرائيل ثم اليهود لم تكن أساساً في فلسطين، بل في جنوب غرب الجزيرة العربية، فيما يطلق عليه (منطقة عسير وجيزان) ودلل على صحة «نظريته» بوجود عدد كبير من أسماء المدن الموجودة في تلك المناطق شبيهة بأسماء المناطق الموجودة في فلسطين، وبمعنى آخر إن الكنعانيين والإسرائيليين لمّا هجروا موطنهم الأول في غرب شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين حملوا معهم أسماء مدنهم كنوع من احتفاظ المهاجر الجديد بما يربطه بوطنه الأصلي..

حول هذا الموضوع وبداية التفكير فيه، يقول كمال الصليبي، و«لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تمّ بالمصادفة.. كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل إلى حوالي ٦٠٠كم، وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠كم، تشمل ماهو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز، وكان أوّل ما انتبهت إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة، وسرعان ما تبين لي أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهني، أو جلّها، ما زال موجوداً فيها، وقد تبين لي أيضاً أن الخريطة التي تستخلص من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء من ناحية أسماء الأمكنة أو من ناحية القرائن، أو من حيث الإحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض، وهي حقيقة ذات أهمية أولية، نظراً لأنه لم يثبت بعد إطلاقاً تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع خريطة الأرض بين «النيل والفرات» التي اعتبرت –حتى اليوم- أنها كانت «بلاد التوراة».

ويتابع الدكتور الصليبي شرح نظريته: «وأكثر من ذلك، فإني لم أستطع العثور على مثل هذا التجمّع لأسماء الأمكنة التوراتية، وفي صيغتها الأصلية في أي جزء آخر من الشرق الأدنى» وهنا وصل إلى الاستنتاج المذهل: اليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار تاريخ بني إسرائيل كان في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر..

• • •

الذين انتقدوا «نظرية» كمال الصليبي، قالوا: تشابه أسماء المدن والمناطق لا تكفي لإثبات صحة ما وصل إليه من قول، ومن المعلوم أن اسم مدينة واحدة ربما يتكرر في عدّة بلاد، وتحمل المسمّى نفسه، وأعمال الكشف الأثري لم تثبت مطلقاً الوجود اليهودي في المنطقة المسماة «من النيل إلى الفرات» وقد صرفت إسرائيل الأموال الطائلة على البعثات الأثرية لإثبات مرويات التوراة على الأرض، ولم تصل إلى شيء وذهبت «المدرسة التوراتية» في علم الآثار، ولم يعد هناك من يؤمن بها وبأعمالها ومشاريعها وآرائها المغرضة، وثبت أن «التوراة» كُتبت على يد بعض الكتبة المتأخرين أثناء وجودهم في السبي البابلي على يد «نبوخذ نصر» وكان كمال الصليبي محقّاً حين قال بأن اليهودية لم تولد في فلسطين، لأن الديانة اليهودية ولدت في بابل -كما قلنا- على يد الكاهن عزرا، وجماعة السبي البابلي كانوا يمثلون بقايا جماعة موسى، ثم اختلط بهم ممن اعتنق ديانتهم من مختلف الأجناس، وقد جاءت تسميتهم باليهود نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة..

في الدراسات النقدية، يمكن القول إن المدن التي ذكرها كمال الصليبي هي في

الأصل من المدن الكنعانية القديمة، أسسها الكنعانيون في الساحل السوري منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولا علاقة لها من قريب ولا من بعيد باليهود ولا بما ورد في التوراة، ولا تقدم الدليل على ما ذهب إليه الدكتور الصليبي في «نظريته» التي قادته إلى استنتاجات غير مثبتة، ولا تدعمها الحجج المقنعة، ولا معطيات علم الآثار..

المهم أن كمال الصليبي وجه الأنظار إلى غرب شبه الجزيرة العربية، وإلى منطقة عسير، لا سيما وأنه رغم جميع محاولات -المدرسة التوراتية- في علم الآثار تعسّر إيجاد الدليل المادي في فلسطين على الأحداث التوراتية التي جرت من أيام إبراهيم (عليه السلام) حتى السبي البابلي، وثمة أدلة مادية على أنه لا يوجد إجماع لدى اليهود بأن فلسطين هي الموطن الأول لليهود، فالنصوص المكتشفة في جزيرة «فيله» في نهر النيل بمصر العليا، تدل على أن يهود مصر العليا، في زمن الفراعنة، لم يسمعوا قط بمعبد سليمان، كما أنهم عبدوا آلهة أخرى إلى جانب «يهوا» وحتى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م كان يعيش في اليمن الشقيق نحو /٦٠/ ألف يهودي، وهؤلاء لم ينسوا دينهم، لكنهم نسوا تاريخ نشوئهم، مثلما نسوا اللغة العبرية، وحتى ثلاثينيات القرن الماضي، كان آلاف من اليهود يعيشون في منطقة عسير في المملكة العربية السعودية...

بعد المناقشة لآراء الصليبي ونظريته، وجد بعض الباحثين أنها مجرد مصادفات ولعب بالكلمات وخواطر جريئة، وهذه النظرية لا تستند إلى أسس صحيحة كلياً أو جزئياً.. الأستاذ «لوريتس» عالم اللوغاريتيات وأستاذ العهد القديم في جامعة مونستر بألمانيا، رفض النظرية، ويرى أن منهج كمال الصليبي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في البحث عن الاسم البلداني العربي المناسب، للاسم البلداني التوراتي، يستند كلياً إلى لعب قسري باللغتين العربية والعبرية، وعلى هذا الأساس يمكن لأي إنسان أن يبرهن على وجود فلسطين في أي بقعة يختارها من بقاع الوطن العربي، ومما لاشك فيه أن المادة التي طرحها الدكتور الصليبي، مادة طريفة للغاية، إلا أنها لا تحمل النظرية التي تقوم عليها، فهو لا يحمل الأدلة التاريخية والجغرافية والأثرية، وقد اعتبرت كبوة من كبوات المؤرخ الكبير، لأن وظيفة المؤرخ تختلف عن وظيفة الكاتب الديني، لأن غايتيهما تختلفان، ففيما يسعى المؤرخ إلى الوقائع والبيّنات والآثار، يلجأ الكاتب الديني إلى التفسير والتأويل والبحث عن المعاني التي قصدها المؤلفون، حول هذا الموضوع يقول الكاتب والأستاذ الجامعي المعروف، جورج مسوّح: «كمال الصليبي تخلّى مرات عدّة عن وظيفته الأساس ليغرق في التأويل والاستنتاجات غير المثبتة، والانحياز من دون حجج مقنعة لفرضية ضد فرضية أخرى لا تقل عنها معقولية».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

لقد توقفت عند كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» لأنّه الأكثر جرأة وجدالاً وإثارة بين كتب راحلنا الدكتور كمال الصليبي ، وهذا لا يمنع من القول بثقة ومصداقية بأن كتبه الأخرى ذات أهمية كبيرة جعلت مؤلفها هامة سامقة، ومنحته مكانة أدبية بارزة كمؤرخ وصاحب نظريات ناقضت مفاهيم شائعة وراسخة على مستوى المنطقة والعالم، مثل كتاب «البحث عن يسوع» و«بيت بمنازل كبيرة» و«منطلق تاريخ لبنان» وغيرها من الكتب والأبحاث المتميزة التي جعلت منه صاحب نبرة عالية وحقيقية في الاتجاه المعاكس في محيطه الجغرافي

والأكاديمي، وحسبه أنه أيضاً ساهم مساهمة فعّالة في إعادة مركز الثقل اللغوي/ الديني إلى الأصل، أي إلى اللغة العربية كأم لغوية للغات «السامية» جميعها، بل وأعاد إليها اعتبارها كحاضنة لغوية مثلى وأصلية للديانات السماوية الثلاث..

المتتبع لمسيرة الدكتور كمال الصليبي في كتابه «بيت بمنازل كثيرة» يدرك كيف تطور منهج البحث لديه مع تطور الزمن، وكيف تطورت عنده الفكرة العلميّة التي قد تكون بحجم جملة، إلى أطروحة جامعية.. وإلى مجموعة أبحاث مترابطة، وتتعداها إلى كتب في غاية الأهمية، تتضمن تحليلات انتقادية لتاريخ لبنان والعرب وفق منهج علمي صارم، وتأملات تاريخية عميقة، حول هذا الموضوع يقول الدكتور كمال: «منذ سنة ١٩٥٣ وأنا أكتب في التاريخ، لم أكتب لأخبئ نتائج أبحاثي، بل نشرت ذلك كله، وألقيت محاضرات كثيرة، لكن كتاباتي لم تنجح في إعادة النظر في تاريخ لبنان..».. وقد تطورت مقولات الصليبي مع تطور أبحاثه واتساع أفقه وفي هذا المجال نال كتاب «بيت بمنازل كثيرة» رواجاً كبيراً، فبعد تحليل معمّق ومستفيض لبنية المجتمع اللبناني التي أعطت اللبنانيين سمة الشعب المثقف والنشيط والمضياف والمنفتح على اللغات والثقافات العالمية، تبين له زيف الجانب الأسطوري في كتابة تاريخ لبنان والمنطقة العربية، وطالب بضرورة العودة إلى دراسة التاريخ على أرض واحدة بالاستناد إلى وثائق ومصادر علمية رصينة، وهنا تبرز العروبة لديه ذات مضمون حضاري وثقافي، وليست تذويباً للخصوصية المحلّية في وحدة اندماجية قسرية (وفق تعبير المؤرخ الصديق مسعود ضاهر) فهي انتماء طوعي إلى ثقافة عربية مشتركة، وتاريخ مشترك، وتراث وعادات وتقاليد مشتركة..

كمال الصليبي رحل عن عالمنا، جسداً، ولكن أعماله وكتاباته ودراساته ومؤلفاته الرائدة والمستنيرة سوف تبقى عميقة الأثر في نفوس نخب ومثقفي الأمة العربية، وأهمية هذا الإنسان تكمن في أنه كان دائم البحث عن الجوهر، ولم يتمسك بالقشور.. وساهم مساهمة فعّالة في ترسيخ قيمة الزمن في حياتنا العلمية والفكرية، وكان بحق أنموذجاً واضحاً للمؤرخ والمفكر الذي يسعى باستمرار لتطوير مواقفه العلمية، وتعرية الأساطير المترسخة في عقولنا، وكان في كل ما كتب وأنجز عميق الانتماء إلى أمته وحضارته العربية..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر المرأة العربية في عصور الازدهار

د. ملكة أبيض *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقصد بعصور الازدهار تلك العصور التي نعم فيها المجتمع العربي أو معظم أجزائه باستقرار نسبي، مكّنَ الأفراد من ممارسة أنشطة ثقافية.

هذه العصور هي: العصر الأموي، والعباسي، ولا سيما الفترة الأولى منه. ففي هذين العصرين تكونت الثقافة العربية ـ الإسلامية وأينعت في جميع مجالاتها الدينية، واللغوية، والأدبية، والعلمية.. بل وحتى الفلسفية والفنية. ويمكن أن ندرج فيها الفترة العربية في الأندلس، التي شهدت انتشاراً واسعاً للثقافة العربية ـ الإسلامية، وإنتاجاً غزيراً لا يقل عن نظيره

* أديبة وباحثة وأستاذة جامعية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

في الشرق. ولاشك في أن الأوضاع السياسية والاجتماعية التي أحاطت بالإبداع الثقافي متماثلة إلى حد بعيد في شرق هذا المجتمع وغربه، مما شجّع الرحلة والتبادل بينهما، وإفادة كل منهما من الآخر. ألم يقل الصاحب بن عباد عندما قرأ «العقد الفريد» لابن عبد ربه: «هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا؟».

ولنبدأ بلمحة سريعة تلقي الضوء على تلك الأوضاع.

لقد دشَّن الإسلام منعطفاً كبيراً في حياة المجتمع العربي، وقاد إلى اجتماع العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت لوائه، واستبدل بالغزو والوقائع الداخلية بين القبائل حروب الفتوح، مما قضى على عمليات الثأر والحض عليها، وتعيير من يتخلى عنها بالجبن والتخاذل، تلك الموضوعات التي شغلت معظم أشعار المرأة العربية في الجاهلية. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن الإسلام أقام مرجعاً لتحقيق العدالة داخل الجزيرة العربية أولاً، وهو الرسول الكريم، ثم خلفاؤه، ومن بعدهم الأمراء والولاة. كما أن المجتمع الإسلامي شهد تعيين قضاة لتحقيق الحق وإقامة العدل في وقت مبكر جداً. فها هو الخليفة عمر بن الخطاب يكتب إلى معاذ بن جبل وإلى أبي عبيدة بن الجراح خلال فتح الشام «انظروا رجالاً من الصالحين عندكم فاستعملوهم على القضاء وارزقوهم وأوسعوا عليهم من مال الله عز وجل».[1] وهكذا تولى أبو الدرداء قضاء دمشق و عبادة بن الصامت قضاء فلسطين في بداية الفتح الإسلامي. كما أن الخليفة عمر عيّن سليمان بن عتر التجيبي قاضياً بمصر منذ سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣م. وبعد سنة ٦٦١م أخذ جماعة من القضاة يتعاقبون على مصر بشكل منتظم. و كانوا يختارون من طبقة الفقهاء، تلك الطبقة التي تضم نخبة العلماء الاختصاصيين بعلوم القرآن والحديث[2].

ذلك أن عصر صدر الإسلام شهد بداية تشكل العلوم الدينية: القرآن، والحديث، ثم الفقه والتفسير والقصص. ولكن آداب اللغة العربية ولا سيما الشعر، استمرت في جذب المؤمنين. فحين سئل أحد الصحابة: ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ فقال: كنا ننشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا.[3]

وظل العرب في أيام بني أمية على بداوتهم إلى حد ما. فكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم. وظل كثير من عادات الجاهلية شائعاً في أيامهم كالمفاخرة ومناشدة الأشعار في الأندية العامة. فكان

أشراف أهل الكوفة يخرجون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس. وأهل البصرة يخرجون إلى المربد لهذه الغاية... ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوه في أيام هذه الدولة. وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الأرض.[٤]

كان بنو أمية يحرصون على إحياء لسان العرب وآدابه. وكان الخلفاء أنفسهم من أهل الأدب، يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم، وكثيراً ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس ويقترحون عليهم أن يصفوا شيئاً بشعرهم ويجيزوا المجيد.

ونتبين مكانة الشعر لديهم من الكتاب الذي أرسله الخليفة معاوية إلى واليه على العراق زياد بن أبيه، ذلك أن معاوية اختبر عبيد الله بن زياد، فوجد أنه لم يحفظ شيئاً من الشعر فكتب لأبيه: «ما منعك أن تروِّيه الشعر؟ فو الله إن كان العاقّ ليرويه فيَبَرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل..»[٥].

أما الخليفة عبد الملك بن مروان، فبالإضافة إلى تعريبه الدواوين في خلافته، وتشجيعه علوم اللغة العربية ولا سيما في البصرة والكوفة، فإنه كان يقرِّب الشعراء والفصحاء والخطباء والرواة. كما كان يقيم ولائم باستمرار، ويدعو إليها عدداً كبيراً من رجال الشام ووفود الأمصار الأخرى،

ويتجول بين الموائد ليسأل المدعوين عن الشعر والأدب. وكان يمتحن أبناءه من حين لآخر ويوجه لهم الملاحظات. «فقد جمع بنيه ذات يوم: الوليد ومسلمة وسليمان، فاستقرأهم فقرأوا فأحسنوا، واستنشدهم فأنشدوا فأجادوا لكل شاعر غير الأعشى. فنبههم إلى ضرورة حفظ بعض شعره. وكان أحد مؤدبيهم الذين علّموهم العربية والشعر إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، وهو من الموالي، مما يدل على انتشار العربية وآدابها في صفوفهم. كما كان يطلب من جواريه سماع الشعر وتعلّمه. فبعد أن استمع من عزة الأشعار التي قالها فيها كثيّر، طلب إدخالها على الجواري ليأخذن من أدبها».(٦)

صحيح أن العرب حافظوا في العصر الأموي على الكثير من سمات جاهليتهم، ولا سيما تعلقهم باللغة العربية وآدابها، إلا أن أحوالهم المادية والاجتماعية اختلفت اختلافاً كبيراً. فإلى جانب سكنى المدن، ابتنى الحكام قصوراً ومساكن مريحة في البادية ما تزال آثارها باقية حتى الآن، وشكلوا مجتمعات حضرية متقدمة، تركت أثراً كبيراً في إبداعهم وخصوصاً في الشعر، مما جعله يختلف عن الشعر الجاهلي من نواح عدة أهمها:

١- **خلوه من وحشي الكلام**، وتخلصه من التراكيب الغريبة مع محافظته على بلاغة الجاهلية، وسلامته من الركاكة والعجمة.

٢- **كثرة التشبيب**: كان الشاعر الجاهلي يقول الأبيات تغزلاً في حبيبته، يعبر بذلك عن حبه. وقد يسميها بغير اسمها لئلا يعلم أهلها بتشبيبه فيمنعوه من الزواج بها. ويندر في الجاهليين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته. وقد رأينا أن الشعراء العشاق في الجاهلية يعدّون على الأصابع، فأصبحوا في العصر الأموي أضعاف ذلك، وأكثروا من وصف الحب، وأعراضه، وأحواله.

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى موقفين متعارضين من التشبيب. فقد كان الأمراء والكبراء يغضبون إذا شبب أحد بنسائهم لغلبة طبائع البدو عليهم. وكان العمال يقتدون بالخلفاء أو يعملون بأوامرهم في ذلك. فإن عامل المدينة نفى الأحوص الشاعر لأنه شبب ببعض نسائها.(٧) ولكن المرأة كان يسُرّها أن يشبِّب بها شاعر مشهور، وإن كانت لا ترجو التزوج به. ولكن يسرها ما في التشبيب من إعجاب بجمالها، سواء في ذلك الأميرة وغيرها.

٣- **المهاجاة بين الشعراء**، وقد شكلت تنافساً وتفاخراً بما لدى قبيلة كل شاعر من

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

شجاعة ونجدة أو غلبة.. على غرار النقائض بين جرير والفرزدق.

٤- **المديح**: من المعروف أن الجاهليين نظموا المديح، ولكنهم قلَّ أن كانوا يستجدون بمدحهم، بل كانوا يمدحون شكراً لصنيع. أما في العصر الأموي فأصبح الغرض الأول من المديح التماس العطاء. وربما ساعدهم في ذلك رغبة الخلفاء في المديح، وبذل الأموال في سبيله.

٥- **شعراء السياسة**: اشتغلوا بالدفاع عن الأحزاب التي قام النزاع بينها على السيادة في ذلك العصر، وأكثرهم طبعاً بجانب الأمويين لأنهم أقوى الأحزاب. ويليهم الخوارج والعلويون وغيرهم...

٦- **وصف الخمر**: لم يتقن الشعراء وصف الخمر إلا في العصر العباسي. لكنهم بدأوا ذلك في العصر الأموي على إثر انغماسهم في اللهو في أواخر الدولة. وأول من وصفها في الإسلام الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقد ذكرها في الجاهلية عديّ بن زيد، والأعشى.

٧- **نبوغ الموالي في الشعر**: انتظم في عداد الشعراء طائفة من الموالي وهم المسلمون غير العرب، وفيهم الفرس والروم ممن دخل في حوزة العرب أثناء الفتح ثم أسلموا.

والخلاصة أن الأمويين نشَّطوا دراسات اللغة العربية والآداب الجاهلية ولا سيما الشعر والخطابة، فارتقت في أيامهم، وكثر الشعراء، ونظموا في أبواب كثيرة ولم يصلنا كل ما نظموه، وما وصلنا هو ما سجله الرواة من أهل العصر العباسي.

وحين نأتي إلى العصر العباسي يخيل للبعض أن وضع اللغة العربية وآدابها سيتأثر سلباً باعتماد الخلفاء على الفرس في شؤونهم السياسية والإدارية، على أن الواقع لا يدل على ذلك. فالذين تولوا الخلافة في العصر العباسي الأول كانوا من العلماء. لذلك شجعوا العلم وأجلّوا العلماء والأدباء، وسهلوا نزوحهم إليهم، وأجروا الأرزاق عليهم. فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب إلا يمّم دار السلام ونال جائزة أو هدية.(٨)

ويمكننا أن نقول إن وصول العباسيين إلى الحكم بمساعدة الفرس لم يؤد إلى تراجع التراث العربي التقليدي بل إن الأمر على نقيض ذلك. لقد تعرَّف الموالي خلال قرن كامل على الثقافة العربية ـ الإسلامية. وحين حصل هؤلاء في العصر العباسي على وضع متميز ضمن الجماعة الإسلامية، وضعوا كل إمكاناتهم الفكرية في خدمة الثقافة الناشئة بجميع جوانبها الدينية، واللغوية، والأدبية، والعلمية، والفلسفية، والفنية. ولا أحد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يستطيـع أن يميز اليوم أثـر كل من الموالي والعـرب في ضبط اللغة العربية وتطويرها، وفي إحيـاء الآداب والـتراث العربي القديم عامـة وتطويره. بل لا يستطيـع أحد اليوم أن يتبـين أصل رجـال من أمثـال سيبويه وأبي نواسـ وبشار بن برد وابن المقفع وابن الرومي وغيرهم. لقد ارتبط هؤلاء بالثقافة الناشئة، وتفتحـت عبقرياتهم من خلالها. وعن طريقهم استعـرب الملايين قلباً وقالباً بالرغم من شعوبية بعضهم آنئذ.(٩)

وينبغـي ألا ندهشـ لذلـك إذا تذكرنا موقف الرسول الكـريم من غير العرب من المسلمـين منذ بداية الدعوة. وهناك حديث جرى تناقلـه في تلك الفترة مفاده: أن قيس بـن مطاطية جـاء إلى حلقة فيهـا سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد نصروا هذا الرجل (الرسول ص) فما بال هؤلاء القوم؟ فقام معاذ بن جبل، فأخذ قيس بن مطاطية إلى النبي وأخبره بمقالته. فقام النبي قائماً يجر رداءه حتـى دخل المسجد، ثم نودي أن الصـلاة جامعة، وقال: «يـا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحـد، وليست العربية بأحدكـم من أب ولا أم وإنمـا هي اللسان. فمن تكلّم بالعربية فهو عربي».(١٠)

وفي العصر الأمـوي، سأل الخليفة عبد الملـك بن مروان يوماً رجلاً دخل عليه: أمن العرب أنتَ أم من المـوالي؟ فأجاب الرجل: يا أمير المؤمنـين، إن تكن العربية أباً فلستُ منهـا، وإن تكن لساناً فـإني منها. قال عبد الملك: صدقت.(١١)

وربمـا كان ذلـك سبـب تزايـد أعداد الشعراء في العصر العباسي. فقد كان الشعر محصـوراً في العرب في الجاهلية.. ثم ظهر شعراء من الموالي في العصر الأموي، ولكنهم لم يزيدوا عن عشرين في المئة. أما في العصر العباسي فزادوا على ستين بالمئة.(١٢)

كما حدث في هـذا العصر تطور واضح في الشعر نتيجة انتقال المجتمع من البداوة إلى الحضارة، ومن شظف العيش إلى الرفاه و انتشار التكسب بالشعر. هذا التطور تمثل في الخروج علـى القيود القديمـة، ونشوء معانٍ جديـدة باتساع الخيـال والاقتباس، وانتشار وصـف الرياض والأزهـار، وشعر المجون، ووصف الخمـر والغلمان، والمبالغة في المديـح. وبعض هذه الأبواب كان منه في العصر الماضي، لكنه شكل أبواباً مستقلة في هذا العصر.

وفي الأندلـس، توسع الشعـراء في باب الوصف ربمـا لمخالطتهم الإفرنج. فصاروا يصفون المناظر الطبيعية والأبنية الجميلة، وسائر مظاهر المدنيـة. كما زادوا في أبحر

الشعر ينظمونها أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً[١٣]، وهو ما سمي بالموشحات. وفي العصر العباسي الثاني دخلت الشعر أبواب جديدة أهمها الإخوانيات والعتاب وشكوى الدهر والزهد.

لننتقل الآن إلى وضع المرأة في هذه العصور الزاهرة.

لقد تمتعت سيدات البلاط والأميرات بقسط وافر من الحرية في العصر الأموي. فهذا الشاعر المكي أبو دهبل الجمحي لا يخشى أن يكتب إلى عاتكة بنت معاوية، بل إنه نظم فيها الشعر وتغنى به المغنون. وقد ذكروا عن عمر بن أبي ربيعة أنه كان يتصدى للأميرات في موسم الحج وفي غيره من المناسبات العامة ويقول فيهن الشعر. وأما نظام الحريم وما رافقه من استخدام الخصيان في القصر فلم يعرف حتى أيام الوليد الثاني.. ولعلَّ عادة استخدام الخصيان في البلاط قد نقلت عن البيزنطيين.[١٤]

وما يقال عن دمشق يقال عن مدن الجزيرة العربية. فقد كان يسكن «المدينة» في مطلع عهد بني مروان ألمع نساء ذلك العصر وهي سكينة بنت الحسين وحفيدة الإمام علي. وكانت مكانتها الاجتماعية وعلمها وحبها للشعر والغناء والأدب بصورة عامة وما اتصفت به من حسن ذوق وسرعة خاطر من الأمور التي يسرت لها أن تكون زعيمة بين نساء الحجاز تستشار وتحكَّم في أمور الجمال والأدب.

وكان لسكينة منافسة في الطائف وهي عائشة بنت طلحة. وكانت عند مصعب بن الزبير (أحد أزواجها) لا تستر وجهها من أحد، فعاتبها في ذلك فقالت «إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره».[١٥]

وفي العصر العباسي الأول تمتعت المرأة بحظ من الحرية يعادل حظها لدى الأمويين. ولم تكن حرية المرأة ونفوذها وظهورها في هذا العصر مقصورة على نساء الطبقة العالية كالخيزران زوجة المهدي، وعُلَيّة ابنته، و زبيدة زوجة الرشيد، بل تعدّتها إلى نساء العامة. فكانت هناك فتيات عربيات يخرجن إلى الحرب ويقدن الجيوش وينظمن الشعر ويناظرن الرجال في أسواق الأدب، ولطالما ازدهرت المجالس بمواهبهن الأدبية والموسيقية.

ولكن ما كاد البويهيون يبسطون نفوذهم في أواخر القرن العاشر الميلادي حتى حُدّت حرية المرأة وعُزلت عن الرجال وأُحكم عليها الحجاب.

وفي حقبة الانحطاط السياسي، تدنت

مكانة المرأة إلى الدرك الذي تصفه «ألف ليلة وليلة».

وفي الأندلس أظهرت النساء العربيات ميلاً خاصاً للشعر والأدب، فقد خص «المقري» جانباً كبيراً من كتابه «نفح الطيب» بالنساء الشهيرات في الأندلس.

ومن هؤلاء ولّادة بنت المستكفي (توفيت ١٠٧٨)، وكانت أديبة شاعرة على غاية ما يكون الظرف وحسن المنظر، يتهالك أفراد الشعب والكتّاب على حلاوة معشرها. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار ذلك العصر.[١٦]

ولننتقل الآن إلى الشاعرات اللواتي احتفظت لهن كتب الأدب والتاريخ ببعض الأخبار والأشعار. ومرجعنا في ذلك كتاب: بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام.

وقد تحدثنا في بحث سابق عن شاعرات الجاهلية، ونتناول في هذا البحث شاعرات الإسلام، اللواتي جمع المؤلف أخبارهن وأشعارهن من ثمانية وثلاثين مرجعاً قديماً ذكرها في الصفحة الأخيرة من كتابه.

يبلغ عدد هؤلاء الشاعرات سبعاً وتسعين شاعرة، يتوزعن على العصرين الأموي والعباسي، وعلى المشرق العربي والأندلس. وفيهن بعض الجواري، ذلك أن فئة من الجواري كانت تنال في تلك العصور حظاً من العلم والأدب والفن يفوق ما تناله معظم الحرائر. لذلك ليس من المستغرب أن يبرعن في نظم الشعر. ولنذكر بهذه المناسبة جارية الخليفة الأندلسي المعتمد ابن عباد. التي لقيها حين خرج هو ووزيره ابن عمار. وكلاهما أديبان شاعران. إلى برج الفضة على ضفة الوادي الكبير، وهو مكان بهيج يجتمع فيه الرجال والنساء للنزهة. فبينما كان المعتمد عشية على ضفة الوادي إذ هبت ريح على الماء فزردته، فقال لابن عمار: أجز

نَسَجَ الريحُ على الماء زَرَدْ

فتلكأ ابن عمار، وكان على النهر امرأة بمقربة منهما، فبدرته وقالت:

أيُّ دِرعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فتعجب ابن عباد لحسن ما أتت به. ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة، ولم تكن ذات زوج، فتزوجها واشتهرت باسم اعتماد الرميكية، وأصبحت ملكة.[١٧]

أما الموضوعات أو الأغراض التي تناولتها الشاعرات في هذه العصور فهي شديدة التنوع؛ كما أن توزعها يختلف أشد الاختلاف عما رأيناه لدى الجاهليات. ونذكر بأن رثاء الزوج أو الأب أو الابن أو القوم كان الموضوع الأول آنذاك، مع تحريض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الأخذ بالثـأر من القاتل، وتعيير للذين يقبلون بالدية ويتخاذلـون عنه. ويأتي معه الفخر بالقبيلة وبفوارسها الشجعان، ورفض الـزواج من أجنبي أو سيـد قبلي خوفاً من بطشـه أو طمعاً في ماله. أما المرتبة الثانية فقـد كان يشغلها الحنـين إلى الديار، يليها الحب والغزل والحكمة.

ومع دخول عصور الازدهار يقفز الحب والعلاقـات بين الجنسـين إلى المقام الأول، وتـبرز أشـكال عديدة مـن العلاقات تشير إلى اغتنائها وتنوعهـا واتخاذ المرأة مواقف شخصية إزاءها.

وبعـد الحـب والتشبيب يأتـي وصف الطبيعة، والحنين إلى الديار والمديح والزهد، وترقيص الأطفال. لذلك ستكون بدايتنا مع أشعار الحب وتنويعاتها.

ونبدأ هذه الأشعـار بليلى الأخيلية (ت ٨٠هـ/ ٧٠٤م)، وهي أقـرب شاعراتنا إلى عصـر الجاهليـة. كانت جميلـة فصيحة مقدمـة بين شاعـرات العصـر الإسلامي الأمـوي وشعرائه، حافظـة لأنساب العرب وأيامها وأشعارها. وقد اشتهرت بحب توبة بن الحُمَـيِّر الخفاجي. عشقهـا توبة وقال فيها الشعر، فخطبها إلى أبيها، إلا أن أباها أبى أن يزوجه إياها وزوَّجَها في قبيلة أخرى. وكان كثير الغـارات فقتل في إحدى غاراته.

وفي هـذه الحالة يجتمع في غـزل الشاعرة رِثاء الحبيـب، والإشـارة بخصاله، وتعيير رفاقه لفرارهـم عنه خلال الغارة التي قُتل فيها. ومن أخبارها وأشعارها:

أن ليلى وفدت علـى معاوية، فمدحته، فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: ويحك يا ليلى، أكما يقول الناس كان توبة؟ فقالت: يا أمـير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقاً، الناس شجـرةُ بغي، يحسـدون النعم حيث كانـت، وعلى من كانـت. كان توبـة سبطَ البنان، حديدَ اللسان، شجيٌّ للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر. كان كما قلتُ ولم أبعد عن الحق فيه:

بعيدُ المدى لا يبلغُ القومُ قعرَهُ
ألدُّ مُلِدّ يغلبُ الحقَّ باطلُهْ
إذا حَـلَّ ركـبٌ في ذراه وظلِّـهِ
ليمنَعَهُم مما تُخاف نَـوازِلُـهْ
حماهُمْ بنصلِ السيفِ من كلِّ فادِحِ
يخافونَهُ حتى تموتَ خصائلُهْ

ولم تغادر الخليفة إلا بعد أن ألقت أمامه عدة مقطوعات في رثاء توبة ومديحه والدفاع عنـه. وفيما بعد وردت ليلى على مروان بن الحكم وعلى عبد الملـك بن مروان وزوجته عاتكـة وعلـى الحجاج. ولها مـع الحجاج أخبار كثيرة، وكانـت تمدحه وتنال جوائزه. وذات مـرة أراد الحجـاج أن يداعبها فقال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لها: «إن شبابك قد ذهب وأضمحل أمرك وأمر توبة، فأقسم عليك ألا صدقتني: هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك؟» فقالت: «لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي لليلة وقد خلونا كلمة ظننتُ أنه قد خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها
فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَهُ
وأنتَ لأخرى صاحبٌ وخليلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرّق بيننا». قال الحجاج: «فما كان منه بعد ذلك؟» قالت: «وجَّه صاحباً له إلى حاضرنا» فقال «إذا أتيتَ الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعل شرفاً، ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة
من الدهر لا يسري إليَّ خيالُها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقالت له:

وعنه عفا ربّي وأحسن حِفْظَهُ
عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها»

كانت تلك أيام الحب العذري، أيام مجنون ليلى، وجميل بثينة، وكثيّر عَزَّة... أيام عفراء بنت عقال العُذرية، التي نشأت مع ابن عمها عروة بن حزام العذري في بيتٍ واحد، وخطبها فأغلت أمها المهر وزُوِّجت لغيره ورحلت إلى بلقاء الشام. زارها فأكرمه زوجها، وما إن رحل عنها حتى أضناه الحب وفارق الحياة. وما لبثت أن زارت قبره فماتت ودفنت إلى جانبه نحو سنة ٥٠هـ. ومما رثت به عروة هذه الأبيات:

ألا أيها الركبُ المجدّون وَيْحَكُمْ
بحقِ نعيتُمْ عُروَة بنَ حزامِ؟
فإن كان حقاً ما تَقولون فاعلموا
بأن قد نعيتمْ بدرَ كلِّ ظلامِ
فلا تهنئِ الفتيانَ بعدَكَ لَذَّةٌ
ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ..

وليلى العامرية صاحبة قيس بن الملوَّح الملقب بالمجنون. هام بها قيس وحُرم الزواجَ منها، ومات في البّرية شريداً. وقد بادلته حباً بحب وحُمِلتْ على الزواج من غَيره. توفيت على إثره حوالي عام ٦٨هـ. وكل ما وصل إلينا من شعر ليلى العامرية يتحدث عن حبها لقيس أو يجيب عن بعض رسائله. ومنه:

لم يكنِ المجنون في حالةٍ
إلا وكنتُ بها كما كانا
لكنهُ باحَ بسرِّ الهوى
وإنني قد ذُبتُ كِتمانا

ومنه:

نفسي فِداؤكَ لوْ نفسي ملكتُ إذنْ
ما كان غيرُك يُجزيها ويُرضيها

صبراً على ما قضاهُ اللهُ فيك على
مرارةٍ في اصطباري عنكَ أخفيها

وتلك أيام «الزوجة التي تعرف واجبها» إزاء زوجها، وتقول له:

قُصارُكَ مني النُّصْحُ ما دمتُ حيَّةً
وودٌّ كماءِ المُزْنِ غيرُ مَشوبِ
وآخِرُ شيءٍ أنتَ لي عندَ مَرْقَدي
وأوَّلُ شيءٍ أنتَ عندَ هُبوبي

وهو أحسن ما قيل في واجب الزوجة حتى اليوم على ما أرى.

وتتلوّن العلاقات بين المرأة والرجل عند شاعرات أخريات، وفي أزمنة لاحقة، فتعبِّر عنها المرأة بمنتهى الصراحة، من المغامرة، إلى الكره والذم، إلى التململ من سوء المعاملة...

ونبدأ بِستيرة العُصَيْبِيَّة التي قالت في مغامرة حب:

بِتْنا بأطيبِ ليلةٍ وألذِّها
يا ليتها وُصِلتْ لنا بليالِ
حتى إذا ما الليلُ أشغلَ لونَه
بالصبح أو أودى على الإشغالِ
نادى منادٍ بالصلاةِ فراعَنا
ومضى جَميعُ الليلِ غيرَ توالِ
فنهضْنَ من حذرِ العيونِ هوارياً
نَهْضَ الهِجانِ بدكدكٍ مُنْهالِ...

وأم حمادة الهمذانية التي قالت تُصوِّر الحب على لسانٍ عاشق ومعشوقته:

شكوتُ إليها الحبَّ قالت كذبتني
ألستُ أرى الأجلادِ منكَ كواسيا
رُوَيدكَ حتى يبتلي الشوقُ والهوى
عظامَكَ حتى يرتجِفْنَ بَواديا
ويأخذَكَ الوسواسُ من لوعةِ الهوى
وتخرسَ حتى لا تُجيبَ المُناديا

وأم ضيغم البَلَوِيَّة، واسمها خِيَرة، وكنيتها البَلَوِيَّة نسبة إلى بَلِيّ وهو جد جاهلي يماني من قضاعة من حِمْيَر، عشقت ابن عم لها فدرى أهلها بالأمر فحجبوها عنه، ولكنها كانت تلتقي به حيناً وآخر، وحفظت عهده إلى الممات. ومن قولها في وصف ليلة لقاء:

وَبِتْنا خلافَ الحيِّ لا نحنُ منهُمُ
ولا نحن بالأعداءِ مختلطانِ
وبتنا يقينا ساقطَ الطلِّ والندى
من الليلِ بُردا يَمْنَةٍ عَطِرانِ
نذوْد بذكرِ اللهِ عنا من الصِّبا
إذا كان قلبانا بها يَجِفانِ
ونصدرُ عن أمرِ العفافِ ورُبَّما
نَقَعْنا غليلَ النفسِ بالرَّشَفَانِ

وشقراء بنة الحُباب، التي تعلقت بشخص اسمه يحيى بن حمزة، وراحت تعلن عن حبها له على الرغم من أنها ضُربت وعانت الكثير. فمما قالت في حبها ليحيى:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محا حُبُ يحيى حبَ بعلي فأصبحتُ
ليحيى توالي حُبِنا وأوائلُه
ألا بأبي يحيى ومثنى ردائِهِ
وحيثُ التقت من متن يحيى حمائِلُهْ

وقالت تخاطب زوجها عمراً الذي ضربها بالسَّوط غيرةً:

أقولُ لعمروٍ والسياطُ تلفُني
لَهُنَّ على مَتْنيَّ مِنهُ دليلُ
لتشهدَ أيا غيرانُ أني أحبُّهُ
بسوطك لم أُقْلع وأنت ذليلُ...

وننتقل إلى هند الهمدانية، وقصتها تستغرب حتى في أيامنا. فقد كان زوجها عثمان في بعث أذربيجان، فرجع الجند ولم يرجع هو لأنه استفاد من جهاده ذاك ما اشترى به فرساً وجارية وسمى الفرس وَرْداً والجارية حُبابة، وألهاه الحب عن العودة. فكتب إلى امرأته يخبرها عن أمره فكتبت إليه شعراً:

لعمري لئن شَطَّتْ بعثمانَ دارُه
وأضحى غنياً بالحُبابة والوَردِ
ألا فاقرِهِ مني السلامَ وقلْ لهُ
غَنينا بفتيانٍ غطارفةٍ مُرْدِ
إذا شاء منهم ناشئٌ مدَّ كفَّهُ
إلى كَفَلٍ ريَّانَ أو... نَهْدِ
بحمد أمير المؤمنين أقرَّهم
شباباً وأغزاكم خوالفَ في الجُندِ
فما كنتمُ تقضون حاجةَ أهلكم
قريباً فيقضوها على النأي والبُعْدِ
فأرسل إلينا بالسَّراح فإنه
مُنانا، ولا ندعو لك الله بالرُّشْدِ..

فباع الجارية، وذهب مسرعاً فوجدها معتكفة على السجود والصلاة، فقال: يا هند أفعلتِ ما قلتِ؟ قالت: الله أجلُّ في عيني وأعظم من أن أركبَ مأثماً. ولكن كيف وجدت طعم الغيرة؟! فإنك غِظتني فغظتُكَ.

إنها لجرأة ما بعدها جرأة، وإن دلت على شيء فإنها تدل على أن نساء ذلك العصر لم يكن مستضعفات، بل كنّ يطالبن بحقوقهن، وبتلبية رغباتهن.

ومنهن فتاة عجلية كانت تحب ابن عم لها، وكان قد توجه إلى حرب الأزارقة مع المهلب، فكتبت إليه تستزيره، فاعتذر إليها بخوفه من عقوبة الأمير، فردّت عليه:

ليس المُحِبُ الذي يخشى العقابَ ولو
كانت عقوبتهُ في ألفهِ النارُ
بل المحبُّ الذي لا شيء يمنعه
أو تستقرُ ومن يهوى به الدارُ

فارتحل إليها تاركاً وظيفته، ثم عاد فاعتذر إلى الأمير بما كان فعفا عنه. وهناك امرأة زوجوها بابن عمها الشيخ، فقالت:

أيا عجباً للخوْدِ يجري وشاحها
تُزَفُّ إلى شيخٍ من القوم تِنبال
دعاها إليه أنه ذو قرابةٍ
فويلَ الغواني من بني العم والخالِ

وهناك امرأة مُبغضة، قالت تذم زوجها:

من عَذيري من بعلِ سوءٍ يراني
وأراه بأعين البغضاءِ
تتهادى منّا الضمائرُ وَحياً
بِقِلىً يستكِنُّ في الأحشاءِ
غاضَ مكنونُ ما عليه احتوينا
في قلوبٍ إلى الفراقِ ظِماءِ

حتى إن سلمى بنت القراطيسي، وكانت مشهورة بجمالها، قالت هذه الأبيات تزهى وتعتد بجمالها:

عيونُ مها الصريمِ فداءُ عيني
وأجيادُ الظباء فداءُ جيدي
أُزَيَّنُ بالعقودِ وإن نحري
لأزينُ للعقودِ من العقودِ
ولا أشكو من الأوصابِ ثِقلاً
وتشكو قامتي ثِقَلُ النهودِ

ولا يُعرف ما إذا كانت تريد بذلك إثارة غيرة النساء، أم اهتمام الرجال.

وكما اشتهرت شاعرات المشرق بالحب والغزل، اشتهرت شاعرات من الأندلس بهما في فترة لاحقة. نذكر منهن:

حفصة بنت الحاج الركونية، وهي شاعرة متفوقة في الأدب والظرف والحُسن وسرعة الخاطر بالشعر، من أهل غرناطة، توفيت في مراكش سنة ٥٨٦هـ. وقد كتبت إلى فتىً اشتهرتْ به:

أزورُك أم تزورُ فإن قلبي
إلى ما تشتهي أبداً يميلُ
فثَغري موردٌ عذبٌ زلالٌ
وفرعُ ذؤابتي ظلٌّ ظليلُ
وقد أمَلتُ أن تَظما وتُضحي
إذا وافى إليكَ بِيَ المقيلُ
فعجِّلْ بالجوابِ فما جميلٌ
إباؤكَ عن بثينةَ يا جميلُ

وقالت في الثنايا من أسنان الحبيب:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني
أقول على عِلمٍ وأنطقُ عن خُبْرِ
وأنصفها لا أكذِبُ الله إنني
رشفتُ بها ريقاً أرقّ من الخمرِ

ونزهون الغرناطية، وهي شاعرة أديبة خفيفة الروح ت ٥٥٠هـ. قالت في ليلة وصل:

لله درُّ الليالي ما أُحَيسنها
وما أُحَيسنَ منها ليلة الأحدِ
لو كنت حاضِرنا فيها وقد غَفَلتْ
عينُ الرقيبِ فلم تنظر إلى أحدِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبصرتَ شمسَ ضُحىً في ساعِديْ قمرٍ
بل ريمَ خازمةٍ في ساعديْ أسَدِ

وعاتبها الوزير أبو بكر بن سعيد شعراً فأجابته بشعر:

حَلَلْتَ أبا بكرٍ محلاً منعتُهُ
سواكَ وهل غير الحبيب له صَدري
وإن كان لي كم من حبيبٍ فإنما
يُقَدِّم أهلُ الحق حبَّ أبي بكرِ

هذه بعض الأشعار التي جاءت على لسان نساءٍ عادياتٍ في الحب. ولكن هناك أشعاراً جاءت على لسانِ الأميرات في بغداد والأندلس أيضاً، وأشهرهن عُلَيّة بنت المهدي، أخت هرون الرشيد. وهي شاعرة تحسن صناعة الغناء، وكان أخوها إبراهيم بن المهدي يأخذ الغناء عنها.. وأشيع أنها كانت على علاقة مع جعفر بن يحيى البرمكي وزير أخيها، مما لم يثبت قطعاً. (ولدت ١٦٠هـ. توفيت ٢١٦هـ).

لها أشعار في مناسبات كثيرة. ومن قولها في (طَلّ) وهو غلام علقت به:

أيا سَرْوَةَ البُستانِ طال تَشَوُّقي
فهل لي إلى (طَلٍّ) لَدَيكِ سبيلُ؟
متى يلتقي مَنْ ليس يُقضى خروجُهُ
وليس لِمن يهوى إليه دُخولُ
عسى الله أن نرتاحَ من كُربةٍ لنا
فيلقى اغتباطاً خُلَّةٌ وخليلُ

وقالت في العَذْل والحبّ:

يا عاذلي قد كنتُ قبلَكَ عاذِلاً
حتى ابتُليتُ فصرتُ صبّاً ذاهِلا
الحبُّ أولَ ما يكونُ مَجانةً
فإذا تحكَّمَ صار شغلاً شاغِلا
أرضى فيغضبُ قاتلي فتعجبوا
يرضى القتيلُ ولا يُرَضّي القاتلا

وولادة بنت المستكفي (توفيت في قرطبة عام ٤٨٤هـ)، وقد جاء ذكرها في المقدمة. واشتهرت بالوزير الشاعر ابن زيدون.

قالت تعد ابن زيدون بزيارة وتشرح هواها:

تَرَقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي
فإني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسِرِّ
وبي منكَ ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ
وبالبدرِ لم يطلُعْ وبالنجم لَم يَسْرِ

ولكن أجمل شعرها في الغزل ما قالته وهي تُشَيِّع بخطاها ابن زيدون:

ودَعَ الصبرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ
ذائعٌ من سِرِّهِ ما استودَعَكْ
يَقْرَعُ السِنَّ على أن لم يكن
زادَ في تلك الخطا إذ شَيَّعَكْ
يا أخا البدرِ سناءً وسنىً
حفِظَ الله زماناً أطلعَكْ
إن يَطُلْ بعدَكَ ليلي فَلَكَمْ
بِتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقد كانت حياة القصور ملأى بمجالس الأدب والشعر والغناء والموسيقا، كما كانت ملأى بقصص اللهو والمجون. ومن الطبيعي أن يكون للنساء حظهن من هذه وتلك.

ما نستخلصه هنا أن عصور الازدهار في الثقافة العربية كانت عصور ازدهار للمرأة. كما يتجلى عند شاعراتنا.

كانت المرأة فيها تشعر بالندّية مع الرجال، تقبل وترفض، وتسائل وتعتب، وتملك قرارها.

ولا نستطيع هنا إلا أن نتوقف عند أخبار بثينة بنت المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية. لقد كان أبوها فصيحاً شاعراً وكاتباً تطاحن في معارك عدة مع الإسبان للحفاظ على ملكه وقُتل بعض أولاده. طمع فيه يوسف بن تاشفين فأسره وأقتاده إلى أغمات في مرّاكش وهناك مات بعد أن شُرِّدت أسرته ومنها بثينة بنت إحدى أغلى زوجاته الملقبة بالرميكية (توفي المعتمد سنة ٤٨٨هـ). وقد سبيت بثينة فاشتراها تاجر ووهبها لابنه على أنها جارية، فأعلنت اسمها ونسبها وقالت: لا أحِلّ لك إلا بعقدٍ يجيزه أبي. وكتبت إلى أبيها كتاباً تستشيره فأذن لها بالزواجِ. ومما قالت:

.. لما أراد الله فرقةَ شملنا
وأذاقنا طعم الأسى من زادِ

قام النفاقُ على أبي في مُلكِه
فَدَنا الفِراقُ ولم يكُنْ بمرادي

فخرجتُ هاربةً فأعجلني امروٌ
لم يأتِ في إعجالِه بسدادِ

إذْ باعَني بيعَ العبيدِ فضَمَّني
مَنْ صانَني إلا من الإنكادِ

وأرادَني لنكاحِ نجلِ طاهرٍ
حسنِ الخلائقِ من بني الأنجادِ

ومضى إليكَ يسوم رأيَك في الرِّضا
ولأنتَ تنظرُ في طريقِ رشادي

فعساكَ يا أبتي تعرِّفني بهِ
إن كان ممن يُرتجى لودادِ

وعسى رُمَيكيةُ الملوكِ بفضلِها
تدعو لنا باليُمنِ والإسعادِ

هناك موضوع آخر أجادت فيه الشاعرات العربيات ألا وهو الحنين إلى الديار والوصف. ذلك أن الحنين يرافقه دوماً وصف للديار المحبوبة يسوِّغ تفضيلها على مكان السكن الجديد. كما فعلت ميسون بنت بحدل، زوجة معاوية بن أبي سفيان وأم ابنه يزيد في تشوقها إلى البادية:

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه
أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ

وبَكرٌ يتبع الأظعانَ سقباً
أحبُّ إليَّ من بَغلٍ زفوفِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكلبٌ ينبحُ الطُّرّاقَ دوني
أحبُّ إليَّ من قطٍ أليفِ
ولُبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني
أحبُّ إليَّ من لُبسِ الشفوفِ...

وكما فعلت فتاة يمانية أعرابية تزوّجت من رجل فحملها بعيداً عن موطنها، فقالت تتشوق:

ألا أيها الركبُ اليمانون عرِّجوا
علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نُسائلكمُ هل سال نَعمان بعدنا
وحُبَّ إلينا بطن نَعمانَ واديا
فإن به ظِلاًّ ظليلاً ومشرباً
به نُقِعَ القلبُ الذي كان صاديا

ولكن الوصف قد يأتي مستقلاً، ولاسيما وصف الطبيعة الجميلة أينما كانت. فهذه دنانير (وهي غير دنانير المغنية)، وهي جارية وُلِدت بالكوفة وتوفيت نحو ٢٠٥هـ تصف برّية حول قصر الخورنق على شاطئ الفرات، بقولها:

بـرّيةٌ في البحر نابتةٌ
يُجبى إليها البرُّ والبحرُ
وسرى الفرات على مياسرها
وجرى على أيمانها النهرُ
وبدا الخَوَرنَقُ في مطالعها
فرداً يلوحُ كأنه الفجرُ...

ولكن أجمل وصف رأيناه هو وصف حمدة أو حمدونة الأندلسية لوادٍ يجري فيه نهر:

وَقانا لفحةَ الرمضاءِ وادِ
سقاهُ مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ
حَلَلنا دوحَهُ فحنا علينا
حنوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأٍ زُلالاً
ألَذُّ من المُدامةِ للنديمِ
يصدُّ الشمسَ أنّى واجهتنا
فيحجُبُها ويأذنُ للنسيمِ
يَروعُ حصاهُ حاليةَ العذارى
فتلمسُ جانبَ العِقدِ النَّظيمِ

ولنَرَ ما قالت الشاعراتُ في المديح. وقد يتساءل البعض: وهل هناك شعر لهن في المديح، فأقول نعم. لقد انتقلت عدوى المديح إلى النساء. وربما بدأت بهن في هذه العصور. فهذه ليلى الأخيلية. وهي من أوائل الشاعرات. فقد توفيت سنة ثمانين للهجرة، كما ذكرنا فيما سبق.

ومن أخبارها أنه بينما معاوية يسير إذ رأى راكباً، فقال لبعض شرطه ائتني به وإياك أن تروّعه فأتاه، فقال أجب أمير المؤمنين، فقال: إيّاه أردت، فلما دنا الراكب حدر لثامَه فإذا ليلى الأخيلية، فأنشأت تقول:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معاويَ لم أكد آتيكَ تَهوي
بِرَحْلي نحو ساحتكَ الركابُ
تجوبُ الأرضَ نحوَكَ ما تأنّى
إذا ما الأكْمُ قنّعها السَّرابُ
وكنتَ المُرتجى وبك استعاذتْ
لتُنعِشَها إذا بَخِل السَّحابُ

فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلب إلى مثلكَ حاجةً، فتخيّرْ أنت فأعطاها خمسين من الإبل.

كما قدمت ليلى على الحجاج بن يوسف وعنده وجوه أصحابه وأشرافهم. فلما دنت سلّمت. فقال لها الحجاج: ما أتى بك يا ليلى؟ قالت: إخلافُ النجوم، وقلّة الغيوم، وكلَب البرد، وشدة الجهد، وكنتَ لنا بعد الله الرِّفد. ثم قالت: أتأذن أيها الأمير؟ قال: نعم، فأنشدته:

أحجّاجُ إن الله أعطاكَ غايةً
يُقصِّرُ عنها من أراد مداها
أحجّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنما
المنايا بكفّ الله حيثُ تراها
إذا وَرَدَ الحجاجُ أرضاً مريضةً
تَتَبَّعَ أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضالِ الذي بها
غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها...

ولما قالت (غلامٌ إذا هز القناة) قال لها الحجاج: لا تقولي غلام ولكن قولي همام.

كما وردت على مروان بن الحكم، وعلى عبد الملك بن مروان وغيرهم.

على أنها ليست الوحيدة. فهناك حجناء بنت نُصَيْب الأصغر، مولى المهدي، وكان شاعراً مجيداً، أعتقه المهدي أو ابنُه موسى الهادي. وله فيهما مدائح وفي بني العباس. وكذلك ابنته الحجناء. دخلت مع أبيها على المهدي (بعيسى باز) فأنشدته قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات:

.. فبقصر السلام من سلّم الله
وأبقى، خليفةُ الرحمنِ
ولديه الغِزلانُ بل هن أبهى
عنده من شواردِ الغزلانِ
يا له منظراً ويومَ سرورِ
شهدتْ لذّتيه كُلُّ حَصانِ

فأمر المهدي لها بعشرة آلاف درهم ولأبيها بمثلها.

وهناك حالة أتت فيها بنت أسلم البكري (وهي طفلة) مع أبيها الذي قبض عليه الحجاج وأراد قتله. فأنشدته أبياتاً تدافع فيها عن أبيها الذي يعيل أربعاً وعشرين امرأة، وهي:

أحجّاجُ لم تشهدْ مقام بناتِه
وعمّاته يندُبنهُ الليل أجمَعا
أحجاجُ لم تَقتُلْ به إن قَتَلْتَهُ
ثماني وعشراً واثنتين وأربعا

أحـجـاجُ مـن هـذا يـقـومُ مـقـامَـهُ
علينا فمهلاً لا تـزدْنـا تَضَعْضُعا
أحـجَـاج إمـا أن تجـود بنعمةٍ
عـلـيـنـا، وإمـا أنْ تُـقَـتُّـلـنـا معا

فرَقَّ لهـا الحجاج وبكى، وكتب إلى عبد الملك يخبره بأمرهـم، وطلب منه أن يُحْسِنَ صلتهم، ويعفو عن الرجل.

وهناك حالـة حسّانـة وأبوها الحسين التميمي، الذي كان شاعراً في بلاط الحكم ابـن ناصر الأندلسي. فلما مات عنها أبوها استوصـى بها الحكـم، ووظّف لهـا عطاءً كريماً. وقد كتبت بعد موت أبيها إلى الحكم وإلى ابنه الخليفة عبد الرحمن تشكو عامله الذي لم يردّ لهـا أملاكها، ثم شكرته بأبيات أخرى لرفع ظلامتها. ومن قولها فيه:

ابـن الهشامـيِّن خيرُ الناسِ مـأثـرةً
وخـيـرُ مـنـتـجـعٍ يـومـاً لِـرُوّادِ..
قـل لـلإمـام أيـا خـيرَ الـورى نسباً
مـقـابـلاً بـين آبـاءٍ وأجـدادِ
جوّدتَ طبعي ولم ترضَ الظلامةَ لي
فـهـاك فـضـلَ ثـنـاءٍ رائـحٍ غـادِ
فـإن أقـمـتُ ففـي نعماكَ عاكفةً
وإن رحـلـتُ فـقـد زودتـنـي زادي

ولكن هذه الحـالات قليلة، وهي ترتبط بمناسبات خاصـة لذلك لا يمكننا تعميمها علـى الشاعـرات، كمـا هو الحـال عند الشعراء.

تبقى لدينا حالات خاصة قليلة في ترقيص الأطفال، وحالة واحدة في النسك والتصوف وهـي حالة رابعة بنت إسماعيل العدوية، وهي من البصرة، وتوفيت بالقدس ١٨٥هـ. ومن شعرها قولها في الذات الإلهية:

حـبـيـبٌ لـيـس يـعـدِلُـه حـبـيـبٌ
ومـا لِـسـواه في قـلـبـي نـصـيـبٌ
حـبـيـبٌ غـاب عـن بـصـري وشخصي
ولـكـن عـن فـؤادي مـا يـغـيـبُ

ومنه الأبيات المتداولة:

أحـبـكَ حُـبَّـين، حُـبُّ الـهـوى
وحُـبّـاً لأنـك أهـلٌ لـذاكـا
فـأمـا الـذي هـو حُـبُّ الـهـوى
فشُغلي بـذكـرك عَـمَّـن سـواكـا
وأمـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لَـهُ
فكَشْفُكَ لي الحجْبَ حتى أراكـا...

خاتمة:

عـزّزت شاعـرات العـرب في عصـور الازدهـار الإسلاميـة في دمشـق، وبغداد، والأندلـس، مكانتهـن الجاهليـة. لقد قلن الشعـر في أغراض عديـدة، ولا سيما في الحب وعلاقة المـرأة بالرجل، والحنين إلى الديـار والوصف؛ وتناولت بعضهن ترقيص الأطفـال، والمديح، والتنسـك. أما موضوع

الأخذ بالثأر، والتحريض عليه، وتعيير من يتقاعس عنه قانعاً بالدية، فقد غاب كلياً في الأشعار التي بين أيدينا. وربما كان لتنظيم القضاء، وتعيين من يتولاه في جميع الأمصار، ومنذ بداية الإسلام، أثر في ذلك.

وأما موضوع الهجاء الذي شغل بعض الشعراء فلم نجد له ذكراً في مرجعنا. وربما آثر المؤلف عدم إدراجه في اختياراته.

الهوامش

١- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ترجمة معاذ بن جبل، عن: د. ملكة أبيض (١٩٨٠م)، الثقافة والتربية العربية. الإسلامية في الشام والجزيرة، بيروت: دار العلم للملايين.
٢- فيليب حتي وآخرون(١٩٩٤م). تاريخ العرب، ط٩، بيروت: دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.
٣- ابن عبد ربه (١٩٥٣م). العقد الفريد، ج٦، ص٢، القاهرة، مطبعة الاستقامة.
٤- جرجي زيدان (١٩٥٧م). تاريخ آداب اللغة العربية، ج١، القاهرة: دار الهلال.
٥- ابن عساكر، ترجمة عبيد الله بن زياد، عن: د. ملكة أبيض، مرجع سابق.
٦- المرجع نفسه.
٧- جرجي زيدان، ج١، مرجع سابق.
٨- المرجع نفسه، ج٢.
٩- د. ملكة أبيض (١٩٨٠م). الثقافة والتربية العربية. الإسلامية في الشام والجزيرة، بيروت: دار العلم للملايين.
١٠- ابن عساكر، ترجمة سلمان الفارسي، عن د. ملكة أبيض، مرجع سابق.
١١- ابن عساكر، ترجمة عبد الملك بن مروان، عن د. ملكة أبيض، مرجع سابق.
١٢- جرجي زيدان، ج٢، مرجع سابق.
١٣- جرجي زيدان، ج٢، مرجع سابق.
١٤- جرجي زيدان، ج٢، المرجع نفسه.
١٥- فيليب حتي وآخرون، مرجع سابق.
١٦- المرجع نفسه.
١٧- المرجع نفسه.
جميع أخبار الشاعرات وأشعارهن من:
بشير يموت (١٩٩٨م). شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق وتنقيح وشرح عبد القادر محمد مايو، حلب: دار القلم العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اقتصاديات نظم المعلومات
نهج جديد في مسار التنمية

د. محمد سعيد الحلبي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولاً - الخصائص الرئيسية لمجتمع المعلومات:

إن المعلومات مورد أساسي في أي نشاط بشري، والمعلومات عنصر مهم في علاقة الإنسان بمجتمعه وعلاقة المجتمعات بعضها ببعض من النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية... علماً أن هناك ثلاث خصائص رئيسية أساسية تتحكّم في مجتمع المعلومات هي:

* مستشار وباحث في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي.

١- **الخاصية الأولى:** استخدام المعلومات كمورد اقتصادي حيث تعمل المؤسسات والشركات على استغلال المعلومات والانتفاع بها في زيادة كفاءتها وهناك اتجاه متزايد نحو شركات المعلومات لتعمل على تحسين الاقتصاد الكلي للدولة.

٢- **الخاصية الثانية:** هي الاستخدام المتناهي للمعلومات بين الجمهور العام. الناس يستخدمون المعلومات بشكل مكثّف في أنشطتهم كمستهلكين وهم يستخدمون المعلومات أيضاً كمواطنين لممارسة حقوقهم ومسؤولياتهم، فضلاً عن إنشاء نظم المعلومات التي توسع من إتاحة التعليم والثقافة أفراد المجتمع كافة. وبهذا فإن المعلومات عنصر لا غنى عنه في الحياة اليومية لأي فرد.

٣- **الخاصية الثالثة:** هي ظهور قطاع المعلومات، كقطاع مهم من قطاعات الاقتصاد. إذ كان الاقتصاديون يقسمون النشاط الاقتصادي تقليدياً إلى ثلاثة قطاعات هي: الزراعة وهو ما كان يعرف بالمجتمع الزراعي المعتمد على الموارد الأولية الصناعة وهو كان يُعرف بالمجتمع الصناعي المعتمد على الطاقة المولدة مثل: الكهرباء، الغاز والطاقة النووية، ثم الخدمات. علماء الاقتصاد والمعلومات يُضيفون إليها منذ الستينيات من القرن الماضي قطاعاً رابعاً وهو قطاع المعلومات، حيث أصبح إنتاج المعلومات، وتجهيزها وتوزيعها (معالجتها) نشاطاً اقتصادياً رئيسياً في الكثير من الدول.

هناك تحوّل جوهري من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلومات في أكثر أشكالها اتساعاً وتنوعاً، وهي القوة الدافعة والمسيطرة.

والبعض يقول إن مجتمع المعلومات هو المجتمع الذي تستخدم فيه المعلومات بكثافة كوجه للحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية...

كما أن مجتمع المعلومات يعتمد في تطوره بصفة رئيسية على المعلومات والحاسبات الآلية وشبكات الاتصال، أي إنه يعتمد على التكنولوجيا الفكرية تلك التي تضم سلعاً وخدمات جديدة مع التزايد المستمر للقوة العاملة المعلوماتية التي تقوم بإنتاج وتجهيز ومعالجة ونشر وتوزيع وتسويق هذه السلع والخدمات.

هذا ويمكن القول بأن مجتمع المعلومات هو المجتمع الذي يعتمد اعتماداً أساسياً على المعلومات الوفيرة كمورد استثماري وكسلعة استراتيجية، وكخدمة، وكمصدر للدخل القومي وكمجال للقوى العاملة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد قدّر الاتحاد الدولي للاتصالات بعيدة المدى: أن قطاع المعلومات قد نما على المستوى العالمي في عام ١٩٩٤ بمعدل أكثر من ٥٪، بينما كان نمو الاقتصاد العالمي بصفة عامة بمعدل أقل من ٣٪.

وهكذا فإن الملامح البارزة الآن التحول من اقتصاد الصناعات إلى اقتصاد المعلومات والتحول من الاقتصاد الوطني إلى الاقتصاد العالمي الشامل أو المتكامل. والتحول من إنتاج البضائع والسلع المصنّعة إلى إنتاج المعلومات.

ثانياً- المعلومات وتكنولوجيا المعلومات:

١ - تعريف مصطلح «معلومات» و«تكنولوجيا المعلومات»:

المعلومات مصطلح يندرج في طياته عناصر ثلاثية الأبعاد، متعارف عليها «بالمعلومات» وهي: البيانات، المعلومات، المعارف (المعرفة) وممكن إضافة عنصر رابع وهو الذكاء بصفته وسيلة لتوليد المعرفة وتوظيفها.

البيانات: هي المادة الأولية التي نستخلص منها المعلومات: بنود البطاقة الشخصية - الإشارات التي تنبعث من أجهزة الإرسال- هي ما ندركه مباشرة بحواسنا.

المعلومات: ناتج عن معالجة البيانات تحليلاً أو تركيباً لاستخلاص ما تتضمنه البيانات، تطبيق عمليات حسابية، موازنات، معدلات، طرق إحصائية ورياضية ومنطقية. وفي توصيف آخر، تعرف المعلومات: «بأنها تلك التي تؤدي إلى تغيير سلوك وفكر الأفراد واتخاذ القرارات».

البيانات ركيزة المعلومات.. والمعلومات هي المتغير التابع.

المعرفة: هي حصيلة الامتزاج الخفي بين المعلومة والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم.

نتلقّى المعلومات ونخرجها بما تدركه حواسنا. المعلومات وسيط لاكتساب المعرفة ضمن وسائل عديدة كالحدس والتخمين والممارسة الفعلية والحكم بالسليقة

إذا اقتصر بحثنا على الأبعاد الثلاثة (للمعلومات) وحاولنا تحليل وفهم الدور الذي تلعبه المعلومات على الوضع الاقتصادي على المستويين العربي والعالمي. نستطيع أن نؤكد بأنه أصبح للمعلومات الدور الحاسم في بنية الاقتصاد العالمي مع تطور ما يسمى بتكنولوجيا المعلومات الحديثة. حيث: إن لكل تكنولوجيا مادتها الخام التي تتعامل معها وأداتها الأساسية التي تعالج بها- ثم تحويل تلك المادة الخام إلى منتجات ثم توصيلها إلى المستفيد من خلال وسائل التوزيع المختلفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتي لا بد وأن تتلاءم وطبيعة هذه المنتجات وطرق استخدامها.

إذا ما طبقنا هذا الإطار العام على «تكنولوجيا المعلومات» نبين التالي: المادة الخام: البيانات، المعلومات، المعرفة

الأداة: الكمبيوتر والبرمجيات (تحويل المادة الخام إلى سلع وخدمات معلوماتية).

التوزيع: من خلال التفاعل الفوري بين الإنسان والآلة وأساليب البث المباشر وغير المباشر شبكات البيانات (إيصال كمبيوتر بآخر أو عبر الطرفيات).

إن هذه التكنولوجيا على مدى مسار تطورها، قد تحولت من تكنولوجيا كثيفة الطاقة إلى تكنولوجيا كثيفة العمالة، حتى ارتقت أخيراً إلى تكنولوجيا كثيفة المعرفة. وهنا تكمن الخطورة نظراً لأن المعرفة الإنسانية (المعلومات) ما زالت في قبضة الأقوى الذي يجيد استغلال تكنولوجيا المعلومات لإحكام قبضته وفرض عولمته وإعادة إنتاج عالمه.

من هنا أهمية تفعيل المعرفة داخل منظومة المجتمع إذ هي حلقة متصلة مكوّنة من ثلاثة مكونات أساسية هي:

- **اقتناء المعرفة.**
- **استيعابها.**
- **ثم توظيفها.**

فلا نضيف جديداً إذ نقرّ بتفكك هذه الحلقة المعرفية لدينا (في العالم العربي). عادة ما يغيب عنها شق توظيفها في حل مشكلات المجتمع وتنمية أفراده وموارده. وفي كثير من الأحيان يتوقف الجهد عند حدود الاقتناء (المعرفة) دون استيعابها في الأوضاع المحلية. وسنظل نشكو من أنيميا معرفية حادة مهما تعددت لدينا نظم الكمبيوتر وانتشرت مواقعنا ومقاهينا على الإنترنت ومهما كثر الحديث عن أهمية المعلومات وضرورة اللحاق بركبها إذا لم نسع إلى استيعاب هذه المعرفة وتوظيفها.

إن تعميم استخدام تكنولوجيا المعلومات وشبكاتها والتطور التكنولوجي السريع واتساع السوق بشكل هائل إضافة إلى عولمة تدفق المعلومات، قد حوّلت مجتمعاتنا إلى اقتصاديات مبنية على المعرفة والتكنولوجيا وفرضت شروطاً تنافسية جديدة.

من هنا المشاركة في الاقتصاد العالمي الجديد الذي يعتمد بشكل كبير على ثورة المعلوماتية يحتم علينا لعب دور بارز في مجال التكنولوجيا والمعلومات من خلال توفير البيئة والتقنيات التي تسمح بنمو وازدهار صناعة المعلومات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - الاقتصاد وصناعة المعرفة (المعلومات):

قطاع المعلومات هو القطاع الذي يشمل كل الأنشطة المعلوماتية في الاقتصاد فضلاً عن السلع المطلوبة بهذه الأنشطة. وقد أشار (ماكلوب- Machlup) إلى قطاع المعلومات على اعتبار أنه صناعات المعرفة والتي تضم الأقسام الخمسة التالية: التعليم- البحوث والتنمية- الاتصالات- آلات المعلومات وخدمات المعلومات.

كما يورد (نيك مور- Moore) «إن قطاع المعلومات هو الذي يتكوّن من المؤسسات في كلا القطاعين العام والخاص، تلك التي تنتج المحتوى المعلوماتي أو الملكية الفكرية، وتلك التي تقدم التسهيلات لتسليم المعلومات للمستهلكين وتلك التي تنتج الأجهزة والبرامج التي تمكننا من معالجة المعلومات».

وبناء عليه، يمكن تقسيم المعلومات إلى ثلاثة أقسام رئيسية على النحو التالي:

- **صناعة المحتوى المعلوماتي-** Information Content تتم هذه الصناعة عن طريق المؤسسات في القطاعين العام والخاص التي تنتج الملكية الفكرية: عن طريق الكتّاب، المحررين... ... وهؤلاء يبيعون عملهم للناشرين والموزعين وشركات الإنتاج التي تأخذ الملكية الفكرية الخام وتجهزها بطرق مختلفة ثم توزعها وتبيعها لمستهلكي المعلومات. أيضا يوجد جزء خاص لا علاقة له بالإبداع وإنما يهتم بجمع المعلومات مثل جمع الأعمال المرجعية وقواعد البيانات والسلاسل الإحصائية.

- **صناعة تسليم (بث المعلومات) -** Information delivery إن القسم الثاني من صناعة المعلومات إنشاء وإدارة شركات الاتصال والبث التي يتم من خلالها توصيل المعلومات. وهي تشمل شركات الاتصالات بعيدة المدى والشركات التي تدير شبكات التلفاز- مؤسسات تتولى هذه القنوات وغيرها لتوزع المحتوى المعلوماتي مثل بائعي الكتب والمكتبات...

- **صناعة معالجة المعلومات-** Information processing تقوم هذه الصناعة على منتجي الأجهزة ومنتجي البرمجيات ويتولى منتجو الأجهزة تصميم صناعة وتسويق الحواسيب وتجهيزات الاتصالات بعيدة المدى والإلكترونيات.

وهم يتركزون في الولايات المتحدة وشرق آسيا. أما فئة منتجي البرمجيات فهي تقدم نظم التشغيل Unix Dos Windows...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هكذا أصبح إنتاج المعلومات وجمعها وتجهيزها وتجميعها نشاطاً اقتصادياً كبيراً للعديد من دول العالم. ففي الولايات المتحدة وفي دول أخرى نجد أن المعلومات سلعة استهلاكية كبيرة ومن المدخلات في إنتاج المنتجات والخدمات كافة.

هذا التحول إلى العمل في حقل المعلومات يستتبعه فكرة العمل عن بعد (إلى الاتصال إلكترونياً بمكتب رئيسي) وهو ما يؤدي إلى ظهور طبقة أو فئة مهنية جديدة لها وزنها هي فئة «العاملون في المعلومات» Information Workers ويقسمون إلى أربع فئات فرعية:

- منتجو المعلومات (منشئو المعلومات وجمعها).
- مجهزو المعلومات (يستقبلون المعلومات ويستخدمونها)
- موزعو المعلومات (ينقلون المعلومات من المنشأ إلى المتلقي)
- بيئة المعلومات (تقوم على التكنولوجيا للأنشطة المعلوماتية.

ثالثاً- التنمية البشرية (الاقتصادية) والمعلومات:

في عام ١٩٩٠م قدم «برنامج الأمم المتحدة» للتنمية من جانبه تقريراً عن التنمية البشرية بمبدأ «التنمية البشرية» الذي أصبح البديل الأساسي لرؤية التنمية التي تتعادل مع النمو الاقتصادي.

وهناك جهود لهذا التغيير، تتمثّل في أن استئصال الفقر قد أصبح نشاطاً متعدد الأبعاد، فالفقر يعد أكثر من مجرد نقص أو افتقار الرفاهية المادية فهو أيضاً بالصحة المعتلة، وضعف التعليم والحرمان من المعرفة والاتصال والعجز من ممارسة الحقوق الإنسانية والسياسية وضياع الكرامة والثقة واحترام الذات.

وتقوم تقنيات المعلومات والاتصال بدور بارز في هذا المفهوم الأشمل للفقر. فهي توافر الأدوات والوسائل المهمة لتحسين الصحة والتعليم، وتقدم القنوات الجديدة لنشر المعرفة.

إن التعامل الأفضل مع مصدر أساسي مثل المعلومات سوف يعمل كثيراً على تحسين مستويات المعيشة لقد كتب (مانسيل- Mansell) و(وين- When) يقولان:

«إن محاولات قياس تأثير تقنيات المعلومات والاتصال على اقتصاديات الدول الصناعية والدول المتنامية تعترضها مشكلات قاسية تتعلق بالتصنيف الإحصائي وسهولة الحصول على البيانات».

كما أن البيانات كثيراً ما تكون غير

واضحة أو موثوق بها، كما أنه يتم حجز بعض البيانات على إنها ملكية خاصة.

ضمن هذا الإطار تعد الشفافية ركيزة أساسية من ركائز الاقتصاد الحديث. فلا يمكن للحرية الاقتصادية أن تزدهر بل أن تستمر إذا لم تترادف مع شفافية كافية في جميع القطاعات وعلى كل المستويات. فالدول الصناعية تعلمت عبر العقود الماضية أن للمعلومات قوة، بل لها تأثير كبير على تكوين الرأي العام الذي يحاسب الحكام ويقرر مصير الوطن.

الدولة الحديثة لا يحق لها أن تحجب أي معلومة عن شعوبها مهما كانت سيئة. الدول النامية تعرف أيضا أن للمعلومات قوة مما يجعلها تحتفظ بها أحيانا لنفسها لتستعملها عند الضرورة لمصالح عامة وخاصة.

غياب الشفافية له تأثير سلبي ليس فقط على الحياة السياسية وإنما الاقتصادية والاجتماعية. الاقتصاد غير الشفاف كان له التأثير المباشر في الأزمات في المكسيك- دول شرق آسيا- روسيا (حيث أن مقومات الأزمة كانت موجودة ولكنها كانت مخبأة عن المجتمع لأن المعلومات المتوافرة لم تكن كاملة أو كافية، كما كانت بعض المعلومات خاطئة عن قصد أو جهل (النتيجة واحدة).

كما تردد عن دور المعلومات في انهيار الاقتصاد العالمي على أثر النكسة التي عصفت بأسواق المال في نهاية عام ١٩٨٧ (الاثنين الأسود) لعدم توافر نظم معلومات فعالة حينها كذلك التي تؤازر الاقتصاد العالمي حالياً.

كذلك من دراسة الأزمات البترولية المختلفة وأسبابها يلاحظ أنها تعود إلى عوامل مختلفة تشمل الأسباب السياسية والمعلوماتية والمتمثلة في وجود معلومات غير دقيقة تؤدي إلى عدم اتخاذ أي قرار أو اتخاذ قرار خاطئ. وهذا يؤدي إلى شح أو فائض في العرض ثم ارتفاع أو انخفاض وربما مفاجأة في الأسعار.

المقصود بالعامل **المعلوماتي**: وجود معلومات يعتقد صحتها من حيث الإنتاج والاستهلاك وحركة المخزون وكمية المخزون والطاقة الإنتاجية والنمو الاقتصادي المتوقع.. وعلى هذه المعلومات تتخذ قرارات مهمة مثل زيادة أو تخفيض الإنتاج أو الشراء أو البيع.

من هنا نلاحظ: أن الكثير من المستثمرين يفضلون توظيف أموالهم في الدول الصناعية على الرغم من العائدات المنخفضة خوفاً من مفاجأة الأسواق النامية (لعدم توافر المعلومات الصحيحة).

إن العالم العربي بحاجة اليوم إلى اعتماد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثقافة الشفافية في كل شيء. لم يعد مقبولاً إخفاء المعلومات أيًا كانت ومن أين أتت. فالمواطن (العربي) على درجة من الوعي تسمح له بتفهم الواقع والتصرف.

إن المحافظة على المعلومة أصبح من جهل الماضي ويضرّ بالمستقبل، إن أكثر ما يعرقل التطور الاقتصادي في العالم العربي التخفّي وراء الحقائق والإحصائيات بل المعلومات التي هي أصلا ملك المواطن وحق له.

نخلص في هذا المجال إلى القول:

إن هناك بعد جوهري في التنمية البشرية، وهو المعرفة التي تُعتبر حاسماً في تمكين الناس من توسيع مجالات اختياراتهم وتقنيات المعلومات والاتصال هي الأدوات الأساسية للمجتمعات الناهضة التي تتأسس على المعرفة وهي تمثل تحولاً هاماً من استغلال الموارد الطبيعية والمادية إلى انتشار البيانات والمعلومات. وما يتصل بهما من مهارات خاصة بالتحليل والمعالجة. وهذه التنمية يصاحبها اتجاه قوي نحو خصخصة مصادر المعرفة وإضفاء الطابع التجاري عليها وما يتزامن مع ذلك من فرض إجراءات قانونية لحماية الملكية الفكرية الخاصة.

إن النظام العالمي الناهض من أجل حقوق الملكية الفكرية يميل إلى أن يركز على الجوانب الاقتصادية لحماية حقوق الملكية الفكرية أكثر مما يركّز على اعتبارات المصلحة العامة.

«ضمن هذا الإطار فإن النقاشات ووجهات النظر ما زالت مستمرة ومتباينة بين القانونيين من جهة، وبين المطالبين بديموقراطية المعرفة (حق المواطن في المعرفة) وما نصّت عليه مواثيق منظمات الأمم المتحدة من جهة ثانية. من هنا يأتي تقرير «البنك الدولي» عن التنمية في العالم عام ١٩٩٨م بعنوان: المعرفة من أجل التنمية ليؤكد أن المعرفة ليس على نطاق الصفوة وإنما على مستوى الشعب كله هي العامل الحاسم للتنمية. كما يؤكد التقرير على وجوب التصدي لفجوات المعرفة ما بين البلدان وداخلها ولمشاكل المعلومات التي تضعف الأسواق وتعرقل الإجراءات الحكومية علماً أن هذه الفجوات هي أكثر حدّة في البلدان الأشد فقراً. وهي السبب الرئيسي في ذلك الفقر. ويؤكد التقرير أن هناك حوالي ٣ مليارات نسمة تعيش على ٣ دولارات في اليوم بأسعار ١٩٩٧م في الولايات المتحدة. ويتركز معظم فقراء العالم في شرق وجنوب آسيا.

وهنـا يتساءل التقرير: هـل يمكن حقاً التصدّي لمشكلة نقص المعلومات في مثل هذه البلدان؟

المبدأ العام يقضي بأنه ينبغي للمؤسسات أن تعمل وفقاً لقدرتها النسبية وللحكومات أن تركـز على المسؤوليات التي لا يحتمل أن ينهض بها القطاع الخاص.

وهو يقوم على الاستنتاجات التالية:

يمكن تضييق الفجوة في- الدراية الفنية التـي تزيد مـن النمو الاقتصـادي وترفع الدخل، تقلل الـتردي البيئي وتحسن نوعية الحياة.

- تجهيز بنية تحتية
- تطوير القوانين والأنظمة
- تحديث البرامج التعليمية
- تفعيل المرافق والإدارات
- دعم الابتكار
- تنسيق الجهود
- اكتساب المعرفة العالمية وإيجاد المعرفة المحليـة (تطويع المعرفة المسـتوردة وإيجاد المعرفة التي لا تستطيع الحصول عليها على الصعيد الدولي.

رابعاً- اقتصاد المعرفة والتقنيات الحديثة:

تعتـبر البنية التحتية لتقانـة المعلومات والاتصالات لبلد ما العامل الأهم في تحديد قدرته على الانتقـال إلى الاقتصاد العالمي المبني علـى المعرفة وتشكل كثافة الحظوظ الهاتفية- الثابتة والنقالة انتشار الحواسيب الشخصيـة ومدى استخـدام الإنترنت من المؤشرات الأساسية لهذه البنية التحتية.

تقنيـات المعلومات والاتصـال لا تعمل منفردة بل تعمل معاً، لذلك فنموها يؤدي إلى نمو في القطاعات الأخرى من الاقتصاد.

ونتيجـة لتقـارب العديـد مـن هـذه الصناعات: علـوم الحاسـوب الاتصالات وصناعـة المحتـوى- صناعـة السمعـي/ البصـري، النشـر وتسجيـل الصـوت والوسائط.

أدت هـذه الثورة المتنوعـة إلى عدد من التبعـات (السياسية والاقتصادية)، من هنا يجب عدم تجزئة صناعة الوسائط المتعددة عـن صناعة الاتصالات وتقـارب الشبكات وعولمة الصناعات الثقافية وإنتاج المكونات الرئيسيـة للوسائط المتعـددة التي تتحكم بالمحتوى (المضمـون) وأدوات النقل لتقديم ذلك المضمون.

تمثـل الوسائـط المتعـددة مرحلة من المراحل في تطور الوسائل (الطرق التقليدية) لإنتـاج ومعالجـة وإرسال ونشـر البيانات وأحـد المميزات الرئيسية للوسائط المتعددة هو القيمـة المضافة فيما يتعلـق بالألعاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والأعمال المرجعية- التدريب والصفقات التجارية والاتصالات.

بين عام ١٩٩٧ و١٩٩٨، تحول مجال إنتاج وتوزيع الوسائط المتعددة رأساً على عقب بفعل إدخال البيانات بشكل رقمي كامل.

إن كل المشاركين في صناعة الوسائط المتعددة يتأثرون بالتغييرات التي تحدث. فقد حدثت مكتسبات واندماجات كثيرة جداً، كما تمَّ إعادة تكوين مؤسسات مشاركين وشركات جديدة تنبثق طوال الوقت. ومناطق امتياز جغرافية ومنتجات جديدة يتم تطويرها وتنميتها بشكل مستمر.

هناك نمو شامل في السوق في كل من الطلب على منتجات الوسائط البصرية واستخدام خدمات الإنترنت.

كما أن التوسع الهائل بشبكة الإنترنت أدى إلى إيجاد سوق ضخمة لمستخدمي منتجات الوسائط المتعددة في مجالات: الترفيه- الصحافة- المكتبات والمعلومات- الشراء- الإعلانات- البنوك- الشركات..

خامساً- اقتصاد المعرفة والإنترنت:

لا تزال الإنترنت بعيدة عن الاستخدام المباشر في مجال التنمية بالمعنى الضيق للكلمة. إن الاقتصاديين يعملون على إدخال عامل المعرفة بشكل مباشر وواضح في نظرياتهم ونماذجهم الاقتصادية. «نظرية النمو الجديدة».

العلاقة بين التنمية وتوليد المعرفة واستخدامها أصبحت واضحة، وتدل الإحصاءات على أن أكثر من ٥٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي في الدول المتقدمة مبني على المعرفة. وهكذا أصبح الاستثمار في المعلومات أحد عوامل الإنتاج، فهو يزيد في الإنتاجية، كما يزيد في فرص العمل.

إن توفير المعرفة وتحويلها إلى معلومات رقمية يجعلها تتحوّل إلى سلعة تزداد أنواعها يوماً بيوم ويعتمد ذلك على مراحل: توليد المعلومات- نقلها ونشرها واستثمارها.

كما يعتمد اقتصاد المعرفة اعتماداً أساسياً على فعالية الشركات في جمع المعرفة واستعمالها لرفع الإنتاجية وتوليد سلع خدمات جديدة توزع عبر شبكات المعرفة التي تتغير المعلومات فيها بمعدلات سريعة. وستؤدي شبكة الإنترنت دوراً أساسيا في تشبيك المعرفة.

ففي أقل من عقد من الزمن استطاعت الإنترنت تبديل العديد من المفاهيم الاقتصادية، كما أنها أثرت في الكثير من القطاعات الاقتصادية.

وفّرت الإنترنت المعلومات الكثيرة وبأقل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التكاليف، كما أدت إلى تخفيض تكاليف الصفقات التجارية إلى حدودها الدنيا.

هذا ما أدى إلى تزايد استخدام التجارة الإلكترونية وإلى تحسين المنافسة على الصعيد العالمي، كما أدت إلى بروز فعاليات اقتصادية جديدة لم تكن معروفة من قبل.

تعد الإنترنت أفضل ما يمثّل مجتمع المعلومات لأنها نتيجة تلاقي ما سمي عصر: المعلومات والاتصالات، فهي أداة رئيسية للنشر والتبادل للمعلومات.

إن العلاقة بين التنمية وبين توليد المعلومات واستخدامها أصبحت واضحة.

وبالتالي أصبح الاستثمار في المعلومات والإنترنت أحد عوامل الإنتاج- فهو يزيد في الإنتاجية كما يزيد من فرص العمل.

كما أن الفرق بين سعر السلعة على الإنترنت وسعرها عند شرائها بالطريقة التقليدية يلعب دوراً هاماً في تشجيع أو إعاقة تجارتها عبر الإنترنت على سبيل المثال: أسعار الكتب والأقراص المبرمجة CD بنسبة ١٠٪ على الإنترنت.

المصادر

- دياب عابدين- اقتصاد المعرفة- حقبة جديدة نوعياً من مسار التطور الاقتصادي- النادي العربي للمعلومات ٢٠٠٥م.
- د. حسن مظفر الرزو: اقتصاد المعلومات وإدارة المعرفة- أحوال المعرفة مارس ٢٠٠٤م
- نجم عبود نجم- إدارة المعرفة- المفاهيم والاستراتيجيات والعمليات- مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع- عمان ٢٠٠٥م.
- محمد دياب: اقتصاد المعرفة أين نحن منه، مجلة العربي عدد أيار ٢٠٠٤م.
- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، «نحو إقامة مجتمع المعرفة»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، عمان ٢٠٠٣م.
- د. محمد سعيد الحلبي: نحو تطبيق إدارة المعرفة في التنمية البشرية، المؤتمر الثاني لجمعية مكتبات بلاد الشام- دمشق ٢٠٠٨م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قراءة في حركة الصعلكة في العصر الأموي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحمد أنيس الحسون *

تُعتبر حركة الصعلكة ظاهرة اجتماعية أدبية تشكلت عبر العصور الأدبية، وإن تبلورت بأشكال ومسميات ومسوغات مختلفة، إذ تعددت الدوافع والغايات، وتباينت بين عصر وآخر، إلا أنها في مجملها تتفق في الثورة ضد المجتمع الجائر، عبر الرفض للواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي القائم. سنحاول في هذا البحث استقراء هذه الظاهرة الاجتماعية الأدبية في العصر الأموي مع شرح الظروف المؤدية لهذه الحركة، وأهم الموضوعات

* أديب وناقد سوري.

الشعريـة التـي تناولوها، ومـن الضروري بمـكان أن نبدأ بنبذات موجـزة عن تاريخ هذه الظاهـرة في العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام مـع انعدامها في هذا الأخير كما سنبيّن لاحقاً.

الصعلـوك لغة، جاء في لسـان العرب: الصعلـوك «الفقـير الذي لا مـال له، زاد الأزهـري: ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك ؛قال حاتم الطائي:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى

وكلا سقاناه بكأسيهما الدهرُ

وصعاليك العرب ذؤبانها.»[1]

عُرف هؤلاء بالفتّاك لجرأتهم، والفتك لغة -كما جاء في المحيـط- «أن تهتم بأمر فتمضيـه، وفتك فلان في أمـره وأفتك لجّ فيه وغلا»[2]

أمّا ابن منظور فعرفه بأن «الفتك: ركوب ما همّ من الأمور ودعت إليه النفس...»[3]

أمّـا كلمة صعلـوك فقـد أصبح فيها تداخـل أيضـا، وهذا ما حـاول د. يوسف خليف تقصّيه لتحديد مفهوم الصعلوك

الصعلكة في العصر الجاهلي

في العصـر الجاهلـي لم تقـف لفظة صعلـوك عند دلالتها اللغويـة؛ إنما أخذت تدل علـى من يتجـردون للغـارات وقطع الطرق، ومما هو معـروف أنهم كانوا ثلاث مجموعات: الأولى مجموعة الخلعاء الشذاذ، والثانية من أبناء الحبشيات السود، والثالثة لم تكـن مـن الأولى ولا مـن الثانيـة، وإنما احترفت الصعلكة احترافاً.

وفيمـا يخص الأسباب والثورة، فمنهم خلعـوا من قبائلهم لكثرة ما اقترفوه، ومنهم مـن كان من أبنـاء الحبشيات كمـا ذكرنا، ومنهم مـن رأوا مفارقات الحيـاة فأعلنوا الثورة. «وهناك إجماع على أن أسوأ الهجناء حظاً، وأوضعهم منزلة اجتماعية، كان هؤلاء الذين سـرى إليهم السواد مـن أمهاتهم»[4] وكانوا يسمّون بأغربة العرب.

هـذا الرفض للمجتمع ومـا يعانونه، بسبـب كبريائهم هـو الذي دفعهـم للسلب والنهـب، فذلك الفقر والظلم دفع عروة بن الورد للقول:

دعيـني للغنـى أسعـى فـإنّي

رأيـت النـاس شرّهـم الفقيرُ

هناك فقر وطـرد وجنس وعرق وغيره. كل هذا يُعدّ من الأسبـاب الحقيقية للثورة «لكنهـم في هـذا المذهب الثـوري لم يكونوا فقـراء فحسب، بـل كانوا فقـراء شجعان أقوياء»[5]

والظاهـرة الواضحـة في حياتهم على اختـلاف الدوافـع، أنهـم جميعـاً فقدوا توافقهم الاجتماعي وهذا التوافق كما يقرّر

علماء الاجتماع هو الأساس لعلاقة الفرد بمجتمعه. فنشوء هذه الطائفة يعود لجملة أسباب وربما كان منها ما ذكره أحد الباحثين «عدم إدراك أهليهم أو قبيلتهم نفسياتهم، مما سبب نفورهم منهم وخروجهم على طاعة مجتمعهم وهروبهم منه..»(٦)

ثاروا على النظام المالي، وهم سعداء بصنيعهم لأنهم يثأرون من الأغنياء الأشحاء. واشتهر منهم عروة بن الورد والشنفرى والسليك بن السلكة وتأبط شراً وأبو خراش الهذلي. وهم شجعان لا يبالون بالموت، ومخاطرتهم لأغراض نبيلة، ولمسح الدموع البائسة. إنّ هناك عدة أسباب أسهمت مجتمعة في خلق هذه الطائفة من الشعراء. والإغارة عند هؤلاء الشجعان ليست لجمع المال فحسب، بل للنيل والعطاء أيضاً والتشبه بالسادة في الجود والكرم، وأمام ظروفهم هذه لم يجدوا إلا أن يشقّوا طريقهم بقوة نحو حياة كريمة، ينتزعون لقمة عيشهم ممن حرمهم منها. وقد صرّحوا بشجاعتهم في سبيل تحقيق هدفهم النبيل، فالشنفرى شجاع وعدوه جبان مخذولٌ أمامه، يقول:

إذا خشعت نفس الجبان وخيّمت
فلي حيث يخشى أن يجاوز مخشفُ

ويصف تأبّط شراً لنا قدرته على اجتياز المهالك وجرأته في قطع مجاهيل الأرض، فلا يحتاج لدليل أو هداية، فيقول:(٧)

وشعبٍ كشلّ الثوب شكسٍ طريقه
مجامع صوحيه نطافٌ مخاصرُ
تبطنته بالقوم لم يهدني له
دليلٌ ولم يثبت لي النعتَ خابرُ

تعددت الدراسات حول هؤلاء الصعاليك، فالدكتور عبده بدوي يرى أن عقدة اللون كانت وراء أشياء كثيرة في الأدب العربي، وانصب رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن على الجانب الفني والنفسي تحديداً، وحصرتهم بالخلعاء فقط، وأشارت إلى تقصير الدارسين باستقراء الروابط العميقة في نفوسهم، ونبهت إلى أن سلوكهم يطوي وراء هذه الاستهانة في الحياة والمغامرة المثيرة والفتك «سخرية مريرة بالحرية الفردية وشعوراً عميقاً بالتمزّق والتشرّد والضّياع»(٨).

ويشير إحسان سركيس إلى هؤلاء الراغبين في إعادة شكل التوافق الاجتماعي «حتى لو كانت وسيلتهم إليه غير مجدية أو ناجحة»(٩).

لقد كان لهذه الظاهرة الأثر العميق في مسيرة الأدب العربي وتطوره، وقدّمت فلسفة خاصة للحياة، تحكي لنا حكايا النفس البشرية إزاء واقع متردٍ. لقدم قدّم هؤلاء من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلال لغتهم -المعقدة والبسيطة- معالم هذا الفكر الثوري الذي ما زالت الكتب حافلة به وبدراسته، فاللغة ذاكرة الأمة وهي الهوية والتاريخ المنطوق والمكتوب وإذا «حدث انقطاع بين الأمة ولغتها القومية، فستصاب بفقدان الذاكرة الذي سيؤدي إلى تغيرات جوهرية في هويتها»[١٠]

الصعلكة في صدر الإسلام

كانت ظاهرة الصعلكة في صدر الإسلام ضعيفة، إذ لم تتوافر عوامل نشوئها فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام، اختفت هذه الظاهرة وقلّ عددهم، ومردّ ذلك أن العوامل المساعدة على نشأتها قد ألغاها الإسلام؛ فجاء بتشريع جديد وفكر جديد أحدث فيه تغييراً جذرياً، وانقلاباً فكرياً حقيقياً على كل ما هو سائد من قبل، فقد أشاع فكرة الأمة الواحدة وأرسى القواعد الاجتماعية، حيث فُرضت الزكاة، وأُخذت الصدقات ممن تزيد على حاجتهم. يقول تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا» (التوبة:٦٠).

لقد أصبحت الدولة مسؤولة عن تأديب الفاسدين، وإنزال العقاب بهم لإصلاحهم، فكل مذنب له عقوبته، يقول تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٩) فما عاد للقبيلة حقّ في خلع أحد للتخلص منه.

لقد اختفت هذه الظاهرة في صدر الإسلام لانتفاء دواعيها ولاستقرار الخلافة الراشديّة، فلم تعد أية قبيلة تحمي أي خارج عن النظام والقانون، فضلاً عن اجتذاب الفتوحات الإسلامية كل نفس ثائرة تحوي أهدافاً «يشترك فيها الجميع وينعم بخيرها»[١١]. وهذا الرأي - في ضعف هذه الحركة في صدر الإسلام - يجمع عليه معظم الباحثين. فالدكتور حسين عطوان بعد اعتماده على دراسات عديدة يقرّر: «أن الصعلكة قد ضعفت في صدر الإسلام ضعفاً شديداً».[١٢]

- نشوء الصعلكة في العصر الأموي

لقد حقّقت طائفة الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ظهوراً مهماً في تاريخ الأدب العربي، وحضوراً ملموساً في الحياة العامة، وساهمت هذه الطائفة في تسجيل جانباً من هذا العصر، بل أرّخت لجوانب سياسية واجتماعية عديدة؛ حيث سجّلت ما شهده العصر من ازدهار في مجالات الأدب وفنونه الشعرية والنثرية، ولاسيما من حيث ظهور أولى ملامح التجديد في موضوعات الشعر وأغراضه وأساليبه كما أكد كثيرٌ من الباحثين، كـ طه حسين وشوقي ضيف ونوري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القيسي وحسين عطوان ومصطفى الشكعة ومحمد عبد المنعم خفاجي وغيرهم...

وبالعودة إلى الترادفات التي دخلت هذا المصطلح، تبقى التسمية تبعاً لنظرة أو لتنظير الباحثين، فالدكتور مصطفى الشكعة اختار أن يسمى شعراء هذه الطائفة لصوصاً ورأى أنهم بعيدون عن مفهوم الصعلكة المقترب بصعاليك قبل الإسلام، الذين يستحقون الوصف بالشجاعة والفروسية ولاسيما عروة بن الورد.(١٣)

لقد أضاف الصعاليك إلى تاريخ الشعر الأموي ملامحاً في التجديد، تلك البذور التي تعد إرهاصاً أوليّاً لنبوغ التجديد في ظلّ الدولة وما شهدته من تغيير في نمط الحياة، وتمازج مع ثقافات وشعوب، ناهيك عن كرسي الخلافة الذي أفرز كثيراً من العصبيات القبلية والاضطرابات السياسية التي تخلق أدباً جديداً، يحمل مضامين وعقائد جديدة، أسهمت الظروف الجديدة للعربي في خلق هذه الإنتاجات. لقد دُرست مسألة التجديد في العصر الأموي وأعطى الباحثون آراءهم فيها، مؤكدين أنه من الظلم أن نبخس الشعر الأموي حقه في مسألة التجديد، ذلك على الرغم من قِصره واضطرابه وتخلخله يقول طه حسين في مسألة التجديد الشعري: «ربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب، بل فيهما وفي الموضوع أيضاً».(١٤)

ويشير طه حسين إلى أن هذه المحاولة لم تُوفق توفيقاً تاماً لقصر العصر، وأنه لم يكن عصر ثبات، وعلى الرغم من ذلك فإنه من الظلم أن نعتبر التجديد في العصر العباسي خاصة، فالتجديد كان في العصر الأموي أيضاً ويجب ألاّ نظلمه.

إن تسمية الصعاليك جاءت لقرب العهد بالعصر الجاهلي، إلا أنهم - وإن اتفقوا في الاسم - يختلفون عنهم من حيث المنشأ، فلم يكونوا جميعاً من الخلعاء، والشذاذ السود،، ولم يقتفوا أثر سابقيهم، فأغلبهم كانوا من المتمردين على السلطة المركزية. وإطلاق لفظة اللصوص عليهم غير دقيقة؛ فمن خلال دراسة آراء الدارسين السابقين ومن خلال الوقوف على حياة الشعراء؛ تبين أن اللصوصية نعت لمن امتهن مهنة السرقة، وهؤلاء لم يكونوا هكذا وإنما لم يوجد لهم نعت غير نعت اللص وهذا لا يدل على اللصوصية وإن كانت اللصوصية موضع اهتمام الرواة والمؤرخين والدارسين القدامى. لقد اختلف القدامى والمحدثون في لغتهم وفي الأسباب والعوامل المؤدية لنشوئهم، وعلى طبيعية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حياتهم وانعكاس هـذه الحياة في شعرهم، ومـا أضافوه، أو ما مـدى هذه الإضافة في تاريخ الشعر العربي.

والدكتـور حسـين عطـوان درس هذه الحركة وعني بها وخاصة في العصر الأموي والعصر العباسي الأول. حيث يرى أن حركة الصعلكة في العصر الأموي لم يصبها الضعف أبـداً ولم تتوقف بل علـى العكس «استمرت فيه وقويت».(١٥)

وقـد درس هذه الحركـة في ضوء عدة أسباب كانت الطريـق لنشوء هؤلاء، مؤكداً أن اختلال الحيـاة الاقتصادية واضطراب الحالـة السياسيـة، ناهيك عـن التمسك بالـروح الجاهليـة.. كل هـذا كان حافزاً قوياً لثورتهم وتمرّدهم، فصارعوا الجيوش وسلبـوا أموال الدولة ومنعـوا خراج بعض المناطق التي سيطروا عليها من وصولها إلى بيت المال.(١٦)

ويشـير إحسـان سركيـس إلى أن هذه الطائفـة طائفـة متمرديـن، وسلوكهم هو بسبب مشكلة السلطة وما تملكه من وسائل ضخمة، ثم الخوف من السلطة، لذلك تواروا وهربوا، فقبائلهم لا جدوى منها في المساعدة لخوفها هي الأخرى من السلطة.(١٧)

وكأي ظاهـرة ثوريـة، هنـاك عوامـل ومسوغـات لظهورها، وبغـض النظر عن التسميـات والنعوت التـي أُطلقت عليهم، ستعنى هذه الدراسة بالمتمردين على الدولة بدءاً من العوامل المؤدية لنشوئهم والتي تعتبر من الأسس المنطقية لنفورهم وثورتهم.

العوامـل المؤديـة لنشأة الشعراء الصعاليك في العصر الأموي

١- العامل الاجتماعي

الحياة الاجتماعيـة في كل زمان ومكان تفـرز ضروباً مختلفة مـن العقائد الفكرية، ربما بالارتـداد إلى الماضي أو الإصرار على التجديد بفعل شـروط حياتية جديدة تتبع بشكل منتظم ومسلّم به لحركة الزمان التي تأبى التوقف، وفي مسيرة هذا الزمن تتقلب الحياة الاجتماعية، فتشكل ثورة فكرية تكون هي الأخرى وجهاً آخر لعجلة الزمن.

وفي هـذا السيـاق؛ من المؤكـد لدينا جميعـاً أن القبائل العربية تمسكت بالحياة الرعويـة وحافظت عليها؛ منهـا ارتباطهم بحيـاة الأجداد ؛حيث استمـروا على حب هـذا النمط من الحيـاة، فكانـوا يؤثرون التنقـل في الصحراء بدلاً من الاستقرار في المدن، هناك أشعار كثيرة تصور الحنين إلى الصحراء والقبيلة، ومثّـل هذا الموقف من الحيـاة الحضرية قول ميسـون بنت بحدل عندما تركت قبيلتهـا وعاشت في الحضر،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقالت تحن إلى الحياة البدوية وتمجدها وتفضّلها على حياة أهل المدن والقرى:

ولبس عباءة وتقرّ عيني
أحبّ إليّ من لبس الشفوف

أو قول بعض الأعراب:

بلاد كأن الأقحوان بروضه
ونور الأقاحي وشي برد محبّرُ

فكان من الآثار الاجتماعية محافظتهم على أنسابهم والحرص على التماسك والوحدة فيما بينهم، فقد ظلوا يخضعون لأوامر سادات القبائل وينفذونها، وقد أحيوا في هذا العصر قانوناً جاهلياً آخر هو الخلع لأحد أفرادها بسبب الجنايات وغيرها، وعادوا لإعلان ذلك بين الناس فنكّلوا بهم تنكيلاً شديداً، ومما زاد إهمالهم لهؤلاء أخذ بعض الولاة تلك القبائل بجنايات أفرادها، وكان هؤلاء الشعراء يشكون في شعرهم من معاملة القبيلة لهم، وخير ما يصور ذلك الحطيم العكلي قبل أن يتصعلك:(١٨)

بني ظالم لا تظلموني فإنني
إلى صالح الأقوام غير بغيضِ

ومنهم من تمرّد وفرّ من العدالة مثل السمهري بن بشر العكلي والقتّال الباهلي وعبد الله بن الأحدب، وشاركهم بعض الفقراء والفارين من الولاة أمثال مالك بن الرّيب، ولا نذهب بعيداً إذا قلنا إن مثل هذا الاغتراب الاجتماعي موجود في كل العصور.

فهناك أنماط للاغتراب، والصعلكة هي إحدى هذه الأنماط، هذه الحركة التي تتسم باللصوصية في معظم الأحيان «والتي كان من أهم أسباب ظهورها عدم التكافل الاجتماعي، وكما يرى (سرول) أن الاغتراب الاجتماعي يتمثل في الشعور بعدم التكافل الاجتماعي، أو الشعور بالاغتراب عن الآخرين ويقابله الشعور بالانتماء إلى الآخرين».(١٩)

وهنا يتحدّد لنا هذا الآخر الذي يعتبر الملاذ لما هو كائن، حيث جسدت الصعلكة أهم مظاهر الاغتراب الاجتماعي في العصر الأموي.

وعلماء الاجتماع يقرّرون أن انشطار الذات في المجتمع سيتبعه تعويض أو حالة من الارتداد على هذه الذات المُدمرة، حيث يفقد الفرد توازنه، أو يتوازن مع نفسه جيداً فيتخذ القرار المهم لبناء ذاته المنشطرة، فظروف الفرد الاجتماعية كفيلة بخلقه من جديد، كائناً جديداً، بل فرداً تتجلى فيه انعكاسات المجتمع الذي يحيا فيه.

٢- العامل الاقتصادي

أيضاً هناك ظواهر شتى تكون نتيجة حتمية لبنية المجتمع الاقتصادية، وهذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النتيجة الحتمية، برزت حاملة رغيف الخبز بيدها وعليه برنامجها الثوري.

وهذا العامل شديد الخطر في ارتداد هذه الظاهرة الاجتماعية، فالأوضاع كانت بالغة السوء والتفاوت الطبقي شاسع بين أصحاب النفوذ وطبقات الشعب المختلفة، فمن أهم ما يميز الحياة الاقتصادية في العصر الأموي أنها لم تكن سليمة كل السلامة، وذلك يعود لعدة أسباب، منها التصرف في بيت المال لإرضاء الأعوان والموالين الذين ساهموا في توطيد الإمبراطورية الأموية، فالخلفاء لم يوفروا الحياة السليمة للسواد الأعظم من الشعب، ونشأ بذلك طبقتان؛ طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء، فها هو ذا عقبة بن هبيرة الأسدي يستصرخ معاوية لكي يرحم قومه ويعدل بهم:[٢٠]

معاوي إننا بشرٌ فأسجح
لسنا بالجبال ولا الحديدِ
أكلتم أرضنا فجرد تموها
فهل من قائم أو من حصيدِ

كان لظهور هاتين الطبقتين الأثر البالغ للنفور من المجتمع والسلطة.

«فانفجرت ثورة عارمة في النفوس ضجّت بها بعض الألسن عسى أن يكون لصداها سبيل».[٢١]

ويشير الدكتور عطوان أن الأموال التي كانت ترد إلى بيت المال لم تكن قليلة، ولكن خيانة بعض العمال والسعاة الذين يجمعون تلك الأموال أدت إلى إفقار القبائل المناوئة للسلطة (الخلافة) من جهة وإلى إغناء القبائل المناصرة للسلطة من جهة.[٢٢] حيث الفقر والحرمان، يقول الراعي النميري شاكياً إلى أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان:

أزرى بأموالنا قومٌ أمرتهم
بالعدل فينا فما أبقوا وما قصدوا

فمثل هذه الظروف والتفاوت الجائر كفيلٌ بخلق الظاهرة الاغترابية (الصعلكة).

وهناك طائفة من الفقراء لم تقنع بما قسم لهم بنو أمية، فثاروا عليهم وسلبوا القوافل وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان الذي كثر الصعاليك في عهده، مثل: طهمان بن عمرو الكلابي، والسمهري بن بشر العكلي، وهؤلاء المنشقّون كانوا من القبائل المخالفة لبني أمية، وخير مثال لذلك قبيلة تميم التي اشتهر من صعاليكها مالك بن الرّيب، وعبيد ابن أيوب العنبري، وأبو النشناش القائل:[٢٣]

وسائلة أين ارتحالي وسائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبُهْ
وداوية بهماء يُخشى بها الردى
سرتْ بأبي النشناش فيها ركائبه

ليدرك مالاً أو ليدرك مغنما
جزيلاً، وهذا الدهر جمّ عجائبه

ففي خضمّ ظروف متوترة وشائكة التواصل بين السلطة والشعب، لابد أنه ستلبس لباس الصعلكة فئاتٌ لم تكن راضية عن الخلافة، فليس الفقر وحده هو السبب الرئيسي -وإن كان عاملاً هاماً ومؤسساً لكل ذلك- فثمة أمور لا ينبغي إغفالها؛ كالعوامل السياسية السائدة في البلاد.

٣- العامل السياسي

إذن، فثمة حديث عن الصعاليك السياسيين، ويمكن إضافة العاملين السابقين (الاقتصادي- الاجتماعي) كمبررات ومسوغات لتتشكل لدينا الأسباب الرئيسية لهذه الحركة، لقد انتشرت هذه الظاهرة أثناء خلافة عبد الملك بن مروان (زمن الحروب الأهلية الطاحنة) ففي هذه الفوضى السياسية انعدم الأمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي فهيّأ المناخ المناسب لظهور هذه الحركة، إضافة إلى القبائل التي كانت تنزل في المنطقة؛ كانت لا تولي الطاعة للأمويين.(٢٤)

لقد كانت الحياة السياسية في العصر الأموي متقلبة بين مؤيد ومعارض، وحروب ونزاعات كبيرة، وفي ظل هذه الظروف حصلت سلبية في بعض النفوس، وخلقت اضطراباً عند نفرٍ من الناس، فكانوا متقلبين تبعاً لتقلب الأحوال السياسية. ومن هذه العناصر الناقمة اليائسة تكونت هذه الطائفة الجديدة من الصعاليك يسميهم الدكتور عطوان ((الصعاليك السياسيين)) ذلك أن الأوضاع السياسية المتقلبة -كما أشرنا سابقاً- كانت معدة لنشأتهم وحياتهم التي تشبه إلى حد كبير حياة الخلعاء والشذاذ والفقراء، وأشعارهم تنطق بثورتهم وسخطهم على الدولة، كما يصور لنا مالك بن الرّيب ذلك، حيث يبيّن أن فساد السياسة الأموية كان سبباً في تصعلكه أيضاً:(٢٥)

لو كنتم تنكرون الغدر قلت لكم
يا آل مروان جاري منكم الحكمُ
لا كنت أحدث سوءاً في إمارتكم
ولا الذي فات مني قبل ينتقمُ

ولم يقف الصعاليك السياسيون عند سلبيات السلطة وتهديدها، بل ثاروا مع الثائرين وحملوا السلاح.

- حياتهم (الأعمال- الغايات- الأهداف)

لقد أعادت هذه الحركة ظاهرة قديمة منذ الجاهلية، فهي بالتالي تشير إلى نمط حياة جديدة، انطلاقاً من أنها تعتبر نفسها دولة صغيرة لها أسس ومنطلقات تمشي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على نهجها، وتقرّر ماذا يجب أن يكون على النقيض مما هو كائن.

ومن خلال استقراء العوامل والأسباب الرئيسية في نشأتهم، وبالاستناد إلى هذه العوامل، يلاحظ توزعهم بين أربع فئات:

١- **الفقراء** (نشؤوا في ظل ظروف اقتصادية قاسية).

٢- **الخلعاء** (الذين شذوا عن سلوكيات القبيلة وانحرفوا عنها).

٣- **الفارون من العدالة** (بسبب جناية ما كسرقةٍ أو قتل).

٤- **السياسيون** (لم يرتضوا الحكم الأموي، فناصبوه العداء).

ومن هذه الطوائف تكوّن الصعاليك الذين ألّفوا عصابات لا تختلف عن العصابات الجاهلية، أي إنه كما يقولون: اختلط الحابل بالنابل فأصبح كل من له ثأر أو ملاحق بجناية يستتر تحت غطاء الثوريين، وهذا دأب الكثيرين في الأزمنة والأمكنة؛ حيث يصبح السارق ثورياً، وكم من مجرم أو فار لأي سبب كان قد هيأت له الظروف أن يُسجل في قائمة الثائرين، والمناضلين وما شابه ذلك، بعد انضوائه تحت راية الثوّار صدفةً أو قصداً أو نتيجة ظروف مختلفة، فالتقت الآمال وصبّت في مصبٍّ واحد. وهذه الحركة -مع المقومات القوية لبروزها- دخلها كثير لرغبة منهم في عيش حياة التشرد والتمرد والهروب من الواجب أو لنقل من الجنايات المرتكبة، لكن النخبة تبقى هي تلك التي أفرزتها هذه الظروف السيئة والاضطرابات في ظل الحكم الأموي، فكان لهذه الفئة نمط جديد خلقته الحياة الجديدة المضطربة سياسياً، وقد تحلوا بصفات خاصة أنتجت أشعارهم، أمّا عن ميزاتهم، فقد تميزوا بالقوة والصلابة، وقد ضجت حياتهم بالمغامرات والقصص، وعاشوا ألماً وعذاباً بعدما انفضّ القوم عنهم، فطُبعت أشعارهم بطابع هذا الألم على نحو ما يصوّر لنا القتّال الكلابي أمله بعدما تخلى قومه عنه، فها هو يستغيث ولا مجيب، يقول:

هل من معاشر غيركم أدعوهمُ
فقد سئمتُ دعاء يالكلابِ
ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا
ووحيتُ وحياً ليس بالمرتابِ

وقد خصص الولاة الجوائز لمن يقبض أو يساعد في القبض عليهم، مما زاد شعورهم بالهلع، فلاحقتهم الكوابيس والتهيآت بأن الخصم يتربص بهم، فازداد شعورهم بالضياع والتقلّب بين الخوف والحنين والتوتر، فالأحيمر السعدي يصوّر

رهبتــه من الموت الذي ينتظره بعد أن طلبه السلطان [٢٦]

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصــوّت إنـســان فـكـدت أطـيـرُ
فللّيل إذ واراني الليل حكمه
وللّشمس إن غابت عليّ نذورُ

خـوف وتوتر وتشرد، ولـكل ذلك وغيره عاش هـؤلاء متشرديـن يجوبـون الفيافي ويبـدون مـا بأنفسهم حيال هـذه الحياة، وأصبح لديهم حالة من التوحد مع الطبيعة التي غدت المـلاذ الوحيد، فالقتّال الكلابي يدعو الله تعالى أن يجزي (عماية) وهو جبل من أضخم جبال البحريـن خيراً لإيوائه له وأمثالــه من المطاردين، فيبـدي وفاءه لهذا الجبل الذي عدّه كأمٍّ حنون[٢٧]

جـزى الله عـنـا والجـزاء بكفّـه
عـمـايـة خـيـراً، أمّ كـلّ طـريـدِ
فلا يزدهيها القوم إن نزلوا بها
وإن أرسـل السلطان كـلّ بـريـدِ

ومـع ظروفهـم الصعبـة يحنّـون إلى الاستقـرار والشـوق إلى الأهـل متذكرين أيامهـم الخالية. يقول الخطيم العكلي وهو مشرّدٌ مطلوب.[٢٨]

أعـوذ بـربي أن أرى الشام بعدها
وعـمّـان مـا غـنّـى الحـمـامُ وغـرّدا
فذاك الذي أنكرتِ يا أمّ مالك
فأصبحتُ منه شاحب اللون أسودا

ولا سبيـل في ظل هـذه الحياة الشريدة غـير الصبر والدعاء، وها هـو جحدر بن معاويـة المحـرزي لا يملك -وهـو الشريد البعيد- إلا أن يدعو لأطلال الأهل والأحبّة بالخير والرحمة[٢٩]

يــادار بـين بـزاخــة فكثيبها
فـلـوى بـخـير سهلها أو لوبها
سقت الصبا أطلال ربعك مغدقاً
ينهلّ عارضها بلبس جيوبها

كانـت حياتهـم قاسية مضنيـة، لذلك أشادوا بصبرهم وجلدهـم وشجاعتهم بين وحوش الفـلا، وهذه الغربة لم تقتل الإنسان فيهـم؛ الإنسـان الذي يتمتع بـكل مشاعر الإنسانية من حنين إلى الأهل والأحبة، وقد تشابهوا مـع الصعاليك الجاهليين في أمور واختلفـوا في أخـرى، فأوجـه الاتفاق هي الفقر والتشـرد في الصحـراء والشجاعة، أمـا أوجه الاختلاف تكمـن في أن بعضهم عاش في خوف ورهبة، كما حنّ نفر آخر إلى الأهل والخـلان على عكس بعض صعاليك الجاهلية الذين اتخـذوا من الوحوش أهلاً لهم.

أمّا عن أعمالهم فقد عاشوا على اختلاف طوائفهم في ظروف صعبة، فلم يعتمدوا في

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

غاراتهم على السلاح وحده، بل استعملوا الحيل في السلب والنهب، حيث أغاروا على القبائل لسرقة الإبل، وترصدوا للقوافل وتربصوا للتجار في الأسواق لكن بعضهم صبّ اهتمامه على سرقة أموال الدولة كعبد الله بن الحر الجعفي، ولم يمارسوا أعمالهم فرادى، بل كانوا عصابات، وكانوا يفضلون العمل المنظم غالباً، فقد كان لمالك بن الريب عصابة، من أفرادها أبي حردبة المازني وشظاظ الضبّي، وكانت هذه العصابة من ألصّ العصابات وأخطرها، فقد روّعت الناس مما دفع الراجز للقول:[٣٠]

الله نجاك من القصيم
وبطن فلج وبني تميم
ومن أبي حردبة الأثيم
ومالك وسيفه المسموم

لقد امتلأت حياتهم بالمتغيرات والأحداث الجسام، وقد جسدوها لنا في تصرفاتهم وأشعارهم، فصوروا معاشهم وآلامهم، وقد توزعوا إلى عصابات انفردت كل واحدة منها بمنطقة لها تغتصب وتنهب وتعترض.

وراء كل حركة أهداف هي حصيلة البرنامج الثوري لها، فقد رأينا في صعاليك العصر الجاهلي جملة من الأهداف، تتمثل في تحقيق العدل والحرية،فما كان عروة بن الورد ليتصعلك لو أنه رأى الحياة قائمة على المساواة في العيش، وما كان الشنفرى ليثور لو أنه كان معزّزاً مكرّماً حرّاً لا يُعامل كابن حبشية سوداء، كل هذه الأحوال تنتج أفراداً صعاليك يطمحون لتحقيق أهداف من وراء أعمالهم أيّاً كانت.

وما كان الأمر ليختلف في العصر الأموي من نواح كثيرة، إلاّ في هذا الظرف السياسي المرفوض من قبلهم، لذلك إن أهمّ غاية في الثورة على الدولة الأموية، كانت على الفقر، وهي مسألة أحسّوها وقاسوا منها، ولهم بذلك آراء صريحة، فقد عبّروا عن المفاسد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أوضح تعبير في ظل حياة تفتقر إلى العدالة والمساواة. يرتفع صوت الأحيمر السعدي محتجّاً ينادي بالعدالة إذ رأى نفسه يائساً فقيراً، يعاني شظف العيش، بينما غيره يملك العير الكثير[٣١]

وإني لأستحي لنفسي أن أرى
أمرّ بحبل ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل العبدَ اللئيم بعيرَه
وبعرانُ ربي في البلاد كثيرُ

وفي ظل هذا الظرف نفسه يحدّثنا عبيد ابن أيوب، دون رفاقه الذين –على الأكثر– لم يُظهروا ما قاسوه من الضياع، فنرى عبيد يتحدث عن فاقته وحرمانه، حتى إنه كان

يأكل جذور الشجر المرّ وأزهار الأعشاب في الصحراء، يقول[٣٢]

ألا ياظباء الوحش لا تشمتن بي
وأخفينني إذ كنت منكنّ خافيا
أكلت عروق الشرى معكن فالتوى
بحلقي نورُ القفد حتى ورانيا

فكان لابد لهم من السعي وراء تحقيق العدالة والتكافل بسبب المعاناة والفقر، إلاّ أنّ أغلبهم أضفوا على أنفسهم الصفات الحميدة، لذلك رأوا أن أفضل وسيلة هي الغزو والسلب مسلّمين بأن كأس المنية لابد أن تدور، فخير للإنسان أن يقتل بشرف وهو يسعى لإصلاح وجوده وتحقيق ذاته بوصفه إنساناً ينعم بوجوده على قول النشناش:

فعش معذراً أو مت كريماً فإنني
أرى الموت لا يبقى على من يطالبه

* * *

أهمّ أعلامهم

- مالك بن الريب: من بني مازن التميمي، ومولده ومرباه في بادية تميم بالبصرة وأخباره في الطور الأول من حياته تبدو مجهولة، وجاء في معجم الشعراء أنه كان «أديباً فاتكاً، أصاب الطريق مدة ثم نسك فأمنّه بشر بن مروان»[٣٣]

تتوزع حياته على مرحلتين، مرحلة التلصّص والتصعلك، ومرحلة التوبة، والجهاد في سبيل الله، وشعره منثور في المصادر الأدبية والنحوية واللغوية والتاريخية والجغرافية. تعددت موضوعات شعره في حقبته الأولى، وفيها هجا وندّد وهدّد ولاة الدولة الأموية، وقد عُدّ مع الجعفي من بين أصحاب المروءة والشجاعة والفروسية.[٣٤] وله مقطوعة تروي هروبه من مروان بن الحكم، يقول فيها[٣٥]

تألّى حلفةً في غير جُرم
أميري حارث شبه الصرارِ
عليّ لأجلدن في غير جُرم
ولا أُدنى فينفعني اعتذاري

وفي المرحلة الثانية من حياته، وهي مرحلة الصلاح والتوبة؛ يكشف عن إيمانه العميق وحرصه على نشر الدين الجديد ومقاتلة أعداء الدين، ومن أروع مايدل على ذلك، قصيدته التي قالها وقد تعلقت ابنته بثوبه وبكت عليه خوفاً من أن يطول سفره، وذلك قبل لحاقه بسعيد بن عثمان (رض) إلى خراسان، وسنوردها لاحقاً، في هذه القصيدة يظهر الفرق الكبير بين مالك الصعلوك ومالك الصالح المجاهد، فالعقيدة أضاءت نفس مالك في الطور الثاني من حياته، وغيّرت سلوكه تغييراً تاماً.

- القتّال الكلابي: ضليع فاتك من عشائر بني كلاب التي تحيا حياة الرعي، واختلف

الرواة في نسبه، واختلفوا في العصر الذي عاش فيه، وجاء في الشعر والشعراء لابن قتيبة أنه كان شديد حمرة اللون، يقول:[٣٦]

ورثنا أبانا حمرة اللون عامراً

ولا لون أدنى للهجان من الحمرِ

وغلب عليه لقب القتّال لما عُرف به من تمرده وفتكه. ويذكر أنه رافق نمراً في مغارة أما شعره فقد قسم إلى مجموعتين: الأولى، تتعلق بالمثل الجاهلية والثانية، توزعت نفس توزيع موضوعات الصعاليك الأمويين، ويرى محقق ديوانه أنه يمثل صورة متطرفة لمقاومة كل ما سنته الدولة، ويمثل الثورة على الاستقرار، فضلاً عن إمعانه في حماية نقاء الدم بين أفراد قبيلته.[٣٧]

- **عبيد الله بن الحرّ الجعفي**: سياسي طامع، «من بني مذحج، ولد ونشأ في الكوفة، وكان في صدر شبابه من أفضل قومه صلاحاً»[٣٨]

كان من الفئة الساعية للقضاء على الحكم الأموي، فارس شجاع، وأخبار حياته واضحة، فقد انضمّ أول حياته إلى جيش الفتوح وشارك في معركة القادسيّة،وبعدها رجع إلى الكوفة إلى أن قتل عثمان بن عفان (رض) وأعلن نفسه من شيعته وشايع معاوية بن أبي سفيان، وشارك في موقعة صفيّن، وهناك عوامل كثيرة أدت إلى تصعلكه، فكانت حياته ثورة عارمة، أمّا شعره فقد جمع أبو سعيد أشعاره في كتاب اللصوص وفيه يصور مشكلة الفقر التي عانى منها.

- **عبيد بن أيوب العنبري**: كان فارساً شجاعاً، واتصف بالحكمة ورقة المشاعر، متمسك بقيم الدين الإسلامي، إيمانه عميق وخوفه من الله شديد(٣٩) ونعته الجاحظ بأنه أحد اللصوص(٤٠) بينما مصادر دراسته تدل على حكمته وإيمانه إلى حد الزهد، وأشار ابن قتيبة إلى الأخبار التي تواردت في شعره عن مرافقة الغيلان والذئاب.

- **أبو النشناش**: من لصوص العرب، يعترض القوافل بين الحجاز والشام، وكان في عصر مروان بن الحكم، وحُكي عن الأصمعي في كنيته قولان (ابن النشناش) نقله الزبيدي في شرح القاموس و(أبو النشناش) نقله التبريزي في شرح الحماسة عن أبي العلاء.[٤١]

- **عطارد بن مرّان**: لم يعرف عنه إلاّ أنه حبس مراراً وأنه كان يهاجي جريراً، وأسباب حبسه وباقي تفاصيل حياته مجهولة.[٤٢]

- **الخطيم العكلي**: ذو منزلة في قومه، كان فارساً عاشقاً، ويعتبر من اللصوص[٤٣]

- **السمهري العكلي**: تدل أشعاره المجموعة أنه كان عاشقاً متيماً، وساءه أنه في السجن ولم تفعل قبيلته شيئاً لنجدته، مما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جعله يهجوها، وربما من قصصه يتضح أنه لم يكن لصاً ولا قاتلاً.[٤٤]

- **الأحيمر السعدي:** اعترف بنفسه بخلع قومه له، وأحلّ السلطان دمه فهرب في البوادي، وصنفه ابن قتيبة من اللصوص، ويُروى أنه تاب في شيخوخته.

- أهمّ موضوعاتهم الشعرية

قد تبدو موضوعات الشعراء الصعاليك في العصر الأموي مترادفة مع موضوعات الصعاليك السابقين عليهم، وهذا من حيث السطح الخارجي، كالتشرد وغيره، لكن لا نغفل هنا التباين بسبب اختلاف ظروف الحياة لكلا الطائفتين، وطبيعة الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية. حيث جدّ في الحياة نظام الدولة الذي هو أكثر قوة وفعالية في وضع قوانين من القبيلة الضيقة في قلب الصحراء، فالصعلوك الجاهلي ربما يأوي لقبيلة تُجيره، أما هنا وفي حدود الدولة الأموية فكيف له التملّص في ظل البلاد التي حكمها الأمويّون؟ ناهيك أنّ القبائل رفضت أن تجيرهم، لأخذ بعض الولاة القبائل بجريرة أبنائها. فمثلاً موضوعات صعاليك الجاهلية كانت تدور حول المغامرات والحرفة في الغزو والإغارة، مفاخرين ومؤمنين بما يفعلونه، وغير ذلك مما ذكرناه في الفصل الأول من هذه الدراسة.

أمّا في العصر الأموي فثمة ما هو جديد من حيث المضامين الفكرية والموضوعية، ويحمل جدة وابتكاراً انطلاقاً من الظروف والعوامل المنعكسة عليهم، فكان أولّ هذه الموضوعات هو التعبير عن أحوالهم الذاتية، فقد أغرقوا في إطلاق (الأنا)، فكانوا على الغالب معنيين بوصف أحوالهم وحدهم، واتسمت أشعارهم بالإفصاح عن مشاعرهم الفكرية، وما يختلج في نفوسهم من بواعث لتلك الأحاسيس. وانطلاقاً من هنا سنقسم موضوعاتهم على الشكل التالي:

١- التشرّد والخوف

حيث الحياة في الفيافي ومصاحبة الحيوانات والأنس إلى الوحوش المعروفة منها والأسطورية كالغول مثلاً، حيث الاغتراب عن الآخرين، وبالتالي أحاسيس تصور الحالة الفكرية والنفسية لهم، فحياتهم في هذه الفلوات شأنها شأن سابقيهم من الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وهذا ما عكسته موضوعاتهم فكراً ومضموناً.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن تشردهم في الفلوات ومصاحبة الحيوانات الأليفة والمتوحشة هم: القتّال الكلابي والأحيمر السعدي والسمهري العكلي وجحدر وعبيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بن أيوب العنبري. وكان الجامع بينهم هو القتل والسرقة، فها هو ذا القتال الكلابي يدعو بالخير لجبل عماية الذي أصبح بمثابة الأم الحنون في إيواء هؤلاء المشردين(٤٥)

جزى الله عنا والجزاء بكفه
عمايةَ خيراً، أمّ كل طريدِ

لقد هرب من السجن فطلبه الحاكم، وهذا ما أثار خوفه الشديد، يقول:

وما بي عصيان ولا بعد منزل
ولكنني من خوف مروان أوجلُ

يشير هنا إلى أن تشرده الذي كان بسبب جناية قام بها، فهرب خوفاً من العقوبة، واتخذ لنفسه أماً حنوناً (جبل عماية).

فهاجس الخوف يطاردهم، إذ يشعرون بدنو الإمساك بهم، وبأن الجواسيس يتربصون بهم، فالسمهري العكلي يشعر بقرب إمساك مطارديه به، فيشاور أصدقاءه من خوفه؛ يريد منهم النصيحة، ماذا يفعل وهو الملاحق(٤٦)

فقال الذي أبدى لي النصح منهما
أرى الرأي أن تجتاز نحو عمانِ
فإن لا تكن في حاجب وبلاده
نجاة فقد زلت بك القدمانِ

يشير أحد أصحابه عليه بأن يقصد عمان أملاً بالأمان والنجاة من مطارديه.

ويبدي عبيد بن أيوب العنبري خوفه وهلعه، بعدما تشرد بسبب جناية ارتكبها، فيعكس حالته ونفسيته النادرة بتفرده من بين أصدقائه في التعبير عن الأنس بالحيوانات، وخاصة الأسطورية منها، حيث يلخّص حياته مع هذه الحيوانات، فهو خائف ويزيد من هذا الخوف صوت الذئاب والغيلان،هو والحيوانات أصدقاء الليل الذي تركته الجن، وقد أراد أن يؤكد لمن يسخر منه شدة تماسكه في هذا الموقف المرعب، يقول:(٤٧)

وساخرةٍ مني ولو أن عينها
رأتْ ما ألاقيه من الهول جُنّتِ
أزلُّ وسعلاةٌ وغولٌ بقفرةٍ
إذا الليلُ وارى الجنَّ فيه أرنَّتِ

لقد خاف الناس، فكان بديل الصحبة والألفة العنبري حيوانات الصحراء، يقول:

وحالفتُ الوحوشَ وحالفتني
بقربِ عهودِهنَّ وبالبعادِ

لقد وصل الخوف بالعنبري الذروة، وبات يخشى كل شيء، ويتخيله بأنه إنسان عدوٌّ له، حتى الحمامة الوديعة بات يخاف منها ويتخيلها عدواً، يقول:

لقد خفت حتى لو تمرّ حمامةٌ
لقلتُ عدوٌّ أو طليعةُ معشرِ

لقد أصبح كالوحش في القفار، يشكّ في كل من حوله:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذا قيل خيرٌ قلتُ هذي خديعةٌ
وإن قيل شرٌ قلتُ حقٌّ فشمّرِ

نلاحظ في أشعاره مضامين فكرية جسدت هذه النفسية القلقة حيال هذه الأهوال، ولشدة خوفه سيطر عليه الهوس،واضطربت نفسيته.

إن موضوع التشرّد والخوف في أشعار صعاليك العصر الأموي، جاء بما هو جديد مبتكر فكرياً وموضوعياً، فغيّر من أشياءَ لم يذكرها من سبقهم (الصعاليك الجاهليين)، وهذه الجدة تتبع للعصر الجديد، حيث التحولات السريعة، في مرحلة تاريخية مهمة من تاريخ الأدب العربي.

ونقع في أشعارهم على أبيات في مدح المتمردين، لمواساة هذه النفس الشريدة من جهة،وللشعور بالأنس من خلال اتفاق المواقف من جهة أخرى، وكأنّه نوع من الاطمئنان لتهدئة النفس الثائرة والخائفة معاً.

فالقتّال الكلابي، يمدح عبد الله بن حنظلة الكلابي ليس استجداءً، وإنما لشجاعته، وإعجاباً بموقفه الصلب تجاه الدولة الأموية وقهره لها، فقد رفض دفع الزكاة، وفي ذلك يقول إعجابا بتصرفاته:

سبق ابنُ حنظلةَ السعاةَ بسعيه
للغاية القصوى سريعاً وادعا

غضِبَت بعبد الله إذ غضِبتُ به
غضبت بعبد الله سيفاً قاطعا

ويبدو أن صنيع المتمردين يُشعر الصعاليك بالطمأنينة، والسعادة.

٢ - الحنين

يعدُّ هذا الموضوع من المواضيع الهامة في تاريخ الأدب العربي، إذ ظهر في معظم العصور الأدبية، وعلى الرغم من وطئة الحياة في الصحراء ظل هؤلاء يحنون إلى الأهل والأحباب، أو إلى أماكن بعينها، وإلى أيام وذكريات خلت، وأنماط حياتهم السابقة.

فعادت الذاكرة واستدعت تلك اللحظات الحياتية بين الأهل والأحبة والطبيعة، هذه الأيام التي حال بينهم وبينها التشرّد والسجن،وتُعدّ يائية مالك بن الرّيب من أشهر النصوص التي تصور حنين الشاعر إلى الأهل والأحباب والأرض والأشجار، فينطلق نشيج النفس ونداؤها عبر الفيافي:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا(٤٨)

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي
بذي الطبسين فالتفتُ ورائيا(٤٩)

أجبتُ الهوى لما دعاني، بزفرةٍ
تقنّعت منها أن أُلام، ردائيا

وفي قصيدته التي يذكر فيها بكاء ابنته

قبل رحيله مع سعيد بن عثمان بن عفان (رض) إلى خراسان، نراه يرسم صورة إنسانية تتجلى فيها الأبوة والحنين، عندما تمسك ابنته بطرف ردائه باكية عليه - وهو واقع بين عطف الأبوة وبين الواجب الديني للجهاد في سبيل الله، وسنأتي بها لاحقاً.

وهذا حريث بن عنّاب، يحنّ إلى حبيبته، التي بعد أن وُعد بالزواج منها، خطبها رجل من بني ثعل وكان موسراً فإذا بها تميل إليه وتترك حريثاً، فنراه يبدي حنينه متألماً ثائراً على حبيبته (حبّى بنت الأسود)، فيعتلج الحنين في صدره، ويصدر عن الإنسان الفقير في مجتمع متوتر، حيث يلخص جانباً من الحياة الاجتماعية، ويقرّ بأنه لن يأمن بعدها أية حبيبة، يقول[٥٠]

ياويح كل محب كيف أرحمه
لأنني عارفٌ صدقَ الذي يصفُ
لا تأمنن بعد (حبّى) خلةً أبداً
على الخيانة، إن الخائن الطرفُ[٥١]

وها هو الأحيمر السعدي يجد نخلة في إقليم ((فوزستان)) (عربستان حاليا)، حيث أصبحت هذه المناطق جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى بعد الفتوحات الإسلامية، فيطلق الأحيمر أناته ومواجعه داعياً، فيقول[٥٢]

أيا نخلاتِ الكرم لا زال رائحا
عليكنَّ منهلَ الغمام مطيرُ
سُقيتن - مادامت بنجد نخلةُ
عوامر تجري بينكنَّ بحورُ
سُقيتن - مادامت بنجد وشيجةُ
ولا زال يسعى بينكنَّ غديرُ[٥٣]

لقد تحولت النخلة في ضميره وروحه إلى رمز للأهل والديار، فدعا لها بهذا الدعاء. لقد أبدى الصعاليك حنينهم، وأطلقوا صيحاتهم متألمين متذكرين الأيام الخوالي، أما الحنين الطالع من رحم السجون فهو يختلف. فالقتّال الكلابي وهو في سجن المدينة في أيام الخليفة مروان بن الحكم، يحنّ إلى أميمة - رمز الحبيبة - وقبيل ارتفاع الشمس في الأفق فينظر إلى ظعن أظهره له خياله عندما أبرزله الليل المؤذن بالرحيل بعض المعالم من جبل (سلع) أمامه، ويرتفع من أعماقه معها ما يشبه الأنين، في قوله[٥٤]

ألا حبّذا تلك الديارُ وأهلها
لو أنّ عذابي بالمدينة ينجلي

ويذكر طهمان الكلابي ليلاه وأميمته فيقول:

لعلّك بعد القيد والسجن أن ترى
تمرّ على ليلى وأنت طليقُ

يُنبّئ بمرض ليلاه في العراق، وهو لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك إلاّ أنه يدعو لها وينشغل بها عن الهم والآلام فيقول:

سقى الله مرضى بالعراق فإنني
على كل شاكٍ بالعراق شفيقُ

أمّا جعفر بن علبة، وهو في سجنه يبدي حنينه إلى هواه حيث تخيله مع الركب اليماني مصعداً بينما هو في سجن مكة، قائلاً:

عجبت لمسراها وأنّى تخلّصتُ
إليّ وباب السجن دوني مغلقُ

ألمّت فحيّت ثم قامت فودّعتْ
فلمّا تولّت كادت النفسُ تزهقُ

ويبدي الخطيم المحرزي الحنين إلى الأهل والأحباب والديار؛ والتمسك بالأرض والقبيلة،لا يعدّ له أي مكان غير ذلك حتى الشام وعمان فيقول:(٥٥)

أعوذ بربي أن أرى الشامَ بعدَها
وعمّانَ ما غنّى الحمامُ وغرّدا

ويتفجّر الحنين في قلب العنبري وهو رهين خوفه، حيث بلغ اليأس الذروة في قلبه، فيخاطب جمَله قائلاً:

أيا جملي إن أنت زرتَ بلادها
برحلي وأجلادي فأنتَ محرَّرُ

وكيف ترجيّها وقد حال دونها
من الأرض مخشيُّ التنائف مذعرُ(٥٦)

لقد تحدث إلى جمَله ليبدي توقه إلى زيارة المحبوبة، لكنّه يدرك أن هذا الأمر مستحيل؛ ذلك أن البراري تحول بينه وبينها. لقد أسبغ على الجمل صفة إنسانية، وهذه صورة تؤكد تجذّر الروح الإنسانية التي زادت من ألفته مع الحيوان من حوله مقابل خوفه المتعاظم من الناس، لقد رهن نفسه إلى هذا الحب خشية من عقاب السلطة؛ وهنا نلاحظ الارتباط بين الشاعر وبيئته بما فيها من حيوانات أليفة ومتوحشة.

٣ - وصف السجون

لقد أصبحت هنالك دولة وأنظمة وقوانين، ومن هنا يبدو التمييز بين الصعاليك السابقين للإسلام، وصعاليك هذا العصر، فمن تظفر الدولة به تضعه في السجن ومنهم مالك بن الرّيب التميمي وأبو النشناش وجحدر المحرزي وغيرهم...

وفي هذا السجن جادت قرائحهم بأشعار تفرعت معانيها وكنا سابقاً ذكرنا الحنين المنبعث من داخل ظلمات السجون، لكنهم أيضاً وصفوا هذه السجون، الأبواب والألوان، وكثرة السجناء، وألوان العذاب المستخدمة، خلف هذه الأبواب الموصدة.

فالقتّال الكلابي وهو المعروف بالشراسة والشجاعة لم يتحمّل الذلّ والعذاب، فقتل سجّانه وهرب يقول:(٥٧)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولما رأيتُ الباب قد حيل دونه
وخفتُ لحاقاً من كتاب مؤجّلِ
رددتُ على المكروه نفساً شريةً
إذا وطنت لم تُستقد للتذلّلِ

فقرر الهرب لأنه لا يرضى الذلّ والضيم.

ويصوّر جحدر بن معاوية العكلي كرهه سجن الحجّاج في الكوفة قائلاً[58]

يارِبّ أبغض بيتٍ عند خالقه
بيتٌ بكوفان منه أُشعلت سقرُ
دار عليها عفاء الدهر موحشةٌ
من كل أنس، وفيها البدو والحضرُ

ويحرّض جعفر بن علبه أخاه، بعد أن يصف له حاله في السجن، يحرسه ثلاثة حراس وقيوده تثقل عليه الحركة، فيحرّض أخاه بالذهاب إلى السلطة للنظر في هذا الأمر،يقول:[59]

ولوبك كانتْ لأبتعثُ مطيتي
يعود الحفا أخفافها وتجولُ
إلى العدل حتى يصدرَ الأمرُ مصدراً
وتبرأ منكم قالةٌ وعذول

ويصف السمهري حال رفاقه في السجن قائلاً[60]

لقد جمع الحدّادُ بين عصابةٍ
تساءلُ في الأسجان ماذا ذنوبُها ؟
مقرّنة الأقدام في السجن تشتكي
طنابيب قد أمست مبيناً علوبُها
بمنزلةٍ، أمّا اللئيم فآمنٌ
بها، وكرام القوم بادٍ شحوبُها

ويصف عطارد بن قرّان حاله وحال السجناء ومعاناتهم، ويصف حاله وحال سجّانه مبيناً العذاب والفارق بينه وبين سجّانه، بل وبين أصدقائه السجناء، فيقول:

يقودني الأخشنُ الحدّاد مؤتزراً
يمشي العرضنة مختالاً بتقييدي[61]
إني وأخشن في حجر لمختلفا
حالٍ، وما ناعم حالاً كمجهودِ
ونحن في عصبة عضّ الحديدُ بهم
من مشتكٍ، كبلُهُ منهم ومصفودِ

ويأسى مالك بن الرّيب أشد الأسى، لما يلاقيه في سجنه، فيقول:

أتلحقُ بالرّيب الرفاقُ ومالك
بمكةَ في سجن يعينه راقبُهْ

لقد وصفوا معاناتهم في السجون، ووجهوا الرسائل إلى القبائل التي تخلت عنهم لائمين عاتبين، مذكّرين إيّاهم بمواقفهم النبيلة مع تلك القبائل، آسفين على غدر الزمان بهم؛ علّ صوتهم يصل للأصحاب والقوم.

فنرى عبيد الله بن الحرّ الجعفي، يحاول إيصال صوته لأصحابه، يشرح لهم عناءه المرّ داخل السجن في هذا المكان الجديد الذي لم

يألفـه، فهو فارس شجاع، كيف يُلقى هكذا؟

يقول[٦٢]

مـن مبلغُ الفتيان أنَّ أخاهم
أتـى دونه بابٌ منيعٌ وحاجبُهْ
بمنزلةٍ ما كان يرضى بمثلها
إذا قام عنَّته كبولٌ تجاوبُهْ

ويقول السمهري العكلي:

ألا ليتني من غير عكلٍ قبيلتي
ولم أدر ما شبّان عكلٍ وشِيبُها
فإن تك عكلُ سرّها ما أصابني
فقد كنت مصبوباً على من يريبُها

أحرقه يأسه بنار الألم الذي وصل به حد التخلي عن قبيلته التي ارتضت له هذه الحياة الصعبة. ويخاطب جحدر المحرزي قومه لينجدوه مما ألمّ به، لائماً تخليهم عن فرد ذكي من أفرادها؟ لقد أرهقه السجن وأتعبه، فهل من خلاص لذلك؟ يقول:

بني محرز من تجعلون خليفتي
إذا نابكم يوماً جسيمٌ من الأمرِ
فقد كنت أنهى عنكم كلَّ ظالمٍ
وأدفعُ عنكم باليدين وبالنمرِ

انطلقت صيحاتهم عبر الجدران مدوية في الصدى، لتصل أو تحرّك أحاسيس تشعر بهم في هذا الظلام المرهق.

٤- الإباء والاعتداد بالنفس

إن الحياة القاسية التي فُرضت عليهم لم تقضِ على الإنسان فيهم، فلم ينسوا كبرياءهم وإباءهم، فصوّروا لنا جانباً من هذا الإباء بأشعارهم، وكما مرَّ سابقاً، القتّال الكلابي لشدة إبائه واعتداده بشجاعته يرفض الذلّ فيقتل السجّان ويهرب.

وهاهو مالك بن الرّيب، عندما طلبه مروان بن الحكم، يقول معبّراً عن اعتداده بنفسه في مواجهة مطارديه:[٦٣]

ألا من مبلغٌ مروانَ عنّي
فإني ليس دهري بالفرارِ
ولا جزعٌ من الحدثان يوماً
ولكني أرودُ لكم وبارِ

فهو شجاع لا يؤمن بالفرار ولا الجزع من نوائب الأيام، ويستطيع أن يطأ أية أرض لم يطأها أحد قبله، ويبلغ اعتداده بنفسه، إلى السخرية من السلطة، مذكرّهم (آل مروان) بالتجائهم إلى قبيلته في مواجهة التهديدات والمخاطر، فيقول:

لو كنتم تنكرون الغدرَ قلتُ لكم
يا آلَ مروانَ جاري منكم الحكمُ
نحن الذين إذا خفتُم مجلّلَةً
قلتم لنا: إننا منكم، لتعتصموا
حتى إذا انفرجت عنكم دجنّتها
صرتم كجرمٍ فلا آلٌ ولا رحمُ

وتكثر في أشعار الجعفي والعنبري والخطيم المحرزي، صور الاعتداد بالنفس. ويصوّر مرّة بن محكان الكرم البالغ وهو يخاطب امرأته وقد نزل به ضيوف، مشيراً إلى فخره بنفسه:

يا ربة البيت قومي غيرَ صاغرةٍ
ضمّي إليكِ رحالَ القوم والقربا
ثم، ماذا ترين؟ أندنيهم لأرحلنا
في جانب البيت؟ أم نبني لهم قببا ؟
ثم، أنا ابن محكانَ، أخوالي بنو مطرٍ
أُنمى إليهم وكانوا معشراً نُجبا

ويعتدُّ طمهان الكلابي بقرابة أمه من الخليفة عبد الملك بن مروان،فيعتدُّ بهذه القرابة وعلى الخليفة أن يعتدُّ بهذه القرابة أيضاً، يقول:

يا خيرَ ما بُسطت له إيماننا
بعد النبيّ، وخيرَ ماأتى زائرِ
أمي عبيدةُ أختُ أمّ أبيكُمُ
بنتا عبيدٍ من ذؤابةِ عامرِ

ويفخر حريث بن عنّاب بقومه الذين تنحني لهم الجبال إذا خرجوا لأمر يقول:

إذا ما خرجنا خرّت الأكم سجّدا
لعزّ علا حيزومُهُ وبراجمُهُ
إذا نحن سرنا بين شرقٍ ومغربٍ
تحرّك يقظانُ التراب ونائمُهُ

ويعتدُّ القتّال الكلابي بنفسه فيقول:

جليدٌ، كريمٌ، خيمه وطباعُهُ
على خير ما تُبنى عليه الضرائبُ

ويفخر بنسبه كونه ابن امرأةٍ كريمة الأصل ليست من الإماء:

لا أرضع الدهرَ إلا ثدي واضحةٍ
لواضحِ الخدِّ يحمي حوزةَ الدارِ
من آل سفيانَ أورقاءَ يمنعُها
تحت العجاجة ضربٌ غيرُ عوّارِ

ويفخر العديل بن الفرخ بانتسابه إلى قبيلة بكر بن وائل، فأصبحت أنشودته الوطنية، يقول[٦٤]

فإذا افتخرتُ فخرتُ غير مغربِ
بالأكرمينَ الأكثرين رجالا
بربيعةَ الأثرين في أيامها
والأطولين فوارعاً وجبالا

لقد صوّروا في أشعارهم نزعة الكبرياء والشمم الذي يعكس بشكل أو بآخر أحد أسباب تمردهم على الضيم والهوان، وضمنوها مضامين ذات طابع خاص عن هذه الشخصية التي أعلنت انتماءها للصحراء بحثاً عن هوية لها.

٥ - التوبة والاستغفار

هنا نرى نفحات إيمانية مبثوثة في أشعارهم، حيث تظهر الحكمة إلى جانب هذا الإيمان والصبر. فجحدر المحرزي بعد طوافه في القفار ونزوله عدداً من السجون؛

يلجأ إلى خياله للتصبر وعزاء النفس، فيعود بذاكرته إلى لحظات شفيفة -ليعوض عن ضيق المكان- بلغة زاهدة، ويدعو الله تعالى طالباً منه التوبة والمغفرة، مخاطباً نفسه:(٦٥)

إنّي إلى أجلٍ إن كنتِ عالمةً
إليه ما منتهى علمي وآثاري
لله أنت فإن يعصمكِ فاعتصمي
وإن كذبتِ فحسبي الله من جارِ

يلجأ في سجنه إلى الله تعالى،مسترحماً زاهداً:

إنّي دعوتك يا إله محمد
دعوى فأوّلها لي استغفارُ
لتجيرني من شرّ ما أنا خائفٌ
ربَّ البرية، ليس مثلك جارُ

ويناجي العنبري الله تعالى تائباً مستغفراً طالباً العفو، قائلاً:

ياربِّ قد حلف الأعداءُ واجتهدوا
إيمانهم أنّني من ساكني النارِ
أيحلفون على عمياءَ، ويحهمُ
ما علمهم بعظيم العفو غفّارِ
إنّي لأرجو من الرحمن مغفرةً
ومنّةً من قوام الدين جبّارِ

ويذكر الدكتور نوري القيسي أن هذه النفس لوّنت «قسمات شعره بلون باهت من الزهد» مع مسحة خفيفة هي من مسحات المتصوفة.

ويقرّع العنبري أعداءه لعدم علمهم بعظيم العفو، ويطمئن إلى الخالق عز وجل، فقد قام بأعمال شائنة عندما لم يكن له عقل ولا دين، وعندما عاد إلى عقله صحا من كبوته يقول:

يا ربِّ عفوك من ذي توبة وجلٍ
كأنه من حذار الناس مجنونُ
قد كان قدّم أعمالاً مقاربة
أيامَ ليس له عقلٌ ولا دينُ

فقد قدّم هذا النفث الإيماني البالغ فيه حدّ الزهد متضرعاً لله تعالى ليعفو عنه ويدخله الجنة، ونجد هذه الرؤية الجديدة المبدعة عند القتّال الكلابي:

سأعتبُ أهلَ الدين مما يريبهم
وأتبعُ عقلي ما هدى لي أوّلُ

ويتوب الأحيمر السعدي عن السلب والنهب، ويزجر نفسه لكي لا تتطّلع إلى القوافل وتحنّ إلى أيام السلب والفتك في صباه، يقول(٦٦)

قل للصوص بني اللخناء يحتسبوا
بزّ العراق وينسوا طرقةَ العينِ
ويتركوا الخزّ والديباج يلبسُهُ
بيضُ الموالي ذوو الشذرات والعكنِ

ARCHIVE
http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

أشكو إلى الله صبري عن رواحلهم
وما ألاقي إذا مرّت من الحزنِ
لكن ليالي نلقاهم فنسلبهُم
سقياً لذاك زماناً كانَ من زمنِ

فهم يمتلكون رؤية إيمانية على الرغم من هذه الحياة الشريدة، يؤمنون بقضاء الله وقدره، فبدت جلية هذه الرؤية في أشعارهم أثناء تشردهم، كقول السمهري ناصحاً صاحبيه في رحلة التشرد.(٦٧)

فلا تيأسا من رحمة الله وأنزلا
بوادي جيونا أن تهبّ شمالُ

ويخاطب الخطيم الخليفة سليمان بن عبد الملك، مستجيراً:

فلا والذي من شاء أغوى فلم يكن
له مرشد يوماً ومن شاء أرشدا
يمينُ بلاءٍ ما علمتُ بسيءٍ
عليها وإن قال الحسود فأجهدا

كما أنّ في أشعارهم صوراً من الحكمة، أردنا أن ندمجها مع موضوع التوبة والاستغفار، فقد قدموا رؤى فكرية تنم عن حكمتهم وعمق وشمولية تفكيرهم،كقول مرة ابن محكان مقدماً شيئاً من أفكار الحُكم، والإدارة مخطاباً الحارث بن أبي ربيعة، في زمن مصعب بن الزبير(٦٨)

أحارِ تثبّت في القضاء فإنّه
إذا ما إمامٌ جار في الحكم أقصدا
وانك موقوفٌ على الحكم فاحتفظ
ومهما تصبْهُ اليومَ تدركْ به غدا

ويقدّم العنبري موقفاً فكرياً يتعلق بقوة القبائل والمجتمعات وتهاونها، فيذكر أبرز المسببات لذلك فيقول:(٦٩)

إذا ما أراد الله ذلّ قبيلةٍ
رماها بتشتيتِ الهوى والتخاذلِ
وأوّلُ عجز القوم عمّا ينوبهم
تدافعهم عنه وطولُ التواكلِ

هذه النماذج تبيّن لنا ما أصاب حياة الصعاليك الأمويين من تطور، وما طرأ على أفكارهم من تغيّر، بعد أن شاخوا وارتد بعضهم عن اللصوصية، وكيف كفرّوا عن ذنوبهم متضرعين إلى الله عز وجل ليغفر لهم، داعين إلى الأخلاق الحميدة والسلوك القويم.

تلك كانت أهم أغراض شعرهم مترافقة مع مسيرة حياتهم بين التشرد والسجون، ورأينا أنهم ماثلوا سابقيهم من صعاليك العصر الجاهلي في بعض الموضوعات، كالتشرد والحنين، لكنهم تميّزوا بتلك الرؤى الحاملة لثقافة عصرها في ظل سيادة دولة وتشريع وقوانين.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر والمراجع

الهوامش

١- لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث - القاهرة، المجلد الخامس، ٢٠٠٣م، ص٢٤٠.
٢- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب- بيروت، ط١، ١٩٩٤م (مادة فتك).
٣- لسان العرب/ المجلد السابع ص١٧.
٤- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي د.عبده بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م، ص٢١.
٥- الحياة العربية في الشعر الجاهلي د.أحمد محمد الحوفي، دار القلم - بيروت، ط٤- ١٩٦٢م، ص٣٠٠.
٦- مدخل إلى الأدب الجاهلي، إحسان سركيس، دار الطليعة- بيروت ١٩٧٩م، ص١٩٢.
٧- الأصمعيات، اختيار الأصمعي، تحقيق أحمد محمد شاكر - عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ط٧، ١٩٩٣م، ص١٢٥ وما بعد.
٨- قيم جديدة للأدب العربي، د.عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م، ص٤٣.
٩- مدخل إلى الأدب الجاهلي، انظر ص١٥٢ وما بعد.
١٠- الموقف الأدبي، عدد٤١٨- ٢٠٠٦م، ثقافتنا اللغوية وتحديات العولمة، محمد سعيد طالب ص٤٠.
١١- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس، دار الطليعة- بيروت ط١، ١٩٨١م، ص٢١٦.
١٢- مقالات في الشعر ونقده، د.حسين عطوان، دار الجيل- بيروت ١٩٨٧م. ص٦٥.
١٣- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د.مصطفى الشكعة، عالم الكتب - بيروت ط٣، ١٩٧٩م، انظر ص٨.
١٤- حديث الأربعاء، د.طه حسين، الجزء الثاني، دار المعارف بمصر، ط١٥، ١٩٩٨م، ص١٤.
١٥- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي، د. حسين عطوان، دار الطليعة- بيروت ١٩٧٢م، ص٧٤.
١٦- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د.حسين عطوان، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م، انظر ص٧٤- ٧٥- ٧٦.
١٧- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس، دار الطليعة- بيروت ط١، ١٩٨١م، ص٢١٨.
١٨- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د.حسين عطوان، مرجع سابق، ص٥٤.
١٩- الاغتراب في الشعر الأموي، د.فاطمة حميد السويدي، مكتبة مدبولي - القاهرة ط١، ١٩٩٧م، ص٩٨.
٢٠- المرجع السابق ص١٠٢، وانظر الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ص٣٧.
٢١- الاغتراب في الشعر الأموي ص١٠٢.

٢٢- مقالات في الشعر ونقده، د.حسين عطوان، دار الجيل- بيروت ١٩٨٧م، ص٦٥.
٢٣- الأصمعيات، مرجع سابق، ص١١٨.
٢٤- الاغتراب في الشعر الأموي، ص١٠١ - ١٠٢.
٢٥- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ص٧٢.
٢٦- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، قدّم له الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهارسه الشيخ عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم- بيروت ط٦ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، ص٥٣٤.
٢٧- ديوان القتّال الكلابي، تحقيق وتقديم د.إحسان عباس، دار الثقافة- بيروت ١٩٦١م، ص٤٥.
٢٨- شعراء أمويون، د.نوري حمودي القيسي، مؤسسة دار الكتاب- جامعة الموصل، القسم الأول ١٩٧٦م، ص٢٦٤.
٢٩- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ص٨٩.
٣٠- المرجع السابق، ص٩٩.
٣١- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ص٥٣٤.
٣٢- المصدر السابق ص٥٣٢.
٣٣- معجم الشعراء، المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران ت ٣٧٨هـ) تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٦٥.
٣٤- الشعراء اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملوحي، دار الحضارة الجديدة - بيروت، المجلد الثالث ط١، ١٩٩٣م، انظر ص٧٧٨.
٣٥- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر، الجزء ٢٢ دار الكتب العلمية - بيروت ط٢،١٩٩٢م، ص٢٨٩ - ٢٩٠.
٣٦- الشعر والشعراء، ابن قتيبة ص ٤٧٥. وانظر للاستزادة سمط اللآلئ، البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ) تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف- القاهرة ١٩٦٣م.
٣٧- ديوان القتال، ص١٠وما بعد.
٣٨- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، ص١٨٣.
٣٩- شعراء أمويون، القسم الأول ص١٩٥.
٤٠- البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦١م، ص٦٢.
٤١- الأصمعيات، انظر في الحاشية ص١١٨.
٤٢- معجم الشعراء، المرزباني، ص٣٠٠.
٤٣- شعراء أمويون، القسم الأول ص٢٤٠.
٤٤- الإبداع والاتباع في أشعار فتّاك العصر الأموي، عبد المطلب محمود، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق ٢٠٠٣م، ص٣١.
٤٥- ديوان القتال، ص٤٥.

٤٦- شعراء أمويون، القسم الأول ص١٤٥.

٤٧- المرجع السابق ص٢٠٩.

٤٨- الغضا: شجر ينبت في الرمل- النواجي: السراع

٤٩- أود: موضع في بلاد مازن- الطبسين: كورتان بخراسان

٥٠- الشعراء اللصوص وأخبارهم، المجلد الأول ص١٤٨.

٥١- الطرف: من لا يثبت على امرأة أو صاحب

٥٢- المرجع السابق ص٩٧.

٥٣- وشيجة: عرق الشجر

٥٤- الإبداع والاتباع في أشعار فتّاك العصر الأموي ص٥٠.

٥٥- شعراء أمويون، المجلد الأول ص٢٦٤.

٥٦- التنائف: البراري المقفرة

٥٧- ديوان القتال ص٧٤.

٥٨- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د.حسين عطوان، ص١٢٢.

٥٩- الإبداع والاتباع في أشعار فتّاك العصر الأموي ص٥٨.

٦٠- أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الأول ص٣١.

٦١- العرضنة: أي يمشي مختالاً متعجرفاً.

٦٢- شعراء أمويون، القسم الأول ص٩٢.

٦٣- الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي ص٧٠- ٧١.

٦٤- المرجع السابق ص٧٣.

٦٥- شعراء أمويون، القسم الأول ص١٧٥.

٦٦- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ص١٢٧.

٦٧- شعراء أمويون، القسم الأول ص١٤٥.

٦٨- أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الأول ص١١٥.

٦٩- شعراء أمويون، القسم الأول ص٢٢٢.

القرآن الكريم

المصادر

١- الأصمعيات- اختيار الأصمعي، أبي سعيد عبد الملك قريب بن عبد الملك-١٢-٢١٦ تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة ١٩٩٣م.

٢- الأغاني، أبي فرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر، الجزء الثاني والعشرين، دار الكتب

العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ ١٩٩٢م).
٣- البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦١م.
٤- سمط اللآلئ، البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز، ت٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٦٣ م.
٥- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (أبو عبد الله محمد بن مسلم، ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، الجزء الثاني، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م.
٦- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، قدّم له الشيخ حسن تميم، مراجعة عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة السادسة (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
٧- لسان العرب، ابن منظور، المجلد الخامس، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٨- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
٩- معجم الشعراء، المرزباني، (أبو عبيدالله محمد بن عمران، ت٣٧٨هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
١٠-المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، بيروت- لبنان، الطبعة السادسة بلا تاريخ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

١- الإبداع والاتباع في أشعار فتّاك العصر الأموي، دراسة، عبد المطلب محمود منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣م.
٢- أشعار اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملّوحي، دار الحضارة الجديدة، بيروت الجزء الثالث، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
٣- الاغتراب في الشعر الأموي، د.فاطمة حميد السويدي، مكتبة مدبولي، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
٤- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.
٥- التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، ١٩٧٧م.
٦- حديث الأربعاء،د.طه حسين، الجزء الثاني، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة عشرة ١٩٩٨م.
٧- الحياة العربية في الشعر الجاهلي، د.أحمد الحوفي، دار العلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٢م.
٨- خطاب الطبع والصنعة «رؤية نقدية في المنهج والأصول» د.مصطفى درواش- منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق
٩- دراسات في الأدب الجاهلي، د.عادل جاسم البياتي، منشورات مغربية، الجزء الثاني، ١٩٨٦م.
١٠- ديوان القتّال الكلابي، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.

١١- رحلة الشعر من الأموية إلى العبّاسية، د.مصطفى الشكعة. عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.
١٢- شعراء أمويون، د.نوري حمودي القيسي، مؤسسة دار الكتاب، جامعة الموصل، ١٩٧٦م.
١٣- الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، د.يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
١٤- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د.عبده بدوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
١٥- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، د.حسين عطوان، دار المعارف، مصر١٩٧٠م.
١٦- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.يوسف خليف، دار المعارف، مصر ١٩٥٩م.
١٧- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.د.يوسف خليف، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م.
١٨- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، د.حسين عطوان، دار الطليعة، بيروت.١٩٧٢م.
١٩- الصورة والبناء الشعري، د.محمد حسن عبد الله، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٨١م.
٢٠- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
٢١- العصر الإسلامي، د.شوقي، ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة.
٢٢- قيم جديدة في الأدب العربي، د.عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.
٢٣- المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تسعديت فوراري، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٨م.
٢٤- مدخل إلى الأدب الجاهلي، إحسان سركيس، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩م.
٢٥- مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات بالجزائر.
٢٦- مقالات في الشعر ونقده، د.حسين عطوان، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧م.
٢٧- الموازنة بين الشعراء، د.زكي المبارك، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
٢٨- النقد الأدبي ومناهجه، سيد قطب، دار الكتب العربية، بيروت، بلا تاريخ.
٢٩- وعي الحداثة، دراسة جمالية في الحداثة الشعرية، د.سعد الدين كليب، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٧م.

مجلة «لير» الفرنسية:
لوكليزيو أكبر كاتب فرنسي على قيد الحياة

إبراهيم سلوم ◉

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة:

تستأثـر جائزة نوبل الأدبية بشكل خاص باهتمـام واسع في العالم، ولعلَّ السبب هــو أن النص الأدبي يصل إلى كل الناس، بينما جوائز نوبل الأخرى تعنـي المختصـين في الحقـول الأخرى التـي تُمنح لهم في مجـالات العلوم والاقتصاد.

ففـي يوم الخميس الواقـع في ٩تشرين الأول من العـام ٢٠٠٨م أعلنت الأكاديمية الملكيـة السويدية للعلوم في العاصمـة ستوكهولم عن فوز الكاتب

◉ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الفرنسي جان – ماري غوستاف لوكليزيو بجائزة نوبل لذاك العام. وقالت الأكاديمية في بيانٍ لها إنها قررت منح الجائزة لهذا الكاتب الفرنسي لكونه «صاحب أفكار جديدة، وكاتب النشوة الحسية، والمغامرة الشعرية، والباحث عن الإنسانية داخل الحضارة السائدة وخارجها». فبإسلوبه الصافي والبسيط يحتل لوكليزيو منذ سنوات عدة موقعاً فريداً في فرنسا حيث يحظى باحترام وإعجاب منقطعي النظير، فهو من الأدباء القلائل الذين تلقى كتبهم إقبالاً كبيراً، وتُباع بأعداد كبيرة مع حفاظها على معايير أدبية عالية. لُقب بكاتب «الترحال» و«هندي في المدينة» و«المتوحد الرائع»، نسبةً إلى المذهب القائل بوحدة الوجود. أما إطلاق صفة الترحال عليه فلأنه الكاتب الوحيد الذي لم يحط رحاله بل بقي كالبدوي هائماً على وجه الأرض. وتبقى كلها ألقاباً تشهد على شغفه بالطبيعة والثقافات القديمة والفضاءات البعيدة، لدرجة أنه ابتكر في أعماله عالماً صنعه من نسج خياله حيث حضارة المايا تتحاور مع هنود الامبيرا البنميين، وبدو الجنوب المغربي يختلطون بالعبيد الهاربين من جزيرة موريس في المحيط الهندي، ويتعايشون معهم بأمان وسلام في طنجة ومرسيليا.

وعلى الرغم من بلوغه سنّ الثامنة والستين حين أُعطيت له جائزة نوبل، إلا أنه احتفظ دوماً بمظهر فتى ممشوق القامة، ذي عينين زرقاوين. وهو ليس متوحداً بالقدر الذي يُقال عنه لكنه إنسان خفر وخجول، متكتم، ومقلّ بكلامه، وحين يتكلم فإنه يختار كلامه بصفاء ووضوح وثقة. وقد لفت الانتباه إليه بشدة مع صدور أول رواية طويلة له بعنوان: «المحضر الرسمي» الصادرة في عام١٩٦٣م. ثم حقق تقدماً كمؤلف روائي مع صدور روايته «الصحراء» في العام ١٩٨٠م التي أهلته للفوز بجائزة نوبل للأدب. وضمن هذا السياق قالت الأكاديمية السويدية في بيانها: «إن رواية «الصحراء» تحتوي على صور رائعة للثقافة المفقودة في شمال أفريقيا التي تتناقض مع صورتها في أوروبة الرافضة لأي ثقافة قادمة من الدول التي تبعث بالمهاجرين إليها. كما أنها تساعد على اكتشاف عالم أو تاريخ أسرة لوكليزيو الشخصي، مثلما هو الحال في رواية «الطوفان» التي يتحدث فيها الكاتب عن رحلة جده إلى جزيرة «موريس» طمعاً بالعيش الهنيء فيها».

من جانبه أكد لوكليزيو أن فوزه بالجائزة يمثل بالنسبة له تشجيعاً على مواصلة الكتابة، ودفعةً إلى الأمام تعطيه الزخم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقوة، وتحفزه على مواصلة العمل، مشيراً في تصريحات لإذاعة «فرانس إنتر» الفرنسية إلى أنه من المهم للكاتب أن يتلقى ردود فعل على أعماله. وأوضح الأديب الفرنسي أن الكتابة بالنسبة له مثل تغيير جلده والدخول في شخصية وجنس آخر بقوله: «أكتب الروايات لأني لا أستطيع كتابة المذكرات».

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وكانت وسائل الإعلام الفرنسية قد رجحت فوز لوكليزيو بجائزة نوبل قبل إعلان الأكاديمية الملكية السويدية للخبر بشكل رسمي. والجدير بالذكر أن هذه الجائزة التي تُقدر قيمتها المالية بمليون يورو كانت قد ذهبت في العام الذي سبقه إلى الأديبة الإنكليزية «دوريس ليسينج».

* * *

وُلد جان - ماري غوستاف لوكليزيو عام ١٩٤٠م في مدينة «نيس» الفرنسية من أب طبيب وأم ينحدران من منطقة «البريتانيا» الواقعة في غرب فرنسا على المحيط الأطلسي. وكانت عائلته قد هاجرت بعد قيام الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر إلى جزيرة «موريس» في المحيط الهندي لتعود إلى فرنسا في بداية القرن العشرين.

بدأ لوكليزيو رحلته مع الكتابة منذ عام ١٩٤٨م أي منذ أن كان في الثامنة من عمره. وفي ذلك العام انتقل إلى نيجريا مع أسرته حيث وجد جده عملاً له هناك، وعاش فيها بضع سنوات، مما مكّنه من الطواف في مجاهل أفريقيا. وفي هذه الفترة بدأ لوكليزيو يفكر في الانخراط بعدة مهن من أجل

كسب حياته وإيجـاد مصدر رزق له، ففكر أن يعمل سائق «ترامـوي»، وبحاراً، غير أن شغفـه بالكتابة جعله يتجه نحو مهنة الأدب فكتـب وهو في الثانية عشر من العمر قصة مصورة بعنوان: «رحلة طويلة»، غير أن هذا التوجـه لم ينل رضاه إذ كتب بعد ذلك يقول: «لقد أنجزت الكثير مـن القصص المصورة بين عمر الثانية عشرة والسابعة عشرة. كان عالمي يقترب كثيراً من عالم «تان تان» (١)، بطل الحكايات والمغامرات التـي يحب الأطفال قراءتها والاطلاع على سـير أحداثها. غير أن رسوماتي لم تكن ذات مستوى عالٍ. وحين أدركت بأنني لن أتوفق أبداً في رسم الأيدي بدقة توقفت عن الرسم وعن كتابة القصص المصـورة. كذلك حاولت كتابة أبيات شعرية مقلـداً الشاعر الفرنسـي «رامبو» من دون أن أقرأهـا على أحـد أو يطّلع عليها أحد. وفجأةً قررت إهمال الشعر والتوجه إلى عالم الرواية، فبدأت أكتـب روايات بسيطة جدّاً حيث بـدت شخصياتهـا ساذجة وبليدة في وجودها».

ويستطـرد قائـلاً: «منذ ذلـك الحين أعجبنـي كثـيراً ما كنت أقوم بـه من كتابة الروايـة الأدبية» وأدركت حالاً بأني أستطيع كتابة مـا أرغب في كتابتـه بحيث أصبحت الكتابـة أفضل وسيلة مفضلـة للتعبير عن آرائي وما يجول بخاطري بعد أن فهمت بأنه لا يمكنني أن أصبـح رساماً أو شاعراً. لقد تبـين لي بأن هناك واحـداً من أمرين: «إما الخـوف من أن يبتلعنا الأدب، وإما أن نبتلع أنفسنا. وإذا ابتلع المرء نفسه أصبح مجنوناً، وإذا جعل الأدب يبتلعه أصبح كاتباً».

ليـس من شـك البتة في الخيـار الذي اتخذه لوكليزيو منذ البداية، فقد سلّم نفسه إلى الأدب ليـس تسليماً لغويـاً فحسب، بل تسليماً كيانياً ماحقاً، منصرفاً إليه بجوارح عقله ووجـوده، ولاجئاً كامـل اللجوء إليه، جاعـلاً من الإنسان موضوعـه الأثير، ومن الكلمـات وطنـه الحقيقي، ومـن الجنون، ونعني به جنون الأدب - الزورق الذي ينقذه من الغرق في جنون الذات.

وبحلول عام ١٩٦٠م يتزوج لوكليزيو وهو في عمر العشريـن من الآنسة ماري روزالي، وهـي شابة وُلـدت في العاصمـة البولونية وارسـو من أب فرنسي كان يعمل ضابطاً في الجيش الفرنسي، ومن أم بولونية. تمَّ الزواج في لندن نظراً لانتساب لوكليزيو إلى جامعتها حينـذاك من أجل دراسة اللغـة الإنكليزية وآدابهـا. وفي لندن ولدت لهما طفلة دُعيت باسم «باتريسيا». وفي عـام١٩٦٢م يحصل لوكليزيـو علـى إجازة في اللغـة الإنكليزية بتقدير: جيد جدّاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في عام ١٩٦٣م أصدر روايته بعنوان «المحضر الرسمي» ونال على أثرها جائزة «رونودو» للآداب، وهي من الجوائز الأدبية الخمس الكبيرة في فرنسا، نسبةً إلى مؤسسها الطبيب والصحفي الفرنسي ثيو فراست رونودو الذي أسس في العام ١٦٣١م جريدة «لاغازيت». وقد أُعطي اسمه في العام ١٩٢٥م على الجائزة الأدبية التي تُمنح في كل عام إلى أفضل الكتاب في فرنسا.

كان عمر لوكليزيو وقتذاك ٢٣ عاماً.

وقد كتب العديد من صفحات هذه الرواية في المقاهي وعلى شواطئ البحر، التي تحكي قصة رجل يشكل الشخصية الرئيسية فيها ويدعى «آدم بولو»، وهو مشرد فرّ من أسرته، إن لم يكنْ من المجتمع الإنساني كله ليلجأ إلى منزل مهجور قريب من مدينة منتجعية على شاطئ البحر حيث استمتع هناك بالشمس والسجائر واحتساء البيرة. ولكي يضمن بقاءه على قيد الحياة كان يقوم بسرقة بعض السلع الموجودة في الحوانيت ويشتري بثمنها ما هو بحاجة إليه. ثم يتعرف صدفةً على فتاةٍ ذات نزعة بوهيمية على شاكلته تدعى ميشيل فيعمل على إغوائها ويقوم بمضاجعتها بين حين وآخر في ذاك المنزل المهجور. ولكي يغسل عنه أدران الحضارة كان يستلقي بلا حراك في شقِ وسط الصخور معتقداً بأنه بمقدوره أن يصل إلى حالة الأَشَنة والطحالب.

وفي فصول أخرى من الرواية نراه يتعقب كلباً عبر طرقات المدينة، ويحاول أن يتماثل مع تجارب الحيوانات. وذات يوم يذهب إلى حديقة الحيوانات حيث يراقب اللَّبْوة بدقة وكذلك إناث حيوانات أخرى راغباً في أن يندمج عقلياً وحسياً مع البهائم المختلفة. وينتهي به المطاف بالتعرف على امرأة هرمة تبيع الموز كي تطعم الحيوانات، فيشتري منها موزة ليغريها بالمشاركة في حديث ما. وبعد مرور بضعة أيام يكتشف آدم بأنه أصبح مولعاً بها: إنه كائن بشري على أي حال يحب ويعشق ويكره..إلخ. ولقد أدرك معنى إنسانيته حين يواجه فأراً أبيض في المنزل. أراد أن يجري تناظراً بينه وبين الفأر لكن غريزة القتل تنتصر لديه فتدفعه لقتل الفأر وذلك بعد أن أدرك أنه من صنف آخر غير صنف البهائم. وهنا يبدأ بمخاطبة الحشود في الشارع قائلاً لهم: نحن جميعاً متشابهون، كلنا أخوة. يظنه الناس معتوهاً، وفي الحال يتم إيداعه في مصحّ نفسي حيث يقوم عدد من طلاب كلية الطب بإجراء فحوصات نفسية عليه يرشدهم أستاذ مضجر.

وتنتهي الرواية حين يجد آدم نفسه أمام

القضاء بموجب محضر رسمي تمَّ تنظيمه بحقه للسبب التالي عندما يقول: «حتماً، لقد جاء في المحضر الرسمي للشرطة اتهامات عدة بحقي حيث يلومني البعض بأني نمت متمدداً على الأرض على مدى بضعة أيام، وبأني قمت برمي القاذورات في البيت المهجور الذي التجأت إليه، ورسمت على جدرانه صوراً لم أقم بمحوها، وقطفت ورود الحديقة، واحتسيت البيرة تاركاً عبواتها الفارغة في كل مكان، لقد كنت أتخيل بأن مثل هذا العمل سوف يحيلني يوماً أمام القضاء. ومن دون الإحساس بالكبرياء كنت آمل في أن يحكم عليّ القضاء بعقوبة ما حتى أبرئ نفسي من خطيئة الحياة المرّة التي فُرضت عليّ».

في العام ١٩٦٤م ينال لوكليزيو دبلوماً عالياً في فقه اللغة الإنكليزية. ومنذ ذلك الحين بدأ يدخل بقوة إلى الحياة الأدبية الفرنسية ومنها إلى بوابة الأدب العالمي.

وتعاقبت بعد رواية «المحضر الرسمي» الأعمال الأدبية الأخرى من روايات متعددة أهمها: «الحمى» التي أصدرها في العام ١٩٦٥م، وفي هذه الرواية تقدم لنا شخصيات الكاتب أمثلةً صارخة عن أمراض العصر الحديث حيث يوجد مرض انفصام الشخصية كنتيجة مباشرة للاغتراب من جهة، والانطوائية الانعزالية كبديل عن الواقع الذي لا يتناسب مع المكونات النفسية الأولية من جهة أخرى. ففي هذه الرواية نجد تسع قصص تتحدث عن الجنون، وتحتوي كلها على خيال، غير أنها لم تكن مبتدعة بل نهلت مواضعها من تجربة عائلية عاشتها أسرة لوكليزيو نفسها.

وبحلول عام ١٩٦٦م، ينشر رواية «الطوفان»، وفيها يتحدث عن رحلة جده إلى جزيرة «موريس» في المحيط الهندي حيث جاءها مغامراً يبحث عن آفاق جديدة لمواصلة العيش، بقوله: «لقد نجح جدي في أن يجسد حلماً أحببت أنا شخصياً أن أجسده. إنه كتاب رحلة إلى جزيرة نائية، وبطل الرواية فيه يدعى فرانسوا لأن جدي الذي ذهب إلى موريس كان يدعى فرانسوا. وكم أريد أن أجعله توأمي من خلال ذهابي إلى هذه الجزيرة لأسير على خطاه وأرى ما قام به هناك من إرساء عائلة، وأكاد أقول إنه تمكّن من إرساء مملكة ذات ثراء واسع فوق أرض هذه الجزيرة».

كما أصدر رواية «النشوة الحسية» ١٩٦٧م، و«تيرا أماتا» ١٩٦٨م، و«الهارب» ١٩٦٩م، و«الحرب» ١٩٧٠م، و«الجبابرة» ١٩٧٣م.

يتفق النقاد على أن الأعمال الأدبية

التـي أنجزها لوكليزيو يمكـن توزيعها على ثلاث مراحل: الأولى وتمتد من عام ١٩٦٣م إلى ١٩٧٣م. والثانيـة من العام ١٩٧٣م إلى ١٩٩٠م. والثالثـة والأخيرة وتبدأ منذ بداية التسعينـات وحتى حصوله على جائزة نوبل في العام ٢٠٠٨م.

هـذا وتتميـز كل مرحلـة بمواصفات خاصـة. فالمرحلـة الأولى التـي تمتد على مدى عشر سنوات اتصفت بالقلق الوجودي وبنزعة التشاؤم، وتمحـورت حول مواضيع التجانـس والضياع والاغتراب الذي يصيب الفـرد في فضاء المـدن العصريـة، مثلما هو الحـال في رواية «الهـارب» حيث كتب يقـول: «أريد أن أشق طريقـاً لأدمره. أريد أن أحطم مـا خلقته لأخلـق أشياء أخرى، وأقـوم بتحطيمها أيضـاً. إن هذا الحِراك هو الحـراك الحقيقي في حياتـي». ولهذا السبب نـرى البطل في روايات هذه المرحلة هائماً على وجهه في أصقـاع الكون، باحثاً عن نمط حياة أو نظام قِيم جديدة يؤمن له إمكانية العيش بانسجام مع نفسه ومع الغير بعد أن يكون قد تحرر من الشعور بالتشاؤم والعَدَم.

هـذا ويجمـع هـؤلاء النقاد علـى أن شخصيات هذه المرحلة تتصف إما بالاندماج القسـري في دوامة المنافسة ومحاكاة رغبات الآخريـن، والأمراضـ الاجتماعيـة التي تسببها من جهة، وإما بالتوق للانطلاق نحو فضاءات فكريـة أوسع تضمن لهم الانعتاق من السببية العقلانية التـي تفرض نفسها كفلسفـة وحيدة قادرة على إضفاء الشرعية على نظام القيم السائد من جهة أخرى.

أمـا المرحلة الثانية في المسـيرة الأدبية للوكليزيـو فتبـدأ من عـام ١٩٧٣م وحتى عام١٩٩٠م. وفي هذه المرحلة يطلّق الكاتب زوجته الأولى ميشيل ليتزوج ثانيةً من الشابة الصحراوية - المغربية التي تُدعى «جمعية» مـن العـام (١٩٧٥م). ثم يسافـر معها إلى المكسيك وبنمـا حيث يقضيان معـاً أشهر عدة مع الهنود الحمر، وقد كتب يقول: «إن هذه التجربة قد بدّلت حياتي وأفكاري عن عالم الفن وطريقة تصرفي مع الآخرين: كيف أمشي، كيـف أنام وأحـب، وحتى أحلامي تبدلـت». وبالنسبة للكاتب ليس الانتقال في الأمكنة وبين الناس هـو المهم وإنما الشيء الأهم هو سفـر أو ترحال يتغلغل إلى داخل العقل والروح والطبيعة، وتساؤلات الإنسان حول هذا الوجود والقيم، ومعنى الحياة تحت كوابيس الفقـر والمرض والمخدرات والمآسي والحروب، مستخدماً لغـة مفعمة بعبارات المشاعر والانفعالات والأحاسيس التي من شأنها أن تحـوّل الظلال إلى ليل. ففي هذا

المعنى يبدو لوكليزيو شاعراً كبيراً، وهو إن لم يقرض الشعر في حياته لكنه يبقى «صاحب مغامرة شعرية»، كما وصفته الأكاديمية السويدية التي منحته جائزة نوبل.

وخلال هذه المرحلة نشر روايات عدة مثل: «رحلة إلى الجانب الآخر» (١٩٧٥م)، «موندو ورحلات أخرى» (م١٩٧٨)، «المجهول على الأرض» (١٩٧٩م)، «الصحراء» (١٩٨٠م)، هذه الرواية الرائعة التي كان لها الفضل في ترشيحه لنيل جائزة نوبل. كما نشر رواية «ثلاث مدن مقدسة» (١٩٨١م)، و«الدورية» (١٩٨٢م)، «علاقة ميشواكان» (١٩٨٥م)، و«رحلة إلى رودريغ» (١٩٨٦م).

ففي رواية «الصحراء» التي أهلته لنيل جائزة نوبل تدور أحداث هذه الرواية في مشهدين هما: المشهد الأفريقي حيث نرى الطوارق كيف يشقون طريقهم عبر الصحراء بحثاً عن الماء والكلأ، وكيف يحاول المستعمر الفرنسي إزاحتهم عن أرض أجدادهم. وكذلك المشهد الفرنسي حيث يتوزع أبناء الطوارق من الجيل الأخير في أحياء الصفيح بالمغرب وفرنسا بشكل خاص بعد أن قامت فرنسا باقتلاعهم من جذورهم وطمس معالم ثقافتهم وأجبرتهم على سلوك دروب المنفى.

أ) على صعيد المشهد الأفريقي: في الرواية شخصيتان أساسيتان هما: «نور» الفتى الطوارقي الذي يهاجر شمالاً عبر الصحراء المغربية ضمن قافلة من عشائر البربر البدوية، و«لالا» اليتيمة الطوارقية. كما تضم الرواية شخصيات ثانوية تحتفظ لها بحضور طاغٍ مثل: الشيخ ماء العينين، الوجيه والشخصية التاريخية التي يبجلها أبناء القبائل ويخشاها الفرنسيون. إضافةً إلى شخصيات أخرى مثل: «حرتاني» الراعي الذي يستطيع محاورة الحيوانات، ونعمان الصياد والعجوز الممتلئ بالحكايا العجيبة، ورادیش الذي يتدرب على اللصوصية في شوارع مرسيليا. لكن الحضور الذي يهيمن على الرواية هو حضور الصحراء، هذه الأرض التي يتحدث عنها الكاتب بصخورها الوعرة وحرارتها الحارقة ومتاهات كثبانها وتموجات فضائها المفتوح ليست مجرد مكان أو مسرح للأحداث بل هي مملكة الوجود ومصدراً له نظراً لسرمديتها وتغلغلها في أجساد الرجال.

وبشكلٍ عام يكتب لوكليزيو في هذه الرواية عن أناس ملتصقين بالأرض ومنها تأتي حكاياتهم، ومنها يستمدون وجودهم. ومن هذه الرواية أخذ مذهب وحدة الوجود الذي يدين به الكاتب. والرواية تمجد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرجال الزرق (الطوارق) وصحراءهم بقوله: «لم أقتربْ من الصحراء فعلياً إلا منذ وقت قصير. من قبل عبرت بعض الصحاري غير أني لم أتوقف فيها أبداً. كنت مجذوباً إليها عبر الكلام وعبر ما قاله الآخرون عنها، لكنني خلال رحلتي مع زوجتي «جمعية» نحو الساقية الحمراء حيث تعود أصول عائلتها وجدت نفسي أمام طريق يمتد ٣٠٠ كم في الخلاء من دون ماء ومن دون قرى ومن دون غابات ومن دون جبال، كما لو كنا نسير على كوكب غريب. في البداية الكلمات هي التي قادتني نحو الصحراء، لم أتخيل الصحراء كمكان صامت وإنما على العكس كمكان فاعل يستطيع أن يهيج الكلام.

ب) **على صعيد المشهد الفرنسي:** فنرى أن الطوارق أو الرجال الزرق، كما يعرفون محلياً، يزاحون عن أراضي أجدادهم في الشمال الأفريقي على يد جيش الاستعمار الفرنسي. وهنا تتجسد معاناة الجيل الأخير من أبناء الطوارق الذي توزع في المنفى ليعيش في أحياء الصفيح في مدن مثل طنجة بالمغرب ومرسيليا بفرنسا. ومن جهتها استطاعت لالا الطوارقية الحالمة أن تشق طريقها بنجاح في فرنسا التي هاجرت إليها، والتي بقيت تعيش في عالم أسلافها الروحاني، وتقتات على رؤى الرياح المدومة، والرمال السافية. وهنا يفجر الكاتب غضبه العاتي على الحياة السفلية التي تعيشها جحافل الضائعين المشردين الذين جاء بهم الفقر والاضطهاد إلى فرنسا. فلالا لكي تكسب حياتها اضطرت أن تعمل في فندق كنادلة وأن تحبل بولدٍ مجهول الأب، وأن تتحول إلى عارضة أزياء عالمية. لكن لا شيء بمقدوره أن يطفئ معتقدها الديني ولا حبها للصحراء، وعلى ضوء ذلك تتخلى عن نجاحها في فرنسا لتعود إلى مسكنها القديم في طنجة بالمغرب وتنجب مولودها هناك.

ويختتم لوكليزيو روايته مشيراً إلى أن الصحراء كانت وما زالت مبعث وحي وإلهام للكثير ممن يحبونها.

لقد هيجت الصحراء العديد من الكتاب الفرنسيين مثل شارل فوكو وألهمتهم الكثير من الأفكار. والفكرة التي يمكن أن نستمدها من هذه الرواية تتمثل في العلاقة التي تربط ما بين الأرض وسائر مخلوقاتها من بشر وحيوان ونبات بشكل قوي ومتين وذلك عندما يخرج الرجال إلى الصحراء مثلهم كمثل السفن في البحر، وكذلك في قناعة الكاتب بأن وطنه كائن في مكان آخر. ولعلَّ تنقله اللاحق في أفريقيا وأمريكا اللاتينية كان بحثاً عن ذلك الوطن. وقد جاء زواجه بالصحراوية المغربية «جمعية»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليحكم ارتباطه بالصحراء الأفريقية وأبنائها، وهو ارتباط محبة ومصاهرة إذا جاز التعبير. وقد شارك زوجته في نشرها كتاب: «أهل الغيم» الذي يروي رحلة الزوجين إلى الساقية الحمراء بالصحراء المغربية حيث تعيش قبيلتها. والكتاب متابعة شاعرية لحياة أهل الريح الذين يقطعون الصحراء اقتفاءً للمطر. باختصار نقول إن هذه الرواية هي تجربة مباشرة مثلما هي صادرة عن قناعة مبدئية.

وفي حين يرتبط القلق الوجودي والانطوائية الانعزالية والتشاؤم بشخصيات المرحلة الأدبية الأولى عند لوكليزيو، نرى شخصيات روايات المرحلة الثانية تتخلص من هذا القلق وتبلغ التناغم المنشود من خلال إدخال مكونتين هامتين مستمدتين من فكر الحضارة الهندية أولاهما: الروحانية، وأساطير الانبعاث بعد الموت، حيث يتيح الكاتب للغيبيات أن تأخذ مكاناً في تركيب الإنسان النفسي لكي تحرره من التأثيرات السلبية لسببية العقلانية. ففي روايته: «رحلة إلى الطرف الآخر» التي كتبها في المكسيك على سفح بركان باريتان يطرح لوكليزيو مسألة الثقافة الهندية ويعطيها مكانة هامة في عالمنا المعاصر بقوله: «إن الهنود الحمر لديهم أشياء كثيرة ليقولوها لنا. كان لديّ الرغبة في الكتابة. نحن أناس لا يختلف الفن عندهم عن الحياة، ومع ذلك كنت أجد أن هناك وقاحة في الكتابة عن أناس كتومين جداً، لا أريد أن أزعجهم. أنا لا أجد نفسي دوماً مرتاحاً في استخدام أناس ووقائع مجتمع كمواد أدبية أو مجرد مادة لتأليف كتاب ما، فقد تشكل الدعاية التي يحتويها أي كتاب عنهم خطراً عليهم. إنها ليست مسألة أناس خائفين من إضاعة روحهم حين تلتقط صورهم، ولكن ببساطة مسألة أناسٍ هم في حالة دفاع دائمة، أناس بحاجة للحماية. لا يستطيع الهنود الأمريكيون أن يستمروا في الوجود إلا ببناء حواجز دائمة حولهم إذ إن أي محاولة من قبل الغير لعبور هذا الحاجز يشكل عملاً عدوانياً موجهاً ضدهم. وأقول ذلك حتى لا يصبح الفرد سيداً على أخيه الإنسان وعلى الطبيعة بل صدى لهما وامتداداً لعناصر الطبيعة الأربعة: الماء والكلأ والنار والتراب!!»

أما بالنسبة للمرحلة الثالثة في حياته الأدبية التي امتدت من مطلع التسعينيات وحتى عام ٢٠٠٨م، وهو العام الذي حصل فيه على جائزة نوبل فقد كانت هي أيضاً غزيرة بالروايات ومنها: رواية: «النجمة التائهة (١٩٩٢م)، باوانا (١٩٩٣م)، رحلة إلى

رودريــغ (١٩٩٤م)، العزلة (١٩٩٥م)، وهذه الأخيرة تروي حكاية عائلية وهي حكاية جده الـذي عزل في جزيرة موريـس حيث يلعب أحفـاده دوراً كبيراً فيهـا بقوله: «لو لم يقرر جدي العـودة إلى فرنسا بعد تجربة العزلة في جزيرة موريس، لما تزوج فرنسية ولما كنت قد ولدت مـن دون شك». كمـا نشر رواية: «سمكة مـن ذهـب (١٩٩٦م)، العيد المليء بالطـرب (١٩٩٧م)، الصدفـة (١٩٩٨م)، الربيع والفصول الأخرى (١٩٩٩م)، اونيتشا (٢٠٠٠م)، قلب يحترق (٢٠٠١م)،» وفي هذا العام بالذات اختـير لوكليزيو ليكون عضواً في هيئـة تحكيـم جائزة رونـودو التي فاز بها في السابق. كذلك نشر رواية: الثورات (٢٠٠٣م)، أورانيـا (٢٠٠٤م)، بالأسيـر (٢٠٠٥م)، وفي هـذه الرواية يحكي الكاتب عشقه للسينما بقوله: «عندما بدأت بالتردد على صالات السينما في عمر الـ١٦ و١٧ سنة دخلت في حلقة حملـت لي الكثير من المتعة والانفعـالات». وأخيراً تأتـي رواية: لازمة الجوع (٢٠٠٨م) لتكون حتى يومنا هذا آخر روائعه الأدبية.

وخـلال هذه المرحلـة أظهـر لوكليزيو تعاطفـه الشديـد مـع أبناء العـالم الثالث وقضاياهم بدءاً من حرب التحرير الجزائرية وما رافقها من مآسٍ، مروراً بمعايشته الهنود الحمر في غابـات بنما، وانتهـاءً بالقضية الفلسطينية. ففي روايـة «النجمة التائهة» الصـادرة في عـام١٩٩٢م، وفيهـا يتحدث الكاتب عـن تشريـد الشعـب الفلسطيني من أرضـه التاريخيـة ليعشـ في الشتات حالماً بالعودة إلى الجنـة الموعودة. وعندما علمـت إسرائيل بمنح جائـزة نوبل للآداب إلى لوكليزيـو هاجمته بقـوة لأنه يدينها في هذه الرواية ويظهر مدافعاً عن حق الشعب الفلسطيني في الحياة. فضلاً عن أن هجوم الإسرائيليـين لم يكن لهذا السبب فحسب بل لأن الكاتب الإسرائيلـي «عاموس عاز» كان مـن بين المرشحين لنيل هـذه الجائزة التي ذهبت على حد زعم الإسرائيليين إلى كاتب فرنسي لأسبابٍ سياسيـة، فهو على الرغم من عـدم شهرته لكنه يبقى معروفاً برفضه للهيمنة الغربية على العالم. فهو دائماً يكتب عن انتماء الإنسان لهذا الكون ويعطيه حقه في الحياة بصرف النظر عن الجنسية والعرق واللون محاولاً من خلال ذلك مزج الثقافات والحضارات كلها في بوتقة واحدة.

وفي روايـة «اونيتشـا» التي كتبها خلال حرب الخليج يصـرح لوكليزيو بأنه فقد كل الأحـلام والآمال، وبأنه سـوف يتوقف عن الكتابـة التي لا يمكن لهـا أن تزدهر عنده إلا من خلال الآمال «فحـين يُذبح الإنسان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمام عيوننا لا يمكن لأي شيء أن يبرر لنا أن نمسك الريشة ونكتب، هذا ما عانيته أثناء هذه الحرب التي تابعت سيرها على قنوات التلفزة».

وتأتي روايته «السمكة الذهبية» التي أصدرها في العام ١٩٩٧م بمثابة رسالة إلى أخيه الإنسان حين يقول فيها: «أيتها السمكة الذهبية الصغيرة، احترسي على نفسك، فهناك الكثير من حبال القنص والمصايد الممدودة لكِ في هذا العالم». إن الفكرة من وراء هذه الرسالة بسيطة جداً وهي كيف يمكن العيش في عالم لا يراد لك فيه خيراً وكيف يمكن العيش في وسط فاسد؟!

وفي عام ٢٠٠٨م أصدر آخر رواياته بعنوان: «لازمة الجوع»، وفي هذه الرواية التي كتبها خلال وجوده في كوريا الجنوبية أثناء تدريسه للشعر والأدب الفرنسي في جامعة سيؤول يروي لوكليزيو حكاية الجالية الموريسية في باريس في مرحلة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

وفي تشرين الأول من العام نفسه تعلن الأكاديمية الملكية السويدية منح جائزة نوبل للآداب ٢٠٠٨م لجان - ماري غوستاف لوكليزيو، «كاتب النشوة الحسّية، والباحث عن الإنسانية داخل الحضارة السائدة وخارجها، وصاحب الأفكار الجديدة والمغامرة والشعرية». وعلى أثر ذلك قال: «لم أكنْ أنتظر جائزة نوبل، وعندما رنّ جرس الهاتف وتلقيت الخبر كنت منهمكاً بقراءة رواية «ديكتاتورية الحزن» للكاتب ستيغ ديجرمان، وأريد أن أقول: «يجب متابعة قراءة الروايات لأنها وسيلة جيدة لفهم العالم الحالي. إن الروائي ليس فيلسوفاً ولا اختصاصياً في تقنيات اللغة لكنه هو من يكتب ويطرح أسئلة مرة بعد مرة».

والجدير بالذكر أن أحد الصحفيين الفرنسيين كان قد طرح عليه سؤالاً في عام ٢٠٠١م عمّا سيكون ردّه في حال تقرر ترشيحه لجائزة نوبل للآداب فأجاب: «إنه سؤال افتراضي للغاية، لا أعلم ماذا يمكن أن أقوله بالنسبة لجائزة نوبل، ولكنني أعلم ما يمكن أن أقوله علانية». أودّ الحديث عن الحرب التي تقتل الأطفال، فهي بالنسبة لي من أبشع الأمور التي تجري في عصرنا الحالي، والأدب أيضاً هو وسيلة للتذكير بهذه المأساة وإظهارها في المقدمة. لقد تم مؤخراً في باريس وضع حجاب على التماثيل التي ترمز إلى المرأة للتنديد بحال المرأة في أفغانستان وإنكار حريتها، وهذا أمر جيد جداً. وبالطريقة نفسها يجدر بنا أن نضع علامة حمراء من ناحية القلب على كل تماثيل الأطفال للتذكير بأنه في كل لحظة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مكان ما في فلسطين وأمريكا اللاتينية وأفريقيا يموت يومياً طفل بطلقات الرصاص، وما من أحد يتكلم عن هذا الأمر أبداً لسوء الحظ».

الخاتمة:

يُعدّ لوكليزيو بحق من أكثر الكتاب الفرنسيين غزارةً حيث نشر حتى الآن قرابة (٤٨) عملاً أدبياً يتوزع بين الرواية والأطروحة الفلسفية والمجموعات القصصية، إضافة إلى ترجمات عديدة مهمة لتراث الإنسانية الأدبي والديني ومنها (حضارات المكسيك) على وجه الخصوص.وتعبق أعماله المترجمة إلى لغات كثيرة بتوق إلى العوالم الأولى البدائية بصفته كاتباً مبدعاً طليعياً وثائراً عالج في كتاباته الجنون والغربة والعزلة قبل أن ينتقل بعدها إلى أسلوب أكثر هدوءاً وصفاء تصدرته مواضيع الطفولة والتوق إلى الترحال والاهتمام بالأقليات فطاول أدبه جمهوراً أوسع.

وصف البعض أسلوبه بـ«الخيال الميتافيزيقي» نظراً لأن كتابته الكلاسيكية والبسيطة تهز في الواقع أسس الأدب التقليدي وتعيد النظر فيها من دون التوقف عند القشور، وتسعى دوماً إلى الغوص عميقاً مستكشفةً لبّ ما هو مأساوي وحقيقي بحثاً عن اللغة المؤثرة التي تحرك المشاعر وربما تحول الليل إلى ظلّ. وضمن هذا السياق، قال يوماً: «يُخيّل لي أنني شيء صغير على وجه هذه الأرض، والأدب يساعدني في التعبير عن ذلك».

لا نبالغ إذا قلنا إن فوز لوكليزيو بجائزة نوبل للآداب كان اختراقاً لسطوة الصهيونية ونفوذها، وإرهابها، وهو أيضاً صفعة للعنصرية والظلم الصهيوني الذي يصوره بأبشع تجلياته في روايته: «النجمة التائهة». لقد استطاع أن يصمد وأن يستمر في طوافه الإنساني حول العالم ليؤكد أنه مواطن إنساني، وأن إنسانيته الشمولية هي نقيض للعنصرية والتعصب والانغلاق. في الواقع يبقى الإنسان الموضوع الأساسي في أدبه، والأدب هو بيته اللغوي والجسدي والإنساني. وقد جعلته رحلاته وأسفاره فضلاً عن زواجه بصحراوية مغربية موسوماً بهذه الأنسنة المفتوحة على الآخر، والخبرة، والمراس، وفي الوقت نفسه مهجوساً بموضوعات تتفلت من ربقة الأمكنة والأزمنة والانتماءات والمسلمات الضيقة، لكنها تعرف الأصول معرفةً وثيقة وتخرج منها إلى الحرية، الأمر الذي مكّنه من أن يكون إنسانياً بالولادة والفطرة.

كم هو جدير بالتأمل أن يفوز لوكليزيو بجائزة نوبل للآداب كصفعةٍ للعنصرية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكل أنواع الشرور التـي أدانها. كما أن فوز الكاتب الأميركـي الاقتصادي المشهور «بول كروغمـان» بجائزة نوبل للاقتصاد في العام نفسه يشـكل هو أيضـاً إدانـةً لـ«اقتصاد السوق»، فهذا الأخـير ينبه منذ سنوات إلى أن «النيوليبراليـة» ستقود أميركا والعالم إلى كارثـة. وقد تكـون هنالك دلالـةٌ ما لفوز المصري (أحمد زويل) بجائزة نوبل للكيمياء، وإندونيسي بجائزة نوبل للسلام.

وفي استفتاء أجرته مجلة «لير» الفرنسية في العام ١٩٩٤م صُنف لوكليزيو كأكبر كاتب فرنسـي على قيد الحيـاة، وبذلك يُعد أول فرنسي ينال جائزة نوبـل للأداب منذ عام ١٩٨٥م عندما منحت هذه الجائزة إلى رائد الرواية الجديدة الفرنسي «كلود سيمون».

الهوامش

١- بطـل شرائط مصورة ابتكره (هرجه) ١٩٢٩م، له مغامـرات متعددة مع كلبه ميلو والكابتن هادوك، والعالم تورنوسول، والشرطيين دوبون.

المراجع

١- كتاب بعنوان: «في لوكليزيو شيء من البشر وشيء من الثورة»، أمل الشرقي.
٢- جريدة «القدس» ٩/١٠/٢٠٠٨م.
٣- صحيفة «الشرق الأوسط» ١٠/١٠/٢٠٠٨م.
٤- جريدة «النهار» ١٩/١٠/٢٠٠٨م.
٥- «الملحق الثقافي» لجريدة «تشرين» ٢٨/١٠/٢٠٠٨م.
٦- جريدة «البعث» تاريخ ٢٣/١٠/٢٠٠٨م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التاريخ بين اندفاع العاطفة ووقار العلم

د. جهاد طاهر بكفلوني ✽

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تجـري كلمة التاريخ على الألسن وقلّمـا تُرافَق بكلمة علْم، وكأنّ التاريخ رغـم اكتسابه الهويّة الشخصية التـي تعترف به كعلْم له أصوله وفروعه؛ ما يـزال حتى اللحظة خارج دائرة الاعتراف به كعلْـم في نظر بعض الباحثين الذين يشدّدون على أنّ الظاهرة التاريخية تتمّ بفعل الإنسان وليستْ مظهراً مـن مظاهر الطبيعة مثـلاً، كما أنهـا لا تخضع لسلطـة القوانين العلمية الصارمة، لأنّ العاطفـة الإنسانية تؤثر تأثيراً مباشراً عليها وتغريها بالتمرّد على هذه السلطة.

✽ باحث من سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بينما يرى باحثون آخرون أنّ الحقبة التي كان التاريخ يصارع فيها لاكتسابه عضوية الانتساب إلى نادي العلوم كعلم معترَفٍ به، قد ولّتْ إلى غير رجعة، وها هو اليوم يدرَّس علماً تحتفي به أرقى الجامعات العالمية، ويحظى أقطابه بمكانة سامية في دنيا العلم والمعرفة.

والحقّ إنّ العاطفة الإنسانية هي التي تقحم نفسها لا شعورياً في الحادثة التاريخية فتفسد عليها ذلك الصفاء الذي تتّسم به الحادثة العلمية، وهذا العكَر الذي يحدث بسبب العاطفة الإنسانية يجعل خضوعها لمقاييس العلم الصارمة أمراً صعب المنال، فعلى سبيل المثال لايختلف اثنان في أن درجة غليان الماء هي الدرجة ١٠٠ المئوية في ظروف محددة مثل الضغط الجويّ والوسط الطبيعي الذي يغلي فيه الماء، وهنا تجد العاطفة الإنسانية لا تتدخل لا من قريب ولا من بعيد في عملية الغليان، لأن العملية تحدث سواء أكنّا فرحين أم غير فرحين، وسواء شئنا ذلك أم لم نشأ، لذلك نستطيع وضع قانون علميّ يؤمن به الناس جميعاً ولايختلفون عليه وهو أنّ الماء يغلي في درجة حرارة قدرها ١٠٠ درجة مئوية.

بينما تجري الحادثة التاريخية في مكان ما وزمان ما فتسمع شخصاً ما يرويها بطريق تختلف عن رواية شخص آخر، وأحياناً يبدو الاختلاف بين الروايتين معانقاً حدّ التناقض.

وعلى سبيل المثال نحن نرى في العملية التي يقوم بها الفدائيّ الفلسطينيّ دفاعاً عن أرضه المغتصبة عندما يقدم على وضع حزام ناسف يقتل به عدداً من جنود الاحتلال الإسرائيليّ عملية فدائية ونسميّ منفّذها شهيداً ونستعمل هذا الوصف في وسائل إعلامنا التي تتحدّث عن الحادثة، بينما يسمّي الإعلام الإسرائيليّ العملية نفسها عملية إرهابية ويسمّي منفّذها مخرّباً أو إرهابياً، فانظر إلى الفرق بين هذين الوصفين، وانظر إلى تأثير العاطفة الإنسانية في وصف الحادثة الواحدة.

لكنّ إقحام العاطفة الإنسانية نفسها في سرد الحدث التاريخيّ أو وصفه ليس بحال من الأحوال سبباً كافياً لتبنّي ذلك الرأي الذي يشتطّ بعيداً ويغالي كثيراً في تجريد التاريخ من صفته العلمية، إلى درجة يكاد ينفي معها صفة العلم عنه، ويصوّره كحكايات يصول فيها الخيال ويجول، وكأنّ الهدف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرئيسيّ منها إشاعة ذلك الجوّ من الإثارة والدهشة وممارسة تأثيرهما على المستمع والقارئ.

ولقد حاول العلاّمة العربيّ الكبير عبد الرحمن بن خلدون وضع القواعد الناظمة لسير التاريخ على الطريق العلميّ السويّ فيصبح بحقّ علماً مقيّداً بتلك القواعد؛ شأنه شأن العلوم الأخرى التي لم تصنّف في زمرة العلوم إلاّ بعد أن حقّقت جملة من الشروط التي اكتسبت بها حقّ تصنيفها كعلوم.

يقول ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة:

«اعلم أنّ فنّ التاريخ غزير المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذَ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسنِ نظر يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكبانِ به عن المزلات والمغالط؛ لأنّ الأخبار إذا اعتُمِد فيها على مجرّد النقل ولم تُحكَم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسانيّ ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربّما لم يُؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم والحيد عن جادّة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسّرين وأيمّة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرّد النقل غثّاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوفِ على طبائع الكائنات

وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحقّ وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولاسيّما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنّة الكذب ومطيّة الهذر ولا بدّ من ردّها إلى الأصول وعرضها على القواعد».[1]

فابن خلدون ينفخ بهذه السطور الرّوح في جسد التاريخ من خلال تحديد القواعد العلمية الدقيقة التي تجنّبه السقوط في وحول الخطأ وتبعده عن الشبهات، لينهض التاريخ على قدميه بشراً سوياً تدبّ الحياة في كلّ شريان من شرايين جسده.

لقد اجتاز التاريخ خلال مسيرته التي بدأها لانتزاع الاعتراف به كعلم مراحل لم تكن يسيرة، ولعلّ السؤال الذي توجّه به الكثير من الدارسين خلال تلك المسيرة كان: ما هو التاريخ؟!.

إنّ الإجابة على هذا السؤال تفضي إلى مسارب عديدة تنساب فيها العديد من وجهات النظر المتعدّدة تعدّد المؤرّخين الذين يتبنّى كلّ واحد منهم وجهة نظر تختلف قليلاً أو كثيراً عن الأخرى، وبشكل خاص منهم تلك الزمرة من المؤرخين الذين يولون فلسفة التاريخ ذلك القدر الكبير من الاهتمام.

على أنّ هناك اتفاقاً يكاد يكون موضع التقاء بين أولئك المؤرّخين، وهو أنّ التاريخ يعني ذلك العلم الذي يصبّ دائرة اهتمامه بالدرجة الأولى على دراسة الحوادث أو الوقائع التي اختارت زمنَ الوقوع في الماضي، أو هو ذلك العلم الذي يسعى جاهداً لتتبّع الأحداث التي وقعت بالفعل، أو العلم الذي يجعل نطاق اختصاصه منصباً على ترتيب وتضييق السلوك الإنساني عبر الزمن الماضي، وهناك من يتبنّى الرأي القائل إنّ التاريخ لا يعدو كونه سجلاً مكتوباً للماضي أو الأحداث الماضية.

وإذا عدنا إلى كلمات العلاّمة ابن خلدون التي ساقها في مقدّمة مقدّمته، لاحظنا بكلّ يسر الصفة الاجتماعية الملازمة للتاريخ، الذي يبذل قصارى جهده ليكون بالفعل محاولة متّسمة بذلك القدْر المحكم من التنظيم لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية، وسيلته في ذلك ربط كلّ واحدة منها بالأخرى والكشف عن تأثيراتها المختلفة على تشكيل ومسيرة الحضارة الإنسانية.

من هنا ظهر ذلك الاتجاه الذي يصرّ على وجود ذلك الرباط الوثيق بين التاريخ والمنهج التاريخيّ؛ وذلك باعتبار أن البحث

أو التقصّي العلميّ يشكّل كلّ واحد منهما وسيلة موضوعية تتوخّى الوصول إلى نتيجة أو قانون أو قاعدة عامة فيما اصطلح على تسميته بالحقيقة التاريخية.

((مقاصد التاريخ تتغيّر على حسب الأمم ودرجة المدنية، فمقاصده في القرون الوسطى لم تكن عينَ مقاصده الآن، ومقاصده في القرون الوسطى كانت غير مقاصده في القرون التي قبلها وهكذا.

قال المؤرّخ الفرنسيّ (بارانت): كما أنّ الرجال والشعوب لم يفكّروا ولم يعملوا باستعدادات واحدة فكذلك هم لا يرون الحوادث بصورة واحدة، فعلى قدر ما تغيّر النوع الإنسانيّ تغيّر التاريخ أيضاً، ومن المعقول أنّ الصورة تتغيّر كلّما تغيّر نموذجها.

فالتاريخ الحقّ الموحّد الذي يستحقّ الاسم في نظر بعض الأقدمين هو الذي يكتبه رجال رأوه رأيَ العين.

هذا صحيح من جهة أنّ شهود الحوادث هي الشهادة الحقّة التي بقيت لنا.

ولكنّ الأجيال التالية يستطيعون الحكم على الحوادث والسريان في سرائرها وتصوّر روحها وتحديد أسبابها وعللها ونتائجها وعلائقها؛ فالتاريخ يشغلهم من هذه الوجهة بينما مادته الأصليّة التي لا يُسمّى تاريخاً إلاّ بها قد وصلت إليهم بالكتابة أو الرواية لا من طريق المشاهدة والعناية).

طبيعة التاريخ تتعلق بطبيعة المدنية التي فيها الأمة، فقد كان التاريخ في أوّل تكوّن الجماعات مبهماً وقد كان لابساً لبوساً شعرياً.

فقد كان الإنسان الأقدم متديناً مغالياً، وإدراكاته عن الكون ناقصة؛ فكان تاريخه مجتمع أهوائه وأوهامه الاعتقادية وما القصائد الهندية القديمة التي وصلت إلينا والإلياذة المنسوبة لهومير وأعمال وأيام هيزيود إلاّ صوراً ممّا كان عليه التاريخ عند تلك الأمم وهو كما يرى الرائي كان ميداناً لأعمال الآلهة والمتألّهين، ومجالاً للإنسان المسخّر لإرادتهم كالآلة الصمّاء في يد العامل.

لما جاءت العصور التي يسمّونها بعصور الفروسية والبطولة، ابتدأ الناس يشعرون بأنفسهم وأن يدركوا معنى المسؤولية الملقاة على عواتقهم في الحياة فقلّت ذكراهم للآلهة في تاريخهم، ولكنّ التاريخ لم يخرج عن دائرته الأولى وهو أنّه ضربٌ من الشّعر ليس إلاّ.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مصر وبابل كان التاريخ معتنىً به لتخليد ذكرى الملوك فنقشوه على الأحجار فكان ذلك مدعاة لإنارة أحوال تلك الأزمان بنور جليّ عرفنا به علومهم

وصنائعهم وإدارتهم وسياستهم، ولكن في بلاد اليونان لم يشعر الشعب اليونانيّ بضرورة تسجيل حوادثه التاريخية إلاّ بعد أن بلغ مبلغاً صالحاً من المدنية فبقيت أحواله في عصره الأقدم مجالاً للظنون وموضعاً للغموض)).(٢)

محاولات تفسير التاريخ:

إنّ الإنسان في مراحل حياته يمرّ بأحداث كثيرة، بعضها يدخل في إطار الأحداث اليومية التي تشبه رمي الحجر في بحيرة ماء، فالحجر يحدث دوائر صغيرة أو كبيرة إذا رميناه في البحيرة لكنّها لا تدوم إلاّ أمداً قصيراً من الوقت، وكذلك الأحداث اليومية العاديّة تمرّ على صفحة الذاكرة فلا تعلق بها، بينما تستطيع الأحداث المهمّة التي تترك تأثيرها المباشر على حياة الإنسان أن تحفر مسارب عميقة في ذاكرته فيمتدّ مكوثها في الذاكرة إلى أمد زمنيّ طويل.

لكنّ الإنسان يحاول وبصورة غير شعوريّة تأريخ ما يمرّ به من أحداث، وهذا ما دفع عدداً من الباحثين إلى القول إنّ الإنسان حيوان مؤرِّخ بفطرته، فهو ومنذ العصور الموغلة في القدم يسعى جاهداً لتفسير ما يجري حوله غير مكتفٍ بإلقاء الملاحظة العابرة عليه، والتماس تفسير يقتنع به ويركن إليه لتفسير ما يجري حوله، بل ظلّ على الدوام يفتّش عن خيط دقيق يبني به رابطة تعطي تفسيراً منطقياً للحركة التي حدثت، وينفذ من خلال هذا التفسير إلى البواعث الكامنة وراء الحركة والنتائج المترتبة عليها، مستنداً إلى ذخيرة لم تكن على ذلك القدْر من الثراء من التجارب التي يمكن القول إنها كانت تجارب متواضعة محدودة، لكنّ الزمن فعل فعله الإيجابيّ بإغناء هذه التجارب وإنضاجها على نار التجربة والرويّة.

سعى الإنسان خلال مراحل التاريخ لمحاولة فهم ما يجري حوله من أحداث وظواهر طبيعية بدا عاجزاً عن فهمها واستيعابها في البداية،وأعوزته الحيلة ولم يسعفه العقل الناضج المحاكم الذي يستطيع العثور على العلاقة المنطقية بين المقدّمة والنتيجة التي تفضي إليها هذه المقدّمة، فوجد نفسه مضطراً للاستنجاد بالأساطير فلاذ بها؛ لأنه آنس فيها التعبير عن فهمه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للعالم الذي وجد نفسه يتقلّب في جنباته، لقد وجد الإنسان في الأساطير صورة التعبير الشائعة عن فهمه للوجود والتاريخ، غير آبه بأنّ ذلك النمط من التفكير لا يمكن النظر إليه على أنه نمط عقلانيّ، لكنّ هذا التفكير على بساطته كان في أعماقه يمثّل صورة صادقة لصراع الإنسان الطويل مع الطبيعة التي وجد نفسه ضعيفاً في مواجهتها بما فيها من قوى اعتقد في البداية أنها قوى شرّيرة، لكنّه استطاع في مراحل تالية إقامة علاقة طيّبة مع هذه الطبيعة والاستفادة منها في شقّ طريقه الطويل إلى بناء الحضارة الإنسانية.

بحث طويل عن الحقيقة، لم يكلّ فيه الإنسان، قاده إلى طرق باب الآلهة والقوى الغيبية والطبيعية، لعلّ وعسى ينجح في فتح هذا الباب الذي يقدّم له تفسيراً يقنع به لما يدور حوله من أحداث عجز في البداية عن إيجاد تفسير علميّ وغائيّ لها.

لكنّ الإنسان لم يقف مكتوف اليدين أمام سطوة الطبيعة وجبروتها، بل أخذ يسعى لتطويعها والسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته، فقاده هذا السعي للاهتمام بالتاريخ اهتماماً جعله على قناعة أنه سيوصله إلى طريق الحقيقة بعيداً عن الغموض والوهم، لأنه كان على يقين أنّ التاريخ هو وعاء التجربة البشرية الذي ينضح بسائل الإبداع الذي يفيض من هذا الإناء، هذا التاريخ هو مفتاح البشرية بتجاربها الغنية للوصول إلى تفسير كلّ ما يجري من حوادث، وإن كان هذا الوعاء غنياً بمزيج عجيب من التناقض: ففيه النجاح والإخفاق، فيه الرهبة والرغبة، فيه خوف الإنسان من الطبيعة ويقينه بقدرته على الانتصار عليها، لأنه يملك العقل بينما تعنو الطبيعة لناموس الجمود والتكرار.

ونجم عن ذلك ظهور محاولات كثيرة شقّت كل محاولة طريقها الخاص بها بمعزل عن المحاولات الأخرى، وكان هدفها الذي لا تحيد عنه تفسير التاريخ لأغراض بدتْ مادية في المقام الأوّل.

«ولقد تمخّضت هذه المحاولات في الدراسات الحديثة عن منهجين مختلفين من البحث الفلسفيّ في التاريخ، تربط بينهما علاقة ما على الرغم من هذا الاختلاف.

يتناول القسم الأوّل منهما التحليل المنطقيّ والتصوّريّ للمفهومات التي يقوم عليها البحث التاريخيّ.

أمّا القسم الآخر فإنه يحاول أن يكتشف معنىً أو مغزىً للمجرى العام للتاريخ، أو الطبيعة العامة لحركة التاريخ بما قد يفوت المؤرّخين التقليديين.

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إنّ فلسفة التاريخ صارت في الدراسات الحديثة مصطلحاً يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ.

الجانب الأوّل يتعلّق بدراسة مناهج البحث في هذا العلم من وجهة النظر الفلسفية، وهذه الدراسة تتضمّن في جملتها الفحص النقديّ الدقيق لمنهج المؤرّخ؛ وهذا الفحص النقديّ يدخل في مجال النشاط التحليليّ للفلسفة، ذلك النشاط الذي صبغ التفكير الفلسفيّ في العصر الحديث بطابعه الخاص، حيث تجد المفكّر يعنى بتحليل ما يمكن تسميته بأدواتنا العقليّة: فيدرس طبيعة الفكر، وقوانين المنطق والاتّساق والعلاقات بين أفكارنا والواقع، وطبيعة الحقيقة، ومدى صلاحيّة المنهج الذي نستخدمه في توصّلنا إلى الحقيقة أو المعرفة.

وفي هذا المجال نستطيع أن نقول إنّ فلسفة التاريخ تقوم بدور الناقد الأعلى إذ إنها تقوم باختبار دقيق لما يدّعيه أصحاب المنهج التاريخيّ من معرفة أو حقيقة.

وأمّا الجانب الآخر من جوانب دراسة التاريخ في الفلسفة الحديثة فإنه يدخل فيما يسمّى بالنشاط التركيبيّ في الفلسفة.

والنشاط التركيبيّ للفلسفة بوجه عامّ هو مهمّتها الرئيسية الأخرى؛ وهو في الوقت نفسه المهمّة التقليدية الأقدم عهداً كما يقول مؤرّخو الفلسفة.

وفي هذا المجال تحاول الفلسفة إيجاد مركب لكلّ المعارف، ولتجربة الإنسان الكليّة.

وهنا ينصبّ الاهتمام على النتيجة العامة بدلاً من البحث في المناهج أو الأدوات المستخدمة، كما رأينا في المنهج التحليليّ للفلسفة.

وفي هذا النشاط التركيبيّ يستطيع فيلسوف التاريخ أن يبحث عن أشمل رأي ممكن يفسّر الحياة وهدفها، بحيث تكتمل لديه نظرة شاملة إلى الوجود، أو صورة كاملة عن الكون والحياة، لا تغفل من التجربة البشرية شيئاً يمكنه أن يجعل من هذا التدفّق المستمرّ للتجربة كلاً منظماً له مغزاه».(٣)

العلاقة بين الحتميّة التاريخية والجبرية اللاهوتيّة:

لم تمرّ قضيّة التفسير التاريخيّ في أذهان عدد من الباحثين في التاريخ كعلْم مرور الكرام، لأنها سرعان ما وجدتْ نفسها في مواجهة سهام النقد تنهال عليها من

أقواسهم من كلّ حدب وصوب، وظلّوا على الدوام منشغلين بالبحث عمّا يقتضيه منطق التفسيرات التي يركنون إليها ولا تثير لديهم تلك الهواجس والشكوك، ويرونها مقبولة في دراسة التاريخ، وأصرّوا على أنها لا تتفق مع العلوم الطبيعية التي تخضع أبحاثها لقوانين عامة، بينما تصرّ الحوادث التاريخية على التغريد خارج السّرب في هذا المجال.

أمّا الحجّة الثانية التي استند إليها هؤلاء الباحثون في انتقاد التفسير التاريخيّ فهي رفض المقولة التي سارت على الألسن بأنّ التاريخ يعيد نفسه كما يزعم بعض الباحثين، ويجاريهم في ذلك عدد لا بأس به من غير المختصين في حقل التاريخ، ويشدّد هؤلاء الباحثون المنتقدون على أنّ كلّ حدث تاريخيّ يتمتّع بفرديّة ذاتية خاصة تجعله مختلفاً اختلافاً كلياً عن غيره من الأحداث، ويؤكّدون على مسألة لا يقبلون التراجع عنها وهي أنّ الحادث التاريخيّ غير قابل للتكرار بأيّ شكل من الأشكال.

والتاريخ في رأيهم الذي يتشبّثون به يجب أن يظلّ مقيّداً بمقولاته الخاصة من فردية وزمان ومكان محدّدين.

«ولا سبيل له إلى أن يتجاوز هذه المقولات إلى التعميم والتجريد، وإلاّ فقدت الحادثة التاريخية طابعها التاريخيّ.

إنّ المؤرّخ لا يؤرّخ لشيء اسمه الثورة بمفهومها الكليّ، ولكنه يؤرّخ لثورة بلد معيّن في حقبة معيّنة».(٤)

لكنّ بعض الباحثين اتّجهوا إلى الدفاع عن فكرة الحتمية التاريخية متأثرين بالمنهج التجريبيّ في العلوم، اعتقاداً منهم أنّ هذه الفكرة تستطيع منح التاريخ حقّ الانتساب إلى أسرة العلوم دون ظهور اعتراض من قبل المعترضين على انتسابه إليها أو الاعتراف به كعلم خالص.

«على أنّ فكرة الحتمية التاريخية التي ألحّ عليها بعض المحدثين تحت تأثير المنهج التجريبيّ في العلوم، وما يتّصل به من ضرورة عِليّة تصنع القانون العلميّ؛ ليست إلاّ وجهاً جديداً لحتمية تاريخية قديمة هي الجبرية اللاهوتية.

وقد كان بين فلاسفة اليونان مَن قال بها، كما كان بين رجال الدين في جميع الأديان من يؤمن بها.

وتقتضي هذه الحتمية اللاهوتية القول بأنّ كلّ ما يجري في العالم من أحداث إنما هو مقدّر منذ الأزل فلا رادّ له، ولا مفرّ من حدوثه.

وقد نشأت بسبب هذه النظرية في الأديان المختلفة مذاهب لاهوتية تقول بالجبرية التاريخية.

وفي هذه المذاهب تقوم فكرة العناية الإلهية وما يتّصل بها من القول بالصلاح والأصلح بدور رئيسيّ في التفسير العقليّ للنظرية.

ولكنّ هذا التبرير اللاهوتيّ لا يدع مجالاً كبيراً للفيلسوف الذي لا يجد ما يجادل فيه ضدّ نظرية ترجع في أساسها الأوّل إلى مصادر غيبية تقوم على الوحي أو الإلهام، وتسلّم ابتداءً بأن تجلّي إرادة الله بوصفها فاعلة في التاريخ، وكيفية هذا التجلّي إنما هو شيء ينتمي إلى عالم اللانهاية، ويعجز عن إدراك كنهه العقل البشريّ المحدود الذي لا يملك إلاّ الاعتبار بآثاره».(٥)

منهج البحث التاريخي:

تُطلق على هذا المنهج تسمية أخرى، إذ يسمّى أيضاً المنهج الاستردادي، لأنّ الخطوة الأساسية التي تُعدّ حجر الزاوية في بنائه تقوم على عملية مهمّة تقوم على استرداد كحمولة تتمثل مادتها الأساسية في الآثار التي خلّفها هذا الماضي.

والآثار يتمّ التعامل معها هنا بصفتها العمومية الشمولية بصرف النظر عن نوعها، ويسري قانون هذا المنهج على العلوم التاريخية والأخلاقية.

فالأحداث بعد وقوعها لا تبقى ملْك الماضي لأنها تشدّ ركابها إلى المستقبل معلنة أنها قادرة على ترك تأثيرها في الحاضر، نافذة إلى أعماقه مجرية تحليلاً عميقاً للقوى والمشكلات التي تضافرت جهودها في تشكيل هذا الحاضر.

فمنهج البحث التاريخي هو منظومة شديدة التماسك مرصوصة البنيان قوامها الطرُق والتقنيات التي يتخذها الباحث المؤرخ معلماً أساسياً من معالم الطريق للوصول إلى الحقيقة التاريخية.

حتى إذا تمّ هذا الوصول بأمان بعيداً عن منزلقات العاطفة والتخمين انطلق إلى الخطوة التالية المتمثلة بالعمل على تشييد الماضي بكل تفاصيله المتضمنة ما جرى فيه من أحداث ووقائع،مع مراعاة العنصرين المهمّين في المادة الأولى للبناء التاريخيّ ونعني بهذين العنصرين الزمان والمكان، والتنقيب فيهما بلا كللٍ ولا مللٍ عن تفاعلات الحياة التي تكفّلت بسريان الدم في عروق الحدث التاريخيّ حتّى اللحظة التي بلغتها الدراسة.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وقد تكون هـذه الطريقة عرضة للنقد، تستطيع الدفاع عن نفسها بقدرتها على الإثبات أنها تملك قابلية التطوّر والتكامل باستمرار مواكبة تقدّم عملية المعرفة في سياقها التاريخيّ، مع حرصها المتتابع على الوصول إلى أعلى درجات الإتقان التي تكتسبها بتراكم الخبرة عبر الزمن.

((لقد دار جدل واسع حول طبيعة المادة التاريخية، وطرق الوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة الثابتة، وكان على المؤرخين إثبات أن التاريخ معرفة علمية دقيقة، غنية بتجربة قرون طويلة. لها منهج أو طرائق في البحث والاستقصاء من الحقيقة؛ لا تقلّ في علميتها وصحة وسائلها عن مناهج العلوم الأخرى.

وهكذا بحث عدد من المؤرخين في طرائق علم التاريخ وأثبتوا في كتبهم ومقالاتهم أن علم التاريخ علم يعود إلى الحقيقة الثابتة المؤكدة.

وفي عام ١٨٩٤ صدر كتاب حول منهج البحث التاريخي، قام بوضعه (أرنست برتهام)؛ جمع فيه ما كتب عن المنهج التاريخيّ، وكان كتاباً لنخبة من المثقفين،

لا يتضمن طريقة صحيحة في البحث لمن يريد.

أما المؤرخ (فويتيل دوكولانج) فقد قام بتحويل قواعد المنهج التاريخي إلى دساتير وقوانين دقيقة جداً، وكان أوّل كتاب بسط فيه إلى حدّ ما منهج البحث التاريخي هو الكتاب الذي ألفه المؤرخان الفرنسيان (لانجلوا) و(سينوبوس) في أواخر القرن التاسع عشر ويطلق عليه اسم «مدخل للدراسات التاريخية» صدر في باريس وترجم جزء منه إلى العربية.

إنّ منهج البحث التاريخي عند المؤرخين العرب يسجل لهم أنهم أوّل من ضبط الحوادث بالإسناد، والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخيّ ونوّعوا التأليف فيه وأكثروه.؛ إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدّمهم أو عاصرهم من مؤرّخي الأمم الأخرى،و أنهم أوّل من كتبَ فلسفة التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأوّل واجب المؤرخ وآخره، وهو «الصدق في القول والنزاهة في الحكم» وبذلك يكون المؤرخون العرب هم الذين وضعوا الأصول الأولى لمنهج البحث التاريخي العلمي الحديث الذي بدأ ناضجاً في أوروبة في القرن التاسع عشر.

وهم الذين تركوا بتلك الأصول أثرهم في مؤرّخي أوروبة في مطلع العصور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحديثة الذين شرعوا بدورهم ينتهجون في الكتابة التاريخيـة طريق النقد والتمحيص والتدقيق.[٦]

خلاصة القول إنّ التاريخ بلا أدنى شكّ علم يشدّ ركابه إلى الوقار مرتدياً عباءة العلم لكنّ العاطفة الإنسانية تحـاول باندفاعها التأثير عليـه باستمالة جانب التعاطف فيه مـع الحادثة التاريخيـة لصالح طرفٍ على حساب الطـرف الآخر، ولعلّ هذا التجاذب بـين الوقار والاندفاع هـو الذي يخلع على التاريخ كلّ ما فيه من رشاقة وتشويق وترقّب علـى نحوٍ يجعلنـا نتعامل فيه مـع الوجه العاطفيّ على أنّ ذلك التعامل لا يكون على حساب العلم بحال من الأحوال.

مصادر البحث

١- مقدّمة ابن خلـدون، العلاّمة ابن خلدون، منشورات مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت- لبنان، ص ص ٩-١٠.

٢- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، المجلد الأول، دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧١، ص ص١٥٢-١٥٣.

٣- أدب التاريـخ عند العرب فكرة التاريـخ: نشأتها وتطوّرها، الدكتور عفّت محمّـد الشرقاويّ، دار العودة- بيروت، ص ص٢٩-٣٠.

٤- في فلسفة التاريخ، د. أحمد محمود صبحي، ص٤٦.

٥- أدب التاريـخ عند العرب فكرة التاريـخ: نشأتها وتطوّرها، الدكتور عفّت محمّـد الشرقاويّ، دار العودة- بيروت، ص ٣٦.

٦- مقـال مأخوذ من الإنترنـت بعنوان (منهج البحث في علم التاريخ)، بقلم: أسعـد بن الطيب المنبري، تاريخ النشر: ١٨/٦/٢٠٠٦م.

التأسيس الأول لعلم الكيمياء عند العرب

د. محمد يحيى خراط *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن كلمــة كيمياء المستعملة حالياً اشتقت من كلمة «الخيمياء». وإن وجود الـ (التعريف) دليل على أن هذه الكلمة عربية الأصل. وأما أصل الكلمة قبل أن يستعملهــا العرب فهو مــدار نقاش فمنهم من يقول أنها أتت من المصرية Kemo بمعنــى أسود نسبة إلى الأرض الســوداء في مصر، ومنهم من يقول أنها أتت من اليونانية Khymeia أي «الصهر» الذي يعني فن صهر المعادن

* باحث في التراث العربي ووزير دولة سابق.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

وتحويل الخسيس منها إلى نفيس من ذهب وفضة.

إن العديد من الباحثين الأوروبيين اهتموا بدراسة الكيمياء عند العرب ومن أشهرهم ليبمان، وفيدمان وهولميارد. وقد أشارت المراجع والمؤلفات العربية في الكيمياء اهتمام كل من فؤاد سيزكين الذي ظهر مؤلف له في هذا المجال سنة ١٩٧١. والمستشرق الألماني مانفريد أولمان الذي عرض في كتاب له وعلى أكثر من مئة صفحة أسماء المصنفات الكيميائية العربية، دارساً على التوالي الترجمات والعبارات المنسوبة إلى الكيميائيين انطلاقاً من الكتاب اليونانيين، إضافة إلى دراسة المصادر المصرية والهندية والفارسية واليهودية، ثم النظريات الكيميائية في البحث عن الإكسير والتجارب التي أجريت في المخابر والمواد المستعملة، وقد جاء كل ذلك موثقاً بشكل جيد.

إن أقدم ما كتب في الكيمياء هي تلك النظريات التي وضعها فلاسفة الإغريق في تكوين المادة ولم تخرج في غالبها عن الصورة التي تخيلها كهنة هليوبوليس. وأشهر هذه النظريات ينسب إلى سبعة من فلاسفتهم نذكرهم فيما يلي مبتدئين بأقدمهم:

١- تاليس (٦٤٠- ٥٤٦ق.م) وقد عاش في بلدة ملتس بآسيا الصغرى، وتتلخص نظريته في أن الماء هو أصل كل الكائنات.

٢- أنكسيمينيس (٥٦٠-٥٠٠ق.م) وقد عاش في ملتس أيضاً، وهو يقول إن أصل الماديات هو الهواء.

٣- هيراكليتس (٥٣٦-٤٧٠ق.م) الذي ظهر في إفسيس بآسيا الصغرى، وقد توهم أن النار هي أصل كل المواد.

٤- إمبيدوكليس (٤٩٠-٤٣٠ ق.م) وقد ظهر في أكراجاس بصقلية، وتتلخص نظريته في أن المادة تنشأ من أربعة جذور أولية هي الماء والهواء والنار والتربة.

٥- لوسيبس وزميله ديموكريتس وهما من فلاسفة مدرسة ملتس، ووضعا نظريتهما في أواخر القرن الخامس الميلادي، وهي أقرب النظريات إلى الحقيقة وتتلخص فيما يأتي:

- المادة مخلخلة التركيب، وأجزاؤها ليست متراصة.

- تتكون المادة من ذرات غير قابلة للانقسام ولا للفناء.

- ذرات المادة الواحدة تكون مفصولة بفضاء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ذرات المواد المختلفة تختلف في الشكل والحجم والوزن، وهي في حركة مستمرة في خط مستقيم.

- تختلف المواد في الخواص باختلاف طبيعة الذرات المكونة لها وعددها وترتيبها.

ولو كانت هذه النظرية مؤسسة على التجربة والمشاهدة لكان للإغريق فضل خالد الأثر على الكيمياء، ولكنها لم تكن إلا وليدة الخيال، ولهذا كان نصيبها الإهمال إلى أن بعثها ثانية العلامة الإنكليزي دالتن في أوائل القرن التاسع عشر، واتخذها نواة لنظريته الشهيرة.

٦- الفيلسوف الذائع الصيت أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) وتتلخص نظريته في تركيب المادة أن هناك أربعة عناصر تتكون منها جميع المواد هي: الماء والهواء والتربة والنار. وتوجد أربع خواص أولية يتصف كل

عنصر باثنتين منها هي: الرطوبة والجفاف والسخونة والبرودة. فالنار ساخنة جافة، والهواء ساخن رطب، والماء بارد رطب، والتربة باردة جافة. وهناك مادة أولية تسمى الهيولي تدخل في تركيب هذه العناصر، وبفضلها يمكن تحويل بعضها إلى بعض.

لقد كان لهذه النظرية أثر عميق في نفوس العلماء، لأن صاحبها امتاز بشهرة عالمية لم ينافسه فيها أحد. ولهذا اندثرت النظريات السابقة وبقيت هذه النظرية تحتل المكانة الأولى في نفوس العلماء، حتى إن كيميائي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العرب أخذوا بها واعتقدوا بصحتها. ولما انتقلت الكيمياء من العرب إلى أوروبة عن طريق الأندلس انتقلت معها نظرية أرسطو وآمن العلماء بها. وكان طبيعياً أن يُستنبط من هذه النظرية إمكان تحول المعادن الدنيئة إلى الذهب أو الفضة، لأنها تقول بأن العناصر يمكن أن يتحول بعضها إلى بعض بفضل وجود المادة الأولية في كل منها. وقد اتجهت مباحث الكيمياء إلى هذه الناحية، فأصبح الغرض منها مادياً لا علمياً، واشتغل الناس بتدبير الذهب قروناً عدة، لا فرق في هذا بين عالم وعامل وطبيب وراهب. وغني عن البيان أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح، وإن كانت النتائج التي توصلوا إليها أثناء بحوثهم التجريبية كانت ذات أثر جليل في الكشف عن كثير من المظاهر الكيميائية ومعرفة طرق تحضير بعض المواد ودراسة خواص المعادن والأملاح وغيرها.

وكان العالم الإنكليزي روبرت بويل أول من تناول نظرية أرسطو بالنقد الشديد قائلاً: إن كل نظرية لا تستند على أساس من التجارب والملاحظات يجب أن تهمل في زوايا النسيان. وهو أول من عرّف العنصر بأنه تلك المادة التي لا يمكن أن تفصل منها مادة أبسط منها. وما زال هذا التعريف شائعاً حتى الآن. وظهرت بعد ذلك بحوث كفندش الإنكليزي (١٧٣١-١٨١٠) ولفوازييه الفرنسي (١٧٤٣-١٧٩٤)، فأثبت الأول أن الماء ليس عنصراً، إذ إنه يتكون من غازين مختلفين، وأثبت الثاني أن الهواء يحتوي على غازين رئيسيين هما الأوكسجين والنيتروجين. وكانت هذه البحوث ضربة قاضية لنظرية أرسطو، فاختفت من الوجود بعد أن سادت على العقول أكثر من عشرين قرناً.

ونستطيع أن نستخلص مما تقدم أن تطور الكيمياء منذ فجر الحضارة المصرية القديمة وحتى غروب شمس الحضارة اليونانية قد حقق للعلم مايلي:

١- طرق التعدين التي كان يستخدمها قدماء المصريين في استخلاص الفلزات من خاماتها.

٢- تحضير بعض الأصباغ والأدوية.

٣- صناعة الزجاج والبرونز.

٤- تقليد المعادن الثمينة وبعض الأحجار الكريمة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥- عمليات التسخين والإذابة والتبلر والترشيح والتقطير والصهر والتكليس.

٦- تبني نظرية أرسطو في العناصر الأربعة والاعتقاد بصحتها.

وهذه هي الحالة التي وجد العرب الكيمياء عليها.

إن أول خطوة سلكها العرب في سبيل تطوير علم الكيمياء هي أنهم جمعوا ما استطاعوا العثور عليه من كتب الكيمياء، وترجموها إلى العربية. وما كاد يحل القرن الثامن الميلادي حتى ظهر عدد كبير من كتب الكيمياء الإغريقية في ثوب عربي. ولما أنشأ العباسيون بغداد سنة ٧٦٦ ميلادية انتقل إليها مركز الثقافة العلمية في العالم بفضل تعضيد خلفائهم للعلم والعلماء. ونشطت حركة الترجمة في عهد هارون الرشيد والمأمون، فنقلت إلى العربية كتب الإغريق في شتى العلوم كالفلسفة والطب والرياضيات والمنطق والفلك بالإضافة إلى الكيمياء. وفي الغالب كانت هذه الكتب تترجم أولاً إلى اللغة السريانية بوساطة النسطوريين ثم تترجم إلى العربية. وما زالت بعض التراجم السريانية في الكيمياء باقية إلى الآن.

ولم تكن حركة النقل مقصورة على الخلفاء إذ أسهم فيها جماعة من المشتغلين بالعلم الراغبين في نشره أمثال حنين بن اسحق الذي ذهب إلى بلاد الروم وجاء بغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرتماطيقى والطب، وبني موسى وهم ثلاثة من الإخوة أسماؤهم (محمد وأحمد وحسن) كانوا يدفعون في الشهر نحو خمسمئة دينار لجماعة من النقلة أجراً لترجمة الكتب، وغير هؤلاء كثيرون.

وقد أسفرت حركة الترجمة عن انتشار الكتب العلمية فتمكن العرب من أن يقرؤوا كتب الإغريق في مختلف العلوم، وتفرغ لدراستها عدد كبير من العلماء، فشرحوا وصححوا ما وقع فيه الإغريق من خطأ، ثم واصلوا البحث في هذه العلوم، وتفرغ لدراستها عدد كبير من علمائهم، ثم واصلوا البحث في هذه العلوم، ووضعوا فيها مؤلفات كثيرة غزيرة المادة نالت الكيمياء نصيباً وافراً منها.

ولما فتح العرب الأندلس حملوا إليها علومهم ومؤلفاتهم، فكانت سراجاً منيراً

انتشر شعاعــه إلى أوروبة وحفز أهلها على الاشتغال بهذه العلوم التي وصلت إليهم من الشرق، وكان لزاماً عليهم إذ ذاك أن يترجموا الكتــب العربية، وقد فعلوا ذلك اعتباراً من أواخر القرن الحادي عشر. وكانت الطريقة الشائعــة في الترجمة أن تحمــل نسخة من الكتاب العربــي إلى مدينة طليطلة ويقرأها باللغة الإسبانية أحد المغاربة أو الإسرائيليين الذين اعتنقوا المسيحيــة، ثم تدوّن عباراته باللغــة اللاتينيــة. ووصلت نســخ من هذه التراجــم إلى انكلــترا وغيرها مــن الممالك الأوروبيــة، فاهتــم بها الأفــراد ودرسوها، فمالت نفوسهم إلى الاشتغال بما تحويه من علــوم، وكان هذا فاتحــة عهد جديد بدأت تظهر فيه الكيمياء في أوروبة.

وأول كتــاب كيميائــي نشــر في انكلترا ينســب إلى روبرت أوف تشســتر، نقله من العربيــة سنــة ١١٤٤م، وموضوعــه تركيب الكيمياء، والمقصود بالكيمياء هنا تلك المادة التــي تؤثر علــى المعادن الدنيئــة فتحيلها ذهباً. أمــا الأصل العربــي فترجمة لكتاب وضعه رجل رومي يسمى ماريانوس. واعتمد روجر باكون الإنكليزي (١٢١٤-١٢٩٢) على مؤلفات ابن سينا في الكيمياء، فلخص منها كتباً أودع فيها المبــادئ المعروفة إذ ذاك في هذا العلم ونتائج بحوثه الخاصة. وتتابع بعد ذلك ظهور المؤلفات الكيميائية بين موضوع منها ومنقول مــن العربية، حتى إذا ما حل منتصــف القرن السادس عشــر كانت هذه المؤلفات شائعة في معظم البلاد الأوروبية.

ومما يؤسف لــه أن الكيمياء اتجهت في أوروبة اتجاهاً مادياً أيضاً، إذ أصبح الغرض منهــا تدبــير الذهــب والفضــة، وانحصر البحــث في تحضير تلك المــادة التي يتحول بتأثيرهــا المعدن الرخيصــ إلى أحد هذين الفلزيــن. وكان العرب يسمونهــا الإكسير. أمــا الأوروبيون فأطلقــوا عليها اسم حجر الفلاسفة أو الصبغة.

وليــس هناك شــك في أن بعض العلماء كان يعتقــد بإمــكان الحصــول على حجر الفلاسفة، وكانوا متأثرين في ذلك بما قرؤوا عنــه في الكتب العربيــة، وبإيمانهم بصدق نظرية أرسطو.

وظلــت الكيميــاء في أوروبــة بضعــة قرون تتقاذفها التيــارات المادية حتى أقبل القــرن السابع عشر، وظهــر «روبرت بويل»

فقضى على نظرية أرسطو، واتضح إذ ذاك استحالة تدبير الذهب من المعادن الرخيصة. واتخذت الكيمياء وجهة علمية بحتة غرضها الأسمى الوصول إلى الحقيقة عن طريق التجربة والمشاهدة والاستنباط الصحيح. وقد وصلت بذلك إلى ما نراها عليه الآن من تطور وارتقاء.

رواد الكيمياء من العرب

كان طبيعياً إبان الحركة العلمية التي ازدهرت في الدولة الإسلامية منذ نشأتها أن يشتغل بالكيمياء نفر غير قليل من العرب ويتعهدوها بالدرس والبحث المتواصل. وأول عربي اهتم بالكيمياء ووجه الأنظار إليها هو الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، الذي ولد سنة ٦٣٥ وتوفي سنة ٧٠٤ ميلادية. وقد وصفه صاحب الفهرست بما يلي:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه ومحباً للعلوم. خطرت بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمصر وتفصح بالعربية، وأمرهم بنقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة».

وفي كتاب «وفيات الأعيان»، لابن خلكان جاء عن خالد ما يلي:

«كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما. وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانس الرومي»

ويظهر ابن خلدون في مقدمته شكاً في اشتغال خالد بالكيمياء قائلاً: «إن البداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع».

ومثل هذا الشك لا يكون دليلاً على أن أميراً عربياً يترفع عن الاهتمام بالعلوم ودراستها. ورواية «الفهرست» موثوق بصحتها لأسباب عدة نذكر منها ما يأتي:

١- كان صاحب «الفهرست» أقرب إلى زمن خالد من ابن خلدون، فالأخير توفي سنة ١٤٠٦ ميلادية أي بعد النديم بنحو أربعة قرون.

٢- من الموسوعات العربية التي يوثق بصحتها كتاب «كشف الظنون» الذي وضعه

في القرن السابع عشر الميلادي رجل تركي يسمى مصطفى بن عبد الله وهو مشهور «بحاجي خليفة». وقد ورد فيه عن الأمير خالد أنه «أول من تكلم في علم الكيمياء ووضع فيها الكتب وبين وصفة الإكسير والميزان». ولاشك أن اتفاق روايات «الفهرست» و«وفيات الأعيان» و«كشف الظنون» كاف لنفي ما ذهب إليه ابن خلدون.

٣- للأمير خالد رسائل في الكيمياء منها: وصيته إلى ابنه، و«الفردوس» وهو ديوان شعر في الكيمياء.

وثاني من اشتغل بالكيمياء من العرب الإمام جعفر الصادق. ذكره صاحب «وفيات الأعيان» في عبارة ملخصها: «هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب. كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه. له كلام في صنعة الكيمياء. وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي. وكانت ولادته سنة ٨٠ للهجرة وتوفي سنة ١٤٨ (٧٠٠-٧٦٦ ميلادية) ودفن بالبقيع. وقد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمئة رسالة».

جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء العربية:

ولد جابر بن حيان في مدينة طوس وكان ذلك سنة ٧٣٠ ميلادية، وفي سنة ٧٤٩ ميلادية انتصر العباسيون على الأمويين واستولوا على الخلافة، ورحل جابر إلى الكوفة وتمكن بعد ذلك من أن يتصل بالإمام جعفر الصادق وتلقى عنه الكيمياء ولازمه ملازمة الصديق. وتقرب جابر من العباسيين فأكرموه ورحبوا به. وجعل جابر مقر إقامته في بغداد، وزاد نفوذه على مرّ الأيام، وأصبحت له منزلة كبيرة في قصر الخلافة. وقد أدرك عصر المأمون، والمرجح أنه توفي سنة ٨١٣ ميلادية. وكان لجابر مخبر كيميائي يجري فيه تجاربه وبحوثه.

درس جابر علوم الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعي والفلسفة ونبغ فيها جميعاً، ووضع في هذه المواد مؤلفات كثيرة بقي منها إلى الآن نحو خمسين مخطوطاً. وأشهر مؤلفاته في الكيمياء هي:

١- الخواص الكبير: وتوجد نسخة خطية منه في المتحف البريطاني.

٢- الأحجار: وتوجد نسخة خطية منه في المكتبة الأهلية في باريس.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣- إخراج ما في القوة إلى الفعل: ويوجد منه مخطوط بدار الكتب المصرية.

٤- مؤلفات أخرى كثيرة منها السر المكنون، والمائة والاثنا عشر، والسبعون، والمائة والأربعة والأربعون، والخمسمائة، والسبعمائة، والرحمة، والراحة، والروضة، والأريع، والرحمة الصغير، والموازين، والأركان الأربع، والحدود، والسر، والمزاج، والحق، والخمائر الكبير، والنبات، والبول، والحيوان، والأصباغ، والرائحة الكبير، والألبان، والنهاية، والتمام، وما بعد الطبيعة.

وقد تُرجم الجانب الأكبر من مؤلفات جابر إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوروبية، لأنها كانت المرجع الذي اعتُمِد عليه في الكيمياء من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر للميلاد. ولا تخلو الآن أية مكتبة شهيرة في أوروبة من نسخ خطية لبعض مؤلفات هذا العالم العربي الكبير.

كان جابر في تصانيفه سهل العبارة واضح المعنى. إلا أنه كان في قليل من الحالات يلجأ إلى الطريقة المبهمة التي كانت شائعة بين مؤلفي الإغريق. وفي كتاب «السر المكنون» عبارة نذكرها فيما يأتي كمثل لهذا الأسلوب المبهم في التعبير:

«أما بعد فإن الفارسي من أخويّ يكون مولده العراق من بلاد الخراب والعربي يكون مولده أيضاً العراق، إلا أن البلاد والمواضع التي يولد فيها الصغير مخالفة للمواضع والبلاد التي يولد فيها الكبير. وقد يجوز أن تكون البلاد واحدة والمواضع مختلفة. وذلك أن مواضع أخينا الأكبر بالضد سواء. وذلك أن مواضعه قريبة من البارد الرطب المائي اللدن. ولتعلم إنه إذا تساوت أسنانهما كانت ثمانين سنة. وذلك إذا بلغ الأصغر منهما الثلاثين بلغ الأكبر منهما الخمسين فحينئذ تقع الفوائد الكبار».

ولا ندري ما يقصده جابر بأخويه إلا إذا كانا معدنيين يوجد أحدهما بفارس والآخر ببلاد العرب.

مذهب جابر في الكيمياء:

في كتاب «العلم الإلهي» عرَّف جابر الكيمياء «بذاك الفرع من العلوم الطبيعية الذي يبحث في خواص المعادن والمواد النباتية والحيوانية وطرق تولدها». وهو ينصح بالبدء بدراسة المعادن لأنها أسهل منالاً وأقرب فهماً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومما يلاحـظ في مؤلفاته اعتماده على الناحية العملية وتقصيه الحقيقة عن طريق التجربـة والمشاهدة الدقيقـة. وهو يوضح هـذا المبدأ في كتاب الموازيـن قائلاً «إن كل نظرية تحتمل التصديق والتكذيب فلا يصح الأخـذ بها إلا مع الدليـل القاطع». ونصح بالحرص على اتباع هذه القاعدة.

وقد ذَكَرَ في «كتاب الخواص الكبير» أنه لم يشرح فيه إلا ما رآه بعينه مهملاً ما وصل إلى علمه عن طريق السماع أو القراءة.

أما قوة ملاحظته فيـدل عليها ما رواه في كتـاب «الرحمة». فقد حصل على حجر من المغنطيس ورأى أنـه يستطيع أن يحمل كتلة من الحديـد زنتها مئة درهم. ثم تركه مدة من الزمن وأراد بعدها أن يختبره فعرض لـه قطعة أخـرى من الحديد فلـم يستطع حملهـا فظن أنها تزن أكـثر من مئة درهم، ولكنـه وزنها فوجد أنها أقل من ٨٠ درهماً، فاستنبط من ذلك أن قوة المغنطيس تضعف بمرور الزمن.

وإنه لمـن المدهش حقاً أن يستعمل جابر الميزان في تجاربه العلمية مع أنه لم يُستخدم لهذا الغرضـ في أوروبة إلا بعد عهد جابر بأكثر من ستة قـرون. ويقول جابر «إن أفق الكيميـاء محصـور في عـالم الطبيعة. وفي دراسـة الطبيعة يجـب أن يوجه الكيميائي اهتمامـه إلى أنه لا يستطيـع أن يقلد شيئاً ليست له خبرة سابقة به». وقد وضع لإجراء التجارب قواعـد معينة نلخصها فيما يأتي منقولة عن كتاب العلم الإلهي:

١- عـيِّن الغرضـ من التجربـة واتبع التعليمات الخاصة بها.

٢- تجنب المستحيل وما لا فائدة منه.

٣- اختر للتجربة الوقت الملائم لها.

٤- كـن صبـوراً ومثابـراً وصامتـاً متحفظاً.

٥- اختر لمخبر التجارب مكاناً منعزلاً.

٦- لا تصادق إلا من تثق به.

٧- لا تغـتر بالظواهـر لأن هـذا يؤدي بتجربتك إلى نتيجة خاطئة.

وكان جابـر يعتقد بنظريـة أرسطو في تكوين المادة من العناصر الأربعة وهي الهواء والنـار والمـاء والترّبة. ولكنـه وضع نظرية جديـدة في تكويـن المعـادن مؤسسة على نظريـة أرسطو، وقد شرحها في كتابي المائة والاثنـي عشر، والإيضـاح، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«تتكون المعادن من عنصرين: أحدهما دخاني أرضي والثاني بخاري مائي. وبتكاثف هذين العنصرين في جوف الأرض ينتج الكبريت والزئبق، وباتحاد هاتين المادتين تتكون المعادن. والفرق بين المعدن وأخيه راجع إلى الفرق في النسبة التي يتحد بها الكبريت والزئبق. ففي الذهب يكون بينهما اتزان تام، وفي الفضة يكونان متساويين في الوزن. والنحاس يحتوي من العنصر الأرضي على أكثر ما تحتويه الفضة. أما الحديد والرصاص والقصدير ففيهما أقل. ولما كانت المعادن جميعها مركبة من هذين العنصرين فليس من المتعذر أن يحول بعضها إلى بعضها الآخر، وبهذا يستطيع الكيميائي أن يتمم في وقت قصير ما تعمله الطبيعة في زمن طويل. إذ يقال أن الطبيعة تستغرق عشرة آلاف سنة في تكوين الذهب».

ولم يقصد جابر بهذه النظرية ظاهر معناها، لأنه كان يعرف جيداً أن الزئبق المعتاد والكبريت المألوف إذا اتحدا نتج عنهما «الزنجفر» أي كبريتيد الزئبق وهذا ليس بمعدن. فالكبريت والزئبق المشار إليهما في نظريته ليسا كبريت «العوام» ولا زئبقهم، ولكنهما مادتان مثاليتان أقرب شبه لهما الزئبق والكبريت الشائعان.

ولجابر في الاتحاد الكيميائي رأي ناضج يدل على تفكير عميق وذكاء نادر، وقد وضحه في كتاب «المعرفة بالصفة الإلهية والحكمة الفلسفية» عند تفسيره لاتحاد الزئبق مع الكبريت بعبارة نختصرها فيما يلي:

«يظن البعض خطأً أنه عندما يتحد الزئبق والكبريت تتكون مادة جديدة في كليتها. والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما، وكل ما حدث لهما أنهما تجزأتا إلى دقائق وامتزجت هذه الدقائق بعضها ببعض، فأصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينهما، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب. ولو كان في قدرتنا الحصول على وسيلة نفرق بها بين دقائق النوعين لأدركنا أن كلا منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة ولم يتأثر مطلقاً».

وهذه الصورة التي تخيلها جابر لا تخرج عن النظرية المعروفة الآن وهي أن الاتحاد الكيميائي يكون عن طريق اتصال ذرات العناصر بعضها ببعض إلكترونياً،

وقد وضعها جون دالتن بعد جابر بنحو ألف سنة. وكان جابر يفهم نظرية أرسطو بالصورة التالية:

١- المادة الأولية في الكون هي الهيولى لا تتخذ صورة مادية إلا إذا اتحدت بهيئة ذاتية.

٢- أبسط الهيئات الذاتية هي التي إذا اتحدت بالهيولي نتج عنها أحد العناصر الأربعة وهي الماء والهواء والنار والتربة.

٣- لكل عنصر من هذه العناصر صفتان يتميز بهما عن غيره، فالماء رطب بارد والهواء ساخن رطب والنار ساخنة جافة والتربة باردة جافة.

٤- يمكن تحويل عنصرين أحدهما إلى الآخر إذا اشتركا معا في إحدى خاصيتهما، فالهواء والنار مثلاً يشتركان في خاصية السخونة، ولذلك إذا سخن الهواء يستحيل ناراً، وبالمثل إذا برد الماء أصبح تربة.

٥- جميع المواد تتركب من العناصر الأربعة بنسب متباينة.

٦- بتغير الهيئة الذاتية للمادة يمكن تحويلها إلى مادة أخرى، ويكون هذا التحول على درجتين متواليتين، في الأولى تتقدم الهيئة الذاتية الأصلية، وفي الثانية تتخذ هيئة أخرى.

كان جابر خبيراً بالعمليات الكيميائية الشائعة كالإذابة والتبلر والتقطير والتكليس والإرجاع وغير ذلك. وكثيراً ما كان يصفها ويبين الغرض منها والتغيرات التي تحدث فيها وفقاً لنتائج تجاربه.

وتمكن جابر من تحضير طائفة كبيرة من المواد الكيميائية، واتبع في ذلك عمليات سهلة وشرحها في كتبه بطريقة مبسطة خالية من التعقيد والغموض إلا فيما ندر بحيث يتيسر لمن يقرؤها أن يتبعها ويجربها بنفسه اذا أراد. ونذكر فيما يلي أمثلة من طرق تحضيره مأخوذة من كتبه:

أبيض الرصاص (كربونات الرصاص الأساسية): خذ رطلاً من الليثارج واسحقه وسخنه بلطف مع أربعة أرطال من خل النبيذ واستمر في التسخين حتى ينقص حجم الخل إلى النصف. ثم خذ رطلاً من الصودا وسخنه مع أربعة أرطال من الماء النقي حتى ينقص حجم الماء إلى النصف. ورشح السائلين حتى يصير المرشح في كل منهما صافياً، وأضف بالتدريج محلول الصودا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى محلول الليثارج تلاحظ أن جسماً أبيض يتكون منهما ويهبط إلى القاع. افصل عنه الماء بالإراقة واتركه يجف.

ولجابر بحوث أخرى في الكيمياء يعجز عنها الحصر نذكر فيما يأتي طائفة منها للتدليل على مبلغ جهوده في هذا العلم:

١- كشفه أن مركبات النحاس تكسب اللهب لوناً أزرق.

٢- استنباطه طرقاً صالحة لتحضير الفولاذ وتنقية وصبغ الجلود والشعر.

٣- توصله إلى تحضير مداد مضيء من المرقشيتا الذهبية (بيريت الحديد أو كبريتيد النحاس) ليستخدم بدل الذهب الغالي الثمن في كتابة المخطوطات الثمينة.

٤- تحضيره نوعاً من الطلاء الذي يقي الثياب البلل ويمنع الحديد الصدأ.

٥- توصله إلى معرفة أن الشب يساعد على تثبيت الألوان في الصباغة.

٦- بحثه في المواد المعدنية والنباتية والحيوانية الشائعة ومعرفة فوائدها في مداواة بعض الأمراض.

٧- تمكنه من صنع ورق غير قابل للاحتراق، وقد دعاه إلى ذلك أن الإمام جعفر الصادق وضع كتاباً في الحكمة يسمى «الضيم» وكان عزيزاً لديه وأراد أن ينسخه على ورق لا يتأثر بالنار، وطلب من جابر أن يحاول تدبير هذا الأمر فنجح فيه وألقى بالكتاب في النار فلم يحترق.

ومن الصفات التي امتاز بها جابر أنه لم يترك نتائج بحوثه مشتتة غير مرتبطة إذ كانت له قدرة على التعميم المبني على الاستقصاء الدقيق، وأقرب مثل نضربه لذلك تقسيمه موضوع الأرواح (الأجسام الطيارة) في كتابه إلى ثلاثة أنواع:

١- طائر غير محترق ممازج كالزئبق.

٢- طائر غير محترق ولا ممازج كالنشادر والكافور.

٣- طائر محترق ممازج كالكبريت والزرنيخ والدهن.

وكان جابر يحاول تفسير الظواهر التي تسفر عنها تجاربه بأسباب يرشده إليها تفكيره وذكاؤه وسعة اطلاعه، وفي كثير من الحالات نرى أن التعليل العلمي الحديث لهذه الظواهر لا يختلف عما ذهب إليه جابر. وفي كتابه «الأحجار» مثل لذلك: «اعمد إلى سبيكة ذهب أحمر خالص نقي جيد يكون

وزنها درهماً، وسبيكة فضة بيضاء خالصة يكون وزنها درهماً، ثم ضع الذهب في إحدى كفتي ميزان والفضة في الكفة الأخرى، ثم دل الكفتين في ذلك الماء الذي صفي من دغله وقذره إلى أن تغوصا فيه فإنك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح الكفة التي فيها الفضة، وذلك لصغر جرم الذهب وانتفاش الفضة، وذلك لا يكون إلا من اليبوسة التي فيه» والتعليل الذي ذكره جابر معبراً عنه «بصغر جرم الذهب» يفسر حالياً على أن دفع الماء للجسم يتناسب طردياً مع الحجم.

فهل كان جابر على علم بقاعدة أرخميدس أو أنه استنبطها بنفسه. هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه.

لقد ظلت الكتب اللاتينية تحمل اسم جابر إلى أواخر القرن التاسع عشر حين ظهر العالم الفرنسي الشهير برثلوت، وكان ميالاً لاستقصاء تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى، ورأى أن هذا العلم كان مقصوراً على العرب من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر، فدرس الكيمياء الإسلامية دراسة عميقة معتمداً على التراجم اللاتينية للكتب العربية الموثوق بصحة انتسابها لمؤلفيها. ثم انتقل إلى الفحص عن الكتب اللاتينية التي ظهرت في القرن الثالث عشر وما بعده ليصل إلى حقيقة مؤلفيها.

ورأى نفسه مضطراً للاطلاع على بعض الأصول العربية في الكيمياء، ولكنه كان جاهلاً باللغة العربية فلجأ إلى وزير المعارف إذ ذاك ليتوسط بينه وبين المستشرق الشهير «هودا» مترجم البخاري، وقد قبل هذا أن يقوم بدور المترجم. وانتخب برثلوت ١٢ رسالة عربية، منها ٩ لجابر بن حيان، وقدمها لهودا فترجمها. وعكف برثلوت على دراستها والموازنة بينها وبين الكتب اللاتينية المشار إليها. وفي سنة ١٨٩٣ أخرج كتاباً في ثلاثة أجزاء عن الكيمياء في العصور الوسطى، وأوضح فيه رأيه عن هذه الكتب اللاتينية قائلاً إنه يشك في انتسابها لجابر، وعزز ذلك بأدلة كثيرة مسهبة. ومنذ ذلك الوقت أطلق على مؤلف هذه الكتب المجهول اسم «جابر اللاتيني» أو «جابر القرن الثالث عشر» وأشير إلى اسمه بالحروف اللاتينية Geber تمييزاً له عن جابر العرب الذي يكتب اسمه Jabir.

ولكن الرواية لم تنته عند هذا الحد، ففي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سنة ١٩٢٣ أثارها من جديد العلامة هولميارد أستاذ الكيمياء بكلية كلتون بانكلترا، وهو رجل متضلع في اللغة العربية يجيدها كأحد أبنائها، ويمتاز بقدرته الفائقة على قراءة النصوص العربية القديمة وتتبعها بسهولة وفهم مصطلحاتها ومعانيها ومغزى ما خفي منها. وهو واسع الاطلاع غزير المادة. درس الكيمياء الإسلامية من أصول عربية وأتقنها حتى أصبح أفضل مرجع فيها. والمطلع على مؤلفاته يرى أنه يشيد بذكر العرب وعلمائهم في كل مناسبة. وإن العالم العربي لمدين لهذا الرجل لجهوده الجبارة وبحوثه التي رفعت من شأن العرب في الأوساط العلمية. وقد تناول هولميارد بحوث برثلوث وفندها وأظهر مواطن الضعف والخطأ فيها. وتتلخص آراؤه فيما يأتي:

١- الباحث في تاريخ الكيمياء عند العرب يجب أن يكون خبيراً بعلم الكيمياء وملماً باللغة العربية، وقد توفرت الناحية الأولى عند برثلوت ولم تتوافر الثانية فعجز عن الاطلاع بنفسه على الأصول العربية واعتمد في ذلك على ترجمة غيره.

٢- كان الأستاذ هودا خبيراً بالعربية ولكنه كان يجهل الكيمياء ولا يعرف أصولها ومبادئها ومعنى مصطلحاتها، ومثل هذا لا يصح الوثوق بترجمته.

٣- يوجد أكثر من ٣٠٠ كتاب عربي في الكيمياء محفوظة في مكتبات باريس وبرلين وليدن والمتحف البريطاني ودار الكتب المصرية وغير ذلك، ومنها نحو ٥٠ مؤلفاً لجابر ابن حيان. وبعض هذه الكتب يربو على ألف صفحة ككتاب «نهاية الطلب» للجلدكي المصري. ومن بين هذه المجموعة الضخمة انتخب برثلوت ١٢ مؤلفاً فقط يبلغ مجموع صفحاته ٢٠٥، واتخذها مرجعاً لبحوثه، ومثل هذا الأساس الضعيف لا يجوز الاعتماد عليه في الوصول إلى رأي حاسم وحكم سديد.

٤- وردت أخطاء كبيرة في كتاب برثلوت تدل على أنه لم يستوف دراسة الكيمياء عند العرب وفيما يلي أمثلة منها

أ - قال إن ابن سينا عاش في القرن الثاني عشر مع أنه ولد سنة ٩٨٠ ومات سنة ١٠٣٧ ميلادية. كذلك أخطأ في ذكر أسماء العلماء البارزين من العرب أو الزمن الذي عاشوا فيه كالطغرائي وابن أميل التميمي

وابن أرفع رأس والغزالي. ومن المدهش أن يتوهم أن خالد بن يزيد هو «جالود» ملك بابل وأن «سقراط» هو «زوروستر». وربما نشأ هذا الخطأ عن النقل في الترجمة.

ب - اعتقد أن جابراً لم يذكر في مؤلفاته نظرية تكوين المادة من الزئبق والكبريت، وهذا مخالف للحقيقة لأنه فسرها في كتاب «الإيضاح».

ج - توهم أن كلمة «الأستقُصُ» من أسماء الأعلام، في حين أن جابراً يقصد بالأستقصات الصفات الأربع الملازمة للعناصر وهي: الرطوبة والجفاف والبرودة والسخونة.

د - لجابر مؤلف يسمى «كتاب أبي قلمون» وقد أشار إليه برثلوت باسم «كتاب إلى قلموك» فكأنه لم يدرك أن كيماويي العرب يقصدون بأبي قلمون «اليشب» Jasber وهو ضرب من الصوان.

١- كثير من المبادئ والآراء الواردة في الكتب اللاتينية المنسوبة لجابر موجودة بنصها في كتب أخرى له.

٢- ينسب برثلوت للأوروبيين بعض البحوث الكيمائية ولم يفطن إلى أن العرب توصلوا إليها من قبل.

وانتهى هولميارد إلى أن برثلوت لم يتقن دراسة الكيمياء العربية ولم يستوف الأساس الذي اعتمد عليه في بحوثه، فهو غير صالح للحكم على هذه الكتب اللاتينية التي يلزم أن تحمل اسم جابر العربي حتى يظهر ما ينقض ذلك بالدليل القاطع الذي لا يتسرب إليه الشك.

ومن الكيميائيين العرب الذين طوروا علم الكيمياء:

المجريطي: عاش في الأندلس أيام الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦م) وينسب إليه عمل كيميائي مهم اسمه «رتبة الحكيم ومدخل التعليم»، وعمل آخر في التنجيم بعنوان «غاية الحكيم»

ابن أرفع رأس: من الكيميائيين العرب البارزين. ألف قصيدة بعنوان «شذور الذهب» تتألف من ١٤٦٠ بيتاً بقافية تتضمن أحرف الأبجدية العربية الثمانية والعشرين.

أبو القاسم العراقي: ويسمى أيضاً بالسماوي. عاش على الأرجح في القرن الثالث عشر. عمله الأساسي معروف تحت عنوان «العلم المكتسب في زراعة الذهب».

ابن سينا: عُرف ابن سينا كطبيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفيلسوف إلا أن كتبه تضمنت دراسات كيميائية هامة ولا سيما كتابه «رسالة الإكسير».

الرازي: اشتهر كطبيب إلا أن له إسهامات هامة في علم الكيمياء، إذ ينسب إليه تحضير عدد من المواد الكيميائية، ويعتبر كتابه «سر الأسرار» كتاباً كيميائياً بحق.

الجلدكي: آخر علماء الإسلام الذين اشتهروا في الكيمياء وهو عز الدين أيدمر ابن علي الجلدكي الذي عاش بمصر في القرن الرابع عشر، وتوفي في القاهرة سنة ١٣٦٠ ميلادية تقريباً. وهو أول من قال إن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان معينة، وهذا هو قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي الذي توصل إليه العالم الفرنسي براوست سنة ١٧٩٩ ميلادية. وهو أول من أدرك إمكان فصل الفضة عن الذهب بتأثير حمض الآزوت (ماء النار) الذي يذيب الفضة ويترك الذهب. وله كتابان في الكيمياء يسمى الأول «نهاية الطلب» والثاني «التقريب في أسرار التركيب».

وختاماً لا بد لنا من ذكر ما قاله جوليوس روسكا عن الكيمياء العربية في بدء دراسته عن الرازي «لن نستطيع أبداً القول بأن الكيمياء في الغرب اللاتيني لا تدين تقريباً بشيء إلى اليونانيين، أما إلى العرب، فإنها تدين تقريباً بكل شيء. وإبان عقود طويلة، انصب اللاتينيون على مقاطع الكيميائيين اليونانيين وكأن محتوى ومضمون الكيمياء اللاتينية يمكن تفسيرها بهذه المقاطع. ليس الكيميائيون اليونانيون، بل الترجمات لأعمال أصيلة عربية هي التي مهدت الطريق أمام التطور الغربي».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعليم والتعلّم - آراء ورؤى

أديب الخوري ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحضّر وزارة التربية في سورية لمشروع كبير وبعيد المدى يرمي إلى نهضةٍ شاملة في التربية والتعليم الأساسيّ والثانويّ. يتطلّب الأمر، حشدًا للجهود وتضافرًا للإمكانيات، لكنّه يستلزم قبل ذلك نقاشًا موسّعًا للوصول إلى رؤية واضحة ومقبولة لا تحتمل المغامرة والخطأ. يندرج هذا المقال في إطار المساهمة في طرح الرأي المنفتح، وفتح الموضوع أمام الجميع لأنّ الأمر يرتبط ببناء جيل كامل وبالتالي بمستقبل المجتمع.

٭ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

مقدّمة وتساؤلات:

هـل يمكن الحديث عـن تطوير التعليم دون إعـادة طـرح الأسئلـة الأساسيّة على بساط البحث:

لماذا نعلّم، ماذا نعلّم، كيف نعلّم، أين ومتى نعلّم؟!... ومَن يُعلّمُ مَن؟!...

وهل يمكن الوقوف عند الأسئلة الكبرى وترك الجزئيّات الّتي تستدعيها:

مـا هي المناهج الأفضـل؟ ما هي طرق التدريـس الأحسن؟ ما هي طـرق التقويم الأجدى؟ (علـى افتراض أنّ التقويم أمرٌ لا بـدّ منه دومًا...) هـل صحيح أنّ بإمكان الأطفـال اختيار ما يريـدون معرفته وإلى أيـة درجة؟ هل نحتـاج إلى إعادة النظر في المناهـج أولاً أو أنّ علينـا العمل على إعادة تأهيـل المدرّسين قبل ذلك؟ أم أنّ الأهمّ هو مبنى المدرسة وتصميـم قاعة الصفّ؟ هل يأتـي يـومٌ نستغني فيه عـن الورقة والقلم لصالـح الشاشة ولوحة المفاتيح، وهل علينا أن نحضّـر أولادنا إلى ذلـك العصر القادم منذ نعومـة الأظفـار؟ ما هـو دور الأهل وكيف نعمل علـى تفعيله؟ كيـف نستخدم وسائل الإعلام والتواصل على النحو الأمثل فنستثمر منافعها ونتجنّب مخاطرها؟...

أسئلـةٌ تـكاد لا تنتهـي كلّمـا غصنـا بالتفاصيل...

هـل يصحّ مـن حيث المبـدأ أن نقبل – علـى سبيل المثال– أنّ أفضـل توقيت لبدء اليوم المدرسيّ هو الساعـة الثامنة صباحًا لمجرّد أننا اعتدنا على ذلك طوال مئة عام، أو لمجرّد أنّ معظـم بلدان العالم تعتمد هذا التوقيت؟! ألا يجدر بنا أن نشكّ في أفضليّة هذا التوقيت حتّى لو كنّا سنعود إلى اعتماده هو نفسه مـرّة أخرى؟! يكمن الفرق في أننا في الحالـة الثانية نختار مـن جديد ما هو أنسب وليس ما جرت العادة عليه.

هكذا، وعلـى طريقة ديكارت، يمكن أن نفكّـر من جديـد في كلّ المبادئ، كما في كلّ التفاصيل.

إنّ ما أودّ طرحه من خلال هذه السطور هو مجموعة أفكار قـد تصلح كنواة لخطّة أو لمشروع، وقد تُستخدم كأفكار تُغني خطّة وُضعـت أو يُمكن أن توضـع، وقد تتضمّن أفـكارًا يمكـن أن تكون منطلقًـا لدراسات معمّقة قد يُبنى عليها مستقبلاً.

هذه الأفـكار، في المختصـر، هي ثمرة خبرة أكثر منها ثمرة دراسة، وهي ثمرة تأمّل وتفكّر أكثر منها ثمرة إحصاء وتجريب، وهي أيضًا ثمرة نقاشات طويلة مع شرائح مختلفة من المهتمّين بالأمـر وخصوصًا مع الطلاّب أنفسهم وفي قلب قاعة الصفّ، أكثر ممّا هي ثمرة دراسةٍ لتجارب بلدان أخرى... أخيرًا، هـي قبل هذا وذاك نتـاج تعاطفٍ كبير مع الطالب والطفل الّذي طالما رأيت فيه خلال

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

عملي في التعليم ضحيّة نظرةٍ باتت تليق بمتحف، نظرة ترى الطفل «صفحةً بيضاء لنا أن نكتب عليها ما نشاء» وترى المدرّس مجرّد ناقل لمجموعة من المعلومات وترى المنهاج كتابًا مقدّسًا وترى المدرسة جدرانًا ومقاعد ولوح وترى العلامة إلهًا معبودًا لا إله سواه!!

واقع الحال

١- البيت هو بلا شكّ الحضانة الأولى، والأمّ بشكل خاصّ هي المدرسة الأولى والمعلّمة الأولى والملهِمة الأولى للطفل. وإذا قبلنا بما تقوله الكثير من المدارس التربويّة عن الدور الحاسم الّذي تلعبه السنوات الأولى في التكوين المستقبلي للطفل، فإنّنا نلامس مدى الأهمّيّة العظيمة لدور العائلة عمومًا والأمّ خصوصًا في عمليّة التعلّم والتعليم على المدى الطويل. لكنّ الواقع هو أنّ معظم العائلات ومعظم الأمّهات ينطلقون في تربية الأولاد من منطلقات موروثة تركّز على الناحية الجسميّة وعلى الصحّة الجسديّة على حساب الناحية الذهنية وحتّى النفسية...

يقع هنا ميدان عملٍ على الجهات التربويّة (وبالتالي على وزارة التربية) أن تتدخّل فيه أكثر فأكثر إلى جانب جهات أخرى عديدة أهمّها الجهات الصحّيّة والثقافيّة، وربّما كان من المناسب جداً أن تشجّع الدولة المنظّمات الأهليّة المعنيّة على الاتجاه أكثر إلى هذا الميدان، وأن تشجع على تأسيس مثل هذه الجمعيّات أيضًا. قد يكون أحد الاقتراحات المناسبة في هذا المجال أن تتعاون جهاتٌ (وزارات ومديريات حكوميّة+ جامعات ومؤسّسات خاصّة+

جمعيّات أهليّة) في تنظيم «دورات» ترفع مستوى الوعي التربويّ لدى الأهل عمومًا والأمّهات خصوصًا لأنّ انعكاس ذلك على المستويات الدراسيّة لأطفالهنّ في المستقبل أمرٌ أكيد، فـ: الأمّ مدرسةٌ إذا أعددتَها...

٢- يصل الطفل إلى مرحلة ما قبل المدرسة (٣- ٦ سنوات). لا أعرف ما هي حقيقةُ نسبة الأطفال الّذين يلتحقون برياض الأطفال في هذه السنّ. لكنّني أعتقد أنّ معظم هؤلاء إنّما يرسلهم ذووهم إلى هذه الرياض بسبب عمل الأمّ. إنّ ثقافة أن يكون الطفل في الروضة من أجله هو نفسه وليس من أجل عمل الأمّ هو أمرٌ لا تعيشه معظم العائلات بعد.

تتنافس رياض الأطفال على اجتذاب هؤلاء الأطفال إليها ويجري ذلك عن طريق «قيم مضافة» قد يكون ضررها أكثر من نفعها، فهناك رياض أطفال تحاول لفت نظر الأهل بكونها تعلّم الفرنسية والإنكليزيّة معًا (وهي في الواقع لا تعلّم لا هذه ولا تلك) وهنا رياض أطفال تذهب في الاتجاه الآخر فتزيد من أوقات اللّعب (الّذي يُلَخَّص بمجموعة من الألعاب لا تختلف عمّا يوجد في كلّ حديقة عامّة أو في قاعة ألعاب لمطعم أو مول) ونرى في الحالتين الارتجالية وعدم الدراسة وغلبة العامل التجاري: إنّ نسبةً كبيرةً من رياض الأطفال الخاصّة تدخل في منطق الأهل نفسه وهو تأمين مكان لا بأس به يقضي به الطفل جزءًا من وقته هو ذاك الّذي تكون فيه الأمّ منشغلةً أو متعبة. وكلّ ما بعد ذلك إضافات لا أكثر.

لا ننكر هنا أنّ تطوّرًا كمّيًا ونوعيًا قد حدث في السنين الأخيرة وخصوصًا بعد فتح اختصاص رياض الأطفال في بعض الجامعات. لكنّني أعتقد أنّ رياض الأطفال لا تزال تحتاج إلى الكثير من التنظيم والتطوير وكذلك إلى زيادة عددها أيضًا وأعتقد أنّ هذه أولويّة يجب وضعها في عين الاعتبار. أعتقد بالنتيجة أنّ أيّ مشروعٍ تحديثيّ كبير يجب أن يراعي البدء بسنوات ما قبل المدرسة، بسبب ما لهذه السنوات من أهمّية كبرى في المسيرة التعليميّة المقبلة.

٣- نصل إلى المدرسة.

ما من شكّ في وجود تفاوت بين مدارس وأخرى. (العامّة والخاصّة، الريف والمدينة، المناطق النائية وغير النائية،...) لكنّنا في جميع الأحوال ما زلنا أسرى مفهوم مغلوطٍ للمدرسة. إذ ما زالت المدرسة، في الخلفيّة الفكريّة لمعظم الطلاّب والأهالي والمدرّسين والمدراء... هي المكان الّذي يذهب إليه الطفل كي يقضي ١٢ سنة في تحصيل أفضل العلامات حتّى يستطيع أن يصل، عبر نظام امتحاناتٍ (مشكوك بمصداقيّته بحسب خبراء وزارة التربية نفسها) إلى

اختصاص جامعي «يُطعِم خبزاً»!

تلعب الظروف وأحيانًا الصدف أدوارًا مختلفة في هذه العملية فكم من أشخاص موهوبين تُقتَل مواهبهم وكم من أشخاص لا يصلون إلى آخر الطريق لعلّةٍ ليست فيهم (التسرّب من المدرسة). وكم نجد بالمقابل خرّيجي جامعات من أطبّاء ومهندسين ومدرّسين وغيرهم لا ينجحون في تحويل المهارات والمعلومات التي تقول شهاداتهم إنّهم يحملونها إلى واقع ملموس. وفي هذه الناحية يقع لومٌ كبيرٌ على التعليم الجامعيّ أيضًا لكنّني لن أدخل في تفاصيل ذلك.

بصيص نور

تتطلّع وزارة التربية إلى تغيير جذريّ ونهضةٍ أساسيّة وإصلاحٍ عميق على مستوى التربية والتعليم في جميع المراحل. وهي لذلك ترسل البعثات للاطّلاع على تجارب بلدانٍ أخرى وتقيم ورشات عمل لخبرائها ومسؤوليها للخروج بأفضل التصوّرات والخطط... لكنّني أعتقد أنّ الحلقة الناقصة في هذا المجال هي فتح الباب على مصراعيه للمناقشة على الصعيد الوطنيّ. صحيح أنّنا ربّما نسمع آراء لا قيمة لها، ونرى طروحاتٍ قد لا تهمّ غير طارحيها،... لكنّ علينا أن نتوقّع أيضًا أفكارًا عظيمة يمكن أن تُضاف إلى أفكار التربويّين المختصّين. إنّ طرح الموضوع على الرأي العام ومن خلال وسائل الإعلام كافّة أمرٌ ضروريّ كي تعطى لكلّ مفكّر وباحث ومهتمّ، ولكي تُعطى للطلاّب أنفسهم ولذويهم، كما للمدرّسين والمدراء،... فرصة إبداء الرأي، لأنّ كلّ وجهة نظر مهمّة في ورشةٍ كبرى. ورشة يجب ألاّ ننسى إضافةً لخطورتها وأثرها على المجتمع لعقود عديدة، كلفتها المادّيّة الكبيرة أيضًا.

أقترح في هذا المجال (على الأقلّ) أن تبادر الوزارة إلى تشجيع تنظيم أهالي الطلبة (أولياء الأمور) بحيث يخرج عنهم ممثّلون يساهمون في وضع التصوّرات والرؤى وفي حلقات نقاشٍ مع القائمين على أمور التربية، ولا سيّما ما يتعلّق بالتّخطيط للمستقبل وبالمناهج وبغير ذلك من الأمور، شرط ألاّ تفقد هذه النّخبة تواصلها مع الأهالي عمومًا. يمكن اقتراح أمر مشابه على صعيد الطلبة أنفسهم والأمر أيسر في هذه الحالة لأنّ منظّمة الشبيبة موجودةٌ أصلاً والمطلوب هو تفعيلها في هذا المجال بشكل صحيح وبنّاء.

أفكارٌ قد تستحقّ التأمّل فيها:

انطلاقًا ممّا تقدّم ودون الغوص في تفاصيل ما عنونتُه «واقع الحال» يمكن أن تكون الأفكار التالية مفيدةً في تخطيط قادم أو هي يمكن على الأقلّ أن توحي بأفكار أخرى.

أوّلاً: «الطالب أوّلاً»

منذ قرنين ونصف تقريبًا طرح الفيلسوف والمربّي الفرنسي الكبير جان جاك روسو شعار «الطّفل أوّلاً» وأعتقد أنّ هذا الشعار ما يزال منذ تلك الحقبة يبرهن كلّ يوم على أهمّيّته وصلاحيّته في كلّ فكرٍ تربويّ مخلص.

هل ثمّة إمكانيّة للنقاش في كون المدرسة قد وُجِدت من أجل الطالب وليس العكس، في كون المدرّس يعمل من أجل الطالب وليس العكس، في كون الأمّ والأب قد جاءا بالولد ليكون مسؤولاً منهما وليس العكس، في كون كلّ مؤلّف لمنهاج دراسيّ وكلّ مفكّر في طريقة تربويّة وكلّ موظّف في مؤسّسة تربويّة... هو خادم للطّفل وليس العكس؟!

المؤسف في الموضوع هو أنّنا ننسى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة للعيان، وتطغى علينا تجاه أولادنا وطلاّبنا مشاعر الاستعلاء والفوقيّة ومن هنا، وفي كثير من الأحيان، المصدر البعيد للتّعنيف الأسريّ والمدرسيّ، أو في الحالات الأقلّ حدّةً مصدر التعليم التلقينيّ الّذي لا يبحث عن حاجة الطفل وعن رغبته بل بالأحرى عن مهارة المعلّم والممنهج والمسؤول والمدير...

لا أرى أنّ هناك «عملاً» بعينه يمكن القيام به لتكريس هذا الاعتبار (الطالب أوّلاً) بيد أنّ كلّ الاقتراحات الّتي سترد لاحقًا في ما يخصّ المعلّم أو المنهاج أو غير ذلك يمكن أن تعطي ثمرها هنا. أشير فحسب قبل الخروج من هذا العنوان الجانبيّ إلى ضرورة الاهتمام أكثر وأكثر وأكثر بعيد الطالب (٣٠ آذار من كلّ عام).

ثانيًا: التربية والتعليم

يرتبط التعليم في رياض الأطفال وفي المدرسة الأساسيّة والثانويّة بـ وزارة «التربية» لا «التّعليم»... حقيقةٌ كثيرًا ما تغيب عن الذّهن.

ما الّذي يجب أن يقلقني أكثر: العمل الّذي سيتقنه ولدي ويمارسه في المستقبل (طبيب جرّاح، أو عامل بناء) أو القيم والمثل والمبادئ الّتي سيلتزم بها مهما كان عمله (شريف- فاسد، صادق- منافق، مبدئيّ- انتهازيّ، إلخ...)

إذا كانت الإجابة الأولى ممكنةً عند بعض الأهل، أو حتّى عند الكثيرين منهم (وإن كانت غير معلنة) فإنّ هذه الإجابة لا يمكن أن تكون مقبولةً عندما يُطرَح السؤال على نحوٍ جماعيّ أي على مستوى المجتمع بجملته: هل نهتمّ بأن يكون الجيل القادم متعلّمًا ومثقّفًا بالدرجة الأولى أو أن يكون صالحًا وشريفًا ونزيهًا ومسؤولاً ومحبّاً ومسالمًا وغير فاسد في الدرجة الأولى؟! إنّ ما نعيشه اليوم من أحداث مؤسفة يؤكّد ومن دون أدنى شكّ أنّ الإجابة الثانية هي ما يمكن أن يشكّل

مصدر سلام البلاد وأمان العباد على المدى البعيد إن لم يكن اليوم.

هناك بالتأكيد الكثير من الأطبّاء الجرّاحين، لكنّ بعضهم وإن كان قليلاً يمكن أن يجري عمليّات لا ضرورة لها، أو يمكن أن يرهن نفسه لتجّار الأعضاء البشريّة إلخ... وهناك مهندسون كثر لكنّ بعضهم وإن كانوا قلّة يمكن أن يراهنوا على متانة البناء من أجل ثمن طنٍّ من الحديد،...

واقع الأمر أنّ تخريج أطبّاء ومهندسين وخبراء وعلماء قد لا يكون الأمر الأصعب في سياق التربية والتعليم، إنّما الأصعب هو تخريج إنسانٍ واعٍ ملتزم مبدئيّ صادق أمين،... وهذا ما أعتقد أنّ من الضروري أن نعيد وضعه في الحسبان قبل كلّ شيء آخر.

وفق هذا المنطلق تتراجع إلى المرتبة الثانية مواد طالما اعتُبِرَت أساسيّة كالرياضيات والفيزياء واللغات وغيرها، لتتقدّم عليها مواد تربوية مناسبة، شرط ألاّ تُطرَح هذه المواد بشكل تلقينيّ حفظيّ وألاّ يُقَاس النجاح فيها بطرق القياس المعتادة، هذا إن كان يمكن لذلك أن يُقاس...

وفق هذا المنطلق أيضًا يتراجع إلى المرتبة الثانية تمكّن المدرّس من مادّته الاختصاصيّة مهما تكن، ليخلي المكان الأوّل لشخصيّة المدرّس القياديّة وفكره التنويريّ ومبادرته ومسؤوليّته ووطنيّته وأخلاقيّاته ومُثُله،... ذلك أنّ «التربية» الّتي نتحدّث عنها لا تُمرّر، بالدرجة الأولى، من خلال مواد بعينها بل من خلال القدوة الحسنة والمثال الحميد والأنموذج الملتزم... ويقودنا هذا إلى العنوان التالي:

ثالثًا: المعلّم أوّلاً:

لا أقول المعلّم أولاً كعودةٍ عن «الطالب أوّلاً» بل أقولها في سياق خدمة الطالب أوّلاً. فإذا كان بناء المدرسة والمنهاج واختيار المواد الدراسية وأشياء أخرى كثيرة تدخل في سياق خدمة الطالب وتربيته وتعليمه فإنّ أهمّ هذه المكوّنات على الإطلاق، المكوّن الّذي لا يمكن الاستغناء عنه مهما تطوّرت التكنولوجيا، والمكوّن الّذي يبقى تأثيره هو الأهمّ مهما اختلفت المناهج ومهما تعدّدت نظريّات التربية وطرق التدريس، في المدى المنظور على الأقلّ، هو المعلّم ثمّ المعلّم.

أ: بين الموظّف والرسول:

لا يغربنَّ عن بالنا ونحن نتحدّث عن المعلّم أنّنا نتحدّث عن أمرين معًا: الرسالة والمهنة، فالمعلّم «كاد أن يكون رسولا» كما قال شوقي، والمعلّم موظّف يتقاضى راتبًا في الوقت نفسه. ليس صحيحًا، على حدّ ما تشير الوقائع، أنّ المعلّم يستطيع أن يكون رسولاً بشكل كامل، لأنّه إنسانٌ لا بدّ له أن يأكل ويشرب (يمكن أن يكون لكل أمرٍ

استثناءاته بطبيعة الحال، لكّن ما يهمّنا هو الحالة العامّة) في حين يؤلم جدًّا أن يتنازل المعلّم عن الجانب الرسوليّ في عمله لصالح الجانب الوظيفيّ. أغلب الظنّ أنّ العمليّة التربوية لا تسير على ما يرام حين يختلّ التوازن بين هذين المركّبين في عنصر أساسيّ وأوّل من عناصر التربية والتعليم ألا وهو المعلّم.

من المؤسف أن نرى أنّ هذا الاختلال في التوازن موجودٌ اليوم بقدر كبير. وأنّه اختلالٌ لصالح «المهنة» على حساب «الرسالة» وأنّ هذا الاختلال يلعب دورًا أساسيًا في تراجع الصورة المجيدة للمعلّم في المجتمع، الأمر الّذي يشوّه العلاقة بين المعلّم والطالب ويضرّ أيما ضرر بالعملية التعليمية برمّتها. هنا تظهر ظهورًا واضحًا العلاقة بين التربية والتعليم، وتظهر أولوية التربية أيضًا، فالمعلّم لا يأخذ دوره الكامل، حتّى على الصعيد الاختصاصيّ البحت، ومهما كان متمكّنًا في هذا الاختصاص، إن لم يكن صورةً رائعةً وأنموذجًا مثالاً وقدوةً تُحتَذى في عين الطالب.

يساهم المدرّسون أنفسهم في تشويه الصورة المثاليّة للمعلّم أمام الطلبة بشكل خاصّ وفي المجتمع عمومًا. إنّ المدرّس الّذي يمدّ يده (بالمعنى الحرفيّ للكلمة) ليأخذ من الطالب نفسه (وليس من ذويه، وقد صار هذا أمرًا معتادًا إلى الدرجة الّتي ينسى فيها الطالب والمعلّم والأهل على السواء كم هو معيبٌ ومخجل) مالاً مقابل درسٍ خصوصيّ، هو مدرّسٌ يختار بإرادته أن يُنقص من احترام هذا الطالب له شاء ذلك أم أبى وعلم بذلك أو لم يعلم.

يُرجع معظم المعلّمين تشوّه صورة المعلّم-الرسول إلى أشياء أخرى. منها على سبيل المثال سياسة منع تعنيف الطلاّب الّتي تحاول وزارة التربية المضيّ قدمًا في تطبيقها.

أعتقد أنّ العكس هو الصحيح فالمدرّس القادر على كسب احترام طلاّبه من دون أن يكون عنيفًا هو المدرّس الأنجح، ورغم إقرارنا بالتدنّي الشديد لراتب المدرّس قياسًا بمتطلّبات الحياة البسيطة، يبقى إعطاء الدروس الخصوصيّة -على النحو التجاريّ الّذي صار شائعًا- من قبل الكثير من المدرّسين مثالاً هامّاً عن أسباب انحراف العلاقة بين الطالب والمعلّم وتشوّه صورة الأخير. لا ننسى أخيرًا أنّ هذه العلاقة هي واحدةٌ من المفاتيح الأساسيّة في صحّة وسلامة العمليّة التربويّة وأنّ تردّيها على النحو القائم أمرٌ يجب ألاّ يظلّ على ما هو عليه.

أودّ في هذا المقام اقتراح ما يلي:

١- (مع أنّ ما أكتبه الآن أمرٌ معروفٌ جداً، ومع أنّه صعب التحقيق لأسباب

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

حقيقيّة أو غير حقيقية فإنّ من واجبي أن أكتبه) العمل على رفع رواتب الموظّفين عمومًا بشكل حقيقيّ بحيث يكون الراتب ملبّيًا للحدّ الأدنى من ضرورات الحياة الكريمة (وهذا يعني عمليًا أكثر من مضاعفة الراتب).

٢- العمل على رفع رواتب المدرّسين بشكل خاصّ، وإعطائهم كلّ التعويضات الأخرى الممكنة (تعويض أعلى لطبيعة العمل -تعويض ملابس لأنّ من حقّ المدرّس، بل ومن واجبه أيضًا، أن يكون في مظهرٍ مناسب أمام تلاميذه- تعويض هاتف لأنّ جميع موظّفي الحكومة يستطيعون استخدام هاتف مكتبهم خلال عملهم مع مَن يشاؤون إلاّ المدرّس الّذي إذا أراد أن يستخدم هاتف المدرسة خلال الفرصة للتحدّث مع المديرية أو الوزارة أو للتواصل مع ذوي الطالب مثلاً فإنّه يضع قطعةً نقديّة في الحصّالة وهو لذلك يلجأ لاستخدام هاتفه النقّال- تعويضاتٌ مناسبة وعادلة في التصحيح والمراقبة إذ من المعروف أنّ التعويضات المخصّصة في التصحيح بشكل خاصّ لا تُصرَف بشكل عادل ولهذا تفاصيله التي يمكن بحثها- إعادة النظر في أجور الساعات الإضافية- مراجعة تعويضات المدرّسين في المناطق النائية والمحافظات البعيدة عن مكان الإقامة الأصلي...) لا بدّ مقابل كلّ هذا من التشدّد في مراقبة مستوى المدرّس والتزامه بتطوير إمكانياته وبالدورات التأهيلية الّتي تنظّمها الوزارة (ربط الترفيعات ونسبتها بالدورات المتبعة ودرجة النجاح فيها وانعكاسها الفعلي على التدريس على أرض الواقع) كما لابدّ من إيجاد طريقةٍ فعّالة في مكافحة آفة الدروس الخصوصيّة في غير محلّها وخصوصًا عندما يعطى الدرس الخصوصيّ من قبل المدرّس لأحد طلاّبه في الصفّ.

٣- يمكن على الصعيد المادّيّ ملاحظة ما يلي: إذا كانت هناك أموال كبيرة ستُخصّص من أجل التجهيزات المادّيّة «الضروريّة» في مشروع النهضة التعليميّة العتيدة (حواسب، شبكات، وسائل إيضاح مختلفة...) ومن أجل وضع الخطط التعليمية التفاعلية... فأغلب الظنّ أنّ ذلك سيكون مغامرةً كبيرةً جدّاً، ورهانًا غير مضمون النتائج إن لم يقترن بنوعية وإمكانيات وقدرات الأشخاص الّذين سيكونون مسؤولين مباشرين عن تطبيق الخطط الجديدة واستخدام أدواتها، أي المعلّمين. ورفع مستوى المعلّمين، وإخراج أفضل ما لديهم إلى التطبيق ونقلهم من موقع الموظّف إلى موقع الرسول، أمر غير ممكن، كما أثبتت التجربة العمليّة، الأمر الّذي علينا ألاّ نعيد تجربته بثمنٍ كبير، دون تقديم الحافز المادّي المناسب. إنّني أذهب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى حدّ القول هنا إنّ مدرّسًا موهوبًا وحسن التأهيل وراضياً بما يجنيه مقابل تعبه، يستطيع أن يكون مبدعًا إلى درجة يمكن أن تغني عن أيّ تجهيزات استثنائية وأيّ خطط موضوعة سلفًا. أمّا العكس (أي أن تغني التجهيزات مهما كانت حديثة والخطط المسبقة مهما كانت رائدة عن دور المعلّم الأساسيّ) فأمرٌ لا أظنّه ممكنًا!

٤- يرتبط احترام المعلّم من قبل الطالب باحترام المعلّم من قبل نفسه كما ذكرت أعلاه ومن الاحترام المتبادل بين المدرّسين أنفسهم ولكن أيضًا باحترام المعلّم من قبل المسؤولين التربويين الآخرين (الإدارة- الموجه الاختصاصي- وصولاً إلى موظّفي التربية على اختلاف مستوياتهم). أستطيع هنا أن أدلي بالشهادة التالية: كنت في إحدى المرّات أنجز معاملة نقلٍ في مديرية التربية (قبل بداية عامٍ دراسيّ) وكنت بحاجة لسؤالٍ بسيط يمكن الإجابة عليه بنعم أو لا من قبل إحدى الموظّفات. كانت تلك الموظّفة تتحدّث مع رجلٍ ومعه شاب صغير من الواضح أنّه ابنه، كما أنّ من الواضح أنّه كان برفقته لإنجاز معاملة لنقله من مدرسة لأخرى. كانت الموظّفة تتحدّث مع الرجل في شأنٍ خاص (ربّما تسأله عن زوجته أو شيء من هذا القبيل) وطال بهما الحديث... فحاولتُ مقاطعتهما لأسألها عن حاجتي... فكان ردّها عليّ غير لائق بموظّفة تردّ على مدرّس... بعد بضعة أيّام وجدتُ ذلك الشاب طالبًا عندي في الصفّ! طبعًا أنا لا أذكر هذه القصّة على سبيل الشكوى الشخصيّة بل لتوجيه العناية إلى العمل على رفع سوية الموظّفين- في كلّ مواقعهم- وبما فيهم المدرّسين- في التعامل مع الآخرين.

٥- يشكّل عيد المعلّم فرصةً هامّة لتكريس دوره وتذكيره بواجبه وبرسالته، كما يشكّل فرصةً مناسبة لرفع مقامه أيضًا. ما يجري في كثيرٍ من المدارس إن لم يكن كلّ المدارس هو تقديم قطع «كاتو» خلال إحدى الفرص مع كأس صغيرة من الشاي (بل ربّما يذهب الاحتفال إلى ما هو أضخم من ذلك فتُقدّم الكولا مع الكاتو بدل الشاي) إلى المدرّسين الموجودين! أعتقد أنّ هذه الطريقة في الاحتفال بالمعلّم تنقص من قدره ولا تزيده. لا أستطيع في هذا المقام إلاّ أن أذكر بشكل إيجابي الاستضافة الّتي قام بها السيد رئيس الجمهورية لعدد من المعلّمين في عيد المعلّم في أكثر من سنة. إنّ الاحتفال بعيد المعلّم يجب أن يتمّ دومًا على مستوى رفيع، وحتّى ضمن المدارس يجب أن يكون لائقًا أو لا يكون أبدًا. (يمكن تنظيم احتفال حقيقيّ بعد الظهر مثلاً يحضره صف من الطلاب كالصف الحادي عشر- في مدرسة ثانوية إذا كان طلاب الصف الحادي عشر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هم المدعوون فإنّ جميع الطلاب على مدى السنين سيكونون مشاركين- مثلاً وممثّلين عن الأهالي يختارهم مجلس الأولياء وتُلقى فيه بعض الكلمات ويجري فيه تبادل ونقاش كما لا يخلو من التهنئة ومن الضيافة).

٦- يبقى وقد تحدّثت عن عيد المعلّم أن أقترح التشدّد في مكافحة «هدية عيد المعلّم» لأنّها باتت- وخصوصًا في مرحلة الحلقة الأولى- عبئًا على معظم الأسر يفرضها العرف كما يفرضها خوف الأهل أن يكون ولدهم هو الوحيد الّذي لم يحمل هديّةً، دون أن ننسى الجانب المسيء لشخص المعلّم في هذه الهدية حين تُقدّم كواجب لا بدّ منه أو حين يُنظَر إليها كرسالة للمعلّمة كي تهتمّ أكثر بالتلميذ. إنّه لمنظرٌ يؤذي العين والنفس مشهد المعلّمة عائدةً إلى البيت وفي يدها الكثير من الأكياس في يوم عيد المعلّم!

ب: في التدريب المستمرّ للمعلّم

١) لننزعنّ من خلفيّتنا الفكريّة أوّلاً أنّ التدريب يعني مجرّد المشاركة في دوراتٍ معيّنة بين وقتٍ وآخر... ولنعوّد أنفسنا على أنّ التدريب المستمر هو أمرٌ ضروريّ وهو أمرٌ ذاتيّ وهو أمرٌ يجب أن يكون قائمًا في كلّ لحظة، وأنّ مصادر التدريب المستمرّ يمكن أن تكون شخصًا لا نتوقّعه أو كتابًا ما أو برنامجًا تلفزيونيًا، أو أيّ شيء آخر... دون أن يعني كلّ هذا أنّ الدورات وورشات العمل والندوات على اختلافها هي أمرٌ لا أهمّيّة له.

يجب أن تكون الدورات وورشات العمل التطويرية التي تنظّم على مستوى الوزارة أو المدرسة... لرفع سويات المعلّمين هي الأمر الأساس، لكنّني أعتقد أنّ المعلّم الّذي لا يبحث عن تطوير نفسه كلّ يوم، وفي كلّ المصادر، لن يجني فائدةً من تلك الدورات والورشات، على عكس المعلّم الباحث في كلّ وقت ومكان عن الأفضل لنفسه، فسيكون لديه الاستعداد للاستفادة من هذه المناسبات على نحو كبير، بل وللإفادة فيها أيضًا. (تشير كلمة دورة إلى نمط مدرّب أو أكثر يعطي معلومات أو يعتني بتطوير مهارات مجموعة من المدرّسين، بينما تشير عبارة ورشة عمل إلى وجود عدد من المدرّسين الّذين يملك كلّ منهم ما يعطيه للآخرين دون أن يمنع ذلك وجود منسّقين للموضوع. إنّ التمييز بين الاثنين مهمّ وضروريّ وغلبة الورشة على الدورة (لا بالاسم فقط) أمرٌ صحيّ يشير إلى عمل تطوريّ تشاركيّ حقيقيّ).

٢) لنذكرنّ أنفسنا على الدوام (أيضًا) ولنذكّرنّ بعضنا بعضًا، أنّ الورشات والدورات التدريبيّة لا تنفصل عن الواقع التطبيقيّ في المدارس. إنّ إحدى مصائبنا على ما يبدو هي أنّنا تعوّدنا على الفصل بين أمورٍ لا يمكن الفصل بينها. لا يبذل الكثير

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

من المدرّسين جهدًا كافيًا للنّظر في كيفيّة تطبيق واستثمار مهاراتٍ أو معلوماتٍ أو خبراتٍ يُفترَض أنّهم حصلوا عليها في دورةٍ من الدورات. وهم يجدون على الدوام المبرّر لذلك: نقص تجهيزات، ضيق قاعة الصفّ، عدم تقبّل الطلاّب، احتجاج الأهالي، غياب أمين المخبر،... إنّ الدورات الّتي نظّمتها الوزارة حول تطبيق المناهج الجديدة (بداية العام الدراسي ٢٠١٠- ٢٠١١م) هي مثالٌ على الحالة الّتي أقولها، فبغضّ النظر عن الأعداد الكبيرة من الأساتذة في الدورة وعن مستوى الإعطاء من قبل الموجهين الاختصاصيين وعن أشياء أخرى عديدة يمكن اعتبارها مآخذ على هذه الدورات، كان مقرَّرًا سلفًا عند عدد كبير من الأساتذة الاستمرار في طريقة الإعطاء التقليدية وحسب، وأنا أتحدّث هنا عن زملاء أعرفهم معرفةً شخصيّة وسمعت هذا الكلام منهم مباشرةً!

أقول قبل الانتقال لموضوع آخر إنّ المطلوب هنا ليس البحث عن آليةٍ تجبر المدرّس على تطبيق الجديد الّذي يفترض أن يكون قد تعلّمه، إنّما بالأولى خلق حالةٍ من الرغبة الذاتية في استثمار كلّ معرفةٍ وفي تطبيق كلّ خبرة جديدة وفي تقديم كلّ ما يؤخَذ.

٣) لا نَغفَلَنّ قبل كلّ ما تقدّم عن التمييز بين التدريب المستمرّ وبين إعادة التأهيل العميق المطلوب والملحّ لعدد كبيرٍ جدّاً من المعلّمين وأنا أتحدّث هنا على الصعيد التربوي قبل أن أتحدّث على الصعيد العلميّ وعلى صعيد طرق التعليم وفنّ التعامل مع الآخرين قبل صعيد المحتوى الاختصاصيّ. هذا الموضوع بحدّ ذاته يحتاج إلى ورشةٍ كبرى أعتقد أنّها أولى وأهمّ من أشياء أخرى كثيرة.

رابعًا: الموهبة والتعلّم أو: مسيرة التعلّم - التمييز

هل يولد المرء شاعرًا أو رسّامًا أو رياضياً... أو أنّه يصبح كذلك؟! هل الموضوع موضوع موهبة أو موضوع اكتساب؟؟ سؤالٌ قديم جديد لا تزال الإجابة عنه بين أخذٍ وردّ. لكنّي أعيد طرحه لأنّه سؤالٌ جوهريّ.

لا آتي بجديد إن قلت إنّه ما من شكّ في وجود الموهبة. إذا لم يكن هناك ما يُسمّى «جينة» الشّعر أو «مورّثة» الرياضيّات أو «مَلَكة» الموسيقا (وهذه أمورٌ لا أظنّها محسومة) فإنّ ولادة طفلٍ من أمٍّ تجيد العزف وتمارسه، أو من أبٍ ينظم الشعر ويلقيه أو في بيتٍ يضمّ مكتبةً كبيرة مختصّة بجانب ما، هي أمورٌ تساعد الطفل على التوجه بهذا الاتجاه أو ذاك.

لكنّ ولادة طفلٍ من أمّ وأبٍ موسيقيّين لا يعني بالضرورة أن يصبح الولد موسيقيّاً

لامعًا لأنّ الأمر يتطلّب تمرينًا وعلمًا وتعلّمًا أيضًا.

ينبثق عن هذا الطرح نتيجة هامّة على ما أظنّ وهي أنّ مسيرة (أو سياق) التعلّم هو في الوقت نفسه سياق تمييز، بمعنى أنّ ما يجب أن نضعه في حسباننا، كمدرّسين وكإدارة مدرسة وكأهل في الوقت نفسه، هو أنّ الطفل يدخل الروضة فالمدرسة كي يتعلّم من جهة وكي يميّز موهبته الخاصّة (أو يختارها) ويركّز عليها من جهة أخرى.

وفق هذه النظرة لا يمكن القبول بإلغاء مواد الموسيقا والرسم والرياضة على سبيل المثال من منهاج شهادة التّعليم الأساسيّ ولا حتّى إلغاء درجاتها من المجموع العام.

أعتقد أنّ ما تقدّم الحديث عنه يدعونا إلى التفكير في الفروع الموجودة حالياً للشهادة الثانوية وفي إمكانية تعديلها وزيادتها وتنويعها.

إذا كانت مسيرة التعليم هي مسيرة تمييز (وهذا ما يشير إليه وجود مدارس صناعيّة وفنّيّة وغيرها...) وإذا كان الاتجاه العام (قبل بلوغ مرحلة التخصّص الجامعيّ) يظهر ويتبلور مع انتهاء مرحلة التعليم الأساسيّ فإنّ السؤال الّذي يُطرح بدلاً من «هل نبقي على مادّة الرسم أو هل نبقي على درجات الرياضة في منهاج البكالوريا العلمي» هو: «لِمَ لا يكون هناك بكالوريا رياضيّة أو بكالوريا فنون تشكيلية أو بكالوريا موسيقا، إلخ... لا أعرف إن كان مثل هذا النظام متّبعًا في دول أخرى لكنّي أعتقد أنّنا لسنا مجبرين دومًا على تقليد الدّول الأخرى وأنّنا نستطيع في أحيان كثيرة أن نكون من السبّاقين. أعيد القول إنّني أطرح هنا أفكارًا تحتاج إلى دراسة ومتابعة، وإذا كنت أعتقد أنّها يمكن أن تكون مفيدةً وناجحة فإنّني لا أتمسّك بها مع ذلك إذا كانت الدراسات العلميّة والحجّة الدامغة تنقضها وتقدّم أفضل منها.

إذا كان هناك مئتي طالب في محافظة ما يثبتون تميّزًا كبيرًا في الموسيقا مثلاً، فهل الأجدى أن يتابعوا دراستهم في البكالوريا العلمي أو الأدبي (مع كلّ ما يتطلّب ذلك من جهد) وأن يتابعوا في الوقت نفسه تنمية مهاراتهم الفنّيّة في معهد عامّ أو خاصّ (يعني جهدًا إضافيّاً) أم أنّ الأجدى هو أن تكون لهم مدرسةٌ تدعم وتنمّي موهبتهم الموسيقيّة الأكيدة مع إعطائهم ما يلزم ويناسب من مواد أخرى؟

تعبّر الحالة الأولى عن مجتمع لا يعترف بأهمّيّة الفنّ وعن أشخاص (طلاّب وأهالي) يريدون التوفيق بين الموهبة (كشيءٍ إضافي أو احتياطي أو كماليّ) وبين الحصول على فرصة عمل جيّدة لا توفّرها كما يعتقد أغلب الناس إلاّ بعض الاختصاصات المعروفة.

تعبّر الحالة الثانية عن مجتمع يعترف

بالفنّ وبالرياضة وبكلّ المواهب بحيث يمكن لصاحبها أن يجد عملاً و«يأكل خبزًا» دون أن يضطر لدراسةٍ أخرى ولعملٍ آخر.

إنّ الانتقال من مرحلة التعليم الأساسيّ إلى الثّانوي يحتاج على نحوٍ عام إلى إعادة نظر. ففضلاً عن إمكانية فتح فروعٍ أخرى في التعليم الثانوي (يمكن التفكير حتّى بتقسيم الفرع العلميّ إلى رياضيات فيزياء من جهة وعلوم طبيعية من جهة أخرى مثلاً) لا بدّ من إعادة تقويم وتعديل للطريقة التي يجري بها توزيع الطلاّب على الفروع المختلفة بحسب المجموع في شهادة التعليم الأساسيّ. لهذا الأمر تفاصيله لكنّني أذكر على سبيل المثال فحسب أنّ طلاّب الثانوية الصناعية يحتاجون (وفق منهاجهم الحاليّ) إلى قدرة كبيرة في الرياضيات، في حين لا يحتاج طلاّب الفرع الأدبي لذلك ومع ذلك يمكن أن نرى طلاباً علاماتهم مرتفعة في الرياضيات يدخلون الفرع الأدبي رغم ضعفهم في اللّغات أو التاريخ مثلاً، لكنّهم اختاروا الفرع الأدبيّ لأنّه «أفضل» من «الصناعة» وأسهل من العلمي، بينما نرى في الوقت نفسه طلاّبًا لا يملكون من الرياضيات ما يؤهّلهم لدراسة الفرع الصناعي، لكنّ إمكانياتهم في المواد الأدبيّة مقبولة أو جيّدة، إنّما قرّر لهم مجموع الدرجات دخول الفرع الصناعيّ! أطرح هذا المثال مع التحفظ الشديد على استخدام درجات المواد المختلفة في شهادة التعليم الأساسيّ كمعيارٍ حقيقيّ للمستوى في أيّ من الموادّ!

يتطلّب منّا كلّ ما تقدّم الخروج من فكرة أنّ الطبيب أفضل من لاعب كرة القدم. إنّ هذه الفكرة الّتي تصنّف النّاس وفق اختصاصاتهم أو أعمالهم هي واحدةٌ من الأفكار الاجتماعية الّتي يمكن، بل ويُطلَب من الميدان التربوي المساهمة في تغييرها.

وفق هذه النظرة لن يُنظَر للطالب المتفوّق في الرياضيات داخل قاعة الصفّ كطالب أفضل من المتفوّق في الرياضة، فلكلّ منهما موهبته، وسيُطلَب من المتفوّق في الرياضيات بذل المزيد من الجهد في الرياضة كما سيُطلَب من المتفوق في الرياضة بذل المزيد من الجهد في الرياضيات... وربما يساعد أحدهما الآخر في هذا وذاك.

ثمّة آليّات وطرق معروفة تيسّر للمدرّسين والإدارة والأهل والطالب نفسه القيام بهذا التمييز معًا (مثل دفتر ملاحظات المدرّسين الّذي يشكّل جزءًا من ملفّ الطالب في المدرسة ويرافقه عامًا تلو عام وسجلّ الأعمال المميّزة وغير ذلك من أمورٍ يحتاج تفصيلها إلى مقالٍ مستقلّ...) ومع ذلك لا تكفي هذه الوسائل وحدها بل إنّ صياغة المناهج -كما سنبيّن لاحقًا- يمكن أن تشكّل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جزءًا من عمل التمييز هذا، الّذي يلعب فيه المدرّسون الأكفاء دورًا أساسيًا جدًا.

أخلص إلى القول: إنّ مسيرة التعليم على مدار عقد ونصف (من الروضة حتّى الشهادة الثانوية) يجب أن تتركّز لا حول الطالب فقط (كما صرنا نسمع كثيرًا في الآونة الأخيرة) بل حول الطالب كشخص، حول مؤهّلاته الخاصّة، مواهبة الخاصّة، إمكاناته، رغباته وحرّيّته في اختيار مستقبله، هذا الاختيار يجب أن يتدرّب على القيام به على امتداد سنوات دراسته الأساسيّة والثانويّة وصولاً إلى القدرة على ممارسته بشكل كامل.

خامسًا: المناهج وطرق التدريس

شكّلت المناهج الجديدة الّتي بدأ تطبيقها في العام الدراسي ٢٠١٠-٢٠١١ موضع جدالٍ كبير، كما يعرف الجميع، وذلك على مستوى الطلاّب وذويهم كما داخل وزارة التربية نفسها. لا أدلّ على ذلك من كون الوزارة قد استغنت عن خدمات الشركة الّتي وضعت هذه المناهج لتكلّف أساتذةً من ملاك الوزارة أو من المتقاعدين وضع مناهج العام القادم.

لن أخوض في تفاصيل نقاط قوّة ونقاط ضعف الكتب الّتي طُرحت وفي مناقشتها (سبق أن قدّمت بعض الملاحظات إلى وزارة التربية حول كتاب الرياضيّات للصفّ السّابع). ولكنّني أودّ تناول بعض الأمور بعموميّةٍ أكبر هنا:

أ: تثبت التجربة أنّ المنافسة هي عاملٌ هامٌ من عوامل التطوير على مختلف الأصعدة ومنها التربية، والكتب والمناهج المدرسيّة لا تخرج عن ذلك.

ما تزال سياساتنا التربويّة تقوم على وحدة المناهج في جميع المدارس انطلاقًا من مبدأ تحقيق تكافؤ الفرص لجميع الطلاّب. لكنّ السؤال الّذي بدأ يطرح نفسه بعد فترة طويلة من تطبيق هذا المبدأ هو: هل تحقّق وحدة المناهج تكافؤًا حقيقيّاً في الفرص؟ (عندما تصل قيمة الدرس الخصوصيّ في مادّة الرياضيّات عند أحد الموجهين الاختصاصيّين إلى ألفي ليرة سوريّة أو أكثر في الساعة الواحدة فإنّ من الواضح أنّ مبدأ التكافؤ صار حبرًا على ورق!) وحتّى لو فرضنا ذلك (تحقّق التكافؤ) فما هو الأهمّ: تكافؤ الفرص أو تطوّر التعليم؟ بمعنى أنّه إذا كانت وحدة المناهج بالنسبة لجميع المدارس تحقّق تكافؤًا في الفرص (وهذا ما لا أظنّه صحيحًا) فهل نقبل أن يكون مستوى المناهج هو ٣ من ١٠ مثلاً مقابل تكافؤ الفرص هذا، أو أنّ الأفضل هو أن يكون المستوى هو ٥ من ١٠ في بعض المدارس وصولاً إلى ٩ من ١٠ في مدارس أخرى، مع التضحية بتكافؤ الفرص؟؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أعتقد أنّ الاختلاف في المناهج هو الأمر الطبيعي أكثر، لا بين المدارس العامّة (أي مدارس الدولة) والمدارس الخاصّة فحسب، بل حتّى بين مدارس الدّولة بحسب اعتبارات معيّنة (يمكن أن يكون هناك بعض الاختلافات بين المناطق الريفيّة والمدنيّة فمادّة تهتمّ بالتوعيّة البيئيّة مثلاً يمكن أن تركّز على أشياء معيّنة في الرّيف تختلف عن أشياء أخرى في المدينة. وحتّى في الرياضيّات يمكن صياغة بعض الأفكار أو المسائل أو الأمثلة (مع بقائها هي نفسها) ضمن قالب مأخوذ من بيئة ريفيّة أو مدنيّة.. إلخ... وكمثال آخر أقول إنّ منهاجًا يُعطى في فترة بعد الظّهر يمكن أن يختلف عن منهاج يُعطى في الفترة النظاميّة وكمثال أخير أيضًا: قد توجد هناك بعض المناطق أو القرى النائية التي يجتمع فيها طلاّب من أعمار مختلفة كأن يُجمع طلاّب الصفّين الثاني والثالث الأساسيّين في قاعة واحدة مثلاً... فهذه أيضًا تتطلّب مناهج خاصّة...) ربّما كان الحلّ الأمثل (على مستوى المدارس العامّة فقط) هو منهاج شامل يلحظ إتاحة بدائل متعدّدة بحسب المدرسة والصفّ (صف مختلط، صف ذكور فقط أو إناث فقط، صفّ فيه نسبة كبيرة من المعيدين، صفّ في بيئة ريفيّة أو صفّ في بيئة مدنيّة، إلخ...).

أقول قبل أن أختم، إنّ السماح للمدارس الخاصّة باعتماد مناهج مختلفة يعطي فرصةً للوزارة كي تكون منافسًا حقيقيًا في هذا الميدان وربّما أثبتت مناهجها أفضليّتها وتمّ اعتمادها على نحوٍ حرّ من قبل بعض المدارس الخاصّة... يبقى أن أقول إنّ اختلاف المناهج لا يعني بالضّرورة الخروج عن المعايير الأساسيّة الّتي تعتمدها وتقرّرها الوزارة.

إنّ إحدى المثالب الّتي تؤخذ على توحيد المناهج هي أنّ المدارس الخاصّة الممنوعة من اعتماد منهاج مختلف تلجأ إلى إضافة موادٍ أخرى فنرى على سبيل المثال (إنكليزي المدرسة وإنكليزي الدولة) ونرى أيضًا كتبًا في العلوم بلغة أجنبيّة، إلخ... ليست نتيجة ذلك سوى جهد وإرهاق إضافيّ للطالب لا ضرورة لهما من حيث المبدأ.

ب: إذا قبلنا أنّ مسيرة التعليم هي في الوقت نفسه مسيرة تمييز، يصبح من المنطقي أن يلحظ المنهاج مسائل وفقرات تساعد المدرّس والطالب معًا على اكتشاف تميّزه أو موهبته في مادّة أو أخرى. ثمّة على العموم مواضيع أو مسائل مفتاحيّة في كلّ مادّة يمكن أن تؤشّر لإمكانية إبداع الطالب في هذه المادّة بالذّات، إنّ صياغة منهاج يُعنى مسبقًا بناحية التمييز يمكن أن تختلف بشكلٍ كبير عن صياغة منهاجٍ لا يلحظ هذه المسألة.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

جـ: ترتبـط المناهـج ولا شـكّ بطرق التدريس المتّبعة بدءًا من الطريقة التقليدية الإلقائيّة التلقينيّة ووصولاً إلى أحدث الطرق الّتي تسعى الـوزارة إلى تدريـب المدرّسين على تطبيقها، بمـا في ذلك التعلّم التعاوني والتشاركي والذاتي ومـرورًا بالتعلّم باللّعب والتعلّم بحلّ المشكلات، إلخ...

لا يختلف اثنان على ضرورة الخروج من الطرق التقليديّة الإلقائيّة التلقينيّة، لكنّ ما هـو موضع اختلاف بـين المدارس التربوية المختلفة هو البدائـل المطروحة. أعتقد من جهتـي أنّ تقرير بديلٍ مـا (التعلّم التعاوني مثلاً وهو ما شكّل موضوع الدورة التدريبيّة لعشرات آلاف المدرّسـين في مطلع العام الدراسـيّ الماضـي) والاستعاضة به عمّا هـو قائم، ليس هو الأمـر الأنسب، وأعتقد أيضًا أنّ طريقة التدريس لا ترتبط بالمنهاج المطروح وحده بل بأمور أخرى عديدة ولذلك أقـترح ما يلـي: ١- تدريب جـدّيّ وعميق للمدرّسـين على طرق التدريـس المختلفة. ٢- توفـير (قدر الإمـكان) لـكلّ الوسائل اللازمـة لتطبيق مختلف هـذه الطرق. ٣- إعطـاء الحرّيّة للمدرّسـ لتطبيق الطريقة الّتي يراهـا مناسبةً لكلّ درسـ أو فقرة أو موضوع وبحسـب توافر المتطلّبات اللازمة. إنّ فكـرة وجود خططٍ درسيّة مسبقة يمكن أن تكون فكرةً ممتازة إذا كان المقصود منها أن تكـون أمثلةً عمّا يمكن للمدرّس أن يقوم بـه أمّا أن تكون هناك خطط درسيّة مقرّرة لا يمكـن للمدرّس الخروج عنهـا فأمرٌ قد يشبه الانتقال «من تحـت الدلف إلى تحت المزراب»!

د: تتجـه معظـم الدراسـات التربوية الحديثـة إلى الحديث عن «التعلّم» بدلاً من «التعليم» بمعنى أنّ العمليّة الّتي كانت تُسمّى تقليدياً عملية تعليم يجب أن تكون في الواقع عمليّة توفـير الفرصـ والأدوات والوسائل والأجـواء المناسبة إضافـةً إلى الأشخاص المناسبين، ليقـوم الطالب بعملية التعلّم هو نفسه. وفق هذه النظرة يتغيّر دور المعلّم من «مدرّسـ» إلى «منشّـط» أو «ميسّر». يمكن الذهـاب إلى مـا هو أبعد في هـذه الفكرة والنظر إلى مرحلة التعليم الأساسيّ بمجملها على أنّها مرحلـة «تعليم التعلّم الذاتي». إنّ المطلـوب في نهاية هذه المرحلة هو الوصول إلى شخصٍ قادرٍ علـى التعلّم ذاتياً أي على اختيار ما يريد تعلّمه واختيار وسائله للقيام بذلـك واختيار ما يطلبه مـن مساعدة من المدرّسـ أو الميسّـر،... يتطلّب تحقيق ذلك عملاً أكثر عمقًا في صياغة المناهج أوّلاً وفي تطبيق طـرق التدريس المختلفـة ثانيًا وفي التركيـز على تنمية مهـارات التعلّم الذاتي بشكل خاصّ.

سادسًا: المواد الدراسيّة - ماذا نعلّم؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذا كنّا نتحدّث عن مناهج متنوعة، وإذا كان هذا الحديث يستدعي وضع ضوابط ومعايير (وهي موجودة عمليّاً لكنّها قابلةٌ للكثير من التطوير بعد) فإنّ أوّل سؤالٍ يُطرَح عندما نفكّر في الضوابط والمعايير هو: «ماذا نعلّم»... الرياضيات والفيزياء واللغة العربية والتاريخ، إلخ... نعم... ولكن لماذا نعم؟! لماذا الإنكليزية والفرنسية لا إحداهما فقط (مقابل التعلّم الحقيقيّ بدلاً من مجرّد حفظ معاني الكلمات والجمل)؟ لماذا كلّ هذه الرياضيات؟ لماذا جرى في مرحلة معيّنة استبعاد بعض أبحاث الجبر (الزمرة مثلاً) ولماذا تمّ إدخال المعادلات التفاضليّة؟! مَن يقرّر مثل هذه الأمور وعلى أيّ أساس؟ ولماذا لا يكون على المدرّسين بشكل عام غير تطبيق ما يجري تقريره ولا يجري أخذ رأيهم بأيّة طريقة من الطرق؟!

يرتبط موضوع إعادة النظر بالمواد ارتباطًا شديدًا بما أشرنا إليه حول موضوع إعادة النظر في الفروع المختلفة، فقد يكون تعليم لغتين في فرع البكالوريا الأدبية أمرًا مناسبًا أو مطلوبًا ولا يكون كذلك في الفروع الأخرى مثلاً...!

في جميع الأحوال: أليست هناك بعض المواد الّتي تشكّل جزءًا من المنهاج والّتي يمكن إعادة التفكير فيها إمّا لاستبدالها أو حتّى لإلغائها؟! أوليس هناك في المقابل مواد أخرى يمكن التفكير في ضرورتها؟!

ألا يمكن أن نعيد النظر نحو الفصل بين ما يفترض أن يتعلّمه الطالب في المدرسة وما يُفتَرَض أن يتعلّمه في مكان آخر (الجامع، الكنيسة، الحزب،...).

أفكّر مثلاً بمادّتي التربية الدينية (المسيحية والإسلامية).

لا بدّ من الاعتراف والقبول بأنّ نسبةً كبيرةً جدًّا من الطلاّب لا يهتمّون أبدًا بهذه المادّة، حتّى وإن كانوا من عائلاتٍ مؤمنة تمارس الشعائر الدينية على اختلافها. إنّني أدّعي هنا الحديث بلسان الطلاّب أنفسهم الّذين يرون أنّ مكان تعلّم هذه المواد هو دار العبادة (الجامع والكنيسة بشكل خاصّ) وأنّ المعرفة الدينيّة والإيمان لا يقيّمان كما تقيّم بقيّة المواد بل قد يرى البعض أنّ تقييم المعرفة الدينية والإيمان ليس من اختصاص الآخرين بل هو من اختصاص الله!

أقترح بالمقابل وجود مادّة يمكن أن تُسمّى «التربية الروحيّة» فيها يتعلّم جميع الطلاّب معًا بعض الحقائق الّتي لا يعترض عليها أحد عن جميع الأديان ولاسيّما القيم الأخلاقيّة المشتركة الّتي لا يختلف فيها عاقلان، لا في منطقتنا فقط بل في كلّ العالم، لا الّتي تُسمّى «سماوية» فقط، بل الّتي يشكّل أتباعها أكثر من ثلث البشرية ونحن نصفهم بالكفّار وعبدة الأصنام! بل

ربّمــا يمكن في هذه المــادّة أيضًا أن يتعرّف الطالب على التجربة المادّيّة، وعلى العلمانية واللادينية على نحو محايد كليّاً.

أتحــدّث هنا عن مــادّة ١- يتعرّف فيها المواطن السوريّ، في مرحلة تكوينه الفكري، علــى شريكه في الوطــن بشكل صحيح، فلا تبقى كلّ فئة منطوية على نفسها ولا يشكّل المنتمي إلى طائفة ما فكرته عن ابن الطائفة الأخــرى من خــلال ما يتعلّمــه في طائفته فقط، بل مــن خلال ما يقدّمه ابن الطائفة الأخــرى عن نفســه أيضًــا... ولم لا تكون هنــاك جلسات حوار يشــارك فيها الطلبة أنفسهم بإدارة مدرّســين قادرين أن يكونوا محايديــن... لم لا يكون ذلك بابًا لتنمية روح الحوار في جيل قادم هو مستقبل الوطن. ٢- يتعرّف سوري الغدّ من خلال هذه المادّة على العالم الخارجي، من ناحية من النواحي على الأقــل، بشكل أكثر واقعيّةً. إذ إنّ من المعيب علــى ما أظنّ أن نظــلّ، ونحن على علاّتنا، نرمــي الآخرين بالكفر والإلحــاد أو بعبادة الأصنام والأوثــان، فيما السفير الياباني في دمشق كان أوّل المبادرين للنزول إلى ما تبقّى من نهر بردى لتنظيفه من القمامة!

هذا مثالٌ عن مادّة يمكن استبدالها على نحو جذريّ وهي مادّة تخصّ جميع المراحل، لكنّنــي أعتقد أنّ الموضــوع يصبح أكثر دقّةً وتطلّبًــا للتمحيص والتفكــر في الصفوف الدنيــا، وكــم علينا، على ما أظــنّ أن نولي اهتمامًــا أكبر للرســم والموسيقا والرياضية وربّمــا الرقــص والتمثيل، وغيرهــا، بدل تهميشها لصالح الرياضيات واللغات...

يمكــن التفكير بمــادّة يمكــن أن يكون عنوانها «فــنّ التعامل» وهــي مــادّة ستكون مفيدة جدًّا للمدرّســين والإداريين بقدر ما للطلاّب...

كما يمكــن التفكير بمــادّة عنوانها «فنّ التفكير السليم»!...

تُعطــى الشطــرنج كمــادّة أساسيّة في كثيرٍ من الــدول، وهو أمرٌ يمكن الاقتداء به أيضًا.

أقترحُ أن يُعطى علم الفلك أولويّةً كبيرة وأن تكــون هنــاك مــادّة خاصّــة بالفضاء والفلك وأعتقد أنّ لهذا مبرّرات قويّة يمكن مناقشتها.

كما ويمكــن اقتراح الكثير مــن الأفكار ليبقى بعضهــا وتُستبعد أخرى بعد مناقشةٍ موسّعــة ومــن الأفضــل برأيــي أن تكون مفتوحة...

يمكــن أيضًــا أن نفكّر في إغنــاء المواد الموجودة نفسها بدروسٍ خارجةٍ عن المألوف أو إثرائيّةٍ بطريقةٍ بنّاءة: لماذا لا نتصوّر مثلاً حصّة لغة عربيّة تُخصّص لاستقبال شاعرٍ أو مسرحــيّ أو روائي سوريّ أو عربيّ، يلقي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيها قصيدة أو حتّى يعطي درسًا بطريقة مختلفة؟

لماذا لا نتصوّر حصّة رياضيّات تستضيف فيها المدرسة أستاذًا جامعيًّا (أو حتّى هاويًا للرياضيات) قادرًا على إعطاء بعض الفقرات التي يمكن إدراجها تحت عنوان «رياضيات مسليّة»؟...

إنّ واحدةً من الفوائد الّتي يمكن أن تقدّمها مثل هذه المناسبات (الّتي يمكن أن نسمّيها وجود محاضر زائر في المدرسة) هي فائدة يجنيها المدرّسون قبل الطلاّب فمثل هذه الاحتكاكات خبرة مغنيةٌ جدًّا للمدرّسين حتّى إنّه قد يمكن تصنيفها في إطار «التدريب المستمرّ للمدرّسين».

أبعد من ذلك لماذا لا تكون هناك مادّة مفتوحة (أو حرّة) بمعنى أنّ من الممكن أن يختلف ما يُعطى فيها بين مدرسة وأخرى وبين منطقة وأخرى، ويمكن لاقتراحات الطلاّب أنفسهم أن تلعب دورًا في ما يُعطى في هذه المادّة الّتي لا يكون لها بالضّرورة امتحان وتقويم (يمكن لهذه الفكرة أن تكون مشغّلاً لـ«مسؤولي الأنشطة اللاصفّيّة» الّذين لا يزالون يتساءلون عن دورهم في المدرسة!)

يمكن أن نتخيّل على سبيل المثال، مدرسةً يستضيف فيها صفّ واحد أو أكثر في الوقت نفسه ضيفًا من الخارج لحصّة واحدة أو أكثر من أجل الاطلاع على موضوع معيّن؟ يمكن لمسؤول الأنشطة أن ينظّم مثل ذلك تحت إشراف المدير مثلاً، ويمكن أن نطرح أمثلةً على مثل هذه الأنشطة:

– شرطي سير يعطي محاضرةً حول قواعد السلامة المرورية أو إشارات المرور التي يجب على الطالب في هذا العمر معرفتها...

– عضو في الجمعية المعلوماتية يعطي موضوعًا عن أهمية الحاسب والإنترنت وأصول استخدامهما بطريقة تتيح الفوائد وتجنّب المخاطر.

– متطوّع في الهلال الأحمر يعطي دورة عن الإسعافات الأولية.

– مختصّ من مديريّة الشؤون الاجتماعية يعطي موضوعًا عن التطوّع ومجالاته الممكنة (نشر ثقافة التطوّع).

– عضو في جمعية بيئية يعطي محاضرةً عن استهلاك الورق وأثره على البيئة.

– رحلة رصد ليلي بالمشاركة مع الجمعية الكونية السورية.

– إلخ... (يمكن طرح عشرات الأفكار من هذا القبيل على نحوٍ يغطّي العام الدراسيّ بأكمله، كما أنّ اقتراحات الطلاّب كما أشرنا يمكن أن تغني كثيرًا هذه الفكرة).

ليس الهدف من وجود مثل هذه المادّة هو مجرّد التنويع بل إنّها فرصة لتعرّف الطالب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علـى ما يوجد في مدينتـه أو محافظته من جمعيّات أهليّة وتحفيز له على العمل الأهليّ والتطوّعـيّ، ومحاولة لتعلّـم بعض الأشياء الضرورية مـن مصادرها وليس من مدرّسٍ غير مختصّ بما يكفي.

سابعًا: أولياء الأمور

يغادر الطفل بيت والدَيه إلى الروضة أو المدرسة كما لو كان الأمر انتقالاً بين عالمَين. يـكاد التواصل بين الأهل والمدرسة أن يكون معدومًا إلاّ في قلّة من الحالات. وفي كثير من الأحيان يقف التواصل، في حال وجوده، عند حـدّ السؤال عن وضع الطفـل والاطمئنان علـى أنّ أحدًا من أقرانـه لا يضربه أو أنّ علاماته جيّدة، وتشـكّل الهديّة المقدّمة إلى المعلّمـة في عيد المعلّم أو مـن دون مناسبة أحيانًا جزءًا لا يتجزّأ من هذا التواصل!

أعـرف لجنةً لأولياء الأمـور في إحدى المدارس الخاصّـة يرأسها مالـك المدرسة وهو شخص غير متزوج وليس له أولاد وليس المدير الفعلي للمدرسة!!

أدعـو إلى تشجيـع أوليـاء الأمور (هنا أيضًا يرتبط الأمـر بالبيئة التشريعيّة بقدر ما يرتبط بالتوعيـة والحثّ وتقديم الدعم الـلازم) علـى تنظيـم أنفسهـم في لجان حقيقيّة على مستـوى المدرسة أوّلاً ثمّ على مستوى مجموعة مدارس في حيّ من الأحياء وصـولاً إلى المدينة فالوطـن بأكمله. بحيث يكون هنـاك ممثّلون حقيقيّـون عن أولياء أمـور الطلاّب يشاركـون في وضع الخطط والتصوّرات لكلّ تطوير ممكن، كما يشاركون في وضع الاقتراحات والحلـول لكلّ مشكلة تُطرَح وينقلون صعوبات أولادهم، في مختلف المجالات (تعليمية- حالـة البناء المدرسي- التجهيـزات- شـؤون المدرّسـين- المناهج إلـخ...) إلى المسؤولين المعنيّـين ويتابعونها لديهم.

إنّ أحـد الأهداف الهامّـة لوجود مثل هذا التنظيـم (سمِّها نقابة أو مجلسًا وطنياً أو جمعيّة أهليّـة للأولياء أو أيّ شيء آخر) هو العمل على توعية ذوي الطلبة بما يخصّ حاجـات أولادهم وفيمـا يتطلّب اهتمامهم وعنايتهم (معظم الأهالي ما يزالون يعتقدون أنّهم بمجرّد إرسال أولادهم إلى المدرسة قد أخلوا أنفسهم من المسؤولية التعليمية والّذين منهم لا يعتقـدون ذلك يظنون أنهم يكملون واجبهم عن طريق الدروس الخصوصية... هذا الخطأ المتراكم على مدى عقود في بناء هذه التصورات الغريبة الراسخة في أذهان الأوليـاء يتحمّل مسؤوليتهـا القائمون على الأمور التربويـة أكثر من الأوليـاء أنفسهم الّذيـن يمكن تبرير خطأ النسبة الأكبر منهم بالجهل وعدم التقدير).

لا أتصـوّر إمكانيـة تقـدّم حقيقيّ في العملية التربوية من دون حدّ أدنى من توعية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأهل وإشراكهم إشراكًا حقيقيًّا في العمل التربوي والتعليمي، حتّى يأخذوا دورهم الحقيقي والهام جدًّا إلى جانب المعلّمة والمدرّس والموجه والمدير...

ثامنًا: الأبنية المدرسيّة

لا يحتاج المرء تمحيصًا ولا حتّى قوّة ملاحظة ليكتشف بسهولة بالغة التصميم المتشابه إن لم يكن الثابت للأبنية المدرسيّة العامّة على امتداد سورية، وفي المناطق أو المدن أو القرى الّتي يمكن أن نرى فيها نمطًا بنائيًّا متميّزًا وطابعًا معماريًّا خصوصيًّا يأتي بناء المدرسة ليخرق هذا الانسجام وليشذّ عن هذا النمط!

لكنّ مشكلة عدم انسجام البناء مع محيطه في كثير من الحالات ليست المشكلة الوحيدة ولا هي الأكبر، فالبناء المدرسيّ يوحي للكثير من الطلّاب بقلعة أو بسجن: سورٌ مرتفع يحيط بالمدرسة، باب حديديّ كبير، شبكٌ يحيط بالنوافذ! تبقى الأمور الأخرى وهي كثيرة أقلّ أهمّيّة وهي تحتاج كما العديد من فقرات هذا المقال إلى مقال مستقلّ ولذلك لا أذهب أبعد في الوصف، بل أتجه مباشرةً إلى المقترحات.

لا يمكن هدم كلّ ما هو موجود والبدء من جديد لذلك يمكن العمل على مستويين:

١- تصميم وتنفيذ الأبنية الجديدة على أسس مختلفة (مع مراعاة الفروق بين الريف والمدينة من حيث توافر المساحات ومتطلّبات كلّ مدرسة وانسجام البناء مع المحيط، إلخ...).

٢- تعديل ما هو موجود وإن بشكل تدريجي بحيث يصبح أكثر تناسبًا مع المتطلّبات (إزالة الجدران العازلة بين المدرسة والعالم الخارجيّ- استبدال الباحات المبلّطة بباحات ترابيّة أو عشبية أو أجزاء منها على الأقلّ- إزالة الشبك عن النوافذ- الاستبدال التدريجيّ للمقاعد من الطراز العتيق بمقاعد وطاولات حديثة- استخدام ألوان مختلفة للمرّات والصفوف يشارك الطلّاب في انتقائها وطلائها- إعادة تأهيل البنى التحتية ولا سيّما المرتبطة بالمعلوماتيّة- الخ...).

يمكن من أجل هذا كلّه اقتراح تكوين لجان فعّالة تضمّ مهندسين ومدراء مدارس وخبراء تربويّين لوضع برنامج عملٍ ومتابعة الأمر.

تاسعًا: التشاركيّة

تتحمّل وزارة التربية كامل المتطلّبات المادّيّة في العمليّة التربويّة على مستوى المدارس العامّة. وإذا أردنا أن نكون واقعيّين اعترفنا بأنّ هذا العبء الكبير يعيق عملية تطوير التعليم شئنا أم أبينا.

ربّما كان ممكنًا تدارك جزء من هذه الصعوبة إذا استطعنا (عبر نشر ثقافة دعم

التعليم بين أصحاب المؤسّسات الخاصّة ورؤوس الأموال وعبر تجديد التشريعات والقوانين الّتي تساعد في هذا الأمر) إشراك منظّماتٍ ومؤسّسات وشخصيّاتٍ قادرة على تحمّل هذا العبء الماديّ.

يمكن أن نتصوّر على سبيل المثال: (من دون أن ننسى إشراف وزارة التربية في كلّ هذه الحالات)

– شخصًا غنيًّا يقدّم جوائز للطلاّب الأوائل في المدرسة الّتي كان هو طالبًا فيها.

– مدرسة خاصّة تتبنّى (أو توائم) مدرسةً عامّة وتدعمها في إصلاح المقاعد مثلاً أو في تقديم حوافز للمدرّسين،...

– جامعةً خاصّة تقدّم دعمًا استشاريًا للمدرّسين في مدرسةٍ أو مجموعة مدارس قريبة، أو تنظّم دورات وورشات عمل تربوية لهم أو تشرف مجانًا على تأهيلهم في مجال المعلوماتية أو اللّغات...

– أصحاب رؤوس أموال وأشخاص أغنياء من المحافظات المصنّفة نامية تعليميّاً، يقدّمون بالتنسيق مع الوزارة وعن طريقها مكافآت مجزية لمدرّسين أكفاء ليعملوا في مناطقهم (بدلاً من إرسال المدرّسين المعيّنين حديثًا على الدوام، عن غير إرادتهم، إلى تلك المناطق فتبقى بالنتيجة عند المستوى التعليمي نفسه).

– دور نشر تقدّم كتبًا لمكتبات المدارس (هذا لا ينفي أنّ هناك بعض الكتب الّتي تستحقّ من الوزارة أن تشتريها إن لم تُقدَّم وأن تكون موجودة في كلّ مدرسة).

– معمل دفاتر يؤمّن في مطلع العام الدراسيّ دفاتر طلاّب الصفّ الأوّل (مثلاً) أو ربّما كلّ المدرسة في مدرسةٍ واقعة في قرية نائية أو منطقة فقيرة (في أحزمة الفقر حول دمشق مثلاً).

– مطعمٌ أو منتزه يستقبل رحلةً لطلاّب مدرسةٍ تقع في منطقة فقيرة. أو يقدّم بطاقات دعوة لمعلّمين بمناسبة عيد المعلّم...

– مطبعة تتبرّع بطباعة عددٍ من النسخ لكتابٍ مدرسيّ مجانًا.

...

يمكن تصوّر عشرات الطرق الّتي تُتاح فيها إمكانيات المساعدة. بل إنّ مثل هذه الأمور تحدث في الواقع على نطاقٍ ضيّق وما علينا عمله هو نشر هذه الثقافة على نحوٍ أكبر وتسهيل الإجراءات القانونية والمكتبية التي تساعد في إتمامها وفي نشرها وزيادتها وليس العكس.

يبقى القول إنّ الهدف من مثل هذه المشاركات ليس العبء المادي فقط بل تنمية

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

روح الانتمـاء الوطنـي والمشاركـة في بناء الجيل الجديد وزيـادة اللحمة الوطنية بين أبناء الشعب.

خاتمة

أعمـل في ميدان التربيـة والتعليم منذ سبع عشرة سنـة على الأقلّ، ولطالما شعرت تجـاه طلاّبـي بمشاعر أخ كبـير نحو إخوة أصغـر... ما تغيّر اليوم هـو أنّي صرت أبًا، وقد أمضت ابنتـي الكبرى سنتها الأولى في الروضة خلال العام الدراسيّ الماضي... إنّ كلّ تغيـيرٍ إيجابيّ قادم في التعليم في وطني سيكون مفيـدًا لابنتي ولجميع أترابها، وكلّ تغيير سلبـيّ يمكن أن يحـدث -ونرجو ألاّ يحدث- في التعليم في بلـدي سيكون ضارًا لابنتي ولكلّ جيلها...

إنّ شعـوري هذا كان جزءًا من كلّ فكرة كتبتها ومن كلّ كلمةٍ نضّدتها، ولذلك أعتقد أنّ نيّتي كانت وما تزال صادقةً...

لقد اجتهدت، فإن أخطأت فلي أجر وإن أصبت فلي أجران.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دور الأمثال الشعبية في نشر الوعي الاجتماعي

عبد الباقي يوسف *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يـؤدي المثـل الشعبي مهمة فعالـة في عملية نشر الوعـي والاستنارة في المجتمـع، كون المثـل سريع التداول علـى ألسنة الناس، وبالتـالي هو سريع الانتشار، ويتمتع بجماهيرية واسعة لدى الشرائح الاجتماعية كافة.

المثل الشعبي هو مرآة العلاقات الاجتماعية ولذلك تمتع بمكانة متقدمة لدى الفئات الاجتماعية كافة.

---

* أديب وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنان عماد الوهيبي.

المثل يُروى عن حالات اجتماعية ومواقف جماعية متشابهة متكررة، وهو يستمد مشروعيته وقوته من خلال شموله أكبر عدد من الناس، ولذلك فهو يجنح إلى العمومية، ويتخذ صفات عامة تصلح لبناء كل زمان ومكان.

المثل الشعبي هو لغة إنسانية عالمية شفوية تصلح لكل المجتمعات البشرية في أي زمان ومكان لأنها نتيجة خبرة، ونتيجة تجربة إنسانية الهدف منها الحيطة، وأخذ الحذر، والصبر، والتمتع بروح الحكمة، والعظة.

ونظراً لأهمية المثل الشعبي فقد قامت بعض الجامعات في العالم بوضعه ضمن بعض المناهج الدراسية تحت اسم مصطلح Paraméologie

كما تمَّ عقد مؤتمرات عدّة قامت بدراسة المثل الشعبي ووقفت على أهميته بالنسبة لنشر المعرفة كون المثل الشعبي ينشر ثقافة في عامة الناس.

من هنا لم يبق المثل الشعبي في دائرة محليته، بل انتشر في الناس، ولاقى القبول من مختلف الفئات والتركيبات الاجتماعية، والمثل الشعبي يتخذه الناس بعضهم عن بعض، ويقومون بترجمته لأنه لا يقتصر على مجتمع بعينه، بل يستنير به الناس جميعاً من مختلف البقع الجغرافية، مثله مثل ألوان وأجناس الآداب والفنون.

مفهوم المثل الشعبي

تحفل ذاكرة الأمثال الشعبية بعناقيد ذهبية، ومع السنوات تزداد تألقاً، تجدداً، وغنى.

لكل شعب أمثاله الثمينة التي تبلغ مراحل متقدمه، فتكون بمثابة هوية، وتكون عنواناً للتعرف على تركيبة وطبائع ذاك الشعب.

للفظ المثل مفاهيم عديدة في المعاجم، كلسان العرب، والقاموس المحيط، وهي تعاريف تشرح معنى كلمة المثل لما لها من دلالات متعددة مثل النظير، والصفة، والعبرة، وما يجعل مثالاً لغيره يُحذا عليه.

جاء في لسان العرب: /مثل: كلمة تسوية يقال هذا مثله ومثله كمايقال شبهه وشبهه... الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين.. والمثل: الحديث نفسه.. ومثل الشيء صفته.. وقوله عز من قائل: «مثل الجنة التي وعد المتقون..»

ومثلها هو الخبر عنها وقيل معناه صفة الجنة.. والمثل مأخوذ من المثال والحذو.. وفي التنزيل العزيز: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ»

وذلك أنهم عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر، وما لم ينزل به حجة فاعلم الله الجواب مما جعلوه له مثلا وندا.. قد يكون المثل بمعنى العبرة قال الله عز وجل: «.. **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ** »

ويكون المثل بمعنى الآية.

قال الله عز وجل: «.. **وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** »

أي آية تدل على نبوته. والمثال: المقدار وهو من الشبه، والمثل ما جعل مثالا أي مقدارا لغيره يحدى عليه.. والمثال: القالب الذي يقدر على مثله.. قالب يدخل عين النصل في خرق في وسطه ثم يطرق غراره حتى ينبسطا... وتماثل العليل: قارب البرء فصار أ شبه بالصحيح من العليل المنهوك، وقيل إن قولهم تماثل المرض من المثول والانتصاب كأنه هم بالنهوض/.

جاء في أساس البلاغة للزمخشري: / مثله ومثله ومثيله ومماثلة ومثل ومثل به مثلة. وهو أن يقطع بعض أعضائه أو يسود وجهه، وحلت به المثلة: العقوبة والمثلات ومثل قائماً: انتصب مثولا ورأيته ماثلا بين يديه، وتماثل من مرضه، ومثله به: شبهه وتمثل به: تشبه به، ومثل

الشيء بالشيء: سوي به وقدر تقديره، وامتثلت الأمر: احتديته/.

يقول الفيروز آبادي في تعريفه للمثل: /المِثْل -بالكسر والتحريك- الشبه، والجمع أمثال؛ والمَثَلُ -محرّكة- الحجة،والصفة؛ والمثال: المقدار والقصاص، إلى غير ذلك من المعاني/.

وجاء ذكر الأمثال في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي حيث يقول فيه: /

للأمثال من الكلام موقع الإسماع، والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة/

وفي كتابه الأمثال يصف أبو عبيد القاسم ابن سلام في الأمثال قائلاً: /هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيبلغ لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز لفظ، وإصابة معنى، وحسن تشبيه/.

كما يقول إبراهيم النظام عن خصائص الأمثال: /يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام هي: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة/.

يقول ابن عبد ربه: /ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأمثال التي هي وشي الكلام وجوهر اللفظ، وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها في كل مكان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها، حتى قيل: أسير من مثل/.

ويقول ابن فارس: /مثل يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا، أي نظيره، والمثل والمثال بمعنى واحد، وربما قالوا: مثيل كشبيه، تقول العرب: أمثل السلطان فلاناً، قتله قوداً، والمعنى أنّه فعل به مثلما كان فعله/.

تركت الأمثال الشعبية أثرها ليس على عامة الناس فحسب، بل على أهل الأدب والفن، فقد استفادت السينما من المثل الشعبي وقامت بتوظيفه، كما اعتمدت الأعمال الأدبية على ذكر بعض الأمثال الشعبية التي أضافت قيمة إلى العمل الأدبي.

في رسالة لعمر بن الخطاب موجهة إلى الأنصار يقول فيها: /علموا أولادكم العوم والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر/.

من أوائل الكتب التي أشارت إليها الفهارس والمصادر اللغوية، كتاب «أمثال العرب» لعبيد بن شرية، وكتاب «أمثال العرب» للمفضل الضبي، الذي اهتم بتفسير السياق الذي جاء فيه المثال مع شرح ألفاظه مثل /أسعد أم سعيد/ و/إن الحديث لذو شجون/، وكتاب «الأمثال» لمؤرج بن عمرو السدوسي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يرى الحسن اليوسي أن مادة (مثل) تقوم جوهريا على معان ثلاث:

١- يقال : «هذا مثل ذلك» أي شبهه ويقال أيضا «هو مثله» بكسر فسكون ومثيله كما يقال شبه وشبه وشبيه.

٢- الصفة: قال تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ» أي صفتها ونحو هذا وهو كثير في القرآن.

٣- الضرب السائر: المشبه مضربه بمورده وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن. قال تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ» وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل.

وقد أورد بعض أهل الأدب الأمثال في العديد من مؤلفاتهم ومن ذلك:

«المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير -كتاب «الأمثال» لابن السكيت- «مجمع الأمثال» لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني.

في كتابه الأمثال يفهرس أبو عبيد القاسم بن سلام الأمثال بشكل ممنهج حيث قدم ١٩ بابا، كل باب يتناول موضعاً مثل: صنوف المنطق ومعائب المنطق ومساوئه -الرجال- الأقوام- الأقربون - الأخلاق - الجود - المجد - الخلة والإخاء - الأموال والمعاش - العلم والمعرفة - أهل الألباب والحزم - الحوائج - الظلم - المعائب والذم - الخطأ والزلل - البخل - الجبن - مرازى الدهر وأحداثه -جنايات الدواهي العظام).

كما قدّم في كتابه أحد عشر بابا في الأمثال: التشبيه وغايته - اللقاء وأوقاته وأزمانه - ترك اللقاء ودهوره وأونته - النفي لمعرفة الرجل - نفي المال عن الرجل - ما يتكلم فيه بالنفي من الناس خاصة - نفي الطعام - نفي النوم والأوجاع - الاستجهال ونفي العلم - الطعام. وقد تفرعت من أبواب الكتاب أبواب فرعية بلغت ٢٥١ بابا فرعيا، وبلغ عدد الأمثال ١٠٠٠ مثل و١٢٠ حديثا مع قصصها و٢٠ بيتاً من الشعر.

ضرورة المثل الشعبي:

المثل هو رسالة استثارة وتنبيه يتلقاها الإنسان من أجل أخذ الحيطة والحذر.

يتم توظيف المثل لتعزيز فكرة ما، سواء بالحض على القيام بفعل ما، أو بالنهي عنه.

والمثل يُتخذ كدلالة على صفة، أو خصلة، أو مزية يمتاز بها إنسان ما سواء بالسلب، أو بالإيجاب، ولذلك فإن أبطال الأمثال ينتمون إلى الفئتين، الإيجابية والسلبية، وذلك بهدف نشر المعرفة، وبيان أن كل شخص تُسجل له، أو عليه مواقفه، وهذا بذاته يقدّم رسالة للإنسان حتى يكون في خيار من أمره.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقال عن شخص بالغ الثراء، بأنه يملك مال قارون، هنا يفكر الإنسان بكيفية إنفاق المال في سبل الصلاح، والنفع، والخير.

يمكن أن يقال عن شخص يتبع مصالحه الشخصية متجاوزاً بعض القيم والمبادئ الإنسانية بأنه /مكيافيلي/ الذي كان ينتهج منهج أن الغاية تبرر الوسيلة.

يمكن وصف رجل كثير الكذب بأنه / مسيلمة الكذاب/، ووصف شخص جواد بأنه/حاتم الطائي.

وممن اشتهروا بالبخل الذي يمكن أن يُضرب به المثل: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو أسود الدؤلي، وخالد بن صفوان.

حفظ لنا التاريخ أشخاصاً تُضرب الأمثال ببعض المزايا التي تمتعوا بها، فمن النساء اشتهرت /زرقاء اليمامة/ برؤيتها الاستثنائية حيث باتت مضرباً للمثل في جودة البصر وحدة النظر، ويقال إن اليمامة اسمها، وبها سميت بلدها اليمامة ثم أضيفت إلى البلدة فقيل زرقاء اليمامة واسم البلدة جو وربما قيل زرقاء الجو كما قال أبو الطيب المتنبي

وأبصر من زرقاء جو لأنني
إذا نظرت عيناي شاءهما علمي

وهي امرأة من جديس كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلما قتلت جديس طسما، خرج رجل من طسم إلى حسان بن تبع فاستجاشه وأرغبه، فخرج في جيش جرار، فلما كانوا من جو على مسافة ثلاثة أيام، صعدت الزرقاء السطح فنظرت إلى الجيش وقد أمروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها، فقالت الزرقاء: يا قوم قد أتتكم الشجر، أو أتتكم حمير قد أخذت أشياء تجرر.

فلم يصدقوها ولم يستعدوا: أحلف بالله لقد أرى رجلا ينهش كتفا أو يخصف نعلا.

فلم يصدقوها حتى صبحهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها فإذا فيهما عروق سود من الإثمد وقد ذكرها الأعشى فقال:

ما نظرت ذات أشفار كما نظرت
حقا كما نظر الدبسي إذ سجعا
قالت أرى رجلا في كفه كتف
أو يخصف النعل لهفي أية صنعا

وإياها عنى النابغة بقوله:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت
إلى حمام سراع وارد الثمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
إلى حمامتنا أو نصفه فقد

ولها قصص معروفة سائرة يضرب بها الناس المثل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقال عن المرأة المتسرعة في اتخاذ قرار الزواج: /أسرع من نكاح أم خارجة/

وهي امرأة كانت متسرعة في اتخاذ قرار الزواج، بحيث كانت تنتقل من زواج فاشل إلى آخر، ومن طلاق إلى آخر، وهي عمرة بنت سعد بن عبد الله بن بجيلة، كان يأتيها الخاطب فيقول:

خطب

فتقول: نكح.

ويُروى أنها كانت تسير يوما ومعها ابن لها يقود جملها، فرفع لها شخص فقالت لابنها: مَن ترى ذلك الشخص؟

قال: أراه خاطبا.

فقالت: يا بني تراه يعجلنا أن نحل ماله إل وغل.

قال المبرد: ولدت أم خارجة للعرب في نيف وعشرين حيا من آباء متفرقين، وكانت هي إحدى النساء اللاتي إذا تزوج منهن الرجل فأصبحت عنده كان أمرها إليها إن شاءت أقامت وإن شاءت ذهبت، وكانت علامة ارتضائها للزوج أن تضع له طعاما كلما تصبح.

روى الصولي عن مشايخه عن إسماعيل الساحر قال: خرجت مع السيد الحميري وقت المغرب وقد شربنا عند نصر بن مسعود، فلقينا فرحة بنت الفجاءة بن عمرو بن قطري بن الفجاءة الخارجي راكبة فرسا، وكانت ظريفة جميلة فصيحة جزلة فهمة، فرافقها السيد وأحسن خطابها وهي لا تعرفه، فتحاوروا أحسن حوار إلى أن خطب إليها نفسها فقالت: أعلى ظهر الطريق؟

فقال: ألم يكن نكاح أم خارجة أسرع من هذا. فاستضحكت وقالت: نصبح وننظر من الرجل وممن.

فأنشد:

إن تسأليني بقومي تسألي رجلا
في ذروة العز من أحياء ذي يمن
إني امرؤ حميري حين تنسبني
جدي رعين وأخوالي ذو يزن

فعرفته فقالت: يماني وتميمية، ورافضي وحرورية كيف يجتمعان.

قال: على ألا نذكر سلفاً ولا مذهباً. فتزوجته سراً، فأقاما معا في عيشة راضية، ولم ينكر أحدهما من صاحبه شيئا حتى فرق بينهما الموت.

قال مؤلف الكتاب وممن جمعتهم الصداقة على اختلاف المذاهب الكميت والطرماح فإن الكميت كان رافضيا غاليا والطرماح كان خارجيا حروريا، وكان بينهما أحسن وألطف ما يكون بين صديقين شقيقين، فإذا قيل لهما في ذلك قالا: اجتمعنا على بغض العامة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومما ينخرط في سلك هذه الحكاية والحديث شجون ما حدث به ابن عائشة قال: كان للحسن بن قيس بن حصين ابن شيعي، وابنة حرورية، وامرأة معتزلية، وأخت مرجئية، وهو سني جماعي، فقال لهم ذات يوم: أراني وإياكم طرائق قددا

مضى الحديث كما يقول إسحاق الموصلي في كتاب الأغاني.

يتبين لنا أن المثل يرتقي إلى مرتبة الضرورة في مسألة نشر الوعي بين الناس، إنه يحمل إشارات تحذيرية، وتنبيهية، وإرشادية، تهدف إلى تسليط الضوء على بواطن الأمور في سبيل ميز الطيب من الخبيث.

أمثال شعبية ومواقف في التراث العربي

يعتمد المثل على تجارب وخبرات ومواقف الناس، وقد استمد المثل في التراث العربي تألقه من مواقف بعض الناس الذين جرت لهم بعض الوقائع الشهيرة، أو وقفوا مواقف مميزة اقترنت بهم فغدوا مضرباً للمثل، من ذلك:

كلمة الخرافة التي تُطلق عادة على القصص والحكايا الغريبة تنتسب إلى شخص من بني عذرة اسمه خرافة، بعد غيابه عن قومه وعندما عاد قال بأنه كان مقيماً عند الجن حيث تمَّ خطفه، وبات يتحدث لقومه عن الحكايا الغريبة التي يقول بأنها جرت معه، وهي حكايات غريبة كان يصعب تصديقها، ولذلك بات يُطلق على الحكاية التي يصعب تصديقها اسم الخرافة.

(ذو العمامة) هو سعيد بن العاص بن أمية أبو أحيحة، كان يقال له ذو العمامة لأنه كان في الجاهلية إذا لبس عمامته لم يلبس قرشي عمامة حتى ينزعها، كما أن حرب بن أمية إذا حضر ميتا لم يبكه أهله حتى يقوم، وكما أن أبا طالب كان إذا أطعم لم يطعم أحد يومه غيره، وكما أن سعيد بن العاص إذا شرب الخمر لم يشربها أحد حتى يتركها، وزعم بعض أصحاب المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيدا كناية عن السؤدد، وذلك أن العرب تقول للسيد فلان معمم. يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة أو العشيرة فهي معصومة برأسه، وإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص ذا العمامة وذا العصابة.

(ذو اليمينين) هو أبو الطيب طاهر ابن الحسين بن مصعب الذي ينسب إليه الطاهريون كتب إليه بعض أصحابه كتابا عنونه بهذين البيتين:

للأمير المهذب المكنى بطيب
ذي اليمينين طاهر بن الحسين بن مصعب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسأل المعتصم جماعة من خواصه عن معنى سبب تسمية طاهر ذا اليمينين فلم يعلموا فقال محمد بن عبد الملك ذو الاستحقاقين، استحقاق مالجده زريق في الدولة، واستحقاق ماله في دولة المأمون قال تعالى: /لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ/ أي بالاستحقاق. وقال الشماخ: إذا ما راية رفعت لمجد .. تلقاها عرابة باليمين

أي بالاستحقاق، واليمين بمعنى الاستحقاق

وقال غيره: إنما سُمي ذا اليمينين لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع: يا أبا الطيب يمينك يمين أمير المؤمنين، وشمالك يمين، فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين.

ففعل فلزمه هذا الاسم.

(ذو الثفنات) كان يقال لكل من علي ابن الحسين بن علي، وعلي بن عبد الله بن العباس ذو الثفنات لما على أعضاء السجود منهما من السجادات الشبيهة بثفنات الإبل وذلك لكثرة صلاتهما، قال دعبل:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات
ويابن علي والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذي الثفنات

قال المبرد وكانت لعلي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم خمسمئة أصل زيتون يصلي كل يوم عند كل أصل ركعتين.

(ذو القلمين) علي بن أبي سعيد بن كنداجيق، كان يُسمى ذا القلمين لأنه كان يتولى ديواني الخراج، والجيش للمأمون بن الرشيد.

(ذو الرياستين) هو الفضل بن سهل سماه المأمون ذا الرياستين لأنه دبر له أمر السيف والقلم، وولى رياسة الجيوش والدواوين وقد أوردت نكت أخباره في كتاب فضل من اسمه الفضل

(ذو الوزارتين) كانوا قد عزموا على أن يسموا صاعد بن مخلد ذا التدبيرين، فقال لهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: لا تسموه بشي ينفرد به عنكم. فسموه ذا الوزارتين. يعنون وزارة المعتمد، ووزارة الموفق.

ومدح ابن الرومي بني نوبخت، وكانوا مختصين بصاعد فأراد أن يذكر ذا الوزارتين واجتباءه إياهم فلم يستقم له ذكر ذي الوزارتين، فسماه ذا الفناءين حيث قال

ولما اجتباهم ذو الفناءين صاعد
غدا وهو مسرور بهم غير نادم

(ذو الكفايتين) هو أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد سمى ذا الكفايتين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكفايته ركن الدولة أبا على أمور الدواوين والجيوش، وقد أوردت نكت أخباره وغرر أشعاره في كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

(ذو الرأي) يُضرب المثل بإنسان أيضاً نتيجة ما يمتاز به من فهم صحيح للأمور، فيبدي حولها الرأي السديد، ومع تكرار ذلك يُعرف بهذه الميزة، ويمسي مضرباً للمثل.

يأتي هذا الحديث على الصحابي حباب بن المنذر بن الجموح، الذي اشتهر برأيه السديد في الكثير من المواقف، وهو صاحب المشورة الذي كان مرجعاً للمشورة لدى البعض في الجاهلية، وذيعت عنه آراؤه المشهورة في الناس.

يوم بدر أخذ النبي برأيه، فنزل جبريل عليه السلام وقال: الرأي ما قال حباب.

لقد اقترن اسم هذا الصحابي بما أكرمه الله به من سداد في الرأي، وتحليل صحيح لمجريات الأمور فسُمي بـ ذي الرأي.

(ذو اليدين) هو عمير بن عبد عمرو من خزاعة، وكان يعمل بيديه جميعا، فقيل له ذو اليدين وكان يدعى ذا الشمالين وهو الذي ذُكر في الحديث الذي يروى فيه أن النبي صلى بهم الظهر، فسلم في الركعة الثانية، فقال ذو اليدين: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت.

فقال: ما كان ذاك.

فقال: بلى يا رسول الله.

فالتفت إلى أصحابه فقال: أحق ما يقول ذو اليدين؟

قالوا: صدق يا رسول الله.

فنهض فأتم ثم قال: إني لأنسى، أو أنسى لأسن.

قال ابن قتيبة: هو ذو اليدين، وليس هو بذي الشمالين الذي استشهد يوم بدر

وقال الجاحظ: كان يقال له ذو الشمالين، فسمّاه النبي ذا اليمينين.

(ذو المشهرة) هو أبو دجانة الأنصاري وكانت له مشهرة إذا لبسها وبرز يتمايل بين الصفين لم يبق ولم يذر، وأرضى الله ورسوله.

(ذو النور) هو عبد الله بن الطفيل الأزدى أو الدوسى ويقال بل طفيل بن عمرو بن طفيل، أعطاه رسول الله نورا في جبينه ليدعو به قومه، فقال: يا رسول الله هذه مثلة، أو قال شهرة، فجعله في طرف سوطه، فكان كالمصباح يضيء له الطريق بالليل، ولما رجع إلى قومه دوس ليعلمهم جعلوا يقولون إن الجبل ليلتهب، وكان أبو هريرة رضي الله عنه ممن اهتدى بذلك النور في بعض الحديث.

كما اشتهرت نساء بمواقفهن وغدون

مضرباً للمثل ومنهن على سبيل المثال:

(ذات الخمار) هنيدة بنت صعصعة وعمة الفرزدق وكانت تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة يحل لها أن تضع خمارها عندهم كأربعتي، أبى صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزبرقان ابن بدر. فسميت ذات الخمار لذلك.

قال الزبير بن بكار: كان هند بن أبي هالة ربيب النبي يقول: أنا أكرم الناس بأربعة أبى رسول الله، وأمي خديجة، وأختي فاطمة، وأخي القاسم.

قال الزبير فهؤلاء الأربعة لا أربعتها.

(بنات طارق) ذكر الزبير بن بكار بإسناد له أنهن بنات العلاء بن طارق بن الحارث بن أمية بن عبد شمس بن المرفع من كنانة، يُضرب بهن المثل في الحسن والشرف.

وعن محمد بن يحيى عن غسان بن عبد الحميد قال: رأت عائشة رضي الله عنها بنات طارق اللاتي يقلن:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

فقالت: أخطأ من يقول إن الخيل أحسن من النساء.

وقالت هند بنت عتبة لمشركي قريش يوم أحد

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
والدر في المخانق
والمسك في المفارق
ونلبس اليلامق
إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وعن يحيى بن عبد الملك قال: جلستُ ليلة وراء الضحاك بن عثمان المخزومي في مسجد رسول الله وأنا متقنع فذكر الضحاك بنت الحارث بن عباد، ممن يتمثل بها من النساء في الشرف والجمال بنت الحارث بن عباد وأنشد الجاحظ لامرأة من بني مرة:

جاءوا بحارثة الضباب كأنما
جاءوا ببنت الحارث بن عباد

(عجائز الجنة) روى الزبير بن بكار بإسناده له قال: كان عروة بن الزبير عند عبد الملك بن مروان فذكر أخاه عبد الله فقال: قال أبو بكر كذا وكذا، وفعل أبو بكر كذا وكذا فقال له بعض الحاضرين اتكنيه عند أمير المؤمنين لا أم لك. فقال له عروة ألي يقال لا أم لك وأنا ابن عجائز الجنة يعنى صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله وهي أم الزبير وخديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين، وهي عمة الزبير وعائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق، وهى خالة

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ابن الزبير وأسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق وهي أمه.

(ضرائر الحسناء) يضرب مثلا لحساد الأفاضل قال الشاعر

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها
حسدا وبغضا إنه لدميم

(نخلة مريم) قال ابن سمكة من أمثالهم أعظم بركة من نخلة مريم قال وكانت نخلة مريم العجوة وقال الله تعالى في قصتها: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً).

وقال صاحب كتاب المسالك والممالك هي في بيت لحم، ويقال إنها غرست منذ أكثر من ألفي سنة وهي منحنية

ومن بارع التمثل بها قول الشاعر:

ألم تر أن الله أوحى لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه
جنته ولكن كل شيء له سبب)

(عرش بلقيس) يضرب به المثل كما قال الشاعر:

مطبخ داود في نظافته
أشبه شيء بعرش بلقيس
ثياب طباخه إذا اتسخت
أنقى بياضا من القراطيس

(ذنب صحر) صحر امرأة وهى بنت لقمان بن عاد وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين، فأصابا إبلا كثيرة فسبق لقيم إلى منزله وعمدت صحر إلى جذور مما قدم به لقيم، وصنعت منه طعاما يكون معدا لأبيها لقمان إذا قدم، وقد كان لقمان حسد لقيما في تبريزه عليه فلما قدمت صحر إليه الطعام وعلم أنه من غنيمة لقيم لطمها لطمة قضت عليها فصارت عقوبتها مثلا لكل من لا ذنب له ويعاقب وفيها.

يقول خفاف بن ندبة:

وعباس يدب لي المنايا
وما أذنبت إلا ذنب صحر

(شؤم البسوس) هي بنت منقذ التميمية زارت أختها أم جساس بن مرة ومع البسوس جار لها من جرم يقال له سعد بن شمس، ومعه ناقة له فرماها كليب وائل لما رآها في مرعى قد حماه، فأقبلت الناقة إلى صاحبها وهى ترغو وضرعها يشخب لبنا ودما، فلما رأى ما بها انطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة فقالت واذلاه واغربتاه وأنشأت تقول أبياتا تسميها العرب أبيات الفناء وهي:

لعمري لو أصبحت في دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادي فخذها وآتني
براحلة لا تغدرن ببنياتي

فسمعها ابن أختها جساس فقال لها: أيتها الحرة اهدئي فو الله لأقتلن بلقحة جارك كليبا. ثم ركب فخرج إلى كليب فطعنه طعنة أثقلته فمات منها ووقعت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة وجرت خطوب يطول بذكرها الخطاب وسار شؤم البسوس مثلا ونسبت الحرب إليها لكونها سببها فقيل حرب البسوس، وهي من أشهر حروب العرب والمثل بها سائر، ومن أملح ما قيل فيها قول المغسلي من قصيدة:

وكأن بين يمينه
وتراثه حرب البسوس
وكأنه في زهده
وعفافه بشر المريسي

(عطر منشم) الأقاويل فيه كثيرة قال ابن قتيبة: أحسن ما سمعت فيه أن منشم امرأة كانت تبيع العطر والحنوط، فقيل للقوم إذا تحاربوا وتفانوا دقوا بينهم عطر منشم.

وقال حمزة بن الحسن: كانت منشم عطارة تبيع الطيب فكانوا إذا قصدوا حربا غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس قد دقوا بينهم عطر منشم فلما كثر منهم هذا القول صار مثلا فممن تمثل به زهير حيث قال:

تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(رغيف الحولاء) من أمثال العرب: أشأم من رغيف الحولاء، وكانت خبازة في بني سعد بن زيد مناة فمرت وعلى رأسها كارة خبز، فتناول رجل من رأسها رغيفا فقالت: والله مالك علي حق ولا استطعمتني فلم أخذت رغيفي أما إنك ما أردت بهذا إلا فلانا تعني رجلا كانت في جواره، فمرت إليه شاكية وثار معه قومه إلى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه فقتل بينهم ألف نفس وسار رغيف الحولاء في الشيء اليسير يجلب الخطب الكبير.

وفي رسالة ابن العميد إلى أبي العلاء السروي التي ينكر فيها تعصبه للعجم على العرب أقبل وصية خليلك وامتثل مشورة نصيحك ولا تتماد في ميدان الجهل ينضك ولا تتهافت في لجاج يغريك واخش يا سيدي أن يقال التحمت حرب البسوس من ضرع دمي، واشتبكت حرب غطفان من أجل بعير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قـرع، وقتـل ألف فارس برغيـف الحولاء، وصب الله علـى العجم سوط عذاب بمزاح أبى العلاء.

(عزة أم قرفة) قال الأصمعي من أمثالهم إذا أرادوا العز والمنعة قالوا: إنه لأمنع من أم قرفة. وهي بنت مالـك بن حذيفة بن بدر، وكان يحرس بيتهـا خمسون سيفا بخمسين فارسا كلهم لها محرم.

(يوم حليمة) هـو من أشهر أيام العرب، ولذلـك قيل: «مـا يوم حليمة بسـر». وفيه يقول النابغة:

تـخيرن مـن أزمـان يـوم حليمة
إلى اليـوم قـد جربن كل التجارب

وحليمـة بنت الحـارث بن أبـي شمر، وإنما نسب اليوم إليها لأن أباها وجه جيشا إلى المنذر بن مـاء السماء فحضرت حليمة المعركـة محرضة لعسكر أبيهـا على القتال وأخرجـت لهم طيبا في مركـن تطيبهم به، ويزعم العرب أن الغبار ارتفع في ذلك اليوم حتى غطى عين الشمس، فظهرت الكواكب فسـار المثل بذلك وقيـل: «لأرينك الكواكب ظهرا». يقول طرفة:

إن تـنـولـه فـقـد تمنعـه
وتـريـه الـنـجـم يـجـري بـالظهر

(بيت عاتكة) يضرب مثـلا في الموضع الذي تعرض عنه بوجهك، وتميل إليه بقلبك وهو من قول الأحوص:

يـا بـيـت عـاتـكـة الـذي أتـعـزل
حـذر الـعـدا وبـه الـفـؤاد موكل
إني لأمـنـحـك الـصـدود وانـنـي
قسما إلـيـك مـع الـصـدود لأميل

ويحكـى أن كلا من يحيى بن خالد وابن المقفع مرّ ببيت النـار فأنشد البيتين وهما مـن قصيدة طويلـة (واراك تفعل ما تقول وبعضهم... مذق الحديث يقول مالا يفعل)

(حمـام منجاب) منجـاب امرأة كان لها حمـام بالبصـرة لم ير مثلـه، وكان يغل غلة كثيرة وكانـت تأتي إليه وجـوه الناس وفيه يقول الشاعر:

يـا رب قـائـلـه يـومـا وقـد تعبت
كيف الطريـق إلى حمـام منجاب

وكان بالبصـرة حمام آخر لامرأة تدعى طيبه فكسد عليها فقال لها شاعر:

مـا الذي تجعلينـه لي إن حولت وجوه الناس إلى حمامك ونفقته لك وتركت حمام منجاب مهجورا لا يغشى.

قالت: ألف درهم.

قال فعدليه وأنـا أوفي لك بما ضمنته، فعدلت الألف فقال الشاعر:

حـمـام طـيـبـه لا حـمـام مـنـجـاب
حـمـام طـيـبـه سخن واسـع الـبـاب

فترك الناس حمام منجاب وأقبلوا على حمام طيبه فوفت للشاعر بالألف وحمام بوران ببغداد كحمام منجاب بالبصرة.

(سوق العروس) يضرب به المثل في الحسن، فيقال «أحسن من سوق العروس» وهو مجمع الطرائف ببغداد وما ظنك بأحسن الأسواق في أحسن البلاد وكان الخوارزمي إذا وصف جارية بالحسن قال: كأنها سوق العروس، وكأنها العافية في البدن، وكأنها مئة ألف دينار.

وسمعت السيد أبا جعفر الموسري يقول: إنما يضاف إلى العروس كل شيء يجمع المحاسن كما يقال سفينة العروس للسفينة الكبيرة التي تشتمل على نفائس الأمتعة للتجارة، وخزانة العروس للخزانة الخاصة من خزائن الملوك، وسوق العروس لأحسن الأسواق وأجمعها لأحاسن الطرائف لأن العادة جارية باحتفال الناس لتجهيز العرائس بالطرائف والنفائس.

(مرآة الغريبة) يضرب بها المثل فيقال «أنقى من مرآة الغريبة» لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بما لا يتعهد غيرها وتتفقد من محاسن وجهها مالا يتفقده سواها فمرآتها أبدا مجلوة نقية قال ذو الرمة:

وخد كمرآة الغريبة أسجح.

(سوداء العروس) هي جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء وتوقف بإزائها لتكون أظهر لمحاسنها:

فأحسن مرأى للكواكب أن ترى
طوالع في داج من الليل غيهب

والشيء يظهر حسنه الضد، ولتكون كالعوذة لجمالها وكمالها وإياها عنى أبو إسحاق الصابي بقوله في غلام حسن الوجه بيده نبيذ أسود:

بنفسي مقبل يهدى فتونا
إلى الشرب الكرام بحسن قده
وفي يده من التمرى كأس
كسوداء العروس أمام خده.

(بكاء الثكلى) يشبه به البكاء الشديد كما قال الشاعر:

ولأبكين على الحسين
بدمع جم الدمع ساهر
ولأبكين بكاء ثكلى
تسعة فجعت بعاشر.

(ليلة العروس) يشبه بها ما يوصف بالحسن كما قال الصاحب:

وشادن في الحسن كالطاووس
أخلاقه كليلة العروس
قد نال بالحظ من النفوس
مالم تنله الروم من طرسوس.

(أصابع زينب) ضرب من الحلواء ببغداد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يدعى أصابع زينب وفيه يقول أبو طالب المأموني:

وضرب من الحلوى أكنى عن اسمه
لوجدى بمن يعزى إليه وينسب
يصدق معناه اسمه فكأنه
بنان وأطراف البنان مخضب

كلمة الختام

تحول المثل الشعبي في الكثير من المواقع إلى حكمة، وتحول إلى حاجة يلجأ إليها الناس من أجل تسوية بعض الأمور في حياتهم.

المثل الشعبي لون من ألوان الأدب الشفوي، وهو مع الزمن يزداد غنى، ويزداد تألقاً وتداولاً على ألسنة الناس، ذلك أنه لا يحتاج إلى عناء للحصول عليه، بل يأتي على الأغلب بشكل تلقائي، ويكتسبه الإنسان من خلال وجوده في الناس.

إنه شكل متقدم من أشكال الأدب الذي هو كنز معرفي يقدم المعارف وعصارات التجارب البشرية إلى الناس كافة.

المثل هو لغة الشارع في أي مجتمع من مجتمعات العالم، يولد المثل في الشارع، ويستمد تألقه وعافيته على قدر تغلغله في نبض الشارع، ذلك أن الشارع هو موضع جيد لترويج المثل كونه دائم الحراك، ودائم استقبال وتوديع وجوه جديدة من أطياف الناس.

الأمثال هي كنوز من المعرفة يكتسبها الناس بعضهم من بعض، وهي نتاج واقعة تمتاز بتكرارها في أكثر من شخص، أو جماعة، وفي أزمنة مختلفة.

لا يقتصر المثل على زمن ما، أو على مجتمع ما، أو على مكان ما، إنه مفتوح لإنسان كل زمان ومكان، وهذا ما يجعل من المثل متألقاً، ودارجاً على ألسنة الناس، فهو نتاج خبرات بشرية، يمكن وقوعه مع أي إنسان مهما تباعد الزمن، ومهما تباعد الموطن.

من هنا اتسعت دائرة المثل لتشمل رحابة العالم برمته، وغدا كالموسيقى، لغة تصلح لإنسان أي زمان ومكان، ولا تقتصر على مجتمع من دون غيره، ولا على بقعة جغرافية من دون غيرها، ولا على زمن من دون غيره. بيد أن جملة الأمثال يمكن لها أن تشير إلى عبقرية مجتمع ما في بقعة ما في زمن ما، ولذلك يُنظر إلى تراث الأمثال في حياة الشعوب نظرات متوازنة مع ألوان الآثار، والتحف، والفنون، والآداب، ومضارب العقل والإبداع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

١- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة- حمزة بن الحسن الأصفهاني- تحقيق عبد المجيد قطامش- دار المعارف- القاهرة.
٢- التمثيل والمحاضرة- أبو منصور الثعالبي - تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو-دار إحياء الكتاب العربية- القاهرة ١٩٦١م.
٣- المنجد في الأمثال والحكم والفرائد اللغوية - جوزف نعوم حجار عربي-فرنسي، فرنسي-عربي، دار المشرق- بيروت ١٩٨٣م.
٤- الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م.
٥- من المستطرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي- منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق ٢٠٠٤م.
٦- لسان العرب: ٢٢/١٣، مادة مثل.
٧- القاموس المحيط:٤٩/٤، مادة مثل.
٨- كتاب التيجان - وهب بن منبه، وفيه يذكر: قرأت في حكمة لقمان أكثر من عشرة آلاف باب.
٩- كتاب عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري
تحقيق د.محمد الاسكندراني -دار الكتاب العربي- بيروت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

شاردتان

سليمان العيسى *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطفولة.. لماذا؟

تُنازِعُني الطفولةُ كلَّ حرفٍ
أُبَدِّدُه على قَلَمي..
غِناءً..

لماذا يستظلُّ العمرُ فيها؟
وتُرسي كلُّ أشرعتي

* شاعر العروبة الكبير.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وراء؟
سؤالٌ.. ما يزال يجوب رأسي
سأتركُهُ يُدَوِّمُ كيفَ شاءَ

وأمضي..
في يَميني قلبُ طفلٍ
أضمُّ الأرضَ فيه والسماءَ

• • •

أنا في البيت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنا في البيت..
وبيتي قطرةٌ
من ندىً..
في عشبةٍ.. تَخْتَبئُ
عشبةٌ..
لو نشَرتْ أوراقَها
قتَلَ البيدَ
إليها الظمأُ

أنا في البيت..
ولن أبْرحَهُ

كلُّ هذا الكون
لي مُتَّكأً..
في ضلوعي خفقةٌ
أسفَحُها
مَلاًّ..
ينشَقُّ عنه مَلاّ
فإذا الشعرُ.. نشيدٌ
جمرةٌ
بشظايا من جنوني
يُقرأُ..
وإذا العمرُ..
حوارٌ شاردٌ
بحكاياتِ اللَّظَى
يمتلئُ..
أنا في البيتِ
الذي أبْدَعني
رحلةٌ في عاصفٍ لا يَهدأ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

ذاكرة الحلم الآتي

شعر: هنري زغيب *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غداً يا حبيبي، متى نهرَمُ
ويَمضي بنا العمرُ صوب الغروب
وما زال فينا شُروقٌ يُجدده حُبُّنا المُكْرَمُ
ونبقى
-كما نَحنُ-:
شعَّ هُيام
ويبقى بِنا وَلَهٌ مُغْرَمُ
ويبلُغُنا في الخريفِ الخريفُ
ونَحنُ ربيعٌ

* أديب وشاعر لبناني.
العمل الفني: الفنان مصطفى الصايغ.

وأنتَ ربيعي
تُخاصرني بِحنانِكَ، قال،
ونمشي على شاطئ البحر
نمشي
ومِن حولنا نورسٌ حُوَّمُ
ورفُّ مُشاةٍ
ونَحن
-ولو حولنا هم-
بعيدان عنهم
يُذوِّبُنا في الحنينِ الحنينُ
يُلوِّحنا الحبُّ وجهَين في مستهلِّ الخريفْ
ونَجلس عند شفير الرصيفْ
يُرَدِّدُنا البحر:
أنتَ خيالُك صوب البعيدِ المدى
وأبقى أنا:
بعينيكَ عينايَ
ملهوفةٌ بكَ
رُغم الذي كان مِمن مدى حُبِّنا حَرَّموا
غداً، يا حبيبي، متى نَهرَمُ

× × ×

وتَمضي
-وعيناكَ صوب البعيدِ ورأسي على صدرِك المستهامِ-
تُعيد حكايتَنا
أشرقَت لَحْظَ كنا بعيدَين
ذاتَ مطارٍ بعيدَين
ذاتَ مطارٍ بعيدِ
وكان اللقاءُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما يتصالَبُ يوماً شُعاعانِ بعدَ فراقٍ سعيدِ
كأنْ نُطفةٌ ولَدَتْنا معاً ضِمن شرنقةٍ من حريرٍ شفيفَه
وطِرنا فراشَين
طِرنا إلى وُجهةٍفَرَّقَتْنا
افترقنا
فكان فضاؤُكَ غير فضائي
افترقنا..
بَعُدْنا..
نَسجْنا حياةً خَفيفَه
وظَلَّ الحنينُ يَشُدُّ بِنا كي نعودَ إلى دفئِها الشرنقَه
يَشُدُّ بنا
نَتَوْأَمُنا من جديدٍ
جنينَينِ حتى نعودَ إلى رحمها الشّرنَقَه
وظلَّ يَشُدُّ بنا الشوقُ
شوقُ اللقاءِ
ونَحنُ
يفتّش قلبٌ لنا عن وريدِه
وكانَ شتاءٌ
وكان ربيعٌ يفتّشُ في زَهره عن جديدِه
وفي الصيف لم يلتقِ قلبَهُ القلب رغم وَجيدِه
إلى أن تَأيْلَل «صيفُ الهنود»
وأزهر من وجهه الليلكيِّ
فكان اللقاءُ
-أخيراً!!!-
تصالب وقتٌ بوقت
وتسألُ عينيَّ عيناكَ:
-«هَل..؟»

فأقولُ:

«نعَمْ.. وجَدتُكَ أنتَ، أخيراً!!!
سأحفظُ جوهرَكَ المتأتّي إلى جوهري
ولن أتَخلاّك عنك
إلى آخر العمر نَمضي معاً»
ومِن عمرِنا حبُّنا يغنَمُ
غداً، يا حبيبي، متى نَهرَمُ

* * *

وتَمضي على شاطئ البحر
هيمانَ بي
تداعبُ شَعري على صدركَ الدافئ الأريحيّ
نعيش بـ«غَمرتِنا» اللاهبه
تُذكّرني
كيف من حُبّنا نُخصِبُ الوقتَ عمراً
تُذكّرني
كيف كنتَ شريد الصحارى
وتحلمُ أن سأجيئُكَ يوماً
وجئْتُ
فأنقذْتُ عمرَكَ من تَيهان الصحارى
أتيتُ
-لشدّة حلمِكَ بي-
لأمْحُو شرودَك والتيَهانْ
ونَحيا معاً حُبَّنا آنَ آنْ
ونُكملهُ العمرَ دوماً معاً
سعيدَين أنّا التقينا
-أخيراً!!!-

إلى آخرِ العُمر نَمضي معاً
ونستقطع الوقت «منهم»
على غفلةٍ من سُموم العيون
و«صيف الهنود» يُزَهِّرُ فينا
وليس يغيبُ
على غفلة جاءَ
مستأخَراً كي يُقيمَ فلا يرحلا
ورُحنا
-مدى حُبِّنا-
نتهادى
وتَكتُب شِعرَك من نَبَضاتي
لنا الشمسُ زوغى من الكلماتِ
لنا البحر موجٌ من الأمنياتِ
وتروي:
«امتلائي بكِ انْهَلَّ.
أنْقَذَني من ضَياع الجهات
وقبلَكِ كان فراغٌ يَجرُّ فراغاً له أكبرا
يُجَرِّرُني مُفْرَغاً من «أنا»يَ
فأملأُ ذاك الفراغَ بِما كان يُرضي
ومَن كان يُرضي
ولم يَكُ ما كانَ
لَم يَكُ مَن كانَ يُرضي
كما صُغْتِني اليوم مستَعْبرا»
وتَذكُرُ..
تَذكُرُ كلَّ الذي كان من حُبنا يَنعَمُ
غداً، يا حبيبي، متى نَهرَمُ

* * *

حبيبي
سلامُ الحياةِ عليكْ
إليكَ حناني يَفيءُ لديكْ
هو البحرُ مدَّ مداهُ إلينا
وآخُذُ رأسَكَ بين يَدَيَّ
نَنظرُ صوبَ البعيدِ
إلى الأُفُقِ المترامي البعيدِ
وأنتَ تُدنْدنُ شِعرَك بي
فأقطفهُ منكَ دنيا جديدَه
أُردِّد بعدَكَ كُلَّ قصيدَه

* * *

أيا ذاكَ «صيفَ الهنود»
بدأناكَ
لكنْ ستُكمِلُ وحدَكْ
لأنّ حبيبي سيُكمِلُ بعدَكْ
هرِمنا من الأمس
لكنّنا بصبا العُمر في غدنا نَحلُمُ
نذوقُ خريفَ الحياةِ معاً
ربيعاً من الحبِّ لا يَهرَمُ
غداً، يا حبيبي، متى نَهرَمُ!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أستاذ التربية الدينية

فيصل خرتش*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كنت في الصف الرابع، حصل هذا في بداية العام، وكانت مدرستنا كبيرة جدّاً، لها مدير يرتدي بذلة رسمية ويضع ربطة عنق، وله معاون واحد يمشي إلى جانبه، وبيده عصا سنديـان طويلة، على سطح المدرسة يربّون الدجاج، وفي الطابق الأوّل يربـون الأولاد، وفيها مسرح وحديقة وقبو يعرضون فيها أفلامـاً سينمائية بالأسود والأبيض عن حيـاة الحشرات والدواجن والفيلة والنمور.

* أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان عماد الوهيبي.

مدرستنا على شكل مثلّث وعندما تصعد الدرجات التي لا أعرف عددها، ربمّا ثلاث أو أربـع، تقابلك غرفة المدير على اليمين وغرفة معاونـه الذي يسير إلى جانبه وبيده عصا طويلة، على اليسار. ثم تتوزع المدرسة إلى ممرّين طويلين تقابلهما الصفوف على الجهتين، وأنا كان صفـي إلى اليسار من الإدارة، وفيه حوالي الأربعين طالباً يتراوحون بـين النشيط والوسط والكسلان. وأنا كنـت من الطلاب النشيطين، تستطيع أن تقول: «إننـي أفهمها وهي طايرة». حتى إن أستاذ الحساب والعلوم كان يحبني، هكذا أعتقد، لأنني كنت أحلّ له المسائل، وأعرف كل شيء عن الحدأة والأفعى والخفاش والسلحفاة ولمبة الكاز.

كل يـوم صباحاً نصطـف، أي لا نتحرك، ونبدأ بنشيد الوحـدة ثم عبد الناصر يا جمـال يا مقدام عروبتنا، يليه نشيـد الجزائر، قسماً بالنـازلات الطالعات، ثم نشيد الله أكـبر بعد ذلك يبدأ التفتيش على المحـارم، واستعد، إلى الصف انصرف. فندخل الصفـوف بعضنا يتضارب بالحقائب والأيدي والأرجل، وبعضنا يفترش المقعد ويذهب غافياً وهو يحلم بأرض لا يوجد بها أحد، لا أساتذة ولا مدراء، ولاحتى مدارس، أرض فيها فراش ولحاف ونوم دائم إلى أبد الدهر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ها هي الحصة الأولى من يوم الاثنين، يمرّ علينا أستاذ الديانة، أتذكره تماماً، مربوع القامة، له ذقن مشذبة، نحيل، عصاه صغيرة ومبرومة بعكس بقية الأساتذة، يقلب اليد على قفاها، أو هكذا يطلب منّا، «ويليحنا» فوق الأصابع، كنا نقول عنه إنه ظالم، لم يكن يبتسـم أو يتكلم إلا الكلمة الضرورية، يمرّ بجانبي ويسـأل سؤالاً، أرفع يدي، فلا يردّ علـي، أنا يا أستاذ أجيب، فلا يرد، يغير السؤال، لاأحد يرفع يده سواي، فلا يرد علي، فأضـع رأسي بين يديّ فوق المقعد، وهنا تقوم قيامتـه، فيجرني خارج المقعد، ويطلب منـي أن أفتح يدي على قفاها، ويضربني بالعصا على رؤوس أصابعي ثم يلقيني خارج الصف مقهوراً وبلا دموع.

وتكـون النتيجة في أوائل الربيع، كل المواد أخـذت فيها جيد جداً، فقد كانت تزين الجـلاء المدرسي إلا مادة الديانة فقد نلت فيهـا «ضعيف جداً»، وتواسط لي الأساتذة عند مدرس الديانة، فقال لهم، إنه لا يصلي، وكفى بهذه التهمة أن أكون راسباً في مادّة الديانة.

شرحت لأستاذ الرياضيات والعلوم وأستاذ الجغرافيا وأستاذ الرسم، بأنه لايوجد قرب بيتنا مسجد لأصلي به، صلاة المغرب والعشاء، واتفقوا جميعهم على أن أصلي في أقرب مسجد إلينا، وهكذا اشتريت دفتراً صغيراً وقسمته إلى أيام، ووضعت صلاة المغرب والعشاء عليه وبجانبها توقيع الإمام كما كان يطلب منّا أستاذ الديانة.

ذهبت إلى صلاة المغرب، وصليتها في المسجد الذي قالوا عنه، وانتظرت صلاة العشاء، أقرأ في القرآن الكريم، إلى أن حانت الصلاة، فصليت، كان عددنا لا يتجاوز العشرة، وبكل جرأة تقدمت إلى الإمام وأعطيته الدفتر الصغير، سألني ما هذا، عند ذلك، شرحت له بصوت مرتجف وأصابع مرتعشة، فكرة الدفتر الصغير، فوقّع لي، وهو يبتسم، كانت ابتسامته تنزل عليّ برداً وسلاماً، تغمرني بأمان لا حدود له وسلام يدوم طول العمر.

بعد عدّة أيام سألني الرجل الوقور والابتسامة العذبة عن سبب توقيعي على الدفتر الصغير كل يوم، فشرحت له، كانت يداي لا ترتجفان وفمي لا يتلعثم، سألني كذلك عن بيتنا، فأعطيته عنواني، قال: هذا بعيد، ثم أمسك بالدفتر وراح يخط عليه بخط أنيق ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، بعد الصلاة والسلام على خير المرسلين، أما بعد،

حضرة الأستاذ الأكرم، نظراً لبعد الطفل فلان الفلاني عن المسجد وعدم وجود وسيلة تقلّه إلينا، رأينا إعفاءه من الصلاة في المسجد المذكور على أن يصليهما في المنزل. هذا رأينا، وعليه نوقع».

ذلك اليوم، أو تلك الليلة قبعت في زاويتي على فراشي، بجانب الحائط، فرحت كثيراً لأن الشيخ قد كتب على الدفتر هذه الكلمات، وأغفيت، رأيت حلماً جميلاً جعلني عند الصباح أقفز في الهواء، وأنا في طريقي إلى المدرسة، رأيت فيما يراه البشر أن أستاذ الديانة يجبرني على خلع ثيابي العليا، ويكتب على ظهري بالكوبيا، كلمات لم أفهمها، ثم يأتي إمام المسجد، ويأخذني منه، ويجعلني أرتدي ثيابي، يأخذني ونمضي طويلاً وفجأة يأتي نسر، ويقوم بخطفي من بين يديه، ويحملني إلى رأس جبل، تندلع منه النيران، فما كان من الإمام إلا وكفه تمسح الجبل فتهدأ النيران، ويمسك النسر بيديه الاثنتين، هكذا يفكني من بين براثنه، فيهرب منه النسر، وأستاذ الديانة ينظر إلى فعله هذا، ويقوم الإمام بمسح رأسي بيده المباركة، فأنام إلى أن توقظني الساعة إلى مدرستي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الطريق إلى المدرسة أمرّ بوهاد ومرتفعات وشوارع مسكونة ومناطق غير مسكونة وأسـواق تبيع كل شيء، وأصل إلى حارات وبيوت ومساجـد إلى أن أصل إلى مدرستي، فأتـرك باب الإدارة إلى باب جانبي، شرقي المدرسة، عند المقبرة، أنتظر أن يفتح الباب الأسـود الكبير، يستقبلني بائع السحلب، لكـن نظراً لعدم وجود أي قطعة نقدية معي، فإننـي سأتخلى عن كأس السحلب والكعكة الساخنة لهذا اليـوم، أدخل المدرسة عبر الباحة الكبيرة، وإذ ذاك ينطلق الجرس معلناً بداية الدوام.

نصطف كل اثنـين معاً، هكذا.. استاعد.. استارح، ويبـدأ الأستاذ المناوب بتجميع الأناشيد الوطنية وفرزها علينا، ونحن نردّدها واحداً واحداً. وندخل إلى البهو ثم نبدأ بدخول الصف جميعنا دفعة واحدة، بين الضرب والشدّ والدفش.

هــا هو يوم الاثنين، ويدخل الأستــاذ مدرّس التربية الدينية، فأخاف منه، ولا أجرؤ علــى أن أخرج الدفتر الصغير الذي وقّع لي إمام الجامع عليه، وختمه بالكوبيا، بعد أن كتب عليه تلك الكتابة.

أمــرّ على مقتنياتي الشخصية، فأعثر على الدفتر الصغير، لقد مرّ زمن عليه، ترى هــل هم أحياء أو أمــوات، لا أعرف، شيء يحزّ في نفســي الآن، فما زلت أكن لهم كل احترام، أليسوا أساتذتي الذين علّموني:

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

نعم ياسيدي لقد بقيت علامتي في مادة الديانة، ضعيف جداً، ولم أجرؤ على إخراج الدفتر في ذلك العام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شُمَرَاءُ جُنُونِ البَقَّرِ

د.خالد زغريت*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة على قصة: من وثائق «ويكيليكس»

١- قصة القصة:

هذه القصة مستلّة من وثائق ويكيليكس التي عزف القائمون على الموقع عـن نشرها لأسباب وأسباب، وقد أُرفقتْ كلّ قصّة بنصّ الوثيقة، والحاشية التـي بيّنت سبب عدم النشر، وقـد حصلتُ على هذه القصّة بإحدى الطرق الثلاثـة الآتية: الأولى: كنتُ في الأيام التي تصادف ذكرى تاريخية مهمة أنام متوسّـداً كتبَ التاريخ فكانت تخرج عليّ في المنام أشباح رجالٍ لا أعرفهم

* أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إنما توحي لي أشكالهم بأنهم حرّاس أحلام، أو شياطين أضغاثها، فأسترق من أحاديثهم مـا أسترق وهم يظنون أننـي في سابع نومة، ولأنّ التاريخ لا يمـوت فحرّاسه مزودون بحاسـة فريدة هي الكشف عـن المستور فيما يحاك لحفدتهم في نومتهم السابعة، أمّا الطريقـة الثانية، فقـد تعرّفت على مستشرقة رغبت بأن تقـدم أطروحة عن منامات الزمن الأبيض المتوسط الذي أصيب بدائه قرّاء أبراج صدماتهم التي لم تزل تقف دقيقة صمت حداداً على أمّيّة قرّائها، ولم يعرفوا أن يمحوها بعد، وكانت هذه المستشرقة ممن تحرّشـ بهنّ جوليان إسانج فرشاه ببعض الوثائق لتغضَ الطرف عنها مقابل أن تسرّب بثمـن يرضيها، واستعانت بي لأنها ليسـت ضليعة باللغة العربية بما يكفي وقد عرفت أننـي ممن يجيدون قراءة اللهجة السوداء في خطو الأحلام، فكانت بين الفينة والفينة تطلعني علـى بعض تلك الوثائق، أمّا الطريقة الأخـيرة وليست الآخرة، فكانت ناتجة عـن نباهتي في استلهام أسرار هـذه الوثائق من سطور المحللـين السياسيين ولاسيما الذين يفسّرون المـاء بعد الجهد بالماء، هذا ما فعلته وعليكم أن تستعينوا بإحدى طرق الاستعانة المعروفة في المسابقات على أنني لن أكون صديقكم، ولذلك كان لابدّ من هذا التنويه عرفاناً بالجميل ونكراناً للذات، عرفاناً بالذات ونكراناً بالجميل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- وثيقة القصة:

وثائق «ويكيليكس»: نسخة باللغة العربية

الوثيقة رقم: «٦٦٨»/ب/ي/ض

درجة السرية: أمن الاقتصاد الهولاندي/سرّي جدّاً

الموضوع: تسريبات عن عمل إرهابي على البقر

المصدر: برقية أرسلتها ٦/٣/٢٠٠٦، مصممة آثار مزورة، أخفقت في استبدال تمثال نصفي لرأس «غليس» بتمثال من صنع يديها، وباعته لورثة دمه، ليمرغوا أنفه بالتراب مقابـل ٥٠مليون دولار أمريكيّ، وبعـد أن تمت الصفقة عملت مرشـدة نفسية للبقر الهولانـدي في بقـاع العالم، اكتشفت سرّ جنون البقر لـدى مشاهدتها ميدانياً ردة فعل البقر على حلقة من برنامج طرائف الدنيا.

ملاحظـة هامة: مرفـق ربطاً نسخة مسجلة عن الحلقة، وخان ذكاء «إسانج» محرر

موقـــع «ويكيليكس» لأنّه لا يقترب من ذكر البقر خشية أن يصيب موقعه فيروس جنون البقر.

القصة:

أطلَّت مُقدِّمة برنامج «طرائف الدنيا» بأنوثتها الرخية قليلاً، وبسمتها الشقية كثيراً، وبـدأت تقديمهـا حلقة اليوم وإلى جانبهـا صور للبقر بوضعيـات مختلفة تكاد تشكل فيديـو كليب طرائف البقر، وأمام أكبر صورة لبقـرة تبدو كأنها ضاحكة بأسف، جلس شخصـ ضخم اللغاديد عريضـ الشفتين بقري المنكبين، بيـده ربابة وبالأخرى كتاب بدت فيه صورة أذنين، بـدأت المقدمة حديثها وكأنها فضلة قهقهة طويلة خلفتها نكتة دغدغـت حياءها بمتعة، فقالت: مساء الخير، مساؤكم هـذه الليلة كله ضحك إن شاء الله مع حلقة جديدة من برنامجكم المحبوب طرائف الدنيا، وأنصح أعزائي المشاهدين -وحرصاً على السلامـة العامة- أن يحتاطوا لطوارئ قد يلحقها بهم كثرة ضحكهم في هذه الحلقة الفريدة، بداية اسمحوا لي أن أرحّب باسمكم بشاعر معروف لكم عن بعد.. يعنـي على الورق، فطالما صدرت له الدواوين الشعريـة التي لم يقرأها بعضكم، لكنكم بعد هذا اللقاء لابد أن تقرؤوها صباح مساء، وستتعرفون على شخصية -بصدق- هي مـن طرائف الدنيا بشعره، بقصة حياتـه، بعشقه الغريب، بعلاقته بالفلكلور من خلال الربابة. هل رأيتم قبل الآن شاعراً حداثياً يلعب الربابة، إنه أغرب عشاق العرب قديماً وحديثاً، عاشق جنون البقر، حبذا يا شاعرنا لو تتقدم للجماهير بنبذة عن حياتك.

تنحنـح الشاعر نحنحة كأنها صدى خوار، أخجلتني يا سيدتي، بداية لابد أن أشكر أصحاب الفضل برعايـة موهبتي، وأخص بالشكر الجزيل مدير مباقر الشرق الأدنى، وحوشـ موى الذي أتى على ذكره الشاعر الجاهلـي الشنفرى الذي سبق كل التيارات الأدبيـة العالمية، فأسس لسوريالية حبّ البقر بشفتيه منـذ ألفي عام إلا ربعاً، فسمي الشنفـرى لعظمـة بقرية شفتيه، وأحيي من هنا مدير عـام مباقر تلدو وسفير هولندا فلـه أحلى تحية، ولا أنسى فضل مدير حوض نهـر الكلب، ومشرف سد قويق ومزارع المعمـورة، واسمحـي لي أن أحيي شاعر البقر الأول الذي قـال مخلّداً مآثرها وفضلها على كثير من الناس:

http://Archivebeta.Sakhrit.com

عـجـبٌ عـجـب عـجـب عجب

بـقـرٌ تمـشـي ولـهـا ذَنَـبُ

ولـهـا في بـزٍ بـزُهـا لـبنٌ

يـبـدو لـلـنَّـاسِ إذا حـلـبوا

ولا تـغـضـبُ يـومـاً إن شُـتِـمتْ

والـنَّـاسُ إذا شُـتِـموا غَـضِـبوُا

ضحكـت المذيعة على ما بدا في ملامحها مـن غيظ لاستطراد الشاعر، حتى كادت مرارتهـا تطق، وقطـع المخرج الحلقة –خشيـة طارئ لاتحمد عقبـاه، ينتج عن كثرة الضحـك –بدعاية جبنة البقرة الضاحكة، وعاد البرنامـج، لكن الشاعر فاجأ المذيعة بقولـه: كلمة من فضلك ومن فضل المشاهدين الذيـن أدعوهم أن يحيّوا معي مشرف مجمع زرائب البقر في عين البقر، قاطعته المذيعة أستاذ الوقت ينفذ، عرّف المشاهدين

بنفسك، ردّ: ..طيب.. طيب على رأسي.. لكن اسمحي سيدتي دقّة واحدة أن أحيي كلّ بياعي قريشة البقر، الجنود المجهولين في تعريض أكتاف أصحاب الهيبة وكروشهم، رمقته المذيعة بغيظ، وقالت: ..أستاذ.. رد: عفواً، سأجيب عن سؤالك، لكن دعيني من هذا المنبر الحر أمسّي الأبطال المهضومين في سوق بذار البقر، نفد صبر المذيعة: أستاذ سأضطر إلى قطع حديثك، وتقديم ربورتاج أعددناه عن سيرتك المظفرة، وبدأ الريبورتاج بعرض صور قطعان البقر تسرح في المراعي والشاعر هائم يتأمّل رقة حسنها وخوارها، ومعدة الربورتاج تجأر بصوتها ليعلو صوت البقر، من طرائف الدنيا أن يهيم شاعر بهذه الحيوانات الوديعة التي اتخذتها الشعوب مثالاً للشتم والتعيير بالغباء.. انظروا ألفة الشاعر لها وكأنه ابنها البار، إنه الشاعر الكبير مجنون البقر، طبعاً هو عازف الربابة المشهور في ناحية الصنمين من ضواحي الشام التي سميت بذلك، كما يروى لأن راعي البقر فيها، كان يدّعي حبّ فتاة طيبة اسمها عنود، وكانت تهرب من رائحة البقر عن بعد أميال، لأنها مصابة بحساسية خاصة من رائحتها وحليبها ولبنها وساقيها وآكلها وراعيها وبائعها، وحين انزلق الراعي من مجارير السوق الأوروبية المشتركة إلى شوّايات التحوّل الاشتراكي، صار طبالاً فصيحاً في ساحة دبكة البقر برغم أنه لم يفكّ الحرف، وكان لنا معه بمناسبة العيد العاجي للبقر هذا الحوار.. ما رأيك سيدي لو تحدثنا عن تفرّد علاقتك بالبقر، تنحنح، وقال: ألهمني البقر سبع مواهب، وراح يعددها.. وعندما وصل إلى السابعة قال: أما الأولى طيب هبرها في لحظة بطر، عضّت المذيعة هبر شفتيها حتى سال دمها «هولاندياً» وقالت: أرجوك ركّز، وصلنا إلى السابعة: قال: «أفواً.. أفواً» يا «مطموذيل»، طبعاً هو لا يقصد تصريف أفٍّ، لكنه أراد أن يتفرنس. أمّا السابعة فهي: أنّ البقر ألهمني قصيدة سلختُ فيها جلد قلب «عنود»، فأخذ الربابة وراح يموّل: راعي البقر.. قلبه اندقر بين الحجر والدردار.. عنود لأجلك أحببت بقر الدنيا وأمضيت عمري بالخوار. اضطرت معدّة الربورتاج التي خارت أحلامها ومنابع صبرها أن تنهي تحقيقها بقولها: نكتفي بهذا القدر لمن له قلب فيعي ومن له نظر فيعتبر، وعاد البث إلى مقدمة الحلقة التي كانت مصابة بالبله لشدة ما اعتبرت مما حدث مع معدّة التحقيق، واستدركت والخوف بعينيها تتأمّل فنجان ورطتها بالمقلوب: أتمنى أن تحدثنا باختصار عن قصة لقبك بمجنون البقر

في فــترة يمسك العالم قلبه وبقره من خطر جنون البقر، فتنحنح، وقال: اسمحي لي أن أمسّي على معاون مدير مؤسسة الأعلاف في الشرق الأوسط وغرب قرقيزيا، فقاطعته: أستــاذ أجبني عن ســؤالي، انتهت الحلقة، أرجوك، أرجــوك، أكاد أجنّ ألا يكفي العالم جنون البقر.. ينقص القِــدر باذنجانة!! وفوقها جنون مذيعين.. فقال: عفواً سيدتي لم أنس الســؤال لكن اسمحي لي أن أحيي وقبل أن يكمل خلعت المذيعة حذاءيها، وقذفت المخرج باليسرى، أما اليمنــى فقذفت بها الشاعر على براطمه، وقبل أن ينقطع البث، آخر ما سمعناه صدى صوت يلثغ: (بث اسمحي)... ويروى أن كلّ أبقار العالم المدللة في زرائب مكيفة ومتلفزة التي شاهدت الحلقة فلتت من عقلِها، وراحت تنطح التلفزيونات بهستريا مجنونة، وتخور خواراً يعني بالبقريِّ الفصيح خائرة: جنّن جنوننا، بينما خارت المذيعة إلى الأبد، وتركت الفن. أمّا عنود فلما خار الشاعر بفضيحتها تسمّرت في ساحة البلدة، وراحت تتحجّر شيئاً فشيئاً، بينما راح ظلها يكبر ويتحجر كذلك على شكل بقرة من حجر، قيل مَرّ الهندوس مصادفة فاكتشفوا سرّ جنون البقر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التزوير الإعلامي وتصنيع الأزمات ..

د. تركي صقر *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المقدمة

ما من أحد يستطيع أن يجادل في سطوة وسائل الإعلام على عقول الناس وأفكارهم في العصر الراهن، فبعد أن كانت هذه الوسائل إلى وقت قريب تغطي الأحداث وتلاحقها باتت تشارك فيها وتدخل كجزء مكمل لها، إلى أن انتقلت مع ظهور الإعلام الرقمي والتفاعلي إلى صانع لهذه الأحداث في أحيان كثيرة، ولعلَّ أبرز مظهر من مظاهر تأثير وسائل الإعلام في حياة الأفراد والمجتمعات البشرية وسياسات الدول والأنظمة هي الصورة التي

* ناقد وباحث إعلامي وسفير سابق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كانت ثابتة عندما كانت تنشر على الورق في الصحف والمجلات إلى أن أصبحت متحركة بالسينما والفيديو والتلفزيون وعلى شاشات الفضائيـات والكمبيوتـر والموبايل فازداد تأثيرهـا نظراً لما تملكه الصور المتحركة من مؤثرات تنتقل مباشرة من العين إلى الدماغ فتفعـل فعلها في أذهان الناس حتى أطلق بعضهم على عصرنا بأنه عصر الصورة وأن الحروب التـي اشتعلـت في مناطق عديدة من العـالم بأنها حروب الصـورة أو حروب الشاشـات حاليـاً. ولا نبالـغ إذا قلنا بأن الغرب عمومـاً والولايات المتحدة الأمريكية خصوصـاً من أكثر البلـدان التي برعت في هذا المضمـار بالنظر لتقدمهـا الهائل في مجال تكنولوجيـا وسائل الإعلام وفي مجال استخدام هذه التكنولوجيا، وكذلك امتلاك القـدرات الفائقة على التلاعـب بالصور وتزييف الحقائق والوقائع. ومع دخول العالم القرن الحـادي والعشرين وبـروز دور كبير للعولمة الإعلامية عمـدت الولايات المتحدة الأمريكيـة إلى انتهـاج أسلـوب الحـروب الافتراضية والحـروب الاستباقية متذرعة بأحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ ومستخدمـة الإعلام كأحد أهـم الأسلحة الحاسمـة للمعـارك.. حتى قبـل وقوعها مستفيـدة من التجارب التـي قامت بها في هذا المجال في حـرب الخليج الثانية وغزو الكويت عـام/١٩٩٠م/ حيث لعبت فضائية (سي إن إن) دوراً أساسيـاً في نجـاح هذه الحرب لصالح الولايات المتحدة الأمريكية.. هنا بجـدر الوقوف أمـام نظرية الحروب الافتراضية ومقارنتهـا مع نظرية الحروب الاستباقية ونظرية حروب الفوضى الخلاقة وصـولاً إلى كشـف آلية تصنيـع الأزمات السياسيـة والاقتصاديـة بوساطـة الصور والمشاهد وفبركتها على الطريقة الهوليودية وعـبر العولمـة الإعلامية التـي تتحكم بها وسائل الإعلام الأمريكية والغربية

نظرية الحروب الافتراضية:

ليست جديدة نظرية الحروب الافتراضية على العلم العسكري لأن معظم الحروب تبدأ بالأفكار ثم بوضـع المخططات لها وتجري المناورات الحربية تحسبـاً لخوضها، ولسنا هنا بصدد التفصيل في ماهية هذه الحروب التي قد تقع أو لا تقع ولكن ما يهمنا الإشارة إليـه أن تطـور تقنيات الاتصـال بما فيها تقنيات الاتصال عبر الأقمار الصناعية قد وفـرت لمخططي هذا النوع من الحروب كل الوسائل التي تمكنهـم من وضع التصورات والتخيلات الكاملة لمجريـات المعارك على الأرض وهم ضمن الغرفة المغلقة ومن دون أن يبرحـوا أماكنهم. ولكـي لا نذهب بعيداً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـإن الولايات المتحدة الأمريكية قد وضعت خططـاً لحـروب افتراضية علـى مستوى القـارات الخمس بل على مستوى أية حرب كونية قادمة وما برنامج حرب النجوم الذي وضعه البنتاغون في عهد الرئيس الأمريكي ريغـان إلا نمـوذج لذلـك حيـث أصبحت تسميته في عهد الرئيس بوش برنامج الدرع الصاروخـي الـذي بات يلفـه الغموض في عهد الرئيـس أوبامـا دون أن يتخلى عنه. ما يهمنا قوله أن السيادة الآن هي للحروب الافتراضية التي غدت منهجاً للجيوش على مستوى الـدول جميعاً إلا أن هذا النهج قد اتخـذ في الآونة الأخـيرة منحى واضحاً في عصـر العولمة وهو عودة جديـدة لاستعمار الشعـوب بطـرق مختلفة تغلـب عليها لغة استخدام القوة الناعمة في السيطرة وبسط النفـوذ من خلال إبداعـات فائقة التصور لاستخـدام وسائل الإعلام الحديثة، ويكفي في هذه الحروب تحديد الأهداف حتى يتم وضـع مراحل المعارك كما جـرى في وضع مخططات الاستيلاء على آبار النفط العربي في حرب الخليج الثانية.

«في بدايـة يوليو الماضـي ظهرت مجلة «الايكونوميسـت» الشهـيرة وعلـي غلافها موضوع رئيسـي وحيد عنوانه للحروب بين الدول حيث عرف العالم عبر التاريخ الحروب البرية والحـروب البحرية وحديثاً الحروب الجوية ومؤخراً عرفنا حرب الفضاء، والآن ظهرت حـرب الفضـاء الافتراضي «حرب الإنترنت».

تمثل الحروب الافتراضيـة حالياً علماً قائماً بذاتـه تخصص له أكبر الميزانيات وتشيد له أضخم المعامـل وأكثرها تعقيداً. وكانـت أول حـرب إلكترونيـة قـد وقعت في أبريـل ٢٠٠١م بـين الولايـات المتحدة الأميركية والصين عندما اصطدمت طائرة تابعـة للبحريـة الأميركيـة بطائـرة نفاثة صينيـة، وهو الحـادث الـذي أودى بحياة الطيـار الصيني وقتهـا، في حين اضطرت الطائـرة الأميركية إلى القيام بعملية هبوط اضطراري في جزيرة هينان الصينية وتعرض طاقمها للاعتقال لـمدة ١١ يوماً وذلك قبل أن يعاد الطاقم بكامل أفراده مرة أخرى إلى وطنـه آمناً. غير أن الاتهامات بين الدولتين استمرت لفـترة ليست بالقصـيرة تخللتها هجمـات على شبـكات الكمبيوتر الخاصة بمؤسسات الدولتين العظميين.

ومنذ ذلك الحين تعج المواقع الإلكترونية بالتعليمات والإرشادات التي تتيح استهداف المواقع الإلكترونية لعدد من حكومات العالم، وعلى رأسها المواقـع الإلكترونية الأميركية، بحسب مـا أوردتـه مجلـة «نيوساينتست»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلميــة التــي أوردت تحقيقــاً في أحد أعدادها الأخـيرة حول الحرب الافتراضية.

ووصل الأمــر أن ادّعى المسؤولون الأميركيــون أن مثل هــذه الهجمات قد أصابــت الشبكة الكهربائية لولاية كاليفورنيا بالعطل الكامل، غير أن أياً من الحكومتين الصينيــة والأميركية لم تعترف بشــن هجمات ضد الطرف الآخر.

ويعتمد خبراء الجيشــ الأميركي في الوقــت الحــالي علــى أحــدث التقنيــات التي قــام بتطويرها معهد الإبداع التقني بالتعــاون مع الخبراء العسكريين وعلماء الحاسوب بجامعة ســاوث كارولينــا وكتــاب السيناريو بهوليود لتدريب جنوده على التصرف بحكمة في أصعب المواقف القتالية، وأشدها تعقيــداً، ولاسيما فيما يتعلق بحربي العراق وأفغانستان.

نظرية الحروب الاستباقية:

يمكن القــول أيضا أن فكــرة الحروب الاستباقيــة ليســت حديثــة العهــد وتعود كمــا يطرح بعض المفكريــن إلى أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م بل هــي من ممارسات معظم الإمبراطوريات الغابرة وفي العصر الحديث برزت واضحة في قيام هتلر في حربه النازية التي أشعلت الحــرب العالمية الثانية وباتت فكرة تدرس بقوة لدى مخططي الاستراتيجية في الولايات المتحــدة الأمريكية بعد انهيار النظام العالمي الذي قام على أساس القطبية الثنائية والفكرة ببساطة تقوم على مبدأ أن خير وسيلة للدفاع الهجوم ومن هنا تبلورت في أعقــاب هجمات الحادي عشر من أيلول إلى خطط حربية هجومية على بلدان لمجرد الشك بأنها تشكل خطراً على الأمن القومي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمريكي حتى سميت بالحروب على النوايا ومن دون توافر أيـة أدلة على هذا الخطر على أمريكا فكانت الحرب على أفغانستان وكانت الحرب على العراق ولولا فشل هاتين الحربين لتابعت الولايات حروباً أخرى.

أمـا بخصوص استراتيجيـة الحرب الاستباقية التي تبنتها إدارة بوش، فلم تصبح هـذه الاستراتيجيـة كاملة البنـاء النظري ومحددة الأهداف إلا بعد هجمات ١١ أيلول عـام ٢٠٠١م وهي الهجمـات التي فرضت علـى الولايات المتحدة الأميركية -منذ ذلك الحـين- إعادة النظـر في عقيدتها الأمنية التقليديـة السابقة التـي لم تعد قادرة على الاستجابـة للتحديات الأمنية التي يفرضها هذا النوع من التهديـدات -الخطيرة وغير المألوفـة- للأمـن القومـي الأميركي، وقد ميز اللواء الركن المتقاعد حسام سويلم بين مصطلحـين يرتبطان بهـذه الإستراتيجية الجديدة هما:

- **الحـرب الوقائيـة:** (preemptive war) إذا كان الـردع والاحتـواء - وهمـا أهم سلاحين تقليديين استخدما للمحافظة علـى السلام بين الدول واستقرار العلاقات الدوليـة- أصبحا لا يجديان نفعاً في تأمين أهداف الأمن القومي الأميركي طبقاً لرؤية إدارة بوش فما الذي ينبغي فعله؟

- **الضربات الاستباقية:** (prescreening strikes) إن هذا النوع الثاني أي الضربات الاستباقية توجه ضد قوات الخصم التي تمَّ نشرها فعلاً في أوضـاع هجومية استعداداً لهجوم فعلي، لذلك يجري (استباق) الخصم بتوجيه ضربـة اجهاضية (aberrational strike) مـن القـوات المعاديـة لإفشـال هجومها المتوقع.

حروب الفوضى الخلاقة:

يمثل مصطلح الفوضـى الخلاقة أحد أهم المفاتيح التي أنتجها العقل الاستراتيجي الأميركي في التعامل مع قضايا العالم العربي حيث تمـت صياغة هذا المصطلـح بعناية فائقة مـن قبل النخـب الأكاديمية وصناع السياسة في الولايات المتحدة، فعلى خلاف السائـد في المجال التـداولي العربي لمفهوم الفوضى المثقل بـدلالات سلبية من أبرزها عدم الاستقرار أضيـف إليه مصطلح آخر يتمتع بالإيجابية وهـو الخلق أو البناء، ولا يخفى على أحـد خبث المقاصد الكامنة في صلب مصطلـح «الفوضى الخلاقة» بغرض التضليـل والتمويه على الرأي العام العربي والعالمي.

يستنـد الأسـاس الأيديولوجي النظري لسير ورات الفوضى الخلاقـة تاريخياً إلى الثورة الفرنسية باعتبارها مرجعاً قابلاً للدرس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمقارنة بشعاراتها المعروفة الحرية والعدالة والمساواة، وعلى الرغم مـن نبل المنطلقات النظرية للثورة الفرنسية وإيجابياتها إلا أنها ولّـدت آثاراً جانبية ضـارة تمثلت بسيطرة الرعـاع من العامة التي حولت الأوضاع إلى فوضـى عارمة تفتقـر إلى التنظيم في ظل غياب مرجعيات فكريـة وسياسية ساهمت في تآكل الثورة وكان من نتائجها عودة الملكية إلى فرنسا ونمو النزعة الشوفينية الفرنسية التـي أرادت تصدير الفوضـى الثورية إلى دول أوروبا دون الالتفات إلى الخصوصيات المكونة لهذه الدول.

حاولـت الولايـات المتحـدة الأميركية استثمـار حالـة الفوضى تاريخيـاً في عدة أماكن من العالم كما فعلت في إيران أيام حكم مصدق وقد نجحت حينها بإعادة الشاه إلى سـدة الحكم الأمر الـذي فشلت فيه عقب اندلاع الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م.

وانتهجت استراتيجيـة فوضى الاحتواء المزدوج في التعامل مع الثورة الذي تمخّض عـن قيام الحرب العراقية الإيرانية، وعقب انهيـار جـدار برلـين وسقـوط الشيوعية وتفـكك الاتحـاد السوفييتـي اعتمـدت استراتيجيـة الفوضـى البنـاءة في التعامل مـع الجمهوريات المستقلـة، وتعتبر رومانيا أنموذجاً مثالياً لتفجـير الفوضى في بلدان أخرى، وبالرجوع إلى المظاهرات التي عمت جورجيـا وأوكرانيا كان العنصر الحاسم في نجاح المظاهرات هو التهديد بالقوة من قبل الولايـات المتحدة وذلك بعد تحول السياسة الخارجيـة الأميركية من الاحتـواء المزدوج أيام الحرب البـاردة إلى استراتيجية أمركة العـالم بالقـوة والعمل على تغيـير الأنظمة والجغرافية عن طريـق الفوضى الخلاقة، ولا مانـع من اعتماد الاحتـلال المباشر إذا لزم الأمر في ظل غياب استراتيجيات الردع، وقد أفرزت المتغيرات البنيوية للواقع الدولي نمـو وازدهار العولمة الأميركية بحيث أصبح القيام بواجبات الأمركة من صميم مهمات رؤساء الولايات المتحدة، ويعد الرئيس جورج بوش الابن الذي يعاني من وهم كونه المسيح المخلـص الأكثر تطرفـاً في فرض سياسات الأمركة من خلال إطلاقه الفوضى الخلاقة في مختلف أنحاء العالم، وقد تأثر بوش بعدد مـن الكتابات التي تؤسـس للفكر السياسي المنظم للفوضى الخلاقة واعترف بأن كتاب «قضية الديمقراطية يمثل الخريطة الجينية لرئاسته وهو مـن تأليف المنشق السوفييتي المهاجـر إلى إسرائيل والـذي شغل منصبا وزارياً في حكومة شارون ناتانذ شار انسكي، وتتلخص رؤية شار انسكي باعتبار الإسلام حركـة إرهابية لا تهدد إسرائيل فقط وإنما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العالم الغربـي بأكمله، ويـرى أن استئصال الإرهـاب لا يتم باستخـدام القوة وتجفيف المنابـع فقـط وإنمـا بمعالجـة الأسباب العميقـة للإرهاب التي تنبـع من سياسات الأنظمـة العربيـة الاستبداديـة والفاسدة وثقافة الكراهية التـي تنشرها، ويتفق شار انسكي بهذا الطـرح مع الأطروحة الشهيرة لهانتنغتون التي تنص على أن الإسلام عدو حضاري للغرب.

اعتمدت الحروب الافتراضية الاستباقية على وسائل الإعلام لتسويق أفكارها وتوجيه حـرب نفسية ضاريـة للخصـم حتى قبل وقوع أية معركة لكـن القوى التي اخترعت مصطلـح الفوضـى الخلاقـة أو البنـاءة اعتمدت اعتماداً كليـاً على وسائل الإعلام لتصنيع الأزمـات السياسية وغير السياسية في البلـدان المستهدفة لتكـون بيئة مناسبة لإشعـال الفوضـى والتحكـم بنتائجها من أجـل إحداث التغييرات التـي تخدم القوى الخارجية.

إن الإعلان عـن الفوضى الخلاقة جاء في أعقـاب تبنـي الإدارة الأمريكية لفكرة قيام الشرق الأوسـط الجديد الذي طرحه شيمون بـيرز رئيس الكيـان الصهيوني في كتابه الذي حمل الاسم نفسه وصرحت بهذه الفكرة وزيـرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليـزا رايس عندما جاءت إلى لبنان في أعقـاب حرب تموز عام ٢٠٠٦م حيث قالت أن الفوضـى الخلاقة في لبنان بوابة العبور إلى بناء شرق أوسط جديد.

لم تـأت الفكرة من فراغ بـل جاءت كما أسلفنا مـن أفكار طرحها رئيـس إسرائيل حاليا شيمون بيرز تقوم على إضعاف الدول العربية والإسلامية كلها وإنهاكها عبر حروب جديـدة ولكنهـا داخل كل دولـة إلى درجة تصبح قابلة للتقسيـم ضمن نظرية جديدة أشد خطراً من سايكس بيكو وخاصة أن في بعض الدول العربيـة إن لم نقل في معظمها فسيفاء دينية ومذهبية واثنيه وعرقية. .الخ تشكل تربة ملائمـة لتقسيم المقسم وتفتيت المفتت والمحصلة النهائية تكون بقاء إسرائيل الدولـة الأقـوى في المنطقـة وتحتل مركز القيادة والحل والربط لدول ضعيفة ممزقة إلى كانتونات أو دويلات على أساس اثني أو طائفي أو مذهبي.

لم تتبن الولايـات المتحدة هـذه الفكرة إلا بعـد أن فشلت في الحـروب الاستباقية وقتـل من جنودها أكثر مـن ثلاثين ألف في أفغانستان والعراق ووجدت إسرائيل نفسها غـير قـادرة على مواجهـة قـوى المقاومة والممانعـة في المنطقـة وفـوق ذلك عزوف الـدول الغربية عن الاصطفاف وراء الإدارة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمريكيـــة في حروب جديـــدة تحت مزاعم كاذبة عـــن محاربة الإرهـــاب ولذلك كانت الفوضـــى الخلاقـــة التي تحقـــق للطرفين الأمريكي والإسرائيلي أهدافهما دون إرسال الجيوش والحصول على أعلى المكاسب بأقل الخسائر من خلال أمرين:

١- ركـــوب موجـــة المطالـــب الشعبيـــة بالإصلاح وتلبيـــة الاحتياجات وملل الناس مـــن الأنظمـــة المزمنة وبـــروز نزعة عارمة بإجراء التغيير وهذه الموجة لها وجه إيجابي يقود إلى امتلاك عناصر القوة لبناء المستقبل للشعوب إذا سارت الأمور بشكل سليم.

٢- حـــرف هـــذه الموجة عـــن مسارها بإدخالها في متاهات تصنع مسبقاً في غرف عمليات ســـوداء وتصدر إلى تلـــك البلدان تحـــت الشعارات نفسهـــا الإصلاح والعدالة والحريـــة والديمقراطيـــة مستخدمة بشكل منقطـــع النظير تقنيـــات التواصل الحديثة التي تمتلكها وتتقـــن إدارتها كل من أمريكا والغرب.

التزوير الإعلامي وتصنيع الأزمات:

عادة ما تستخدم الـــدول الكبرى إعلام صناعة الأزمـــات والحرب النفسية كأسلوب لتنفيـــذ استراتيجياتها الكـــبرى في الهيمنة والسيطرة على العـــالم وتأكيد قوتها وفرض إرادتهـــا وبسط نفوذها وتحقيـــق أهدافها الخفية طويلة المدى التي لا تستطيع الإعلان عنهـــا، وهذا ما فعلتـــه الولايات المتحدة في العـــراق التي كانـــت الأولى بإنشـــاء العديد من المراكـــز والهيئات المتخصصة في بحوث صناعـــة الأزمات، كما فعل هتلر قبل نشوب الحرب العالمية الثانيـــة عندما غزا بولندا، وقامت دول عدة في الخمسينات والستينات مثل فرنسا وألمانيا وبريطانيا واليابان بإنشاء مراكز مماثلة.

حلم العولمة الدائم هـــو عالم بلا حدود، والعولمـــة محصلـــة نهائيـــة لعمليـــة تحول تاريخيـــة مستمـــرة في المجتمع الدولي وهي أداة مـــن أدوات السيطـــرة، والوجـــه الآخر للمـــال والسلطـــة والسلـــوك والاستهـــلاك ولقد تسللت العولمـــة الإعلامية إلينا بتطور متسارع حيث أصبحنا ضحايا وسائل إعلام المعاصرة ولاسيما التلفزيون الذي يقوم بدور متعاظـــم في صياغـــة تصوراتنـــا عن القيم والأفكار والأشخاصـــ والأشياء وأي قرار لم يعد خافياً علـــى الإعلام. وعندما تستحكم الأزمات يتجه الناس للإعلام ليتعرفوا على ما يدور ويجـــري والإعلام بعـــد ١١ أيلول ٢٠٠١م طرأت عليه أمور كثيرة منها الإعلام للدول الصناعية حيث اعتبر إعلاماً مركزياً موجهاً وأن الارتباط بين التكنولوجيا والعولمة تحصيل حاصل من أجل تحقيق التقدم وهذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتبع القطب الأقوى وهنا تبرز أهمية معالجة هذا الاندماج، وللحقيقة فإن بعض الإعلام أصبح أداة بطش بالعقول وتجريدها من كل ما يحفظ لها مقوماتها وهنا يتضح وجها الإعلام الأول تعسفي بيد القوي والآخر نضالي بيد الشعوب المستضعفة.

تصنيع الأزمات العربية:

منذ إن تحولت العولمة الإعلامية إلى قوة تغيير بيد من يملك تكنولوجيا الاتصال كان نصيب العرب منها كبيراً للتأثير في الرأي العام العربي وصياغته باتجاهات الفوضى الخلاقة التي ترسمها الدوائر الأمريكية لإقامة الشرق الأوسط الكبير واتخذت من تطلعات الشارع العربي لإحداث تغيير الأنظمة البالية بأنظمة تلبي مطالبها الاجتماعية وتحقق لها الكرامة والسيادة ذريعة لحرف هذه التطلعات وإدخالها في دوامة أزمات تبدأ ولا تنتهي يكون الرابح الأول فيها إسرائيل كما جرى ويجري في تونس ومصر وما يخطط لسورية واليمن وليبيا والسعودية وجميع الدول العربية بلا استثناء وبشعارات براقة عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ولكن تنتهي النتائج إلى عكس ذلك تماما ويمرر هذا الخداع التاريخي الآن من خلال تسونا مي إعلامي لايقاوم وتلعب الفضائيات دوراً مؤثراً للغاية في تحريك الرأي العام وتوجيهه لخدمة المصالح الغربية وهناك أكثر من ٦٠٠ فضائية عربية أو تنطق بالعربية ٩٥٪ منها يقصف العقل العربي على مدار ٢٤ ساعة لتزويغ رؤيته وحشوه بأفكار تبعده عن قضاياه المصيرية ليبقى عاجزاً ومشلولاً ويظهر الخطر الأكبر على تماسك المجتمع من خلال بث السموم الطائفية والعرقية والمذهبية التي تقوم به فضائيات الفتنة وهي سلاح فتاك ومدمر للنسيج الاجتماعي في الدول العربية ولا يكلف أصحاب المخطط إلا الجزء اليسير جداً فيما لو عمدوا إلى تحريك مجموعة عسكرية صغيرة وهنا يحضرني ماقاله الكاتب المصري وليد توفيق حول أبواب رزق لكل من يجيد الدجل حيث قال:

«إذا كنت قد ذهبت إلى الخارج بحثا عن أبواب رزق جديدة، وشاء حظك العاثر أو مؤهلاتك المتواضعة ألا تحصل على ما تتمناه، فنحن نقدم لك فكرة قد تدر عليك الملايين ولكنها تحتاج إلى ذكاء متقد وشعارات حنجورية ومهارة بالغة في ارتداء عباءة الدين، وتوصيل أكبر قدر من الشعور بالاضطهاد لمتابعيك، فإذا كنت ترى أنك تمتلك هذه المقومات فما عليك إلا الدخول في عالم بيزنس القنوات الفضائية، وليست أي قنوات ولكن مجال الفضائيات الدينية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالتحديد، وسوف تصبح مليونيراً خلال عام على الأكثر.

والفكرة بسيطة: حجـز تردد على أحد الأقمار الأجنبية المنتشرة حول العالم، ثم بعد ذلك يمكن البث بأقـل التكاليف من خلال استديو صغير ومعدات مستهلكة، وفي بعض الأحيان لن تحتاج حتى للاستديو، فمن خلال جهاز «لاب تـوب» حديث وبكاميرا المحمول يمكنك البث المباشر للحدث فور وقوعه، المهم أن تمتلـك العدد الكافي من المراسلين وبأقل المرتبات فالعاطلون بالملايين، وبالطبع كلما زادت سخونة الأحداث وبرامج الإثارة التي تعتمد على التعرض لعقائد الآخرين أكثر من شرح عقيدتك نفسهـا، زادت التبرعات سواء ممن ينخدعون باسم القناة وشعاراتها الدينيـة، أو من خلال الجهـات الخارجية التـي تعلم جيـداً أن الهـدف الرئيسي هو الربح ولكنها تريـد العبث باستقرار الوطن وكله على حساب دمـاء العديد من ضحايا الفتن الطائفية التي تساهم هذه القنوات في إشعالها، ولا يهم بعد ذلك اسم القناة وسواء كانت مسيحية أو إسلامية فكلها أعواد ثقاب جاهزة للاشتعـال في أي وقت وبأقل شرارة وعلى حساب أمن ووحدة الوطن التي ذهبت أدراج الرياح في مواجهة بيزنس الفضائيات الدينية..»

الخاتمة:

في نهايـة المطاف لابد مـن الإشارة إلى أن القاعدة المنطقية تقـول أن كل أزمة لها وجهان وجـه سلبي وآخـر إيجابي والعرب قالت قديما اشتدي أزمتي تنفرجي والمفهوم الصيني لكلمـة أزمة يحمـل رمزين الأول بمعنـى الخطر والثـاني بمعنـى الفرصة. والمهارة الأساسية لدى القائمين على إدارة الأزمـة تتمثـل في قدرتهم علـى استخدام المفهوم الصيني أي جعل الأزمة بمثابة فرصة وهذا يحتـاج إلى جهد فكري متميز وحنكة خاصة وأعصـاب هادئـة والاستفادة مما توفره الأزمة من تركيز اهتمام الناس عليها واللجوء إلى وسائل الإعلام لمعرفة مايجري بشأنها ورغم أن المقولة القديمة تؤكد أنه «لا يوجـد ما هو أسوأ من النشر السلبي» إلا أن هناك فرصة سانحـة للاستفادة من الأزمة بصـورة إيجابية كفرصـة للترويج للمسائل المختلفة وأنشطتهـا وأبعادها،وتتوقف هذه الفرصة على طبيعة الرسالة الإقناعية التي يتم توجيههـا للجمهور وقت الأزمة، خاصة أن معظـم الناس يتأثرون بالأزمة عند ذروة النشـر عنها، هذا يعنـي أن الأزمة نادراً ما تسبب الدمار، لكن هذا يتوقف على طريقة المعالجة الإعلامية التـي قد ترتفع بسمعة الدولـة أو تهبط بها.. Reputation Up Or Down

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر

١- د. خالد عزب. كتاب: كيف يحول الإعلام الأزمة إلى فرصة - الإسكندرية ٢٠١١م.

٢- وليد توفيق. مصر وفضائيات الفتنة - مجلة أكتوبر المصرية- عدد ٢٠١١/٥/٢٩م.

٣- عماد غنيم. الحروب الافتراضية - الأهرام الاقتصادي- عدد ٢٥/١٠/٢٠١٠م.

٤- حسن أبو هنية. الفوضى الخلاقة - الغد الأردنية - عدد ٢٥/٧/ ٢٠١١م.

٥- المؤلفان: جون اركلا وديفيد روزنفلت - الحرب الافتراضية هي حرب المستقبل كاليفورنيا ١٩٩٩م.

٦- ياسر ثامر - الفوضى الخلاقة بين الفكر والممارسة -صحيفة الجمهورية المصرية بتاريخ ٢٠١١/٧/٢م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نحو سجون خمس نجوم

المحامي هائل منيب اليوسفي ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دعوى السيد راتب لا تنسى أبداً فقد أمضى راتب عشرين عاماً في السجن جزاءً وفاقاً لما ارتكبت يداه.. ولما انتهت مدّة عقوبته وخرج إلى الحرية.. لم يجد أحداً من أفراد أسرته في انتظاره.. فالزوجة قضت.. والأولاد كبروا وتوزعوا بعيداً عن دار أبيهم بعد أن تراخوا في زيارتهم له حتى نسوه، ولاسيما أن الجرم الذي اقترفه أبوهم كان مشيناً يخجلون من ذكره ومن ذكر اسم أبيهم معه فأخذ يهيم على وجهه يطوف شوارع المدينة متسكعاً تارة.. متسولاً تارة أخرى.. يطرق أبواب بيوت من كان يعرفهم

٭ كاتب ومحام وصاحب برنامج حكم العدالة- عضو اتحاد الصحفيين السوريين- عضو الرابطة السورية للطب الشرعي.
العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

فما من مجيب إلى أن وجد عملاً في حديقة منزل أحد الأثرياء المغتربين فأفرد له غرفة مهجورة على السطح ينام فيها كجزء من الأجر ولكن لا حمام فيها ولا مرحاض.. يقضي حاجته عند الضرورة في دورات المياه العامة والقريبة.

ذات ليلة التقى راتب فتاة ضائعة مثله في متاهات الحياة وعلى الرغم من حظها المتواضع من الحسن والجمال إلا أن أيدي تجار الرقيق الأبيض تداولتها كما لاحقتها باستمرار دوريات الأمن الجنائي ومباحث الآداب حتى إنها حفظت معظم أسماء عناصر الأمن.

ذات ليلة اصطحب راتب الفتاة (غادة) إلى غرفته النائية خلسة عن أصحاب القصر وباتت في فراشه حتى الصباح، واكتشف كل واحد منهما أنه بحاجة للآخر.

فأخذ يداريها ويلاطفها ورأى أنها هبة نزلت عليه من السماء تعوضه عما فاته من مشاعر وعواطف أسرته التي نسيته وتنكرت له في أشد أيام المحنة قسوة وإيلاماً.

ذات يوم وفي لحظة وجدانية عاطفية كشفت غادة المستور وأطلعته على حقيقة أمرها من أنها بنت لقيطة لا حسب لها ولا نسب وأمها التي ولدتها لا تعرف من هو أبوها.. فقد جاءت من صلب رجل عابر مجهول وأنها لا تزال مكتومة القيد، وأنها راغبة في التسجيل والحصول على جواز سفر يخولها السفر إلى خارج القطر.

نظر راتب إليها.. وهز رأسه عدة هزات خفيفة دلالة على الموافقة وأجابها بكلمة واحدة بسيطة غداً سأجد لك الحل عند المحامي.

الحل كان عند المحامي أن تسجل غادة ابنة شرعية لراتب من عقد زواج عرفي مزعوم وذلك من خلال دعوى متفق على صيغتها مسبقاً.

وقد أقر راتب بما جاء في الاستدعاء المدبجة مسبقاً وكاد يصدر الحكم بتسجيل غادة ابنة شرعية لراتب لولا أن ترامى إلى سمع أولاده من أن إحدى اللقيطات الداعرات ستصبح أختاً لهم بموجب حكم قضائي فتدخلوا بالدعوى كطرف ثالث وأفسدوا مسار الدعوى بدفاع حاسم مفاده أن غادة التي تدعي أن راتب أباها كان بتاريخ ولادتها يمضي فترة العقوبة المحكوم بها في السجن ولا مجال لأي تلاقي زوجي خلال هذه الفترة لا مع أمها ولا مع أية امرأة أخرى.

وقد حاول المحامي أن يجد التخريج والحل من أن السجين كان يخرج إلى داره لساعة أو ساعتين ثم يعود وبمعرفة إدارة

السجن، ولكن إدارة السجن رفضت الموافقة على التلفيق المدان.

موضوع هذه الدعوى أثار لدي الكثير من الشجون والأفكار حول السجون عندنا وفي دول العالم الأخرى ولماذا لا يلتقي السجين مع زوجته.. وإذا كان السجين ينفذ عقوبة صدرت بحقه.. ما ذنب زوجته أن تعيش في الحرمان الذي يؤدي إلى طريق الرذيلة والانحراف.

لنطرح السؤال الكبير.. هل العقوبة تعذيب وانتقام أم أنها تهذيب وإصلاح؟

ثم السؤال الآخر.. هل تنصب العقوبة على حرية الفاعل حصراً أم أنها تمتد بذيولها وتداعياتها على أفراد أسرته وأقربائه.

هناك مسلمات لا جدال فيها أبداً منها أن الجريمة مرض يجب علاجه ثم أن نزيل السجن هو فرد من أفراد المجتمع له من الحقوق ما للآخرين والعقوبة يجب أن تقف عند حدود الحرية لا أكثر.

ومهمة السجون والمؤسسات تأهيل المسجونين علمياً وعملياً لإعادتهم إلى المجتمع أعضاء نافعين.

فهل هذا مايتم حقيقة في السجون عندنا وعلى أرض الواقع؟

قبل أن أجيب على هذه التساؤلات أود أن أطوف سريعاً ولماماً على أنظمة السجون في العالم وهي:

١- مؤسسات عقابية خاصة بجميع مرتكبي الجرائم في مختلف الأعمار.

٢- مؤسسات إصلاحية وهي خاصة

بالنزلاء الممكن إصلاحهم، ولمختلف الجرائم والأعمار، وتوجد من هذه مؤسسات سجون مفتوحة دون أسوار أو حراسة وتأوي النزلاء الموثوق بهم.

٣- سجون خاصة بالأحكام الطويلة.

٤- سجون زراعية وهي سجون قليلة الحراسة وينتخب لها النزلاء الموثوق بهم ويكونون عادةً من الشباب لحاجة العمل إلى سواعدهم الفتية.

٥- سجون الحجز وهي مخصصة للمحبوسين احتياطياً أو المحكوم عليهم بأحكام بسيطة لا تزيد على ثلاثة شهور.

٦- مؤسسات نساء وهي مفتوحة لمرتكبات الجرائم مختلفات السن.

٧- المستشفى الرئيسي لجميع النزلاء من كل الأعمار المصابين بأمراض معدية أو مزمنة أو يحتاجون لعمليات رئيسية، وللعجزة.

وتكاد هذه التقسيمات تتقارب من أنظمة بعض البلاد الأخرى والتي تقسم السجون في بلاد الآخرين إلى:

١- **عقابية**: وهي لمتعددي الجرائم وذوي الأحكام الطويلة وهي شديدة الحراسة محاطة بالأسوار.

٢- **محلية**: وهي لمرتكبي السابقة الأولى والأحكام البسيطة وهي شديدة الحراسة وبأسوار عالية.

٣- **تعليمية**: وهي خاصة بالمسجونين الشبان للتعليم الحرفي والعلمي وهي ذات حراسة وأسوار.

٤- **مفتوحة**: وهي خاصة بالمنتخبين ذوي الأحكام البسيطة والسابقة الأولى ولا تحوطها أسوار.

ونظام الاستقبال في النظامين واحد إذ يبدأ بعزل السجين لمدة ثلاثين يوماً، وعند إحضاره يتسلم منه كاتب خاص أماناته وأوراقه وملابسه ثم يدخله للاستحمام وتعطى له ملابس المؤسسة ثم تؤخذ له أشعة للصدر وصورة فوتوغرافية وبصمات لأصابعه ويجري عليه الكشف الطبي في مدة أربع وعشرين ساعة، وتجرى له التحليلات الطبية للدم وغيره، ثم يقابله بعد ذلك كل من الأخصائي النفسي والاجتماعي والعصبي والواعظ ومندوب من إدارة التعليم لمعرفة كفاءته ثم يقدم كل منهم تقريراً عن نتيجة دراسته وذلك في بحر ثلاثين يوماً من تاريخ دخوله المؤسسة ثم تعرض التقارير على مجلس التصنيف الذي يقرر تسكينه وتصنيعه ويحول النزيل إلى المهجع المخصص له حيث يقيد اسمه وتحفظ له هوية عليها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورته وغرفته عند حارس المهجع، وتنقسم المهاجع إلى أقسام مختلفة:

أ - **شديدة الحراسة**: وهي غرف ذات أبواب بقضبان حديدية غير متقابلة ولا توجد بها نوافذ، وتتعلق عند الغروب بوساطة آلات ميكانيكية، ويقوم بهذا العمل حارس المهجع ومحتويات الغرفة هي: سرير ودولاب وسماعة للراديو وطاولة وكرسي وحوض غسيل (مياه ساخنة وباردة) والتهوية والإضاءة بوساطة نوافذ جانبية بأسقف زجاجية غير قابلة للكسر.

ب - **متوسطة الحراسة**: وهي غرف ذات أبواب خشبية متقابلة وبها نوافذ مرتفعة من الزجاج غير قابل للكسر، وبها المحتويات نفسها السابقة.

ج - **قليلة الحراسة**: وهي غرف ذات أبواب خشبية متقابلة وبها نوافذ غير مرتفعة من زجاج غير قابل للكسر ولاتغلق أبوابها مطلقاً وقد يحتفظ المسجونون بمفاتيح غرفهم معهم وفي المساء يغلق باب المهجع وحده.

د - **مهاجع الامتياز**: وهي إما تكون على شكل غرف أو مهاجع، وهي خاصة بالمسجونين ذوي السلوك الحسن، والغرض منها تشجيع بقية المسجونين على السلوك الحسن وفيها تنعدم الرقابة والحراسة.

هـ - **العزل**: وهي مبانٍ منفصلة مخصصة للعقوبة.

و - **التأديب**: ويخصص لذوي السلوك الرديء والمشاغبين.

ز - **منازل خاصة للأحداث والنساء**: وهي فيلات مكونة من ثلاثة طوابق تشرف عليها عائلة.

وفي كل مؤسسة مدارس للنزلاء تقدم التعليم العلمي والحرفي كالكهرباء واللاسلكي والنجارة والصيانة، كما تولى عناية فائقة للترفيه عن المسجونين بالرياضة البدنية والسينما والموسيقى وتشجيع الهوايات، وفي كل مؤسسة كنائس لإقامة الشعائر الدينية يتولى الوعظ فيها وعاظ معينون من مجلس إدارات الكنائس.

والزيارة للمؤسسة مرة كل أسبوعين لمدة نصف ساعة وتزداد لساعة إذا قدم الزائر من مكان بعيد، ولا يزيد عدد الزوّار عن ثلاثة، أما البريد فيصرح لكل نزيل بكتابة ثلاثة خطابات وتلقي أربعة أسبوعياً، ويوجد بكل مؤسسة مقصف خاص بها يعرض فيه ما يلزم للنزلاء بأسعار متهاودة بوساطة كوبونات بقيم نقدية وقد زوّدت الآن بهواتف ذات توقيت محدد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويوجد بكل مؤسسة مستشفى خاص بها يعالج المرضى ويجري التحاليل ويصرف الأدوية.

السجون الحديثة في سورية:

لن نستطيع بكلمات قليلة أن نستوفي المقارنة بين الظلام والنور فيما نال السجون السورية من إصلاح خلال الخمسين سنة الأخيرة، ولكني أقدم لمحة خاطفة وأضواء أضع بها النقط على الحروف لتكون بداية أمام من يحاولون البحث ويخدمون حقائق التاريخ شرحاً وتفصيلاً.

شهدت الفترة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مسؤولية تاريخية تورط فيه المستعمرون وأذنابهم من الحاكمين فخلقوا من السجون السورية مقابر للأحياء يخرج منها المسجون مهزوز الكرامة مشبعاً بروح الحقد والكراهية القاتلة ليجد حاضراً مظلماً وأسرة مشردة جائعة تحف به صرخات المواطنين (هذا مجرم فاحذروه).

قد حطمت الصخور قلبه وأذل المعول كيانه وعاقه عن طريق التوبة وسخرته قوة عاتية لا تبالي بأمره: في صحة ولا موهبة، فورشها تدور بدمه ورهبتها تسيطر على إحساسه والسياط خلف ظهره تستحثه على إنهاء مقطوعيته، غذاؤه جوع في طعام، والملابس المخططة والخيش كسوة الشتاء والصيف.

وقد كان هذا العذاب مسلطاً أيضاً على ضعاف النساء والأبرياء من الأطفال المودعين في إصلاحياتهم.

وخطت يد الاستعمار سطوة هذه المأساة وأعانه عليها قوم آخرون تعاونوا على تنمية الجريمة ليكتبوا صفحات مظلمة في تاريخ سورية لا يريدون البناء قدر ما يعنيهم الهدم المروع، ترى من المسؤول؟

أهم المستعمرون الذين كان من بينهم المدير والمفتش والمأمور ورؤساء الإدارات ورؤساء النيابة ووزراء العدل.

أم هو قصر رأس الحكمة وضحايا أوردة المعمورة الذين كانوا عبيداً مسخرين محرومين من كل خير مأخوذ عليهم منافذ الهواء ومسالك الضياء..؟

لقد جاءت ظروف لاحقة فمدت يدها الوطنية البارزة إلى هؤلاء المرضى لتمسح عن كواهلهم وصمة هذا التعذيب وتفسح لهم سبيل الإصلاح وتبعث الأمل إلى النفوس المنحرفة اليائسة لتتبه ضمائرها وتقوم سلوكها وتسمو بغرائزها ومشاعرها وتهديها إلى صراط الحق والخير.

في ظل هذا التوجيه الوطني الحكيم قامت الجهات المختصة (باستثناء المعتقلات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السياسيـة) بإعادة النظـر في أمر السجين بتدريبه على المهن الفردية المربحة ونظمت وسائل الرعاية لأسرتـه وعملت على تأمين مستقبلـه وحطمـت عنه القيـد الحديدي ليكـون له مـن ضميره قيود ومـن أخلاقه حـدود، وحسنـت أنـواع الغـذاء وتركت للسجـين حرية في أمر التدخـين، وأنشئت المقاصف وأقيمت الملاعب الرياضية وبنيت قاعات ومسارح لعرض التمثيليات والأفلام الصحية والأدبية والثقافية وسمح بالاستماع إلى الإذاعـة ولاسيمـا البرامـج التوجيهية والفنية.

ثم أضيئت غرف السجون لتكون الإضاءة أمـام أنظارهم بشيراً بنـور الأمل ينفذ إلى قلوبهم.

وبدئ في تعميم نظام نومهم على الأسرة لحمايتهم صحياً مـن الأضرار التي يسببها افتراش الحصر المنسوجة من الليف وعدل عن نظام التعليم السابق وإن كانت ثمرته قد تحققت في عدة تجارب.

وأنشئت لمكتبات التي تضم ألوف الكتب في مختلف العلوم والفنـون. هذا إلى جانب حلقات الإرشاد والنـدوات الدورية وإقامة الشعائـر والاحتفال بجميع المناسبات دينية ووطنية وإنشاء مجلات الحائط الأسبوعية.

ولم يقـف الأمـر عند إصـلاح الأنظمة بـل إن هذا الإصلاح في طريقـه إلى إنشاء السجون الحديثة مـزودة بالإمكانيات التي تحقق الهدف المنشود.

كل ذلـك وكثير غيره قامـت به الجهات المختصـة ليصل نور العدالـة والإيمان إلى قلب المسجون وضميره، إنتاجاً وبناء وتحرياً، ثقة وتشجيعاً وأملاً كبيراً.

وفي رحاب الإنسانية العارفة وفي ميدان الضمير الاجتماعي وعلى أطلال الاستعمار ومن دروس الماضي وإشراقه الحاضر وأمل المستقبـل نوالي جهد العاملـين لإعادة بناء المواطن السجين. ولنحقق المثل القائل:

«السجن تهذيـب وإصلاح وليس عقوبة وانتقام».

عصور ما قبل التاريخ وأبرز مراكزها في محافظة حلب ونشوء الممالك والمدن

د. محمود حريتاني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصور ما قبل التاريخ

تكمن أهمية دراسة عصور ما قبل التاريخ، في التعرف على الإنسان الذي كافح وانتصر ضد عالم الطبيعة والحيوان في شروط بالغة الصعوبة. وإن كل الإنجازات الحضارية الكبيرة، كالنار والبناء والزراعة والتدجين والفن والدين واللغة والتنظيم الاجتماعي وغيرها: كل ذلك يعود إلى هذا الإنسان (الجد الأول). وقد كانت لمنطقتنا العربية عموماً ولسورية خصوصاً مكانة

* أستاذ محاضر -آثاري.

متميـزة؛ ألقـت وتلقي أضـواء هامة على عصور ما قبل التاريخ في العالم كله[1].

قُسمت عصور ما قبل التاريخ إلى: العصر الحجري ثم البرونزي ثم العصر الحديدي. كما قُسم العصر الحجري إلى: (الباليوليت) أو عصـر الحجر المطروق، يليه (النيوليت) أو عصـر الحجر المصقول. ثم قادت أعمال البحـث في نهاية القرن التاسـع عشر إلى، ٣٠٠٠٠ تقـالي بين العصريـن، أُطلق عليه (الميزوليـت). وقد اتفق علمـاء الآثار على تأريخ هذه الفـترات بين ٢،٣٠٠٠٠٠ سنة و ٣٥٠٠ سنة قبل ميلاد السيد المسيح.

في نهاية الألف التاسع قبل الميلاد، ومنذ العصر الميزوليتي، طرأت تحولات اقتصادية واجتماعيـة، في بلاد الشام، وبلغت درجة عالية من التقدم، ووُضعـت الأُسس المادية والفكريـة المباشـرة للانعطـاف الجذري والأهـم في تاريخ البشرية؛ تَمَثَلَ في الانتقال من الصيـد والتقاط الثمـار؛ إلى الزراعة والتدجـين؛ أي تحول الإنسان من (مستهلك سلبـي) لخيرات الطبيعة الحـرة، إلى منتج إيجابـي؛ وبذلـك تحـول مـن الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي[2].

وفي منتصـف الألف التاسع ق.م وجدت في الطبقـة الأُولى من موقع تـل المريبط[3] على الفرات آثار قرية عاش سكانها في بيوت دائرية صغيرة لا يتجاوز قطرها متراً واحداً، مما أثار (الشكـوك حول كونها مستودعات حبوب وليسـت بيوتاً للسكن)[4] وفي الطبقة التـي تليها، لا تلبث هـذه البيوت أن تصبح أكبر ويصل قطرها حتى /٦/أمتار، وتُغرس في الأرضـ بعمق /٥٠/سـم مما يدل على أنها سكنت بلا شك.

أما الزراعة، فمن المتفق عليه بين أكثرية الباحثـين، أنها قد نشأت في بـلاد الشام: وفي سورية وفلسطين علـى وجه التحديد. وقد اعتبرت الزراعة، بعد النار، أهم خطوة حضاريـة حققهـا البشـر إذ إن الأوضـاع المناخيـة وتوافر الماء والنبـات كانت سائدة قبل القرن العاشر قبل الميلاد ويعد الشريط الممتد من سفوح جبال طوروس، مروراً بحوض نهر قويـق ونهر عفرين، وسهـول حلب ثم حماه وحمصـ، وإلى الجنوب؛ أبرز المناطق الزراعيـة. وقد مارس فيهـا الإنسان تربية الحيوانات بعـد أن تمَّ تدجينها منذ ٨٠٠٠ ق.م حـين دُجن الماعز. ثـم منذ ٧٢٥٠ ق.م دُجن البقر. أما الغنم فقد دجن بين ٦٥٠٠، ٨٠٠٠ق.م وآخر الحيوانات التي دجنت، كان الجمل نحو ١٥٠٠ ق.م[5]

أبرز مراكزها:

تتعـدد مراكز عصور ما قبـل التاريخ، وتنتشـر في أنحاء المشرق العربـي، وبشكل

خاص في بلاد الشام كما مرَّ معنا. وفي محافظة حلب؛ دلت نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية، بدءاً من السبعينيات من القرن الماضي، على استيطان واضح في المحافظة، منذ عصور ما قبل التاريخ، تؤكد ذلك الأدوات الحجرية المكتشفة، في المواقع التالية: حوض نهر قويق والمطخ. حوض وادي الساجور، حوض نهر الفرات الأوسط، منخفض حوض الجبول، منطقة عفرين وأهم مكتشفاتها مغارة الديدرية.

أما في حلب، فلا توجد لدينا أية معلومات عن أية فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ؛ خاصة وأن المدينة الحديثة تتوضع فوق المدينة القديمة.

حوض نهر قويق ومنخفض المطخ:

عاش هنا الإنسان القديم قبل حوالي ٤٠٠ ألف سنة، وترك أدواته الحجرية في تل شعير وبحوزته. ثم عاش فيها إنسان النياندرتال منذ حوالي ٢٠٠ ألف سنة وهو متطور عن الإنسان السابق بقدراته الحضارية والفيزيولوجية. وأخيراً عاش فيها منذ حوالي ٤٠ ألف سنة السلف المباشر للإنسان الحالي.

في حوالي الألف العاشر قبل الميلاد؛ جرى تحول جذري في المنطقة، فقد ترك أناس المنطقة، حياة التنقل والصيد، إلى البناء واستقرار وتدجين الحيوانات وزراعة الحبوب، وهذا ما يسميه الباحثون (الثورة النيوليتية أو ثورة العصر الحجري الحديث)؛ ظهرت آثار هذه الفترة في تل قرامل في حوض قويق.

وإلى الشمال منه؛ وقد التُقطت منه حوالي ٥٠٠ أداة حجرية. والأمل أن ينقب هذا التل ليعطي المزيد من الحقائق التاريخية والمكانة الحضارية.(٦)

في منتصف الألف السادس قبل الميلاد، وحتى ما بعد بدء العصور التاريخية، استمر الاستيطان وخاصة في العديد من المواقع في الحوض المذكور؛ مثل كدريش وما لد واخترين وبحورته.

حوض الساجور: الرافد الأعلى لنهر الفرات.

إن أوَّل مسح لموقع الحوض، وفي خمسين موقعاً منه جرى في عام ١٩٧٩؛ تبين لدى دراسة الأدوات الحجرية، إن إقامة الإنسان فيه كانت مبكرة، خاصة في موقع شيوخ تحتاني وفوقاني، وحلونجي وعرب حسان ودادات وحمام كبير وصابونجي. أما موقع ملا أسعد في منطقة وادي منبج وتل قره ديره؛ فقد سكنها الإنسان في عصر النيوليت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي العصر الحجري النحاسي ٥٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق.م، ظهرت أدوات الإنسان الحجرية في تلال عرب عزة وقره ديره وتل العبر وغيرها.[٧] ومهما يكن فإن منطقة منبج عموماً وحوض الساجور خصوصاً، كانت زاخرة بالحياة.[٨]

منطقة الجبول:

عرفت هذه المنطقة استيطاناً، على امتداد عصور ما قبل التاريخ. بعضه بسيط؛ ولكنه يبرز بشكل واضح في منطقة خناصر، أي في عين الزرقا والمكمن، والمتوضعة بجوار ينابيع المياه القديمة. وقد هجرت المنطقة، ثم عاد الاستيطان فيها حوالي الألف الثامن قبل الميلاد وخاصة في موقع بير الحمام.

منطقة سد تشرين:

ضمن إطار مشروع الحملة العالمية لإنقاذ المواقع الأثرية التي سيغمرها سد تشرين؛ كشف التنقيب في موقع جعدة المغارة، عن تدجين للحيوان، وزراعة الحبوب. أما الطبقات الأثرية الهامة فتعود إلى ٩٠٠٠ عام. وقد كشفت التنقيبات عن وجود البيوت الصغيرة المستطيلة وأرضيتها الترابية المبنية بحجارة المنطقة.

إن أهم ما يميز مكتشفات الموقع هو البرهان عن العلاقات والمبادلات بين سكان هذه المنطقة والمقاطعات الشمالية لطوروس والأناضول، مع حلب؛ من خلال استيراد المواد الأولية (الأوبسيديان حجر بازلتي لامع) والذي جاؤوا به تحديداً من جوار بحيرة فان، ومن كابادوسيا.[٩] ورغم ذلك فإن استعمال الأوبسيديان بقي هامشياً بالنسبة للصوان واستعماله، وبقي الأبسيديان محدوداً بالنصال والنصيلات الضيقة التي لم تكن مشذبة بشكل دقيق.

حوض الفرات:

في حوض الفرات الأوسط، نشأت وانتشرت، أولى المجتمعات الزراعية الرعوية في بدايات العصر الحجري الحديث حوالي ٩٨٠٠ سنة. وجعلت منه مركزاً هاماً لانتشار المدنية في الشرق الأدنى، وحوض المتوسط الشرقي، وبالتالي في العالم القديم كله.[١٠]

ظهرت القرى في المنطقة بين ١٢٠٠٠ و١٠٠٠٠ ق.م، والتي أسسها الصيادون جامعو الثمار، في موقعي أبي هريرة والمريبط. وكانوا يخزنون الحبوب البرية التي تنضج في أواخر الربيع؛ كما كانوا يصطادون السمك بشكل مستمر.

إن الاقتصاد الزراعي الأول، لم يكن محدوداً بشواطئ الفرات الأوسط. ففي جوار حلب المباشر، في تل القرامل نجد آثاراً لتطوير المريبط، وحتى في منطقتي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إعزاز والسفيرة في منخفض الجبول، حيث توجد شروط بيئية ملائمة، وهي مناطق، تكاد تكون معروفة بالكاد، من قبل علماء ما قبل التاريخ. ومن الضروري أن تجري فيها تنقيبات معمقة.(١١)

في حوالي ٧٠٠٠ ق.م انتشرت البداوة الرعوية على طول ضفاف الفرات، ثم في الواحات السورية قرب تدمر واستمرت إلى منطقة الساحل وتل الرماد قرب دمشق. وفي هذه الفترة، بدأت منطقة حلب دورها التاريخي كملتقى طرق للتبادلات والتحركات البشرية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. هذا الانتقال كان له مظهران:

اقتصادي وهو إنتاج القوت، ورمزي حيث ظهرت فيه الإلهة الأم وعبادة الثور. ويبدو أن هذين المظهرين نشأا في وادي الفرات الأوسط ومنطقة حلب.(١٢)

إن أهم مراكز عصور ما قبل التاريخ في حوض الفرات؛ بالإضافة إلى تل المريبط والشيخ حسن المجاور، موقع حالولة الواقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات قرب مدينة جرابلس الحالية؛ وتدل الأعمال التي تمت حتى الآن على وجود إقامة مستمرة

بين ٨٧٠٠، ٧٤٠٠ ق.م، وتقدر القرية التي بنيت على مساحة تقدر بين ٦،٧ هكتار؛ ومخطط منازلها مستطيل الشكل مع حجرتين أو ثلاث، جدرانها من الآجر الخام أو اللبن وفي بعض الأحيان بنيت بالأحجار؛ كما طليت الأرضيات وواجهات المنزل الداخلية بالجص. وقد بني في الغرفة الكبيرة فرن بتقنية متحضرة، وبالإضافة إلى هذه الأبنية، توجد مساحات خارجية بُلطت أرضيتها بالتراب المدكوك وفيها طبقات من الفضلات وبعض الإنشاءات كمواقد في حوض.. وهذا يدل على استعمال هذه المساحات للنشاطات المنزلية كتقطيع الأحجار ونحتها وتجهيز الطعام، كما وجدت عدة قطع من الحصير المتفحم.(١٣) ولقد قدمت إحدى الأبنية عناصر رمزية، إذ تمَّ العثور فيها على خمس مقابر، ومستودع لجماجم الثيران، في قاعدة كل طبقة معادة البناء. كما تتميز هذه الأبنية بكون أحد جدرانها الخارجية دائري، على شكل محراب.(١٤)

لقد كان الصيد، النشاط الأساسي لتأمين الغذاء اللحمي: الثيران، الغزلان، الخنازير، الخيليات، الايليات، إضافة إلى السلاحف والعصافير؛ وإن الكلب أحد الحيوانات التي يمكن اعتبارها أليفة؛ إلا أنه لا توجد آثار لاستهلاكه. أما الضأنيات، فقد كانت في السويات السفلى متوحشة، وفي السويات العليا مدجنة(١٥).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما القمح، فقد وجدت بعض أنواعه بشكلها المدجن. ولكن عثر أيضاً على أنواع برية. وقد استهلكت البقوليات مثل العدس والبازلاء، واستمرت أشجار الزيتون والخوخ، وأنواع مختلفة من النباتات كالفستق.

في القرية، عرف الدفن الثانوي للجماجم في مدافن فردية، داخل المنزل في حفر لها غطاء، كما وجدت مدافن ثانوية لأشخاص.

إن مواقع كثيرة مجاورة، تعود إلى المرحلة نفسها: موقع ملا اسعد، والحمام الصغير والحمام الكبير، وموقع جعدة المغارة، وقوزاق شمالي.

موقع جرف الأحمر:

كشف فيه عن بقايا قرية، بنيت في النصف الثاني من الألف العاشر قبل الميلاد؛ حيث البدايات التدريجية للممارسات الزراعية، وخاصة الشعير البري، والإنتاج الغذائي كنمط اقتصادي جديد، وهو الأول في هذه البقعة من العالم في (ثورة العصر الحجري الحديث).(١٦)

كما اكتشفت فيه مجموعة من الرقيمات والحجارة ذات الحزوز المحفورة بإشارات وزخارف مركبة؛ وسيسهم هذا الاكتشاف بإلقاء ضوء جديد على الطابع المميز لموقع جرف الأحمر على ضفاف الفرات الأوسط، والذي سينتهي به المطاف قريباً . لسوء الحظ . على الزوال

تحت مياه سد تشرين.

إن التشكيلات التي اكتشفت في موقع (جرف الأحمر) قد تقود إلى الظن بأنها التعبير المباشر عن أفكار أو رسائل معدة للإرسال. ومن المؤكد أنها معالم ثقافية في تاريخ نشر ثقافة الفرات الأوسط من حيث نموذج زخرفتها.(١٧)

حوض عفرين:

في هذا الحوض يبرز تل عال (عين دارا)، وقد اهتم به المنقبون لارتفاعه عن الأرض الطبيعية وامتداد مساحته، ووجود بعض الأوابد الأثرية فوق قمته. ولدى الكشف عنه تبين أنه يتألف من موقعين معاً المدينة العليا والمدينة المنخفضة.

أما المدينة العليا فترقى، بعد أن أجريت الأسبار فيها؛ إلى فترات تاريخية حديثة؛ في حين أن المدينة المنخفضة تعود إلى فترات تاريخية أقدم. وقد أجرى الدكتور أنطوان سليمان -معاون مدير التنقيب- أسباراً أبرزت عصور ما قبل التاريخ، وخاصة في التل الصغير رقم ٣، تعود إلى الألف الثامن والسابع قبل الميلاد.(١٨)

أما المواقع الأخرى ذات الأهمية الكبرى في الحوض، فتوجد في مغاور عدة، تقع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في وديـان الجبـال المحيطـة بالحوض من الجهة الشرقية لنهـر عفرين، حيث تتوضع الملاجئ والمغـاور الأثرية التي أعطت دلائل استيطان منـذ عصور ما قبل التاريخ؛ فقد سكن إنسان (نياندرتال) فيها وقبل الحديث عن هذا الاستيطان وآثاره، لا بد من إعطاء فكرة موجزة عن هذا الإنسان ومن سبقه:

لقد خَلَـقَ الإنسان القـديم، باختراعه السـلاح أو الأداة الأولى التـي قاتـل فيها؛ اهتماماً اجتماعيـاً واقتصادياً هاماً. وكان لهـذه الأداة، والعمـل الذي نفـذه بها؛ أي للنشـاط الإنسـاني الهـادف إلى استغلال الطبيعـة؛ الدور الأكبر في عملية (الأنسنة). وإن الانتقـال إلى العالم الإنساني الذي تميز بالعمـل الجماعي، في الصيـد واللقط من خـيرات البيئـة المحيطة بـه.[19] قد اكتمل ضمن إطار جماعة بشرية تكاتفت جهودها وتضامنت.

وجدت أول وأقدم آثار إنسان في جنوب أفريقيا، وهي جمجمـة طفل يقارب عمره الست سنوات. ومنذ حوالي ستة ملايين سنة، وجدت آثار أخرى لإنسان آخر. وقبل ثلاثة ملايين سنة، وجدت آثار أخرى لإنسان عاش في تانزانيا واثيوبيـا وجنوب أفريقيا؛ صنع الأدوات الحجرية الأولى.

وفي طبقة جيولوجية تؤرخ بحوالي مليوني سنة ونيف، ظهر ما اتفق العلماء على تسميته بالإنسان الصانع، وذلك في حوض نهر أومو في أثيوبيـا، وفي كينيا صَنَـعَ أدوات حجرية بدائية عكست تفكيراً منظماً.

ومنذ حـوالي مليون سنـة ونيف، ظهر إنسـان أكـثر تطوراً، عثر علـى عظامه في جزيرة جاوا في عام ١٨٩٤.

منذ ٧٠٠ ألف سنة، وجدت آثار الإنسان في حوض نهر الأردن، ووجد مثلها في أوروبة وآسيا. وقـد عاش هذا الإنسان في الملاجئ والمغاور؛ كما بنى الأكـواخ أحياناً ليستطيع الإقامة، بغض النظـر عن طبيعة الطقس؛ كمـا عرف النار التي حققت له فوائد كبيرة في التدفئـة والإنارة والطبـخ والدفاع عن النفس. وقد صنع أسلحـة وأدوات حجرية استخدمهـا في قتل الحيوانات وحفر التربة وقطـع الأشجار. كما صنـع أدوات عظمية وخشبيـة. وأقـام حيـاة اجتماعية منظمة وشكل الأسرة الأولى وعرف تقسيم العمل.... وربمـا كانت لغة شكلت الرباط النفسي بين مختلف أفراده وجماعاته.

في حـوالي ١٠٠٠٠٠ سنة قبـل الميلاد، ظهـر نوع آخر من البشر، أكثر تطوراً، سواء في شكلـه الفيزيولوجـي أو في إنجازاتـه. وقـد عثر على هياكل هـذا النوع لأول مرة في وادي النياندر في منطقة دوسلدورف في

ألمانية في عام ١٨٥٦م.[٢٠] وقد سمي (إنسان نياندرتال).

انتشر هــذا الإنســان في مناطق كثيرة، وأتقــن صناعة الجلــود الدافئــة، واستغل المغائــر والملاجئ الطبيعيــة لسكنه، وطور الاستفادة مــن النار، بعد أن تحرر من النار الطبيعية.

كان صياداً ماهراً، ابتكر أسلحة حجرية جديــدة، وركــب لهــا قبضــات خشبية أو عظميــة: وهــو أول من مارس المعتقدات الروحية والشعائــر الدينية، كما دفن موتاه بعناية وزودهم بكل ما يحتاجونه.

نعــود إلى الحديث عن حوض عفرين: فقد تم فيه تحديــد حوالي ٥٦ موقعاً أثرياً تعود إلى عصور ما قبــل التاريخ؛ بينها ١٦ موقعــاً رئيسياً، احتوت علــى آثار واضحة لاستيطــان إنسان ما قبل التاريخ.[٢١] أهمها مغارة الديدرية /١/ والديدرية /٢/، ووادي قرطل ووادي الحمام ودير صوان. وقد تبين إثــر هذا المسح أن مغارة الديدرية /٢/ هي الأكثر أهمية.[٢٢]

اكتشــف في المغــارة خمســ سويــات جيولوجية، ضمت اثنتي عشرة طبقة، أعطت أدوات حجريــة: نصال وحــراب ومقاحف وكواشــط وأزاميــل وأدوات مسننــة. كما اكتشف حوالي سبعين قطعة عظمية تعود إلى هيــاكل مختلفة كلها من نوع نياندرتال. لكن أهم كشف أنتروبولوجي حصل في السنوات الأخيرة ســواء في سوريــة أو في العالم؛ كان الهيكل العظمي لطفل نياندرتال.

لقــد دفن هذا الطفل في حفرة مستلقياً على ظهره، يداه ممدودتان وقدماه مثنيتان وتحــت رأسه بلاطة حجريــة، وعلى صدره فوق القلــب أداة حجرية. كل ذلك يشير إلى عملية دفــن مقصود ومنظــم يمثل إحدى أقدم عمليات دفن الموتى في التاريخ.

كما يدل على معتقدات وشعائر آمن بها ومارسها إنســان النياندرتال. وقد تبين بأن عمر الطفل كان حوالي السنتين، وقدر طوله بحوالي ٨٣سم.[٢٣]

إن مكتشفات مغارة الديدرية /٢/ سوف تساهــم بدرجة كبيرة في تاريخ هذا الإنسان ومن المعروف أن نظريات الإنسان. تحدثت عن تطور إنسان النياندرتال وصلته بـ(الإنسان العاقل). وإذا قبلنا بموضوع انقراضه؛ فليس لدينــا دليل قاطع عن السبب؛ هل هو تغيير مناخي مدمر أطاح بهذا الإنسان.[٢٤] أم وباء شامل أم مذابــح جماعية مسحته عن وجه الأرض. ومهمــا يكن من أمر، فان الحقيقة الحاليــة التي يجب القبول بهــا؛ هي أن إنســان النياندرتــال الفلسطيني، هو الذي انتقل فيزيولوجيّــاً وحضاريّاً نحو (الإنسان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العاقل) الجد المباشر للإنسان الحالي[٢٥]. لكن المؤسف أن هناك من يرفض هذه الحقيقة ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم، مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة[٢٦].

نشوء المدن والممالك في عصور ما قبل التاريخ

لقد درست هذه الأبحاث في بلاد ما بين النهرين، وجنوب المشرق ومصر، ولكن التنقيبات البريطانية عن الآثار.[٢٧] في موقع جرابلس تحتاني في محافظة حلب، أظهرت تحولاً قائماً على التجارة، وقد حصل هذا بدليل:

١- وجود أنظمة تحصين متميزة.

٢- أدلة على تماثيل منحوته بالأحجام الواقعية.

٣- قاعدة اقتصادية قوية.

٤- أجهزة إدارية.

٥- احتمال وجود دليل على تنقية و تعدين الذهب.

وقد تبين أن أوائل المستوطنين في جرابلس تحتاني، قد استخدموا فخار أوروك، من دون استخدام أي نوع آخر.

ومعنى ذلك أن حفريات ١٩٩٢ - ١٩٩٥ زودتنا بوجود تفاعل ما بين توسع مدينة أوروك فيما بين النهرين وسكان موقع جرابلس تحتاني.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- عصور ما قبل التاريخ. د سلطان محيسن منشورات جامعة دمشق ١٩٩٧ ص١٩.

٢- المصدر نفسه ص٢١٨.

٣- أحد المواقع الأثرية التي تمّ التنقيب فيها من قبل بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ جاك كوفان .

٤- د سلطان محيسن المصدر السابق، ص٢٠٧.

٥- د.عادل عبد السلام. الوسط الجغرافي الطبيعي ندوة تاريخ سورية منشورات جامعة حلب ١٩٩٦م ص١.

٦- د سلطان محيسن. الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد ٤٣ لعام ١٩٩٩م ص٥٤.

٧- المصدر السابق، ص٦١.

٨- يسرى الكجك الحوليات الأثرية.. المجلد ٤٣ لعام ١٩٩٩م ص٧٥.

٩- إيريك كوكينو تعريب بسام جاموس الحوليات الأثرية لعام ١٩٩٩، المجلد ٤٣، ص٢٥٤.

١٠- جاك كوفان الحوليات الأثرية العربية السورية لعام ١٩٩٩، المجلد ٤٣، ص٢٤١.

١١- المصدر السابق، ص٢٤٣.

١٢- المصدر السابق، ص٢٤٤.

١٣- ميغل موليست الحوليات الأثرية السورية المجلد ٤٣ لعام ١٩٩٩م ص٢٥٥.

١٤- المصدر السابق، ص٢٥٥.

١٥- المصدر السابق، ص٥٦.

١٦- دانييل ستوردر وبسام جاموس مجلة العلوم الجديدة آذار ١٩٩٧م ص٩٠.

١٧- نفس المصدر السابق، ص٩١.

١٨- من تقرير للدكتور أنطوان سليمان لم ينشر بعد.

١٩- د سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ منشورات جامعة دمشق ١٩٩٧م ص٤٩.

٢٠- المصدر السابق، ص٥٦.

٢١- المصدر السابق، ص٦٥.

٢٢- المصدر السابق، ص٦٥.

٢٣- عرض الهيكل العظمي في خزانة خاصة في قسم ما قبل التاريخ في متحف حلب الوطني.

٢٤- د سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، المنشورات الجامعية ١٩٩٧م ص٦١.

٢٥- المصدر السابق، ص٦١.

٢٦- المصدر السابق، ص٦١.

٢٧- ادجـار بلتبرغ (جامعة دنبرة) نشرة التعاون السوري. البريطاني منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف ص١١ لعام ١٩٩٧م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحلة سليمان العيسى يشكلها الواقع ويشغلها الحلم

د. إسماعيل مروة ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سليمـــان العيسى أنشودتنا التي حفظناها صغـــاراً، الاسم اللازمة الذي صـــار جزءاً من القصيدة، كنا نحفظ اسمه كمـــا نحفظ قصائده، فتارة هو مثيـــل منصور النجار العم الذي وعد بصنع بيـــت جميل للعبة، وتارة أخرى نهدهد معه مها وهو يغني لها حبيبتي مها..

وأجمـــل أناشيد ســـت الحبايب التي حوّلت أمنـــا إلى أغنية عذبة رقيقة صاغـــه سليمـــان العيسى ماما ماما يا أنغامـــا.. وفي قفزة نوعية تحول الأخ

✿ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

والأم والأب وكل مكونات الحياة الطفلية عند سليمان العيسى إلى مكونات جميلة تعي وتفكر وتعيش... ودون سابق إنذار كبرنا... كبرنا وكبر معنا سليمان العيسى فأبكانا وزرع فينا الثورة مع الجزائر، وحمل جراح الشهيد وكبرياءه على حدود تشرين.

ناداهم البرق فاجتازوه وانهمروا
عند الشهيد تلاقى الله والبشر
ناداهم البرق فاختاروه أغنية
خضراء ما مسّها عود ولا وتر

يممنا وجهنا شطر المغرب العربي وفي قلب الصحراء العربية الليبية يلتقي العيسى بالشيخ الأستاذ عمر المختار، معلم مع معلم، وثائر مع ثائر، ومفجوع بوطنه مع مفجوع بوطنه، يجلس مع المختار ليرسم معه معالم الغد المشرق:

دمك الطريق وما يزال بعيداً
علّق برمحك فجرنا الموعودا
دمك الطريق ولو وقفنا مرة
في ظله كنا الأباة الصيدا
يا جبل يا من كاد يخلع جلده
كفراً بما نشر الصباح وعودا
اضرب بحافر مهرك النّير الذي
ما زال في أطواقنا مشدودا

العيسى والحلم

من المغرب إلى الخليج وعدن عاش العيسى، وهو صاحب النشيد الحلم (من المحيط الثائر إلى الخليج الهادر...)

عاش سليمان العيسى الحلم وأخلص له حياته، ها هو يتجاوز عتبة العقد التاسع، والوهن يأخذ حرارة قبضته، وصوته الجهوري، لكنه يعجز عن الوصول إلى روحه التائقة إلى الغد... ابتسامة سليمان العيسى ترافق كيانه ولا يتخلى عنها، وها هو يؤكد أن الفكر لا ينتهي، وأن الخلاص يكون غداً، عندما قبلت رأسه وسألته عن الغد قال بثبات: الغد لنا للإنسان يا صديقي... حاولت أن أستوضح فذكرني وهو المتعب بما قاله لي قبل سنوات ونشرته: أنا تحولت إلى الحلم وغيري دخل عالم الحكم، والغد هو غد الحالمين الذين آثروا الابتعاد والبقاء في عالم حالم بالحياة الكريمة... أقنعني أبو معن بالغد، دفع في نفسي التفاؤل في زمن يصعب فيه أن ينسرب التفاؤل إلى النفس... بابتسامته وإيمانه وقوميته استطاع سليمان العيسى أن يهزم الواقع وأن يتجذر في عالم الحلم في صحراء عربية خالصة لا تعرف

سوى الحلم النبيل في سفر طويل وجميل...

مدّ أبو معن يده وقدم لي كتابه الجديد «السفر الجميل» البياض يغطي رأسه والابتسامة ترنو إلى المستقبل، والعباءة العربية الأصيلة تغمر كتفيه... حملت سفره ورحت أرشف خمرته من سلافته وحتى الثمالة، لأدرك معنى أن يدرك أحدنا العيش مع القامات الكبيرة... سليمان العيسى وحده الذي يختصر أعمارنا بين شعر الطفولة وشعر الثورة ليبقى الطفل وحده بكل ما يحمل من عنفوان وحب للحياة.

أتمنى أن يشاطرني الجميع ذلك الإحساس عندما يأتيني هاتف ليخبرني بصدور كتاب جديد لجدي وأستاذي وصديقي سليمان العيسى وأسأل:

هل يعرف الشباب قيمة هذه الهمة؟

هل يدرك شبابنا أن كتب العيسى توزع على مدار العام؟

هل يستطيع شبابنا أن يكونوا بهذا القدر من العزم والإيمان والإنجاز؟

هل حظي أدباؤنا بملاك ملحاح ودؤوب مثل ملكة أبيض تحرص على كل كلمة لشاعرها سليمان العيسى؟

بكت ملكة منذ مدة وقالت لي: لا أعرف حياتي دون سليمان..!

عنـد سليمـان وملكة عرفـت معنى أن الحياة تبدأ غداً، ولـو تحدثت عن سليمان مهما تحدثت فإنني لن أفيه حقه، وأودّ لو أن الكاميرا تقـدر على متابعة يوميات سليمان وملكة لتعرض على الأجيال الجديدة لعلهم يتعلمون كيف يكون العمل والدأب حتى آخر لحظة من الحياة دون أي توقف...

السفر عندما يكون جميلاً

حين اختمر العنـب، وصار الكرم أحلى وأكثر نضجـاً كان النتاج ثمالات ولا أشهى، وهـذه الثمـالات التـي كانت صـادرة عن شاعريـة حكيمة ثائـرة، طفليـة ناضجة، منتمية متمـردة شاءت لها الأقدار أن تكون خـارج أرض الشاعر وتربتـه التي أعطاها كل حياته، وليس مـن عبث أن يكون تكوين الشاعر القومي الممتلئ قومية في بغداد، وأن تكـون ثمالاته في أرض عـدن، انطلق إليها حامـلاً راية سيف الدولة والأمويين ليجوب العـالم العربي بحثاً عن ألق الفكر غير عابئ بالمكان، والذي يعنيه فقـط أن يكون الغناء للعروبة... لم أسمع من سليمان العيسى يوماً كلمة ارتحلت أو اغتربت أو أي لفظ مماثل، وإنما كان يقول عشت في بغداد أو اليمن أو الجزائـر، وحين يتحدث عـن أي مكون من مكونـات المجتمعات العربيـة يتحدث عنها علـى أنها مـن مكوناته هو، مـن هنا يأتي معنـى السفر الجميل العنـوان الذي اختير لمجموعة أشعار منتقاة تصدر عن دار جداول في بـيروت، لتضـم في جداولها عام٢٠١١م ثمالات وأشعـاراً غابت عن العين، أو لم تقع عليها العين للشاعر الذي يعيش ذاته في كل الأمكنة والفصول:

ماذا أتى بي هذه الشواطئ
البيضاء والزرقاء والخضراء؟
يذهلني جمالها القريب
مني أنا الغريب
هل أنا حقاً ها هنا غريب؟
النسمة الدافئة الخضراء في دمشق، في عدن
تمر بي
تلمس وجهي حلوة دافئة
هذي الدنى وطن
للشعر - غمغمتُ - وللحب
تخوم الأرض كانت كلها وطن...

هكذا تتحول الأرض كلها إلى وطن واحد عند سليمان العيسى مـن الدومينيكان إلى بساتين العاصـي، من المحيط إلى النهر، ما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دام جواز السفر هو الشعر، فلكل وطن نكهة تجعله أولاً بين الأوطان.

الثمالة والوفاء النادر

ما تحدث يوماً عن زكي الأرسوزي إلا بحب وألم، بل وبدعوة صادقة للأرسوزي أن يكون موجوداً، وسليمان العيسى يرى في الأستاذ منعطفاً قومياً لا نزال بحاجته، وها هو يعبّ ثمالاته في الشعر والحياة، ويسأل دوماً عن قريته وأستاذه ورفيق دربه، الوفاء سمة ملازمة لسليمان العيسى الذي رأى الفكر ثابتاً لا يتبدل وإن تطور، ويرى أن الأستاذ الأرسوزي هو المنعطف الملازم لهذا الفكر... في الدومينيكان يجد بساتين العاصي ولا يقتله الألم بقدر ما يجد المواءمة بين المكانين في رحلة بحث عن المشترك...

وفي ملكة يرى المرأة التامة، لا تسمع منه اسماً آخر، ولا تقرأ له قصيدة في امرأة أو مغامرة أو ما شابه وهو بهذا السلوك يذكر بالشاعر عزيز أباظة الذي خاطب زوجته بعد أن أجريت له عملية قلبية:

يا منى النفس لا أقول منى القلب

فقلبي فدتك العيون ذبيح

لكن الفرق كان في أن المرأة كانت عنده ملكة وحدها، ولكن عزيز تغنى بغانية الخرطوم وتحدث عن الأشواق والهجر والفنانة والفواكة في الطائرة، بينما لا يزال العرس الأسطوري الذي أقامه «العيسى» مع ملكة في الخمسينيات هو الحاضر في حياته أبداً!!

وهذا الوفاء لملكة هو الذي جعله يتحدث عن الأنثى حديث العقل والفكر، وغابت عن شعره الأنثى اللعوب، وكانت الأنثى كما صورها (لست أنثى في الفراغ)

لي سماوات ومجهول

وشوق ودّ لو يروي غليله

لي طموحاتي ولو عزّت، ولاحت مستحيلة

ردني للنبضة الأولى

وذكرني بلادي

كل ما أملك من سحر وعطر

هو شيء من بلادي

لست عينين

ونهدين

وشكلاً في الفراغ

لست أنثى يا صديقي

لست أنثى في الفراغ

أما وفاؤه لأستاذ الجيل الأرسوزي

فهونادر، الأرسوزي مات، غادر دنيانا، إلا أنه في ذاكرة الوفاء عند سليمان العيسى بقي حياً على الدوام، بقي المعلم والنبراس والهادي الذي يزور مريديه دوماً، فبعد أن أهدى خيوطاً من وسام الاستحقاق الذي منحه إياه السيد رئيس الجمهورية في الحفل الذي أقيم في ٢/٥/٢٠٠٥م ينتقل إلى أستاذه بقوله: «اسمحوا لي أن أضع حزمة من خيوط الوسام على صدر المناضل العربي الفذ الذي سقاني أنا وجيلي حلم العروبة، ورسم لنا طريق الوحدة والحرية، والغد العربي المضيء، أستاذي الكبير زكي الأرسوزي، لقد كان منعطفنا القومي الأصيل الذي ما زلنا بحاجة إليه».

ويشكل الأرسوزي فاصلة بين الوالد ورفيقة الدرب ملكة أبيض، ولا يغيب عن باله الأطفال، وها هو الوفاء الأعظم عنده لحلمه العربي يدفعه للقول:

أنا الثمالة شديني إلى جسدي

يا آخر النبضات الخضر في كبدي

إني امتشقت دمي طفلاً لأكتبه

قصيدة سقطت عطشى ولم ترد

يا قصة العمر لو لم تذهبي بددا

ما اختار غير الحريق المشتهى بددي

والحلم أعطيته ما راح يعصرني

❁ ❁ ❁

شعراً وقالت... لم تلق السلاح يدي

مدائن وسفر وأشخاص

احترام سليمان العيسى للمدائن غير محدود، وقلّما تجده يتحدث مفضلاً مدينة عن أخرى بعد نعيرية اللواء فالنعيرية وحدها تنوس فوق ذاكرته ولا تغادرها، والمستقر دمشق، والمنطلق حلب، والعلم بغداد، والثورة الجزائر، والتاريخ الجزيرة العربية والصحراء، والراحة والإنجاز اليمن وعدن، لذلك نجد العيسى منحازاً إلى المدائن التي عرفت سفره الجميل، وهذا ما أعطى المختارات قيمة إضافية من حيث وجود العقد الذي ينظمها، فعلى مضارب عبلة يقول كما كان الأعشى:

يا دار عبلة رديني إلى وتري

تقطعت بيننا

يا حلوتي السبل

في باب خيمتك الزرقاء

متكني

وليرحلوا

إننا التاريخ والأزل

وعلى جسر الرصافة يقف إلى جوار علي بن الجهم ليبكي حاضراً وماضياً:

كان جسر الحب والشعر ينام

في سلام

فجأة روعت الليل ودوت قنبلة

وتلتها قنبلة

وتهاوت كل أحلام الصبايا

مزقاً حمراً... وسوداً

كل أحلام الصبايا

ذهب الحب شظايا

ذهب الشعر شظايا

وفي جنوب لبنان يجد العيسى أيامه ومبادئه:

يا من يزيح العار عن أيامنا

وينشر الطيوب

في شعرنا

في عمرنا

يا ألق العصر الكسيح عصرنا

يا شاعري العظيم

يا جنوب

وإلى الشمال إلى زحلة ينطلق:

موال زحلة في ضلوع الأرض ممتد

يلوّن عمرنا

في كل شارقة وغارية

يجدد عمرنا...

وحين تدعوه حمص وابنتها جوليا دومنة إلى لقاء يقول:

جدتي... طفلة حمص الساحرة

الليالي الشاعرة

كلها ملك يديها

صهرتها وردة في وجنتيها

بسمة في شفتيها...

وغير بعيد يقول لحماه:

يا طفلة العاصي... وسبحته

بين النجوم على مدار غدِ

هذا غناؤك

فاسكبيه على

عطش الهجير ورطبي جسدي

أنا عائد طفلاً إليك كما

أنزلتني في خفقة الكبد

أنا لست من ينسى ولو غرقت

من حولي الشطآن في الزبد

وفي الأندلس تعود دمشق:

صباح الخير يا بستان أهلي

عبير دمشق ملء دمي

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وأنت حديقتي

وإذا مددت يدي هنا

فإلي قطوفي

في كل ما كتب سليمان العيسى عن المدن لم يكن خطابياً، ولم يلجأ إلى تفضيل يضطر بعده إلى تفضيل مغاير، بل ربط في كل مدينة ذاته بها، واختار منها ما يمكن أن يجعلها مفضلة دون أن يكون مغالياً، وفي الأندلس اكتفى بأنها بستان الأمس، ولم يفجع بتاريخ انتحر على حافة الخلاف ليدخل في قضايا خلافية... كثيراً ما تسمع تعليقات على أشعار الأماكن والأشخاص التي تعتمد الجزالة والمبالغة، ولكن عند سليمان العيسى نجد الأمر مختلفاً، فهو ينتقي للمدينة والمكان خصوصيته المفتقدة اليوم ليعرش فوقها ويكتب قصيدته أو ينقش ذكرى ذاكرته... وكذلك الأمر في الحديث عن الأشخاص، إذ قد تكفي الإشارة عنده إلى الشخص دون أن يرد ذكره في القصيدة مطلقاً، ما أروع حديثه إلى فاتح مدرس وغيره، ولننظر إلى ما قاله عند رحيل نزار قباني:

قالت الأزهار يوماً،

مات شاعر

وحنت أوراقها حزناً عليه

تنتمي الأزهار والعطر إلى الشعر، إليه

ينتمي الروض وأسراب العصافير إليه

ينتمي ماء الجداول

تكبر الأعشاب إذ تصغي إليه والسنابل

ثمالات، سفر، جمال، وفاء، استمرار... إنه صديقي الطفل دائماً سليمان العيسى الذي يفاجئ الجميع بمجموعات ودواوين وقصائد لم تكن على بال إليك أيها الشاعر الجميل كل الحب والرجاء بعطاء لايتوقف.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الانتباه وأثره في التحصيل الدراسي

عامر السويداني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يعد الانتباه Attention حجر الزاوية في البناء المعرفي فهو استعداد معرفي عام إذ إنه يلازم كل عملية معرفية وعليه يتوقف أداؤها بشكل مثمر وفعال، وبالمقابل فإن البناء المعرفي للفرد ومحتواه كماً وكيفاً وحسن تنظيمه يؤثر على زيادة فعالية الانتباه، وسعته ومداه (الزيات، ١٩٩٥م، ص٢١٢).

وهذه العلاقة تقوم على التأثير المتبادل بين الانتباه والعمليات العقلية لأن اختلال وظيفة الانتباه يؤثر على أداء هذه العمليات ويضعف أداءها مما

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي

يؤدي إلى خفض فاعلية الانتباه والقدرة في إدراك وفهم واستيعاب الموقف.

فالانتباه هو من أهم العمليات العقلية التي تلعب دوراً هاماً في النمو المعرفي لدى الفرد حيث أنه يستطيع من خلاله أن ينتقي المنبهات الحسية المختلفة التي تساعده على اكتساب المهارات وتكوين العادات السلوكية الصحيحة بما يحقق له التكيف مع البيئة المحيطة به.

ويبرز دور الانتباه على نحو أكثر وضوحاً في العملية التعليمية التعلمية حيث إن عملية التعلم التي يستدل على حدوثها بمستوى التحصيل أو درجته تتطلب انتباهاً إرادياً مركزياً أو فعالاً من المتعلمين في مراحلها كافة فالتلاميذ يلاحظون ويدركون ويتعلمون ويحفظون ويستوعبون ويتذكرون، فالانتباه ضروري في جميع هذه العمليات. حيث بات من الواضح أن الانتباه يؤثر في الوظائف العقلية العليا التي يعمل في إطارها وعليه تتوقف فاعليتها في استيعاب المادة التعليمية والاحتفاظ بها واسترجاعها.

وللانتباه الفعال شروط داخلية وخارجية؛ إذا حدث أي نقص في هذه الشروط انخفضت فاعلية الانتباه وحدث تشتت الانتباه. وبتشتت انتباه الفرد تنخفض لديه القدرة على التركيز والاستيعاب وبالتالي ينخفض مستوى التحصيل الدراسي لديه، إذ يعتبر تشتت الانتباه من معوقات التعلم الفعال ذي المعنى (بلقيس ومرعي، ١٩٩٦م، ص٢٥١).

ويعتبر الانتباه من العوامل الأساسية المؤثرة في التعلم، حيث أنه من الصعب لا بل من المستحيل أن يحدث التعلم من دون انتباه، فالشرط الأساسي للاكتساب والتعلم هو الانتباه إلى المثيرات المناسبة. وهكذا فإذا لم يكن الانتباه في أعلى درجاته مركزاً على الموقف التعليمي ومحيطاً بجوانبه المختلفة ولفترة وافية، وقد بنيت العديد من الدراسات على أن مشكلات الانتباه تشكل عاملاً أساسياً من العوامل التي تكمن وراء تدني التحصيل لدى الأطفال العاديين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد عرف الانتباه على أنه إحساس أو شعور بتغير في الموقف، يهيئ الفرد لتركيز جهوده على الموقف مما يعطي الفرصة في معظم الحالات لإدراك مضمون التغير الذي استرعى الانتباه (عريفج، ٢٠٠٠م، ص١٤٦).

فالانتباه هو عملية عقلية شعورية وظيفتها بأورة الشعور على شيء موضوعي أو فكرة تتصل بشيء موضوعي أو فكرة مجردة، فكلمة انتباه تصف اتجاه الذهن ونشاطه والذي هو نزوع موجه إزاء إدراك

متكامل لموضوع معين أو فكرة محددة (الجسماني، ١٩٩٤م، ص٢٩٧). وتعدّ عملية الانتباه من العمليات الهامة في اتصال الفرد بالبيئة المحيطة به، فالانتباه هو حالة تركيز الشعور في شيء وبدون الإحساس والانتباه لا يستطيع الفرد أن يدرك ما حوله من مثيرات إدراكاً واضحاً أو أن يتذكر أو أن يتخيل شيئاً.

وقد حظي الانتباه باهتمام عدد كبير من الباحثين على اعتبار أنه العملية التي تكون عصب النظام السيكولوجي بصفة عامة، فمن خلاله يمكن للفرد اكتساب كثير من المهارات وتكوين كثير من العادات السلوكية المتعلمة، التي تحقق له قدراً كبيراً من التوافق في المحيط الذي يعيش فيه (العاسمي، ٢٠٠١م، ص٣٦).

أنواع الانتباه:

١- الانتباه اللاإرادي: يحدث الانتباه اللاإرادي عندما يكون الشيء المنتبه داعياً إلى الاهتمام به كشيء قائم بذاته. فالانتباه اللاإرادي ينشأ مستقلاً عن أهداف الفرد ونواياه الواعية من دون بذل جهوده الإرادية ذلك أن وظيفته الرئيسية هي التوجه السريع والمناسب في البيئة الدائمة التغيير.

ويقسم الانتباه اللاإرادي إلى قسمين:

أ- الانتباه القسري: وهو الانتباه إلى مؤثر ما انتباهاً كاملاً أليّاً من دون إرادة حيث ينتج هذا النوع عن قوة المثيرات الخارجية وضعف فاعلية إرادة الشخص في توجيه انتباهه، فهو مستوى من الوعي يتم بسرعة كبيرة جداً في مواجهة مثيرات شديدة كالانتباه لصوت الرعد أو صوت انفجار، أو ضوء البرق.

ب- الانتباه التلقائي أو العفوي: وهو انتباه الفرد إلى مثير مرغوب ممتع أو شيء يهتم به ويميل إليه من دون أن يبذل جهداً مضنياً في ذلك، فهو انتباه موجه بالاهتمام ولا يحتاج إلى إعمال الإرادة أو التخطيط المسبق، وفي هذا النوع من الانتباه لا يشعر الفرد بالضيق والتوتر الذي يميز الانتباه الإرادي كما أنه بإمكان المرء الانصراف عنه أو الاستمرار فيه حسب رغبته.

٢- الانتباه الإرادي: وهو الانتباه الموجه والمنقاد بشكل واعٍ إذ يختار فيه الشخص الموضوع أو المثير المناسب ويوجه الانتباه نحوه.

ويحدث الانتباه الإرادي عندما تتجمع قوى النفس حول شيء من الأشياء التي يبذل جهده للانتباه إليها ويكون ذلك في سبيل تحقيق غاية أبعد، ونظراً لأن هذا النوع من الانتباه يعكس مستوىً عميقاً من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

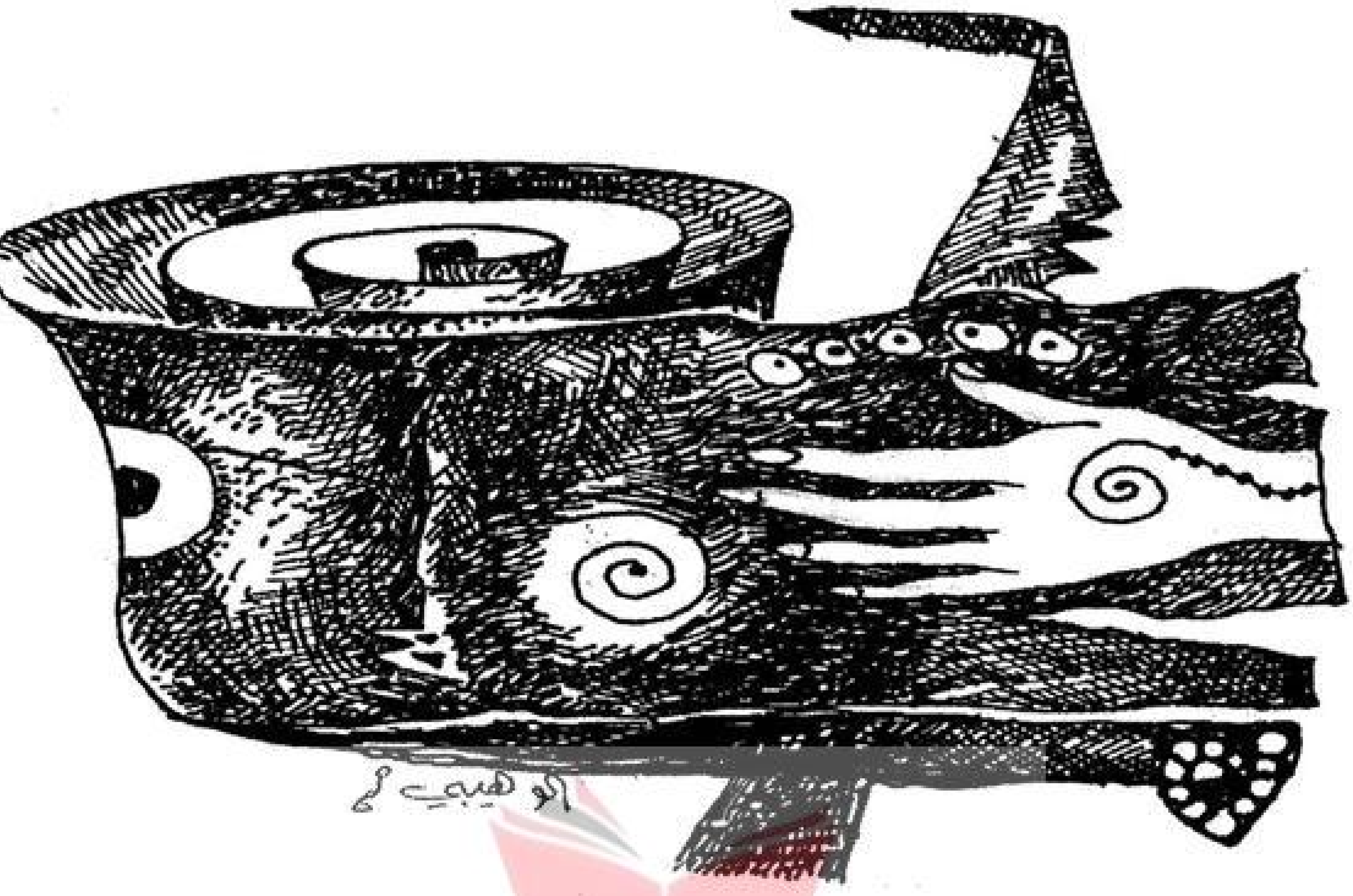

ARCHIVE

الوعي فإنه يتطلب جهداً أكبر من الفرد ولاسيما عندما تكون المثيرات معقدة وصعبة وجديدة. وتحتاج إلى قدر أكبر من القدرة على معالجة المعلومات.ويطلق علماء النفس على هذا النوع من الانتباه اسم المعالجة الموجهة.

خصائص الانتباه:

يتميز الانتباه بعدد من الخصائص المميزة ومن أهمها:

١- مدى الانتباه: يعرف مدى الانتباه بمقدار ما يستوعبه المرء في فترة زمنية معينة. ويمكن قياس مدى الانتباه بعدد الموضوعات أو الأجزاء أو العناصر التي يمكن الانتباه إليها أو إدراكها بدقة كافية في وحدة زمنية معينة.

وفي نطاق الميدان التربوي على المعلم أن يراعي قدر الإمكان المدى الوسطي الممكن الحصول عليه من انتباه الطالب وأن يحول دون الإجهاد وأن يوسع مدى الانتباه بأن ينظم المادة ويكشف علاقاتها الداخلية.

٢- توزيع الانتباه: ويقصد به أن يبقي الإنسان مواضيع عدة في مركز اهتمامه في وقت واحد. فالفرد لا يمكنه الانتباه بدرجة معقولة من التركيز إلى شيئين في وقت واحد، ذلك أن للانتباه بؤرة تركيز واحدة في أية لحظة. ويختلف الأفراد اختلافاً كبيراً

من حيث القدرة على توزيع انتباههم مع الإشارة إلى أن القدرة على ذلك هي مسألة تدريب إلى حد كبير حيث تلعب العادة دوراً كبيراً في ذلك.

٣- **تحول الانتباه:** يمكن وصف تحول الانتباه بأنه نوع من إعادة تنظيم الانتباه ونقله من موضوع إلى آخر، إن تذبذب الانتباه أو تحوله أو انتقاله قد يكون ضرورة تمليها طبيعة النشاط الذي يقوم به الفرد وذلك عندما ينقل الفرد انتباهه من فعل إلى آخر في إطار النشاط نفسه، أو عندما ينهي مهمة معينة ويبدأ مهمة جديدة. وقد يكون الانتقال ضرورياً لتجنب التعب أو الملل وتحقيق قدر من الراحة من أجل العودة إلى التركيز على النشاط مرة أخرى.

٤- **تركيز الانتباه:** يمكن تعريف الانتباه بأنه تركيز الوعي على موضوع محدد والانصراف في الوقت نفسه عن كل ما عداه، فتركيز الانتباه على شيء معين يحدث عندما يحتل هذا الشيء بؤرة الشعور وبالتالي يزداد هذا الشيء وضوحاً بتحوله إلى مركز الانتباه، وفي تركيز الانتباه يتجمع الفعل النفسي المقصود وفي مركز ما، حيث يعتبر تركيز الانتباه المقدمة الضرورية للتنفيذ الناجح والدقيق للنشاط فهو من أهم الشروط لأي تعلم هادف فالتركيز على تعلم مهارة ما سمعياً أو بصرياً أو لمسياً يسهل ويسرع عملية الإدراك وبالتالي تعلم المهارة وإنجاز أي مهمة تعليمية يتوجب من التلميذ أن يستمر بتركيز الانتباه لفترة انتهاء تلك المهمة، ويرتبط مستوى تركيز الانتباه بخصائص الموضوع أو المهمة المطلوب تركيز الانتباه عليها وكلما زاد مستوى تعقيد المهمة التعليمية تطلب ذلك زيادة في تركيز الانتباه.

العوامل المؤثرة في الانتباه:

أولاً: العوامل الخارجية: وهي عوامل تتعلق بطبيعة المثير وهي:

١- شدة المثير: فالصوت القوي والضوء الساطع والرائحة النفاذة والضغط الشديد أكثر جذباً للانتباه.

٢- تغير المثير: فتغير نغمة صوت المدرس وتغير ملابسه المعتادة وتغير طريقة شرحه وتغير وسائله التعليمية كلها تثير انتباه الطلبة.

٣- الحركة: فالمثير المتحرك أكثر انجذاباً للانتباه من المثير الثابت فالنيزك والشهب أكثر انجذاباً للانتباه من الكواكب الأخرى، والفلم السينمائي أكثر جذباً للانتباه من الصور الثابتة. كما أن الحركة المفاجئة والسريعة تجذب الانتباه.

٤- الجدة: فالمثيرات الجديدة بالنسبة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للفرد تجذب انتباهه أكثر من المثيرات المألوفة لديه، مثل دخول ضيف لغرفة الصف أو إدخال وسيلة تعليمية لأول مرة.

٥- تكرار المثير: إن تكرار حدوث المثير أو إعادة عرضه يؤدي إلى جذب الانتباه إليه، ولذلك نجد أن تكرار الإعلانات التي تظهر على مسافات مختلفة في الطريق تجذب انتباه سائقي السيارات.

ثانياً: العوامل الداخلية: وهي العوامل المرتبطة بالفرد ذاته ومنها:

١- الاهتمام: فالموضوعات التي يهتم بها الطالب تجذب انتباهه أكثر من الموضوعات غير الهامة إليه. فالمغلف في سلة المهملات قد يجذب انتباه هواة الطوابع.

٢- الحاجات: فالموضوعات التي تتصل بحاجات غير مشبعة لدى الفرد تجذب انتباهه فالجائع يلفت انتباهه أي ذكر أو إشارة للطعام.

٣- التعب: فالفرد المرهق جسمياً أو عقلياً يكون عرضة للتشتت.

٤- مستوى الإثارة: إن وجود مستوى متوسط من القلق لدى الطالب يزيد من دافعيته وتركيزه وانتباهه إلى مستوى معين، ثم تؤدي زيادة القلق إلى نقصان الانتباه.

علاقة الانتباه بالتحصيل:

يتطلب النجاح الدراسي أن ينتقي الطالب من بين المثيرات المتعددة الموجودة في غرفة الصف تلك المثيرات ذات العلاقة بالتحصيل، وأن يهمل المثيرات غير الملائمة، فيفترض مثلا أن يستمع الطالب لصوت المدرس، ويهمل أصوات السيارات في الخارج، ويفترض أن يرى الكلمات المكتوبة على السبورة أو على صفحة الكتاب وليس ألوان ملابس المعلم أو الصور على الحائط.

وتسمى المثيرات البارزة في موقف معين والتي تكون موضع الانتباه بالشكل، في حين تسمى المثيرات الأخرى التي توجد في الوقت نفسه من دون أن تكون موضع انتباه مباشر بالخلفية. فالطالب الذي يعاني من صعوبات الانتباه لا يستطيع أن يحتفظ بصوت المدرس شكلاً، ويبقي الأصوات الأخرى خلفه، ويؤدي ذلك إلى تعطيل في التعلم وفرص نجاح الدراسة للطالب. فالنجاح يتطلب المثابرة والإرادة والتركيز على مهمة معينة حتى الانتهاء منها من دون كلل أو ملل، ويؤدي ضعف الانتباه إلى انتقال الفرد من مهمة لأخرى من دون إنجاز. إذ إن اختيار الأفراد للمثيرات المناسبة يقوم على العمليات العقلية التي تقع بين المثير والاستجابة التي يعطي الأفراد بوساطتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معنىً للمثيرات المختارة، كما تحدد خصائص الانتبـاه لهذه المثـيرات من حيـث (المدى، التركيز)، وقـد أشارت بعض الدراسات إلى وجـود علاقة ارتباطيه بين مستويات تركيز الانتباه ومستويـات التحصيل الدراسي، إذ إنه كلما ارتفع مستوى تركيز الانتباه تلاشت هذه المشكلات وارتفع مستـوى التحصيل الدراسي. وبالمقابل فـإن مستويات الانتباه المنخفضة ناجمة عن مشكلات متنوعة وهي على اختلافها مسؤولة عـن تشتت الانتباه الذي يخفض بدوره مستوى تركيز التلميذ، وتكـون النتيجـة في النهاية تـدني مستوى تحصيله الدراسي (مهنا، ١٩٩٩م، ص٣٤٠) إن هذا يعكس أهمية عملية الانتباه في التعلم والتحصيل بشكل عام وفي «مادة الرياضيات بشكل خاص، حيث تؤثر درجة تركيز الانتباه على التحصيـل في مـادة الرياضيات» إلى حد كبير (خنسـة، ٢٠٠٠م، ص٧١). ويمكن المساهمـة في تحسين مستـوى الانتباه لدى الطلاب من خلال التخطيط لبرامج وقائية تقلل من حدوث ضعف الانتباه، ورسم خطط علاجية لمساعدة الطلبة الذين تظهر لديهم المشكلة.

الانتباه والتشويق:

يستند التعليم الفعـال إلى مجموعة من الاستراتيجيات والممارسات والأساليب التي ينفذها المعلم داخل الصف ولعلَّ نجاح المعلم في توليد الرغبة الذاتية عند الطلاب للتعلم هو مـن أهم عوامل بلـوغ الأهداف ونجاح التعليم لمـا تحتاجه هـذه العملية من ربط وانتباه وتركيـز وتكرار ومتابعة. ولهذا فقد اعتبرها خبراء التربية والتعليم من أبرز مهام المعلـم الأساسية وأدواره الرئيسة في التعليم الصفـي، وعملية توفير الرغبة الذاتية لدى المتعلـم وإثارة اهتمامه وتشويقـه أو إثارته وتحفيزه للتعلم.

فالانتباه هو تكيـف أعضاء الجسد في الطالب لتسهيل الاستجابة لمؤثرات أو مواقف مقصـودة يؤديهـا المعلم ومنـع الاستجابة لمؤثرات أو مواقف عرضية خارجية أخرى. والتشويق هو عمليـة إثارة واستمرار نشاط الطالب التعليمي أو هو من الفن العملي في تطبيق المعلم للمغريات وإثارة الرغبة بهدف جعل الطالب يعمل برغبة ذاتية. وبناءً على ماسبق هناك علاقة تأثير متبادل بين الانتباه والعمليات العقلية لأن اختلال وظيفة الانتباه يؤثر في أداء هذه العمليات ويضعف أداءها، وبالمقابل فإن أي خلل يصيب هذه العمليات يخفـض فاعليـة الانتباه، إذ يفقـد الفرد توازنه ويصبح غير قـادر على التركيز على ما هو بصـدد معالجته ويعجز عن مواصلة الانتبـاه والنتيجة في كلتـا الحالتين إخفاق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في إدراك الموقف وفهمه (الطيب ومنسي، ١٩٩٧م، ص٣٢٧).

ومن الصعب أن يحدث تعليم فعال من دون تشويق وإثارة فالتشويق هو من أهم العوامل المهمة التي تؤثر في فعالية الطلاب ونشاطهم التعليمي واستجاباتهم للتعلم، وإنه من أكثر العوامل أهمية ومن الصعب أن يحدث تعليم فعال من دون تشويق وإثارة.

أسباب ضعف الانتباه الصّفي:

أولاً: الأسباب ذات العلاقة بالمناخ الصفي:

يمكن أن يكون المناخ الصفي غير مناسب مما يؤدي إلى تشتت انتباه الطلاب بسبب أسلوب التدريس أو الافتقار إلى الوسائل التعليمية أو كثرة المشتتات، كما أن جو القلق والتوتر داخل غرفة الصف يمكن أن يؤدي إلى ضعف الانتباه، والمناخ الصفي القائم على التقبل والمتضمن إتاحة فرص النجاح للطلبة، والمتسم بالثبات والموضوعية يقلل من احتمالية تشتت الانتباه، كما أن العوامل الفيزيقية مثل درجات الحرارة المرتفعة أو المنخفضة والرطوبة والإضاءة وغيرها تزيد من تشتت الانتباه.

ثانياً: الأسباب ذات العلاقة بالطالب:

١- قد ينتج تشتت الانتباه عن عوامل عضوية كوجود خلل في الإدراك أو النضج العصبي.

٢- قد ينتج ضعف الانتباه عن عوامل نفسية كالقلق وعدم الشعور بالأمان.

٣- شرود الذهن والانغماس بأحلام اليقظة حيث تقلل من تركيز الانتباه على المثيرات الخارجية الملائمة ويركز عوضاً عنها على المثيرات الداخلية المتمثلة بأحلام اليقظة.

٤- قد يكون التشتت في الانتباه ناجم عن تعزيز خاطئ فقد يكرر الطالب سلوك التشتت إذا رأى أن هذا السلوك يجلب انتباه المعلم.

أهمية عملية الانتباه في التربية:

تعد عملية الانتباه واحدة من أهم العمليات المعرفية التي تساعد على اتصال الفرد بالبيئة التي يعيش فيها، وفي اكتساب الخبرات التربوية، ويعد الانتباه شرطاً أساسياً للتعلم والنجاح داخل غرفة الصف. حيث يساعده في تركيز حواس الطالب فيما يقدم له أثناء الدرس من معلومات ويجعله يعمل ذهنه في دلالتها ومعانيها والروابط المنطقية والواقعية بينها وبالتالي يساعد في استيعابها والإلمام بها، ومن ثم فهو المدخل الرئيسي للاستفادة من شرح المعلم وما تقدمه الوسيلة التعليمية المصاحبة.. فضلاً عن دور الانتباه الهام في أداء المهام الدراسية والامتحانات والاختبارات بأشكالها كافة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتطلبات التربوية للانتباه:

يتطلب الانتباه توافر بعض الصفات كي يكون مثمراً ومدخلاً للمعرفة، ومن هذه المتطلبات مايلي:

١- انتقاء المثير: إذ إنه عادة لا ننتبه لكل المثيرات سواء الداخلية أو في البيئة الخارجية، وإنما فقط لتلك التي تلفت نظرنا وتثير حواسنا.

٢- مدى استمرارية الانتباه: إذ يتعين على الفرد أن ينتبه وقتاً كافياً للمثير الذي يجذب اهتمامه حتى يستوعب ويلم بعناصر المفهوم عليه.

٣- نقل الانتباه ومرونته: إذ إن الشخص السوي هو الذي لايستطيع أن ينقل انتباهه بمرونة وسلاسة بين المثيرات المختلفة، ومن ثم يدل ذلك على مرونة التفكير وعدم الجمود مع إمكانية الإضافة والتعديل والابتكار.

٤- الانتباه إلى تسلسل المثيرات المعروضة: إذ إن الشخص لاينتبه عادة لمثيرات مفردة وإنما غالباً لعدة مثيرات متتابعة فالطالب أثناء شرح الدرس ينتبه لتسلسل الكلمات التي تخرج من فم المعلم وللعروض المكتوبة على السبورة حيث يستدعي ذلك استمرار الانتباه لكل العناصر والمكونات أو المشاهد المتتالية (علي، ٢٠٠٩م، ص٢٢).

الإطار النفسي والتربوي لتحسين مستوى الانتباه:

ويقصد به الوسائل النفسية والتربوية التي يتعين اتباعها لعلاج صعوبات الانتباه مثل:

١- التعامل مع الطفل كفرد له خصائصه الجسمية وقدراته العقلية وسماته الشخصية وظروفه الخاصة.

٢- أن تناسب المواد المطلوب تعلمها قدرات الطالب: تلك التي تمَّ قياسها وميوله الدراسية التي تمَّ التعرف عليها وسماته الشخصية التي تمت دراستها وظروف البيئة التي تمَّ استكشافها.

٣- التعزيز الإيجابي والتشجيع المستمر وذلك عند أداء الطالب للمهام العلاجية والمكافأة لحسن قيامه بها.

٤- تدريب الطالب: وذلك على مراقبة سلوكه وتقويم أدائه ذاتياً وتشجيعه على تعديل قدراته.

٥- المعالجة الطبية: إذا اقتضى ذلك تشخيص حالة الطالب.

اضطراب الانتباه:

يختلف مستوى الانتباه لدى الأفراد تبعاً لسلامة كل من الحواس والناقلات العصبية الحسية، ومركز الانتباه في الجهاز العصبي المركزي بالمخ، ولذلك نجد أن هناك بعض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأفراد لديهم مستوى مرتفع في الانتباه وبعضهم الآخر لديه مستوى منخفض فيه. ويعاني بعض الأطفال من اضطراب الانتباه والذي يتضح من عدم القدرة في التركيز على المنبهات المختلفة لمدة طويلة، ولذلك فإنهم يجدون صعوبة في إنجاز الأعمال التي يقومون بها، كما أن لديهم ضعفاً في القدرة على التفكير مما يجعلهم يخطئون كثيراً، ويتسم هؤلاء الأطفال بالاندفاعية ولذلك نجدهم يجيبون عن الأسئلة قبل استكمالها، ودائماً ما يكون اضطراب الانتباه لدى هؤلاء الأطفال مصحوباً بنشاط حركي مفرط مما يجعلهم يتحركون بكثرة وعشوائية وذلك من دون سبب أو هدف واضح، وهؤلاء الأطفال يشخصون في الطب النفسي بأنهم يعانون من اضطراب عجز الانتباه المصحوب بنشاط مفرط. ويعد اضطراب الانتباه من أكثر الاضطرابات شيوعاً بين الأطفال حيث أشار تقرير صادر عن وكالة الصحة العقلية الأمريكية أن نصف الأطفال المحالين للعلاج بها كانوا يعانون من هذا الاضطراب.

أعراض اضطراب الانتباه لدى الأطفال في المدرسة:

١- الانتباه القصير المدى: فالطفل الذي يعاني من اضطراب الانتباه لا يمكنه تركيز انتباهه على منبه ما أكثر من بضعة ثوانٍ متتالية ثم ينقطع انتباهه عن هذا المنبه في الوقت نفسه الذي تكون فيه المعلومات مازالت تنبعث منه.

٢- سهولة تشتت الانتباه: إذ يشتت انتباه ذلك الطفل بسهولة حيث أنه يصعب عليه تركيز انتباهه على مثير أو منبه معين وتجاهل ما يحدث حوله في البيئة المحيطة به ولذا فهو يحول انتباهه دائما تجاه الحركة التي تقع في مجال إدراكه لكي يكتشف ما يحدث حوله.

٣- ضعف القدرة على التفكير: إذ إن تشتت انتباه الطفل بسهولة يؤدي لمعاناته من ضعف القدرة على الإنصات وبالتالي فإن المعلومات التي يكتسبها تكون غامضة وغير واضحة أو مترابطة مما يؤدي إلى ضعف قدرته على التفكير.

٤- التردد: فهو يعاني من التردد الذي يلازمه عند اتخاذ أي قرار حتى لو كان بسيطاً.

٥- عدم الثبات الانفعالي: إذ إن هذا الطفل يكون عادة غير ناضج انفعالياً ولذا فإنه يكون متقلب الانفعالات فنجده تارة معتدل المزاج وتارة أخرى ينفجر في ثورة من الغضب، كما أنه يقوم بتحطيم الأشياء التي تقع في متناول يده. ولذلك فإنه دائماً يكون منبوذاً من أقرانه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المشكلات التعليمية التي تصاحب اضطراب الانتباه لدى الأطفال:

أولاً: صعوبات التعلم:

تنتشر صعوبات التعلم بين الأطفال الذين يعانون من اضطراب الانتباه حيث أن معظمها قد يرجع إما لعدم قدرتهم على القراءة الشاملة للمادة المقروءة، أو لأنهم يعانون من اضطراب اللغة.

وقد بينت العديد من الدراسات أن اضطراب اللغة يرتبط بعلاقة موجبة مع صعوبات التعلم لدى هؤلاء الأطفال حيث إن اضطراب اللغة يجعلهم عاجزين عن تقديم الاستجابة الصحيحة التي تدور بمخيلتهم، وفضلا عن ذلك فإن اضطراب الحديث لديهم يجعلهم يقفزون من موضوع إلى آخر، غير قادرين على تقديم الاستجابة الصحيحة في صورة منطقية مسلسلة.

ثانياً: التأخر الدراسي:

هناك العديد من المشكلات التي تنجم عن إصابة الطفل باضطراب الانتباه، وتؤدي إلى تأخره دراسياً ونوجزها فيما يلي:

١- ضعف القدرة على الفهم: إن الأطفال المصابين باضطراب الانتباه يعانون من ضعف القدرة على فهم المعلومات التي يستقبلونها سواء كانت شفهية أو مكتوبة. ولذلك نجد أن الأطفال المصابين بهذا الاضطراب دائماً يخفقون في الاختبارات الشفهية بالمدرسة وذلك لعدم قدرتهم على فهم الأسئلة.

٢- كثرة النسيان: إن كثرة النسيان من أهم السمات التي يتسم بها الطفل المصاب باضطراب الانتباه، ولذلك نجده دائماً ينسى في الصباح بعض كتبه وأدواته الدراسية التي يستخدمها.

٣- شرود الذهن: إن العملية التعليمية تتطلب من الطفل أن يركز انتباهه على المنبه الرئيسي وتجاهل المنبهات الأخرى والتي تسمى بالمنبهات الدخيلة، وهذا الأمر يشكل صعوبة بالغة للطفل الذي يعاني من اضطراب الانتباه حيث يتشتت انتباهه بسهولة بين المنبهات الدخيلة بعيداً عن المنبه الرئيسي في العملية التعليمية.

٤- تجنب الموقف التعليمي: إن الطفل المصاب باضطراب الانتباه يحاول أن يبتعد بشتى الطرق عن المواقف التعليمية بصفة عامة، والتي تحتاج إلى تفكير وجهد عقلي بصفة خاصة.

العوامل التي تؤدي إلى تشتت الانتباه:

أولاً: العوامل الاجتماعية: هناك عدد من العوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى تشتت انتباه الفرد منها النزاع المستمر بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوالدين، أو الأزمـات المالية، أو العلاقات السيئة مع الآخرين، الأمر الذي يجعل الفرد يلجأ إلى أحلام اليقظة كي يجد فيها مهرباً ومتنفساً بعيداً عن واقعه الأليم.

ثانيـاً: العوامـل النفسيـة: هناك بعض العوامل النفسية التي تؤدي إلى تشتت الانتباه مثل عدم ميل الطالب إلى مادة معينة، وهذا يؤدي إلى عدم اهتمامه بها، وأيضاً انشغال فكر الطالب بأمور سواء كانت اجتماعية أو عائليـة، أو لأنه يشكو لأمـر ما من مشاعر أليمة بالنقص أو بالقلق.

ثالثـاً: العوامـل الجسمية: قـد يرجع تشتت الانتباه إلى الإرهاق والتعب الجسمي، أو لعـدم النـوم بالقـدر الـكافي، أو لسوء التغذية والانتظام في تناول وجبات الطعام، فهـذه العوامل من شأنهـا أن تنقص حيوية الفرد، وأن تضعـف قدرته على مقاومة ما يشتت انتباهه.

رابعـاً: العوامـل الفيزيقيـة: إن من أهم العوامـل الفيزيقية التي تـؤدي إلى تشتت الانتبـاه ضعـف الإضاءة أو سـوء توزيعها، وأيضاً سوء التهوية، وارتفاع درجة الحرارة والرطوبة، وكذلك الضوضاء، وهذه العوامل تؤدي إلى سرعة تعب الفـرد وزيادة قابليته للتهيج، وبالتالي ضعف قدرته على الانتباه.

عـلاج عـدم التركيـز وتشـتت الانتبـاه يتضمن ما يلي:

- إيجاد ثقافة عامة حول هذا الموضوع عنـد كل أفـراد الأسـرة وكذلـك الهيئات التدريسية.
- التشخيصـ الصحيح لمشكلة التشتت والكشف عن أسبابها.
- إيجـاد احتكاك مباشـر بين الوالدين والمختصين في هذا المجال.
- العـلاج التربوي: هـو العلاج الوحيد القائـم علـى التشـاور وتبـادل الآراء بين المدرسة والبيت.
- تحسين البيئة الصفية.
- التعزيـز الإيجابـي المستمـر للطلبة ضعاف التحصيل.

وأخيـراً، فالصـورة الواضحـة والمعبرة للانتباه الإنساني هي الانتباه الإرادي الذي لابد أن يكـون انتقائياً بسبب قدرة الإنسان المحـدودة على معالجـة المعلومات في وقت واحـد، وتكمن قيمـة الانتبـاه الإرادي في درجة تركيزه، فالنجاح في أي نشاط يشترط مستـوىً من تركيز الانتبـاه واستمراره. إن هـذه الأهمية الكبيرة للانتبـاه تبرز أهمية تنميـة هـذه القـدرة وصقلها عـن طريق التدريـب والتمريـن منذ مرحلـة الطفولة من أجل أن تستمـر هذه العملية الضرورية لنجاح أية مهمة سواء كانت حركية أو عقلية أو انفعالية.

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

المراجع

١- الجسماني، عبد العلي (١٩٩٤م): علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان.

٢- الزيات، فتحي مصطفى (١٩٩٥م): الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات. الطبعة الأولى.

٣- بلقيس، أحمد ومرعي، توفيق (١٩٩٦م): الميسر في علم النفس التربوي، الطبعة الأولى، دار الفرقان، الطبعة الثانية، عمان، الأردن.

٤- العاسمي، رياض (٢٠٠١م): اضطراب النشاط الزائد لدى الأطفال وعلاقته ببعض المتغيرات، مجلة الرسالة التربوية، دار البشير للنشر، عمان، الأردن، عدد١.

٥- عريفج، سامي سلطي (٢٠٠٠م): مقدمة في علم النفس التربوي، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، الأردن.

٦- علي، محمد النوبي محمد (٢٠٠٩م): اضطراب الانتباه المصحوب بالنشاط الزائد لدى ذوي الاحتياجات الخاصة، الطبعة الأولى، كلية التربية جامعة الأزهر، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن عمان.

٧- خنسة، أحمد (١٩٩٦م): دليل المعلم العربي إلى التربية وعلم النفس، تأليف: ل ن. فريدمان و ي. يوكولا غينيا، الطبعة الأولى، دار علاء الدين، دمشق، سورية.

٨- مهنا، عدنان (١٩٩٩م): الاضطرابات السلوكية المدرسية، الطبعة الأولى، البقاع، لبنان.

٩- الطيب، محمد عبد الظاهر ومنسي، محمود عبد الحليم (١٩٧٩م): مبادئ علم النفس العام، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإعلام والعولمة

د. هزوان الوز ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تُعتبر «العولمة» من أكثر العناوين والمصطلحات استخداماً في عصرنا الحاضر، بل أكثر قضايا العصر المثارة على نطاق العالم الواسع، فهي مصطلحٌ حديثٌ مترجمٌ عن الكلمة الإنجليزية «Globalization»، وأول من استخدمها «ماكلوهان» في نهاية الستينات ومعناها: عالمي أو دولي، وغالباً ما تُذكر مرتبطةً بمصطلح القرية (Global Village) بمعنى القرية الكونية أو العالمية.

٭ باحث وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان عماد الوهيبي.

ورغم كثرة ما كُتِب فيها، لم يتفق الباحثون والمفكرون على تعريفٍ واحد لها، حيث تعدّدت مناهج الباحثين في تعريفها، فركّز بعضهم على أحد أبعادها، في حين حاول الآخرون أنْ يُعرِّفوها بتعريفات تنسجم مع موقفهم منها وتوجهاتهم من حيث الرفض أو القبول.

فعرّف «عبد الرشيد عبد الحافظ» العولمة بأنها «الدوران في فلك الأقوى»، بينما عرّفها الدكتور «بركات مراد» بأنها «مَرْكزة العالم في حضارة واحدة»، فيما يُشير الباحث «محمد مبروك» إلى أنّهَا تحقيق مصالح النُخب الرأسمالية والنُخب الحليفة، على حساب شعوب العالم.

إلا أن بعض الباحثين ذهبوا إلى أنّ أقرب تعاريف العولمة إلى الدقة هو: «أنّ العولمة هي دمج ودمقرطة ثقافات العالم، واقتصادياته وبنياته التحتية، من خلال الاستثمارات الدولية، وتنمية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وتأثير قوى السوق الحرة على الاقتصاديات المحلية والإقليمية والعالمية»؛ ومنهم من يقول إنها حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية. وهناك من يرى أنّ العولمة هي إقحام الجميع في دخول مسننات الآلة العالمية بسبب الثورة الجامحة للمعلوماتية وتطور تقنية الاتصالات، وبذلك يكون مصير الإنسانية مُوَحَّداً.

ولا يغيب عنا مصطلح العولمة الثقافية (Global Culture) الذي نشأ مؤخراً، ويعني الانتشار الثقافي الفكري لجهات قومية ومؤسسات دولية (أغلبها أمريكية)، أصبح لها أثرٌ ملموس في الجانب الثقافي لدى الكثير من المجتمعات حول العالم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

مما يساعد على انتشار ظاهرة العولمة وتأصيلها كظاهرة كونية عوامل عدة أهمها:

التقدّم الكبير في المجال التكنولوجي والمعلوماتي من خلال تطور الاتصالات وظهور الإنترنت ووسائل الاتصال الحديثة، وزيادة عدد التحالفات والتكتلات الدولية والإقليمية، مثل: الاتحاد الأوروبي، الآسيان، النافتا...

فيما يعلل بعضهم الآخر ظهور العولمة بسبب تركّز الثورة في أيدي عدد قليل من الدول، وكذلك تزايد هيمنة الاحتكارات الكبرى والشركات العابرة للقارات. وظهور منظّمات دولية، مثل: المنظّمة العالمية للتجارة، وظهور التحالفات الاستراتيجية لشركات عملاقة عالمية في المجالات المصرفية

والصناعية والنفط، وتزايد حركة التجارة والاستثمارات الأجنبية، إضافةً إلى وجود مشاكل جديدة عالمية مثل التلوث البيئي، غسيل الأموال، والبطالة والهجرة غير الشرعية.

إن السباق على امتلاك التكنولوجيا الإعلامية بين دول العالم أخذ أبعاداً متسارعة بتسارع الاختراعات والتطورات التقنية في هذا المجال، والتي تسير بخطى متسارعة يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى، وحسب ما ذهب إليه الكاتب «سعد الطائي» في بحثه (تكنولوجيا الإعلام في زمن العولمة)؛ باتت تظهر بين الحين والآخر منتجات تقنية جديدة وصناعات حديثة ومتطورة تزيد من قوة من يمتلكها وتجعله في طليعة المسيطرين على حركة الإعلام الدولي ومد نفوذه على الجمهور العالمي بكل قوة.

فأصبح الوصول إلى الحلقات المتقدمة في التكنولوجيا يعني الوصول إلى المراحل المتقدمة في السيطرة على حركة الإعلام العالمي فتعاني الدول المتخلفة أو ما تُعرف بـ(دول الجنوب) من تبعية تكنولوجية في جميع النواحي، ومن ضمنها التكنولوجيا الإعلامية للدول الصناعية أو ما تعرف بـ(دول الشمال). ومن ثم فإنها محكومة تكنولوجياً وإعلامياً لها، وهي التي تسيطر على حركة الإعلام الدولي وتُسيّره بالوجهة التي تريد.

فالتطور في تكنولوجيا وسائل الإعلام متلازمٌ مع زيادة سيطرة ونفوذ هذه الدول على توجهات الإعلام الدولي، وتُسيّره بالشكل الذي يخدم مصالحها وتوجهاتها العالمية.

وفضلاً عن رداءة البرامج الإعلامية، والإنتاج الإعلامي بشكلٍ عام في دول الجنوب؛ فإنها تستعمل وسائـل تكنولوجية أقل تطوراً مما هو مستعمـل في دول الشمال، فقامت هذه الـدول بتصديرهـا إلى دول الجنوب، لأنها غير قادرة على تصنيع هذه التقنيات، فترسخ بذلك إعلامـاً متخلفاً على مختلف الصعُد، سواء فنياً مـن ناحية البرامـج ونوعها، أو تكنولوجياً عن طريق الاستعانة بالصناعات الأجنبية لعجز الصناعة الوطنية عن مواكبة التطورات التقنية والتمكّن من تصنيعها.

وقـد أصبح التحكـم بامتـلاك أسرار التكنولوجيـا مسألـة سلطة، فمـن يتحكّم بالتكنولوجيا، فإنه يتحكّم بوسائل السيطرة والنفـوذ والسلطـة على المجتمـع الدولي، ولزيادة السيطرة على جمهور دول الجنوب المتخلّـف، عملـت وسائل الإعـلام في دول الشمال المتقدم على استعمال اللغات المحلية في دول الجنوب في بث برامجها، أثناء توجهها لجمهور هذه الـدول لغرض سرعة الوصول إليه، ومـن ثم زيادة التأثير فيه، الأمر الذي زاد من انصراف هـذا الجمهور عن وسائل الإعلام الوطنية فيـه وتأثره بوسائل إعلام الدول المتقدمـة، وذلك بفعل اللغة المفهومة من قبلـه (وهي لغته المحليـة) أثناء تسلمه للرسالة الإعلامية الموجهة إليه.

فأصبـح لا يجد صعوبـةً في تسلم هذه الرسالـة، وأصبحـت الرسالـة الإعلامية الموجهة إليه لا تجد صعوبة في الوصول إليه، وتحقيق أهدافها في التأثير فيه وجعله تابعاً ثقافياً وإعلاميـاً وفكرياً لهذه الدول، بينما وقفت وسائل الإعلام الوطنية الهزيلة نوعياً وفنيـاً وتكنولوجياً أمام هذا المد الكاسح من المـواد والموضوعـات الإعلامية الهائلة الموجهة لهذا الجمهور وعجزها عن مجاراة مـا تقدمه مثيلاتهـا في الـدول المتقدمة، فجعلت منها مجـرد أدوات متخلفة وبائسة لا تقوى على الاستمرارية والبقاء فما بالك بالمنافسة والاستحواذ على الجمهور.

* * *

إعلام العولمة كما يعرّفه الباحث «أدهم عدنـان طبيل» هو سلطـة تكنولوجية ذات منظومات معقدة لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول، وإنمـا تطرح حـدوداً فضائية غير مرئية ترسمها شبـكات اتصالية معلوماتية علـى أسـس سياسية واقتصاديـة وثقافية وفكرية، لتقيم عالماً من دون دولة، ومن دون أمـة، ومن دون وطن، وهو عـالم المؤسسات والشبـكات التي تتمركـز وتعمل تحت أمرة منظومـات ذات طبيعـة خاصـة، وشركات متعددة الجنسيات يتسم مضمونها بالعالمية،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الرغم من تنوع رسائلها التي تبث عبر وسائل تتخطى حواجز الزمان والمكان واللغة لتخاطب مستهلكين متعددي المشارب والعقائد والرغبات والأهواء.

وهناك من عرّفها بأنها «عملية تهدف إلى التعظيم المتسارع والمذهل في قدرات وسائل الإعلام والمعلومات على تجاوز الحدود السياسية والثقافية بين المجتمعات؛ بفضل ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة والتكامل والاندماج بين هذه الوسائل، بهدف دعم وتوحيد ودمج أسواق العالم، وتحقيق مكاسب لشركات الإعلام والاتصال والمعلومات العملاقة، وهذا على حساب دور الدولة في المجالات المختلفة».

وتتمثّل أهم خصائص العولمة الإعلامية في أنّ الإعلام في عصر العولمة أصبح يُمثّل أحد أهم أسس الاقتصاد العالمي الذي يفرض شروطاً ليفي بمتطلبات السوق من صراع ومنافسة، والسعي إلى تحقيق الربح من طرف المؤسّسة بصفة عامة، والمؤسّسات الإعلامية بصفة خاصة.

ومن سمات وخصائص العولمة الإعلامية:

- التقدم التكنولوجي، والتطور السريع لوسائل الإعلام.

- أصبح الإعلام جزءاً من البنية السياسية الدولية، وأدى إلى تحويل الحدود القائمة بين الدول إلى خطوط وهمية.

- أصبح الإعلام الذي يُعتبر نتاج الثقافة أحد مكوناتها الأساسية، فهو يعمل على نشر ثقافة عالمية غلبت عليها الثقافة الغربية، وهذا ما نلاحظه بوضوح من خلال الفضائيات الإعلامية، وشبكة الإنترنت وتأثيرها على المجتمعات المختلفة.

- هيمنة الدول المتقدمة على الإعلام، وتبعية الدول النامية لها.

- يمثل الإعلام أحد أجزاء الاتصال الدولي الذي مكّن من عولمة مضمونه ووسائله.

- أصبح استخدام الإنترنت بمثابة الطريق السريع للمعلومات.

- يترتب على زيادة العولمة في القرن الحالي ضرورة الاهتمام بالتنبؤات السياسية، والحكومية والقانونية الدقيقة.

لقد بدأ التحول الضخم في اتجاه العولمة الإعلامية من حقبة الثمانينيات من القرن الماضي، حيث كانت البداية بإنشاء فروع لمؤسسات وموزعين لمنتجات إعلامية، ثم تطورت مع التوسع الاقتصادي والنمو السكاني، والانفتاح السياسي بين الدول، وقد استطاعت مجموعة من المؤسّسات الإعلامية أنْ تفهم حاجات المجتمع المختلفة

للمواد الإعلامية، مما ساعدها على تطوير أدوات إيصال هذه المواد مستفيدةً من التطور التقني الواسع في ميدان الاتصالات.

ومع نهاية القرن العشرين وحلول القرن الواحد والعشرين بدأت المؤسّسات الإعلامية الأمريكيـة القويـة في موطنهـا في تكوين شركات إعلاميـة متعددة، فمن المجموعات الإعلامية الكبرى: «التايم وارنر» وهي أكبر مؤسسة إعلامية في العالم، وهي تملك العديد من الأنشطـة الإعلامية المتنوعة، والقنوات التلفزيونية الدولية، مثل: CNN، HBO، TNT، وكذلـك مجموعـة مجلـة Time الأمريكية...

الإعلام وتحديات العولمة:

من أهم الكتب التي ظهرت في العقد الأول من القرن الحالي كتـاب (الإعلام والعولمة، تأليف الدكتور «عبد الرزاق الدليمي»)، وقد نُشر هـذا الكتاب عـام ٢٠٠٤م، تزامناً مع الاجتياح الأمريكـي للعراق ومن قبله حرب أفغانستان وأحداث الحادي عشر من أيلول وتداعياتهـا، وما صاحب ذلـك من دعاية أمريكية قبل وأثناء وبعد الحربين.

يقـول الدكتور «عبد الـرزاق الدليمي» في مقدمتـه للكتاب: «وهـذا الكتاب يُسلّط الضـوء علـى آليـات استخـدام الدعاية والإعـلام في تسيير قطار العولمـة، إضافةً إلى بعض التطبيقـات العملية في استخدام الدعايـة من قبل بعض القـوى الجبارة في العـالم، ومنها على وجه الخصوص الولايات المتحدة الأمريكيـة لتحقيق أهدافها المعلنة والمخفية».

مـن هـذا المنطلـق تنـاول المؤلف في الفصـل الأول تعريف العولمـة، واستعراض تأثير التكنولوجيا على وسائل الإعلام سواء علـى الأفـراد أو الأجهزة والمعـدات سلباً وإيجاباً، ملقياً الضوء على الإعلام في حقبة التسعينات الميلادية من القرن الماضي، وما شهده من تحول ملموس في أشكاله وأهدافه ووسائله، نتيجة التطـور التكنولوجي الذي لحق بالعالم وما نتج عنه من متغيرات.

ثم انتقل المؤلـف إلى إلقاء الضوء على الدعايـة عمومـاً، وعلى وجـه الخصوص الأمريكية، من خلال عرضه للمحة تاريخية للدعايـة الأمريكيـة وتطورهـا وهيمنتها علـى وسائل الإعـلام، ثم تحـدث المؤلف عن أساليبهـا وفلسفتها وتكتيكها وأهدافها ومؤسساتها وأسسها ومرتكزاتها.

كما استعرض الكتاب الدعاية الأمريكية خلال حرب أفغانسـتـان، وأسلوب التغطية الإعلاميـة الصحفية لهذه الفترة وتحليلها، واختتـم المؤلـف الكتـاب بالحديـث عن المسلسـلات المدبلجـة وعلاقتهـا بالجنوح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كونها أحد روافد العولمة في هذا العصر.

وانطلاقاً من التعريفات المختصرة السابقة للعولمة؛ فإنَّ الإعلام يواجه (حسب رأيي الأستاذ «شعيب عبد الفتاح» في بحثه عن الإعلام والعولمة) تحديات عديدة حالياً منها:

١- إنَّ تكنولوجيا الاتصال الحديثة أتاحت العديد من الوسائط والوسائل التي ألغت الحدود الجغرافية، وقرّبت المسافات، وسهّلت إمكانية الحصول على المعلومات من أي مكان، وتجميعها وتخزينها وبثها بشكل فوري متخطية قيود الوقت والمسافة، وقد تمثّلت هذه المبتكرات في الأقمار الصناعية والحسابات الإلكترونية وخطوط الميكروويف، والألياف الضوئية والاتصالات الرقمية، والكوابل المحورية، والوسائط المتعددة، والاتصال المباشر بقواعد وشبكات المعلومات مثل الإنترنت والجوال والبريد الإلكتروني، وعقد المؤتمرات عن بعد، وتعمل معظم هذه المبتكرات في إطار المشروعات الخاصة وتخاطب الحاجات الفردية.

٢- زيادة الاتجاه نحو الإعلام المتخصّص، ولا مركزية الاتصال التي تعتمد على تقديم رسائل متعددة، تخاطب الحاجات الفردية الضيقة والجماعات المتجانسة بدلاً من الرسائل الموحدة التي تخاطب الجماهير الغفيرة.

٣- فقدان الحكومات الوطنية لاحتكار البث التلفزيوني الذي يتلقاه مواطنوها، مما جعل بعض الحكومات تُعيد هيكلة نُظم الإعلام من خلال فتح المجال أمام تأسيس خدمات اتصال إلكترونية غير حكومية لتعزيز القدرة على المنافسة في السوق الإعلامية والدولية.

٤- اتجاه صناعة الاتصال الجماهيري إلى التركيز في كيانات ضخمة وملكية مشتركة متعددة الجنسيات، وامتد هذا التركيز من السلاسل الصحفية إلى شبكات الراديو والتلفزيون ونُظم الكابل والحاسبات الالكترونية، وفي حالات كثيرة تمتد أنشطة هذه الكيانات الإعلامية العملاقة إلى تملك إدارة أعمال أخرى ليس لها علاقة بصناعة الاتصال.

٥- إنَّ مجموعة لم يسبق لها مثيل من التحالفات والاندماجات قد أثرت على كل القطاعات في العقد الأخير وهي قطاعات الإلكترونيات والإنتاج الإعلامي والتلفزيون، والكمبيوتر، والاتصالات السلكية واللاسلكية كافة، وكلها تسعى لإيجاد مكان لها في السوق العالمية.. وأصبح المنتجون أنفسهم يلغون الفرق بين الإعلام والتسلية، وبين البرامج والمعدات، وبين الإنتاج والتوزيع،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقد تمَّ تشكيل تحالفات جديدة بين ملاك المكونات المادية Hard Ware وملاك المحتوى الإعلامي Soft Ware، فعلى سبيل المثال أعلنت شركة MCI الأمريكية للاتصالات السلكية واللاسلكية عن استثمار ملياري دولار أمريكي في شركة «روبرت مردوخ» للأنباء، مما يُحقّق الدمج بين خطوط الألياف الضوئية والمحتوى الإعلامي والبرامجي، وسيؤدي دمج شركة ABC/ Capital Cities مع إمبراطورية Disney بقيمة تسعة عشر مليار دولار إلى جعل «ديزني» أكبر شركة ترفيه في العالم خلال القرن الحادي والعشرين.

٦- تركيز مصادر الأخبار الدولية، بمعنى التبعية الإعلامية لدول العالم الثالث للكيانات الإخبارية العملاقة التي تُحقّق أقصى استفادة من تكنولوجيا الاتصال المتطورة وعولمة الأسواق العالمية، وهذا يعني أنَّ التدفق الإخباري الحالي لا يزال معتمداً على التركيز والهيمنة بدلاً من التعددية والتنوع.

٧- تجانس الأخبار حيث غالباً ما تعتمد وكالات الأنباء على بعضها البعض في تبادل الأخبار في شكل تحالفات دولية كما هو الحال في التحالفات بين تلفزيون «رويترز» وشبكات «روبرت مردوخ» الدولية، وكذلك الطابع التجاري الذي تعمل من خلاله وكالات الأنباء الدولية. والذي يجعلها تُضيف الطابع الترفيهي على الأخبار، كما أنَّ التجانس يأتي أيضاً من سعي الوكالات إلى ترويج ثقافة عالمية واحدة، كذلك تقوم هذه المصادر الدولية الكبرى بترتيب أولويات الجمهور في مختلف أنحاء العالم نحو القضايا الدولية، من خلال انتقاء الصور والأصوات والأحداث وصناعة الحروب والأزمات الدولية.

٨- تراجع الوسائل المطبوعة وتزايد تأثير الوسائل الإلكترونية، وهذا يوضح بجلاء أنَّ طبيعة العولمة الثقافية تنشط حركتها وتتوسع في ظل تصاعد الثقافة المرئية، أي ثقافة الصورة، وفي مناخ يشهد تراجعاً ملحوظاً للثقافة المكتوبة. أي إنَّ ثقافة العولمة هي ثقافة ما بعد المكتوب، فالكتابة ليست من أدوات أو آليات انتشار العولمة.

٩- تراجع الشبكات الوطنية لصالح الشبكات الدولية، وذلك في ظل عوامل عديدة منها: تزايد عدد شبكات التلفزيون الدولية، واتجاه هذه الشبكات نحو مخاطبة جماهير متجانسة ذات اهتمامات نوعية.

١٠- معلومات أكثر.. ومعرفة أقل.. لأنَّ ثورة المعلومات، كما ذكرنا من قبل لا تعني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالضرورة ثورة المعرفة.. لأن المعلومات شيء والمعرفة شيء آخر.

إنَّ تحول المعلومـات إلى معرفة يتطلب حداً أدنى مـن الفهم، واستخلاصاً للمعنى، وربطـاً بـين معلومـة وأخرى، وهـذا ما لم يتوافر بصورة مرضية لدى شعوب كثيرة في بلاد العالم الثالث.

الإعلام والعولمة والواقع العربي:

تقول الدكتورة «سعاد جـبر»: إنَّ المتتبع لواقـع العـالم العربـي، ومـا تواجهـه من تسارعـات حركة الانفجـار المعرفي في كل الأبعـاد في آفاقنا الأيديولوجيـة والتقنية، يبرز لديه حالة الفجوة المتسعة بين هشاشة الواقع العربـي ومنطلقات البعد الحضاري في متتاليـات المستجـدات المتتابعة في بعد الأيديولوجيـا والتقنيات، وتُثير تلك الفجوة الواسعة المزيد من التساؤلات بحثاً عن حالة توازن أيديولوجي وانفتاح تقني؛ يخرج عالمنا العربـي من حالة الاستـلاب التي يحياها؛ سواء من منظومة القوى العالمية أو منظومة انتهـاك الـذات لذاتها وأسر ذاتهـا بذاتها في قوالب جامـدة استبدادية؛ لا تعرف لغة الفكفكـة ومرونة التعاطي مـع المستجدات الحضاريـة في آفاق الانفتـاح في إطار لغة عصريـة واعية، لا تنسحـب كلياً ولا تنسلخ حتى النخـاع، ولكنها تتخـذ خط الحراك الحضاري، في ضوء مرجعية منفتحة واعية، تقدر ثوابتها الفكرية من جهة، وتتعاطى مع مترتبات لغة العصـر بانفتاح مرن من جهة أخرى.

وفي ضوء تناول أزمـات الواقع العربي، تـبرز على مائـدة البحث النقـدي وتلاقح الأفكار حالة الهوة في البعد الإعلامي العربي وأعاصـير العولمة وانعكاساتهـا الإعلامية، ويتشكل هنا الطيف الفسيفسائي المتناقض في الآراء في مواجهة هذه الأزمة الإعلامية، إمـا بالتنحـي جانباً عنهـا في لغة الرفض المطلـق؛ أو بالتعاطي المسعـور مع مترتبات العولمة الإعلامية في تغييب تام لحركة الوعي والتخطيط المنظـم في الاستيعاب والتلاقح معها، وهنا تبرز إشكالية ماهية الأثر والمؤثر في ظاهرة العولمة الإعلامية وطبيعة الواقع المفرز في ذلك كله، فضلاً عن وجود مساحات واسعة من لغة عدم التواصل بين تلك الآراء المتنوعة المتناقضة في هذا المجال بعينه؛ بين من يرى في العولمـة خروجاً من بعد أحادية الفكر التي يرزح تحت نيرها واقعنا العربي واعتبارهـا بشـارة بالديمقراطيـة وتفعيل ممارساتها على المنابر الإعلامية وتشكيلها حالـة تعاطي متطور مـع مترتباتها التقنية في عـالم الاتصـالات؛ وبين مـن يراها في اللون الآخر تراجعاً خطراً للسيادة الوطنية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والثقافيـة للدولة في ظل اخـتراق إعلامي سرطاني يحمـل قيم شريعة الغـاب وحالة متأزمة في الصـراع القيمي الاجتماعي في ظـل سطوة ناعمـة الملمس وخبيثة الروح والأهـداف، وخروجها للعـالم في وجه آخر بشع من وجـوه الأمركة الناعمة ومعطياتها علـى عالمنا العربي، وهناك من تتوجه آراؤه إلى استشراف المستقبل عوضاً عن الخوض في جدليـة العولمة الإعلامية، رنواً إلى حالة الخـروج من أزمة الإعلام العربي في أزقتها المظلمـة، وما تعج بـه من حالـة استلاب مطلقـة في كل الأبعـاد، بحثـاً عن خريطة مستقبلية إبداعية تنويرية، ترتسم ابتداءً من الواقع المر بلوغاً للمستقبل المنشود، في ظل مواكبة التطـورات الإعلامية، وتجاوز أزمة التيارات وإشكالية المصطلحات، لأنها غدت قدراً حتميـاً، ولابد من الخـروج من أزمة التنـاول العقيم لمترتباتهـا إلى حالة إصلاح واقعية، وتحديد جاد فاعل لمصفوفة التغيير المستقبلية في مواجهة أزمة الواقع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التقنيات الميكروية والحيوية ووعود طب المستقبل

د. حسين فاضل ❁

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من نافل القول أن العقود الثلاثة الماضية قد شهدت تطوراً مذهلاً في عالم الطب والصحة، ولكن ثغرة ظلت قائمة في الطب الحديث، وهي تركيزه على التعامل مع جسم الإنسان وإهمال روحه، خلافاً للطب الشرقي الذي مازج بين علاج الجسم والروح. وحاليا ونحن ندخل العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، والتقنية الميكروية والحيوية تحمل بشائر في طب المستقبل، فأين سيكون منها موقع الطب الحديث والطب الشرقي القديم؟

❁ كاتب سوري.

المزاوجة بين الروح والجسد

برغم أن الموت حق، بل هو الحقيقة الوحيدة التي لا جدال فيها، فإن غريزة الإنسان التشبث بأهداب الحياة، لا تعادلها في قوتها غريزة أخرى، ولأن المرض من أقوى وأوضح أسباب الموت، فإن الإنسان قاومه ويقاومه بكل ما أوتي من قوة وحيلة وذكاء. ومنذ القدم تمتع الأشخاص الذين لديهم القدرة على شفاء الآخرين من الأمراض، بالاحترام الشديد الذي بلغ في بعض مراحل التاريخ مرحلة العبادة، وجلب هذا الاحترام والتقدير المال الوفير على أصحاب القدرة على شفاء المرضى سابقا وحاليا. والقدرة على الشفاء مرت بمراحل مختلفة، متأثرة بمراحل الإنسان نفسه، من البدائية حتى عصر التقنية الحديثة، ولأن الإنسان جسد وروح أو مادة وذات، ولأن سلامة الجسد لا تنفصل عن سلامة الروح، والعكس بالعكس، فقد تراوحت القدرة على الشفاء بين العناية بالروح وحدها أو الجسد وحده، أو بالروح والجسد معا، كما هو الحال اليوم. وإلى ما قبل مئة عام فقط، كان الإنسان يعتمد في درء المرض على معلومات بدائية حول جسمه وروحه، والأمراض التي تهدده. وكان الطب أقرب إلى الشعوذة منه إلى العمل، ويعتمد على مستحضرات من الأعشاب، أو قدرات بعض الناس على التأثير النفسي على الآخرين.

ويقول الدكتور «وادي ديفيس» في مقال علمي نشره في مجلة نيوزويك الأمريكية: «السنوات المئة الأخيرة شهدت تطوراً علمياً مذهلاً في مجال الطب، وتمثل حدثا يعتبر من أعظم الإنجازات البشرية، فبفضل اكتشاف دواء البنسلين وغيره من المضادات الحيوية، أصبح من الممكن الآن علاج الأمراض، التي تسببها البكتريا، مثل الحمى القرمزية والحمى الروماتيزمية والسيلان والالتهاب السحائي، أما اللقاحات المختلفة التي اكتشفت واستخدمت للوقاية من الأمراض، فقد أنقذت حياة ملايين الأطفال من أمراض الجدري والحصبة، وبفضل التقدم الذي أحرز في مجال الطب، أصبح من الممكن الآن التحكم بأمراض مزمنة مثل السكري وغيره، والتي اكتشفت لها عقاقير كيميائية». ومن بين التقدم الذي حدث وساهم في إنقاذ البشر، ذلك الذي طرأ في مجال الجراحة، خصوصا بعد تطوير المواد المطهرة والبنج (مادة التخدير). ورغم هذا التطور المذهل في مجال الطب الحديث ظلت هنالك ثغرة قللت كثيراً من نجاحه، هذه الثغرة هي تركيز الطب الحديث على التعامل مع جسم الإنسان وإهمال روحه، والنظر إليه بوصفه

آلة تستبدل أطرافها التالفة، وتفتح وتفكك لتسليك شرايينها المسدودة، أو استبدالها بشرايين أخرى.

ومن ناحية أخرى، ركز الطب الحديث كثيرا على العلاج، أو تخليص الإنسان من المرض من دون اعتبار كبير للأسباب التي ينتج عنها المرض. ويميل الطب الحديث، وهو في الأساس طب غربي، إلى عدم الاهتمام، بل لإهمال الأفكار، التي تعتبر لب الطب القديم التقليدي، أي الطب الشرقي، وهي الأفكار المتعلقة بالجانب الروحي، والتفاعل بين الجسد والروح، والتأثر المتبادل بين الإنسان والبيئة والكون، وذلك لأن هذه المسائل لا تجد لها مكانا غير عالم له علومه وتقنيته التي طورها. ولكن يوجد الآن اعتراف متزايد بأن الصحة والشفاء، لا يمكن فصلهما عن شمولية التجربة الإنسانية. ولاشك أن العلم سيواصل عملية إثراء الطب، وإن الناس في كل أنحاء العالم سيواصلون الاستفادة من إنجازات التكنولوجيا الحديثة. ولاشك أيضا أن الطب في المستقبل القريب جداً، سيحاول الاستفادة من الدروس المستقاة من أولئك التقليديين، الذين افتقدوا القدرات التقنية، التي تمكنهم من تشريح جسم الإنسان لمعرفة ما بداخله. ومع ذلك عالجوا الإنسان بوصفه روحاً وجسداً.

التقنية الميكروية

يقول الدكتور «ميشيل كريشتون» الذي ألف عدداً من الكتب حول مستقبل الطب، إن سنوات القرن الواحد والعشرين ستشهد رجلا تجاوز عمره ٦٥ عاما، وهو يقف على قمة جبل إيفرست بعد تسلقه. وكما هو معروف، فإن رياضة أو مغامرة تسلق قمم الجبال الشاهقة، لا يقوى عليها إلا الشباب. ويريد الدكتور كريشتون أن يقول، إن سن ٦٥ في القرن الواحد والعشرين سيعتبر في نطاق سنوات الشباب من عمر الإنسان، ليس هذا وحسب، بل إن إنسان القرن الواحد والعشرين سيستطيع ممارسة كل أنشطة الحياة، التي لا يقوى عليها إلا الشباب. وباستطاعة القارئ تخيل هذه الأنشطة من الدخول في تفاصيلها، وهي كثيرة ومثيرة. وهذه التوقعات الجديدة، التي يتخيلها الدكتور كريتشون، قد تغير ممارسة مهنة الطب تغييرا جذريا، ففي القرن العشرين تقدم الطب أساسا في تجاه توفير العناية العلاجية، مثل توفير غرف العناية المركزة التي يمكن أن تحمل جنينا، أو أن يركب رجل عمره ٧٠ عاما مركبة فضائية ليصبح أحد روّاد الفضاء. وللحفاظ على مستوى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عالٍ من اللياقة البدنية، يجب على الإنسان تجنب تدهور حالة جسده، لا محاولة إصلاحه.

إن عملية القلب المفتوح، مهما كانت درجة نجاحها، لن تعيد إلى الإنسان شبابه. وفي ما يتعلق بالأمراض القاتلة الأخرى، مثل الأزمات القلبية والسكتات الدماغية، فإن الطريقة الوحيدة للتغلب عليها، هي تغيير أسلوب الحياة، وقد بدأ بالفعل ظهور الطبيب الذي لا يكتفي بالمعرفة العلاجية وحدها، ولكنه ملم بالمعلومات التي تجعل منه ناصحاً وموجهاً في مجال الاحتفاظ باللياقة البدنية. ومع تطور علم الجينات وغيره من فروع الطب، فإن أسلوب الوقاية سيتطور، ويصبح أكثر جدوى ونفعاً. وسيقوم الأطباء بإجراء التجارب بعد التسلح بالنتائج التي يتوصلون إليها، سينصحون مرضاهم بالقيام بإجراءات وقائية تماما، وبالدقة ذاتها التي يصف بها الأطباء اليوم الدواء المعالج.

ومن ناحية أخرى، فإن التقنية الحديثة ستساعد على تطور وسائل التشخيص المبكر للمرض، ومن بين هذه الوسائل الموجات فوق الصوتية، والرنين المغناطيسي، وسيقلل كثيراً من الاعتماد على الجراحة أو الإبقاء على المرضى في المستشفيات، وسيتم العلاج بسرعة ومن دون ألم. إن التقنية الميكروية ستحدث ثورة في الطب خلال القرن الحالي، وستكون هنالك أجهزة حديثة، بينها المسابير البيولوجية، التي توصل الدواء إلى الجسم تحت الجلد. وسيكون بإمكان الأطباء التعويض عن الجينات الناقصة، أو المصابة بالمرض، وإمداد الإنسان بجينات سليمة. إن هذه الوسائل تتطور الآن لعلاج الأمراض الخطيرة، ولكن ستكون في المستقبل متاحة لزيادة الهرمونات، أو تخفيض مستواها، ومن ثم تأجيل سن الشيخوخة وزيادة فتوة الإنسان. وجنبا إلى جنب مع استخدام الأساليب المتطورة والتقنيات المتقدمة للوقاية من المرض وعلاجه، سيطور علم جديد يتعلق بدور مخ الإنسان في المساعدة على تقوية جهاز المناعة لمكافحة المرض. ولربما سيكون هذا أكثر الميادين أهمية في طب القرن الواحد والعشرين، ومن ثم فإن التفكير السليم سيصبح جزءا لا يتجزأ من معالجة كل شيء، بداية بالتحسس وانتهاء بازدراع الكبد.

تكثير الخلايا الحيوانية

تعتبر الطرق التي تعتمد على الخلايا الحية كالبكتريا والعضويات الصغيرة، من أكثر الطرق المستعملة على نطاق واسع في التطبيقات الصناعية التي تتطلب وجود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخمائر، وقد استعملت طريقة التقنية الحيوية الاعتيادية في عملية تكثير مثل هذه الخمائر باستعمال البكتريا والفطريات التي تعتبر خلايا حية تعمل كمواد مساعدة ومنشطة للتفاعلات الكيمياوية إلا أنها لا تدخل في التفاعل. أما الخلايا الحيوانية المستخلصة من الحيوانات أو البشر، وبسبب خواصها البيولوجية المعينة، فقد استعملت على نطاق واسع في التطبيقات الصناعية، خصوصا في مجال صناعة الأدوية والعقاقير الطبية. وقد أدت الحاجة الملحة المستمرة لبعض أنواع هذه الخلايا إلى تطوير الطرق التقنية والأجهزة في مجال التفاعلات البيولوجية. ومن جملة هذه الأجهزة المفاعلات الحيوية المتخصصة في عملية تكثير الخلايا الحيوانية بنسبة عالية.

وتتعلق تقنية تكثير الخلايا الحيوانية بدراسة بعض أجزاء الأعضاء الحيوانية، كالأنسجة أو الخلايا المفردة خارج الجسم، وتبدأ مثل هذه الدراسة بنقل النسيج الحي إلى بيئة أخرى مختبرية، حيث تقطع بعض أجزاء الأنسجة مثلا إلى قطع صغيرة، وتعالج بأنزيمات يمكنها فصل البروتين لتجزئة الأنسجة إلى تجمعات من الخلايا الصغيرة أو إلى خلايا منفردة، وتخلط هذه الخلايا مع بعض المواد الغذائية لتشجيعها على النمو والتكاثر وإنتاج المواد المطلوبة خارج الجسم. وقد اكتشفت الإنزيمات التي يمكنها فصل البروتين في ثمانينات القرن الماضي، حيث وجد أنه من الممكن قطع الحامض النووي (DNA) من مواقع معينة، ثم ربط القطع بوساطة أنزيمات أخرى لتشكل وحدات مفردة من حامض (DNA). ويعتبر هذا الاكتشاف مع اكتشاف عوامل مقاومة المضادات الحيوية في البكتريا وتطور طرق التحليل أساس طريقة تشكيل مركبات جينية جديدة من مصادر جينية مختلفة، واستعمال هذه الطرق مع تقنية تكثير الخلايا الحيوانية يمكن أن يؤدي إلى إنتاج مواد بيولوجية فعالة بكميات تجارية كبيرة. والخلايا الحيوانية المتكاثرة يمكن استعمالها لإنتاج المواد المطلوبة مثلا في عمليات ترقيع البشرة أو استبدال الخلايا اللمفية ونخاع العظم أو تشجيع الجسم على إنتاج الهرمونات أو خلايا الدم أو استعمالها كلقاح مضاد للأمراض لتحفيز الجسم على إنتاج المضادات الحيوية التي تقتل الجراثيم الدخيلة.

لهذا فإن تكثير مثل هذه الخلايا الحيوانية على نطاق تجاري واسع لاستعمالها في الأغراض المختلفة يتطلب تطوير أجهزة يمكنها مواجهة المواصفات الدقيقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المطلوبة التي تختلف كثيراً عن المواصفات السهلة لتكثير البكتريا أو الفطريات. وتتأثر الخلايا الحيوانية كثيراً بالظروف والإجهاد الميكانيكي والكيمياوي مقارنة مع البكتريا والفطريات مما قد يؤثر على عملها. وتملك الخلايا الحيوانية نشاطا حيويا صغيراً ومعدل نمو قليلا، ويؤدي هذا إلى زيادة المدّة اللازمة لتكثير مثل هذه الخلايا. وبالمقارنة فإن خلايا البكتريا والخمائر تنمو بسرعة ١٥ إلى ٤٠ مرة أكثر من نمو الخلايا الحيوانية. وخلال التكاثر يجب المحافظة على درجة الحرارة أو الحموضة ضمن حد مستقر، بينما يجب المحافظة على نسبة الأكسجين المذاب بنسبة أعلى من القيمة الحرجة لتوفير الظروف الملائمة المثالية للنمو.

بالإضافة إلى ذلك تفرض عملية تكثير الخلايا الحيوانية متطلبات متخصصة في وسط النمو ذي المحتويات المعقدة مقارنة مع عملية تكثير البكتريا أو الخمائر، ومن هذه المتطلبات ضرورة تعقيم وسط النمو، إذ إن وجود العضويات الخارجية كالجراثيم والبكتريا والفطريات يؤدي إلى تلوث وسط النمو ووقف تكاثر الخلايا الحيوانية. ويعني هذا أن ظروف تكثير الخلايا الحيوانية يجب أن تكون مطابقة للمواصفات المطلوبة لتكثيرها على نطاق تجاري واسع. وفي الوقت الذي تتوافر فيه الطرق والأجهزة المطلوبة لتكثير العضويات الصغيرة كالبكتريا وغيرها، فإن أجهزة تكثير الخلايا الحيوانية على نطاق تجاري لا تتوافر بكثرة. وتتطلب عملية تكثير الخلايا الحيوانية مراحل إنتاج متعددة تعتمد على الأجهزة المصممة لهذا الغرض. وتتطور المواصفات المطلوبة لكل حالة على مستوى مختبري ثم يتم بعدها تصميم وصنع الأجهزة التجارية المطلوبة.

أما العوامل الحرجة للعملية فهي العملية البيولوجية نفسها واختيار نظام التكثير الملائم للإنتاج المستمر أو المتقطع، وكذلك تصميم المفاعلات الحيوية المستخدمة في الإنتاج، ويلعب حجم المفاعل دوراً مهما في حساب كلفة الإنتاج، لهذا تصمم مثل هذه المفاعلات للحصول على الإنتاج اللازم ضمن الكلفة المطلوبة. وهناك أربعة متطلبات مهمة في تصميم المفاعل الحيوي وهي قلة القوة الميكانيكية، وخواص الخلط الجيد، والحد الأمثل لمرور الأكسجين، وإمكانية نقل تصميم المفاعل المختبري إلى المستوى التجاري المطلوب. وهذه المتطلبات يعتمد الواحد منها على الآخر ولا يمكن تحقيقها بسهولة. ومن مشاكل تصميم مثل هذه المفاعلات على مستوى تجاري حساسية

الخلايا الحيوانية للقوى الميكانيكية، إذ إن المعالجة الرقيقة مهمة لعملية التكثير. ووجود الحافات الحادة للخلاطة الموجودة في المفاعل، وكذلك الحركة الدورانية للخلط وغيرها يمكن أن تدمر الخلايا الحيوانية، وبذلك تفقد مفعولها الأصلي. ومع ذلك يمكن التوصل إلى مثل هذه المواصفات عن طريق تحوير التصاميم.

ويعتبر توفر الأكسجين المذاب بتركيز معين من العوامل الرئيسية المهمة لتكثير مثل هذه الخلايا. وقد طور العلماء نوعا جديدا من المفاعلات التي تعمل بصورة مستمرة تحت ظروف ثابتة للحصول على أعلى كثافة للخلايا بنسبة خلية في السنتيمتر المكعب الواحد. وفي الوقت الذي تتم فيه إزالة الناتج الجاهز مع الوسط الغذائي المستهلك من المفاعل باستمرار يتم حقن الوسط الغذائي الجديد إلى داخل المفاعل. أما الخلايا فتبقى داخل المفاعل للاستمرار بعملها، وخلال العملية يمكن استعمال غازات مختلفة حسب نوعية الإنتاج، حيث يمكن خلط الأكسجين وثاني أكسيد الكربون أو النتروجين خارج المفاعل في وعاء خاص للحصول على المواصفات المطلوبة، ثم تحقن الغازات في المفاعل. وبما أن مثل هذه العملية تحتاج إلى فترة زمنية طويلة، فإن السيطرة على الظروف الخاصة تتم بدرجة عالية من الدقة وباستعمال الحاسبات الإلكترونية.

وتعتبر هذه التقنية الآن من أنشط قطاعات صناعة التقنية الحيوية، حيث أنها ستفتح الأبواب أمام عقاقير جديدة لمعالجة الأمراض المختلفة. وتعتبر صناعة التقنية الحيوية من الصناعات المعتمدة على العلوم المتعددة، كالميكريبيولوجي والكيمياء الحيوية وتقنية الجينات والهندسة الصناعية والكيمياوية. وقد تمّ تصنيع هرمون النمو البشري «السوماتوستاتين» لأول مرة بمساعدة هذه الطريقة عام ١٩٨٧م، أما اليوم فقد تمكن العلماء من إنتاج أكثر من ٤٠ بروتينا لاستعمالها في صناعة الأدوية البشرية والبيطرية بمساعدة هذا النوع من التقنية الحيوية التي يطلق عليها الآن لقب التقنية الحيوية الصيدلانية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدرسة الرمزية

د. ممدوح أبو الوي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدايةً يجب التفريق بين الرمز والرمزيّة، لأنّ الرمز إشارة، أمّا الرمزيّة فهي مدرسة، يمكن أنْ يقوم بوظيفة الرمز أيّ شيء، فعندما نقدم لضيوفنا الخبز والملح، فهذا رمز لإكرامهم، وللتعبير عن شعور الصداقة نحوهم، وهناك من يرى أنّ الأفعى رمز الدهاء والذكاء، فهي تنام في الشتاء ولا تتحرك، وتبدأ تتململ في الربيع، وتبدأ تسعى إلى رزقها عندما تشتد درجة الحرارة في الصيف، فلها قدرة كبيرة على التكيف مع الوسط المحيط بها،

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

والتأقلم معـه، ويرمـزون إلى الصباح أو شروق الشمس بالشباب، أمّا اللون السماوي فيرمزون به إلى الأمل، لأنّه لون السماء.

تتغـير أحياناً الرمـوز، فكانت الحمامة ترمـز إلى الوداعـة، ومازالت ترمـز إليها، إلا أنهـا في الوقت الحاضـر ترمز قبل كلّ شـيء إلى السلام، فلذلـك يطيّرون الحمام في أثنـاء اللقاءات الدوليّـة المهمة وافتتاح المهرجانات،ونجد في الأدب شخصيات رمزيّة كثيرة، مثلاً ملحمة «فاوست» للشاعر الألمانيّ غوته (١٧٤٩- ١٨٣٢م) رمزيّة، فاوست رمز للإنسان الذي بـاع نفسه للشيطان، وكذلك بروميثيوس عند كلٍّ مـن الشاعر اليونانيّ: إسخيليوس (٥٢٥-٤٥٦ق. م.) والشاعـر الإنكليـزيّ شيلـي (١٧٩٢- ١٨٢٢م) رمـز لـلإرادة الصامدة القويـة. بروميثيوس هو الإلـه الـذي علّم الناس استخـدام النار والزراعـة والطـب، دون أنْ يحصـل على إذنٍ مـن كبير الآلهة زيوس، ولذلك عاقبه زيوس بأنْ رماه على قمة جبل، وأمر الطيور الجارحـة بنهش كبـده، دون أنْ تميته، لكي يستمـر الألم، والعاصفـة في بعض الأعمال الأدبية رمز للثورة.

الأسد رمز الشجاعـة، وترمز الحرباء، التي تتلون بلون الأرض التي تعيش فيها، إلى الرجل المتعدد الوجـوه، الذي يتغير ويتبدل بحسب مصالحه، ويرمـز الثعلب إلى المكر والدهاء والخداع والاحتيال.

يرمـز الشاعـر العراقي عبـد الوهاب البياتـي (١٩٢٦- ٢٠٠٢م) بسيزيـف إلى الإنسان الذي يتعب لغيره، مثل الفلاح الذي يزرع وغيره يحصـد، وسيزيف هو الإنسان الـذي أجبرته الآلهة على أن يدحرج صخرة صعوداً،فإذا ما بلـغ قمة الجبل، تدحرجت الصخرة إلى أعماق الوادي، ويعاود المحاولة تلو المحاولة دون جدوى.

وعندما يصف الشاعـر الجاهليّ امرؤ القيس الليل فهو يرمز بـه لحالته النفسية بعد مقتـل أبيه وعجزه عن الأخـذ بالثأر، يقول امرؤ القيس:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدولَهُ
علـي بـأنـواع الـهـمـوم ليبتلي
فقلت لـه لمّـا تمطى بصلبه
وأردف أعـجـازاً ونـاء بكلكلِ
ألا أيّـها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ
بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

تمر ساعـات الليل بالنسبـة إلى امرئ القيس ببـطء، لأنّ الساعات الحزينة، تمرُ عادةً على الإنسان، ببطءٍ شديدٍ على عكس الساعات السعيـدة التي تمر بسرعةٍ، ولكن الصباح لـن يكون أفضل مـن الليل، يشبّه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

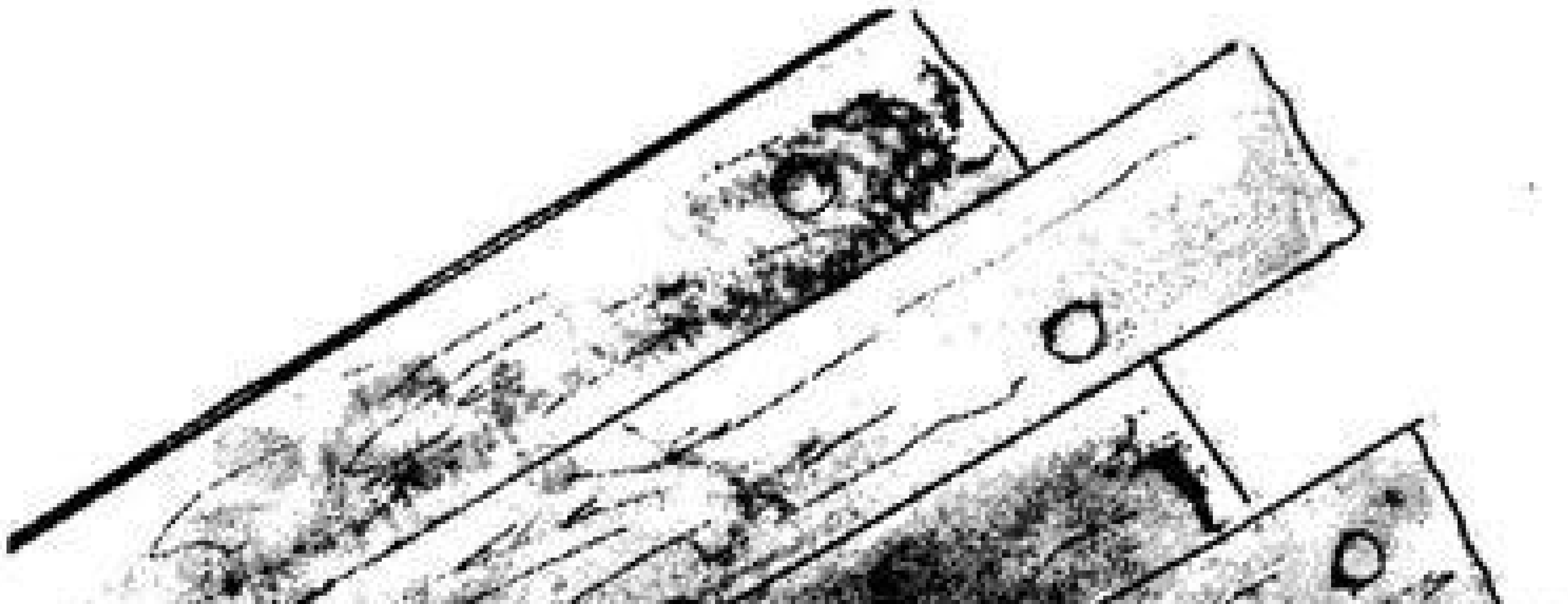

امرؤ القيس الليل بناقة بركت بكلِّ ثقلها على صدر الشاعر الحزين.

ظهرت المدرسة الرمزيّة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي فرع من فروع الرومانسيّة، ولكنه فرع ابتعد عن الأصل، فشكّل مدرسة مستقلة.

الرمزيّة والنظرية التعبيريّة:

قامت المدرسة الكلاسيكيّة على نظرية المحاكاة، محاكاة الأقدمين، أيّ محاكاة الأدبين الإغريقيّ والرومانيّ، وأمّا المدرستان الرومانسيّة والرمزيّة فتقومان على نظرية التعبير،والتي انطلقت من الفلسفة المثاليّة،والتي كان الفيلسوف الألمانيّ كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤م) من كبار دعاتها، وكذلك الفيلسوف الألمانيّ هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١م)، وترى الفلسفة المثاليّة أنّ في الكون أسراراً، يعجز العلم الذي يعتمد على الحواس وعلى التجربة عن إدراك جوهرها، وترى النظرية التعبيريّة إمكانية معرفة العالم عن طريق الحدس، وليس طريق الحواس، وعن طريق القلب والعاطفة وليس عن طريق العقل،وظهرت كرد على المدرسة الواقعية الطبيعيّة وكما يقول الدكتور عبد المنعم تليمة في كتابه «مقدمة في نظرية الأدب»: الرمزية تقوم على تقديم «الموهبة على الصنعة، والإلهام على المهارة، والتلقائيّة على القانون الفنيّ، والعفويّة على القاعدة».(١)

وكذلك اعتمد أنصار المدرسة الرمزيّة في آرائهم على قول الفيلسوف الإغريقيّ أفلاطون (٤٢٨- ٣٤٧ق.م.): «لأنّ الشاعر مجنح ومقدس، ولا يستطيع أنْ يُبدع إلا حين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يُلهم، ويتخلى عن حواسه وعن سيطرة العقل عليه، وإذا لم يتوصل إلى هذه الحالة يكون عاجزاً عن الإبداع».(٢)

عناصر المدرسة الرمزيّة:

١- تراسل الحواس: يقول الدكتور محمّد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن»، الذي صدر عام ١٩٥٣م عن هذا الموضوع: «ومن وسائلهم الفنية في ذلك الإفادة من تراسل الحواس، فتعطى المسموعات ألواناً، وتصير المشمومات أنغاماً، وتصبح المرئيات عاطرةً،لتوليد إحساسات تُغني بها اللغةُ الشعريّة».(٣)

٢- الموسيقى: وتعني تحرير الشعر من الأوزان التقليديّة من أجل تنوع موسيقى الوزن، بما ينسجم مع تنوع المشاعر وخلجات النفس، فيتطابق الشعور مع الموسيقى الشعريّة.ورأى الرمزيون أنّ أثر الصوت في النفس ليس أقل من أثر اللون أو العطر.

٣- الارتكاز على الأسطورة: يكثر أصحاب المذهب الرمزيّ من استخدام الأسطورة في قصائدهم، مثل أسطورة بروميثيوس، وأسطورة سيزيف، ويختلط عندهم الشعور باللاشعور، وعالم الأشباح والأرواح بعالم الناس.

٤-الوحدة العضويّة:«النص الرمزيّ نص يتسم ببنية متينة ترتبط عناصره بعلاقات تشكل وحدة عضوية له. والوحدة العضوية كما شرحها كولردج تعني أن تنمو القصيدة من داخلها وأن تكون نسيجاً حيا متناميا نمواً عضوياً طبيعياً تؤدي فيه كل خلية إلى التي تليها إلى أن تكتمل البنية الفنية للنص. ويستحيل أن تقتطع من النص الرمزيّ جزءًا أو مقطعاً لأنه يهدف بهذه الوحدة العضوية ويمس عناصرها الجمالية والمعنوية. ويرى أدونيس أن القصيدة ما هي إلا فضاء فني مستقل يتداخل فيه كل شيء أما ادغار آلان بو فيرى أنّ الوحدة العضوية في الشعر تقتضي أن تكون القصيدة قصيرة، حتى يستطيع القارئ أن يمتص الشحنة الشعورية دفعة واحدة، أما إذا تناولها في جرعات فهذا يعني تقطيع أوصالها وأعضائها الحية، وبذلك يعجز عن تذوق أثرها الكلي».(٤)

٥- اللغة المتعددة الدلالات: أيّ تتضمن أكثر من معنى، ويبتعد الرمزيون عن المباشرة ويكرهونها، فغروب الشمس عندهم يوحي بالتشاؤم.

من ممثلي المدرسة الرمزيّة:

الشاعر الفرنسيّ بودلير (١٨٢١-١٨٦٧م)، كانت والدته الزوجة الثانية لأبيه، الذي كان رساماً، وتوفي والده عام ١٨٢٧، عندما بلغ بودلير السادسة من عمره.تزوجت والدة بودلير، بعد وفاة أبيه ضابطاً في الجيش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

برتبة مقدم.أيّ إنّ والده تزوج مرتين، وكذلك والدته، أمّا بودلـير فلم يتزوج، وكانت لديه صديقة لم تكن مخلصـةً له، ولم يكن مخلصاً لها، فله علاقات مع بنات الهوى.طرح على بودلير العمل في السلك الدبلوماسيّ، إلا أنّه رفض وتفرغ للعمل في مجال الأدب.

عاش حياته حزيناً متألمـاً، ديوانه المهم هـو «أزهـار الشـر» (١٨٥٧م) وقـد أودع الديوان محبته وإيمانه وقلبه. فالأزهار شيء جميل، والشر قبيح، فهنـا أمران متضادان متناقضان، الجمال والقبح،هذه هي علاقة بودلير بالمرأة، فهـو ينشد اللذة، ولكنها لذةٌ مترافقـةٌ مع الخيانة، ورأيـه في الحب «أنّ الحـبّ والعشق صفة الناس العاديين، أمّا الشعـراء فإنّهـم لا يعشقون المـرأة، وإنّما يعبدونها.»، وصـف بودلير في ديوانه الآنف الذكر الشهـوات الجنسيّة، ومفاتن الجسد، ولذلـك أُحيل بودلـير إلى المحكمـة، التي أدانته، فمنعت ست قصائد من الديوان من النشر ثانية، وأُجبرت بودلير على دفع غرامة ماليّة. ومن قصائد هـذا الديوان، قصيدة بعنوان «أنشودة الحسناء»، وقصيدة بعنوان «إلى سيدة خلاسية».

كمـا كتب بودلـير ديواناً آخـر بعنوان «صواريـخ»، نُشر بعد وفاتـه. وكان بودلير رومانسيّاً ثُمّ برناسيّاً ثُمّ رمزيّاً، وكان بودلير مبذراً، ويهتم كثيراً بلباسه، وصديقاً للأديب الفرنسي المعـروف بلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠م) الذي كتـب «الكوميديا البشريـة»، والناقد سانـت بـوف (١٨٠٤-١٨٦٩م) وكذلـك الروائي فلوبـير (١٨٢١-١٨٨٠م)، وفيكتور هيجـو (١٨٠٢-١٨٨٥م)، والشاعر فيرلين (١٨٤٤-١٨٩٦م).

ترجم بودلـير بعض أعمـال الرمزيين الأمريكيين إلى اللغة الفرنسية منهم (إدغار آلان بو)، ولبودلير (١٨٢١-١٨٦٧م) آراء في الجمال منها:

١- عـدم التقيد بالقواعـد،لا بل من الضـروري الخروج عنها، لأنّنـا إذا التزمنا بالقواعد التي يضعهـا النقـاد فسيزول الجمال عن وجه الأرض.

٢- يجب علـى الأديب أن ينشد الغرابة والأشيـاء الجديدة والمتعـددة الأشكال لأنّ أذواق الناس متنوعة وكثيرة.

٣- «إن الجميـل دائماً غريب، ولا يكون غريباً عمداً وبتصميم، يكون في تلك الحال مسخاً خارجاً عن سبل الحياة، لكن أقول إنّه يحتوي دائمـاً بعض الغرابة، غرابة عفوية، لامقصودة ولا واعية»(٥) كتب الآراء المذكورة عام ١٨٥٥ وبعد مـرور أربع سنوات، أي في عام ١٨٥٩ كتب عن الجمال ما يلي:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«إنّ الرغبة في الإدهاش والاندهاش مشروعة جداً.... ومع أنّ الجميل دائماً مدهش، سيكون من السخف افتراض أنّ ما يدهش هو دائماً جميل»[6] ويعرف الجمال على أنّه شيء مضطرم وحزين «والغموض والشعور بالذنب هما صفتان للجمال».[7]

٤- الجميل هو الذي يثير فينا شعوراً بالحزن والألم، وعلى الشاعر أن يبتعد عن المواعظ الأخلاقية لأنّ الشعر لا ينشد سوى الجمال.

ومن ممثليها أيضاً الشاعر رامبو(١٨٥٤-١٨٩١م)، وفيرلين، وفي بلجيكا ميترلينك ومن مسرحياته «المكفوفون».

المسرحيّ النرويجيّ إبسن:

ولد إبسن في النرويج عام ١٨٢٨م في ٢٠ آذار، وتوفي عام١٩٠٦ م في ٢٣ أيار، أيّ عاش ٧٨سنةً،كان والده تاجراً خسر أمواله في صفقاتٍ تجاريّةٍ، فعمل إبسن عاملاً في إحدى الصيدليات، تزوج عندما بلغ الثلاثين من عمره، أيّ عام ١٨٥٨م، واسم زوجته سوزانا، وهي ابنة روائية في النرويج.

أصدر في العشرين من عمره، أيّ عام ١٨٤٨ مسرحيّة شعريّة في ثلاثة فصول، بعنوان «كاتيلينا»، وأصدر عام ١٨٦٤م مسرحية «براند»، وأصدر عام ١٨٧٩م مسرحية «بيت الدمية»، وأصدر عام ١٨٩٣م مسرحيةً بعنوان «عدو الشعب»، وله مسرحيات كثيرة، أُصيب بالشلل عام ١٩٠٠، أيّ في السنوات الست الأخيرة من عمره.

المدرسة الروسية الرمزيّة:

من أهم ممثليها فلاديمير سالافييف (١٨٥٣- ١٩٠٠م)، الذي انتقد آراء الروائي والناقد الروسيّ تشيرنيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩م)، الذي كتب رسالة ماجستير بعنوان «علاقات الفن الجمالية بالواقع»عام ١٨٥٥م، وأصدر الطبعة الثالثة منها قبل وفاته بعامٍ واحدٍ،أيّ عام ١٨٨٨، ويطرح تشيرنيشيفسكي مفهومي طبقيّة الجمال ونسبيته، وارتباطه بالحياة والواقع.

ومن الأدباء الروس الذين مثلوا الرمزيّة في أدبهم سالاغوب. ومن الصحف الروسيّة التي روجت للرمزية صحيفة «الفجر»، التي نشرت مجموعة مقالات عام١٨٨٤م ضد الاتجاه النفعيّ في الأدب، وكتب في الجريدة المذكورة ناقد اسمه مينسكي،الذي طالب بإبعاد الأدب عن السياسة.واهتم الرمزيون الروس بفلسفة شوبنهاور ونيتشه الألمانيين. يقول أحد ممثلي المدرسة الرمزيّة الروسية وهو مير شكوفسكي: «يتحقق الرمز عندما لا يحدد،... إنّه متعدد الوجوه، متعدد الدلالات، وهو غامض دائماً ...»[8]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر ألكسندر ألكسندر فيتش بلوك
Blok (ALEKSANDER ALEKSANDRO VICH) ١٨٨٠. ١٩٢١م

ولد الشاعر الروسيّ الكبير ألكسندر بلوك في عاصمة روسيا القيصرية في مدينة سانت بطرسبورج، في أسرة مثقفة، إذ كان والده أستاذاً في جامعة وارسو في بولونيا، وكانت والدته واسمها بيكيتوفا كاتبة ومترجمة وهي ابنة رئيس جامعة سانت بطرسبورج. قضى طفولته في العاصمة سانت بطرسبورج، وفي قرية، في ضواحي موسكو- اسمها شاخمتوفو.

وقع الشاعر المذكور وهو في السابعة عشرة من عمره بحب سيدة في السابعة والثلاثين، أم لثلاثة أطفال، وأهداها بعض قصائده.

تزوج فتاة اسمها لوبوف عام ١٩٠٣ وهي ابنة العالم الكيميائيّ الروسيّ الشهير مينديلييف (١٨٣٤-١٩٠٧م) ولكن حياته الأسرية، لم تكن موفقة كثيراً فلقد تركته زوجته مراراً وعادت إليه مراراً، وقامت علاقة حب بين لوبوف وبين صديق حميم لزوجها وهو الشاعر أندريه بيلي (١٨٨٠-١٩٣٤م).

تخرج في جامعة سانت بطرسبورج، كلية الآداب، قسم الأدب الروسيّ والسلافي، عام ١٩٠٦.

١- مجموعة «قُبيل النور» (١٨٩٨-١٩٠٠م).

بدأ ألكسندر بلوك بنظم الشعر عام ١٨٩٨ أي عندما بلغ الثامنة عشر من عمره وجمع قصائده التي نظمها ما بين عامي (١٨٩٨- ١٩٠٠م) في مجموعة شعرية صدرت بعنوان «قبيل النور»، وتتضمن المجموعة قصيدة بعنوان «ليسطع البدر»، التي نظمها بلوك عام ١٨٩٨ في مدينة سانت بطرسبورج، ويقول فيها:

«ليسطع البدر... الليل ظلام،
وليكن العمر لكل الناس هناء،
لكن ربيع الحب بقلبي
لن يشرق بين غيوم الأنواء»(٩)

وتتضمن المجموعة قصيدة بعنوان: الهمايون... «طائر النبوءات» نظمها الشاعر عام ١٨٩٩، وقال فيها:

«والوجه الجميل يشتعل حباً
وقد تملكه رعب النذير،
والشفاه وقد تخثر عليها الدم
تنطق بالنبوءة- الحقيقية.....»(١٠)

تنبأ ألكسندر بلوك في قصيدته الآنفة الذكر بالاعدامات الدموية والحرائق المستعرة، وبقوة الأشرار، وهلاك الأبرار،

وقامت ثورة عام ١٩٠٥ بعد ستة أعوام على نظمه للقصيدة المذكورة، وأثبتت الأحداث التاريخية صدق تنبوءاته.

٢- مجموعته الشعرية الثانية «أشعار عن السيدة الجميلة»

«Verses About The Lady Beautiful»2.

نظمها ما بين عامي ١٩٠١-١٩٠٢م

يقع ألكسندر بلوك في هذه الفترة من حياته تحت تأثير أفكار الشاعر الروسيّ فلاديمير سولفيوف ١٨٥٣- ١٩٠٠م، الذي كان يدعو إلى الفكر الديني والغيبي والأخلاقي والعدالة الاجتماعية، ورأى سولفيوف أنّ «العالم الأرضي مجرد انعكاس لعالم الغيب، عالم المشاعر المتعالية والتي هي الواقع الأسمى»(١١) ويرى الشاعر أنّ الصراع الأساسيّ في العالم هو ما بين الروح والجسد وما بين المادة والفكر وما بين كلّ ما هو سماويّ وكل ما هو أرضيّ.

٣- مجموعته الشعرية الثالثة «مفارق الطرق» ١٩٠٢- ١٩٠٤:

وتتضمن المجموعة عدداً من القصائد من بينها قصيدة «المصنع»، التي نظمها الشاعر عام ١٩٠٣، والتي يمكن اعتبارها نقطة تحول في حياة الشاعر الإبداعية، فيتحدث لأول مرة عن قساة النظام الرأسماليّ «ويبدي الشاعر تعاطفه مع الفقراء في هذه القصيدة».(١٢)

٤- المجموعة الشعرية الرابعة بعنوان «المدينة»:

«The city»4.

وتضم بعض قصائده ما بين عامي ١٩٠٤- ١٩٠٨م ومن بين قصائد المجموعة قصيدة «الاجتماع» نظمها الشاعر عام ١٩٠٥ وقصيدة «المتخمون» ونظم الشاعر قصائد هذه المجموعة خلال ثورة عام ١٩٠٥ التي كادت أن تقضي على النظام القيصريّ، إلا أنّها فشلت.

٥- أصدر الشاعر المذكور عام ١٩٠٧م مجموعة شعرية بعنوان «قناع الثلج»

»Mask of Snow»5.

ويصدر في العام ذاته مجموعة شعرية أخرى بعنوان «أفكار حرة» وفي عام ١٩٠٨م يصدر مجموعة شعرية بعنوان «فايينا» وتتضمن بعض قصائده ما بين عامي ١٩٠٦- ١٩٠٨م كما أصدر مجموعة شعرية بعنوان «في ساحة كوليكوف» وتضم بعض القصائد التي نظمها الشاعر خلال عامي ١٩٠٧- ١٩٠٨م.

وتتميز قصائد الشاعر في هذه المرحلة من حياته الإبداعية بالإحساس بآلام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعب، فيذكرنا بالموضوعات التي كان يطرحها دوستويفسكي ١٨٢١- ١٨٨١م، الذي كتب رواية «الفقراء» في عام ١٨٤٦ ورواية «المذلون والمهانون» في عام ١٨٦١ وكان موضوع الفقراء والمظلومين والمحرومين الموضوع الأساسيّ في أدبه: ويرى ألكسندر بلوك أنّ الصراع بين الظالمين والمظلومين صراع طويل ويهدف الصراع لتخليص الكادحين من الاستغلال وبالتالي يهدف لخلاص الوطن بكامله.(١٣)

ويبدأ ألكسندر بلوك في هذه المرحلة برفض أفكار التسامح التي نادى بها ليف تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠م) والتي انتشرت في روسيا في تلك الفترة. وينتقد المدرسة الرمزية في الأدب والفن، واختلف مع صديقه الشاعر أندريه بيلي حول هذه النقطة لأن الأخير كان يتبنى أفكار الاتجاه الرمزيّ، ويدعو ألكسندر بلوك إلى تأسيس مدرسة أدبية تجمع ميزات الاتجاه الرمزيّ وميزات المدرسة الواقعية النقدية، فيكتب في مذكراته في عام ١٩٠٧ أنّ الفرق الأساسي بين المدرسة الواقعيّة والمدرسة الرمزيّة أنّ الأولى تهتم بالعالم وبالوسط الاجتماعي في حين يهتم ممثلو المدرسة الرمزيّة بتأملاتهم عن ذواتهم.

٦- بلوك والمسرح:

كتب ألكسندر بلوك مسرحيته الشعرية الأولى في عام ١٩٠٦ بعنوان «المضحك»، وانتقد بها الأفكار الغيبية، التي كان يؤمن بها قبل خمس سنوات.

وأصدر في العام ذاته مسرحيتين شعريتين الأولى بعنوان «الملك في الساحة» والثانية بعنوان «الغريبة»، وأخذ تصديراً لهذه المسرحية من رواية دوستويفسكي «الأبله» ١٨٦٨، وبعد مرور عامين أصدر مسرحية شعرية بعنوان «أغنية القدر» وقدم الشاعر تصديراً لمسرحيته الشعرية للكاتب الروسي نيكولاي غوغول ١٨٠٩- ١٨٥٢م.

وأصدر بلوك عام ١٩١٢ مسرحية شعرية تاريخيّة بعنوان «الوردة والصليب» وتجري أحداث المسرحية في القرن الرابع عشر وكتب عام ١٩١٩ مسرحية تاريخية نثراً بعنوان «رمسيس الثاني» وتجري أحداثها في مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ويقول رمسيس الثاني في المسرحية المذكورة «فلتعلم الأمم كلها كم نحن أقوياء، لا تغيب شمس مجدنا».(١٤)

ويعالج بلوك في مسرحياته موضوعاً رئيسياً ألا وهو الوطن، فلقد أقلقه مصير روسيا بعد ثورة ١٩٠٥، ومع أنه عاش في ظروف مادية ممتازة، إلا أنه تعاطف مع

معاناة الفلاحين والعمال، وتفهم مطالبهم، ورأى ضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية.

وكتب عام ١٩٠٨ مقالاً بعنوان «المسرح» جاء فيه: «المسرح هو التجسيد الحقيقي للفن، حيث تصبح الكلمة فعلاً على خشبة المسرح، لذلك فالإبداع المسرحي أرقى أشكال الإبداع».(١٥)

كتب بلوك مجموعة كبيرة من الدراسات الأدبية. ففي عام ١٩١٩ كتب دراسة عن مكسيم غوركي (١٨٦٨ . ١٩٣٦م) وفي العام ذاته كتب مقالاً عن المدرسة الرومانسيّة، ومقالاً آخر عن مأساة شكسبير «عطيل» وفي عام ١٩٢٠ كتب عن مأساة أخرى لشكسبير وهي مأساة «الملك لير» كما كتب عن الأديب الروسي ليونيد أندريف في عام ١٩١٩م.

وأصدر بلوك مجموعة شعرية بعنوان «الانتقام» عام ١٩١٣ وفي عام ١٩١٤ مجموعة شعرية بعنوان «كارمن» وفي عام ١٩١٥ مجموعة بعنوان «حديقة البلابل» ومجموعة شعرية في العام ذاته بعنوان «الوطن».

وكتب سيرته الذاتية عام ١٩١٥ ودراسة مطولة بعنوان «الأيام الأخيرة للسلطة القيصرية» عام ١٩١٨م.

٧- ملحمة «الاثنا عشر» نظمها بلوك عام ١٩١٨م

«The Twelve»

أيّ مباشرة بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا، التي قامت عام ١٩١٧ ويقف بلوك مع النظام الجديد ويدين النظام القديم المتعفن ويمزج الشاعر في هذه الملحمة بين المدرسة الرومانسية وبين مدرسة الواقعية الاشتراكية. ويرمز الشاعر بالليل الأسود والثلج الأبيض إلى التناقضات التي كانت قائمة في تلك المرحلة، إلا أنّ طبيعة شتاء مدينة بطرسبرج هي كذلك، ليلها في الشتاء بارد مظلم، وثلج أبيض. توفي بلوك في ٧ آب عام ١٩٢١ بسبب المرض بعد أن بلغ عمره الواحد والأربعين عاماً.

• • •

المدرسة الرمزيّة العربيّة:

تنتمي بعض قصائد الشعراء العرب في القرن العشرين إلى المدرسة الرمزيّة، منها قصيدة جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١م) وهي بعنوان «المواكب» (١٩١٩)، ويقول في بعض أبياتها:

هل تَخذتَ الغاب مثلي
منزلاً دونَ القصور

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

فتتبعتَ السواقي
وتسلقتَ الصخور؟
هل تحممتَ بعطرٍ
وتنشفتَ بنور
وشربتَ الفجرَ خمراً
في كؤوسٍ من أثير؟
هل فرشتَ العشبَ ليلاً
وتلحفتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي
ناسياً ما قد مضى؟

ويتابع جبران:

أعطني الناي وغنِّ
فالغنا يرعى العقول
وأنينُ الناي أبقى
من مجيدٍ وذليل
ليس في الغابات حزنٌ
لا ولا فيها الهموم
فإذا هب نسيمُ
لم تجئ معه السموم

نجد في هذه القصيدة ثنائية ضديّة بين الحياة في الغاب، وبين الحياة في القصور، فالغاب يعني الحياة البسيطة العفوية البريئة، يعني حياة الفطرة، حيث الإنسان لايملك شيئاً، ومن ثم فهو حر بعيد عن الأنانية، ونظم جبران قصيدته «الغاب» على وزن مجزوء الرمل، ونجد قصائد كثيرة للشاعر التونسيّ أبي القاسم الشابي يتغنى فيها بالغاب، وتذكرنا أبيات جبران بقصيدة ميسون زوجة معاوية بن أبي سفيان، والتي تقول فيها:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه
أحبُ إلي من قصر منيفِ

فلقد أحست نفس هذه البدوية في بيت بسيط بالراحة أكثر من شعورها بالطمأنينة في قصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

خاتمة: يقول الدكتور حسام الخطيب: «ومن أشهر شعراء الرمزية فرلين (١٨٤٤-١٨٩٦م)، ويقوم مفهوم رمزيته على أن وسائل الفن هي التنوع في اللون والشكل وهي الضبابي والطائي لأن غرض الشعر ليس الفكرة الواضحة والعاطفة الدقيقة بل الإبهام في القلب والغموض في الإحساسات والتردد في حالات النفس. وعنده أن الشعر يجب أن يقترب من الموسيقى أكثر مما يقترب من النحت والرسم، وعليه -شأن الموسيقى- أن يوحي لا أن يرسم ويصور الخطوط والأشكال. أما الكلمات فيجب أن لا تستعمل (دون شيء من الخطأ) ويجب أن تبتعد عن الدقة، وعلى القافية أن تكتفي بشيء تقريبي يلامس الأذن دون أن يصدمها.

ولقد أظهر فيرلين بالذات نوعاً من الهوس بالموسيقى، وكان يتوق إلى تحويل الشعر إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نوع من الموسيقى المنطلقة الهائمة المتحررة من كل تقليد وقد تجلـى ذلك في قصيدته (الموسيقى) التي يقول فيها:

الموسيقى قبل كل شيء.....

الموسيقى أيضاً وفي كل حين،

ليكن بيت الشعر الذي تنظمه الشيء الطائر

الذي تحسه هارباً من النفس في انطلاقه

نحو جديد من السماوات وجديد من الحب.»(١٦)

ويرى رامبو (١٨٥٤-١٨٩١م) أنّ الشعر يصنع من الكلمات، لا من الأفكار.

ويعد الشاعر مالارميه (١٨٤٢-١٨٩٨م) زعيم المدرسة الرمزيّة الفرنسية، الذي عمل مدرساً للغة الإنكليزيّـة في فرنسا، والذي كان يـرى أنّ الإيحاء خلق والتسمية تدمير. ولذلـك يرى الدكتور محمّـد مندور أنّه من المستحيل ترجمة الشعر الرمزيّ، لأنّه يعتمد على موسيقى الشعر، ولأنّ الشاعر لا يفصح عن إحساساته ومشاعره بشكلٍ واضحٍ.(١٧)

الحواشي والمصادر

١- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب،ص١٨٨.

٢- غراهام كوليير، الفن والشعور الإبداعيّ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ص١٢٤.

٣- د محمّد غنيمي هلال، الأدب المقارن، بيروت، دار العودة، ط٥، ص٣٩٩-٤٠٠.

٤- د .رضـوان قضماني، نظرية الأدب، جامعة البعث، ١٩٩٩، ص١٧٤، ويعود في بحثه إلى الدكتور نبيل راغب وإلى الشاعر أدونيس.

٥- بودلير، سلسلة أعلام، الكتاب الثاني، وزارة الثقافة، ١٩٨٠، ص١٣٩ .

٦- المصدر السابق، ص١٤١.

٧- المصدر السابق.

٨- د. أيمن أبو شعر، الشعر الروسيّ، ١٩٨٦، دمشق.

٩- بلوك، ألكسندر. مختارات شعرية، موسكو دار رادوغا ١٩٨٥، ترجمة د. أبو بكر يوسف ص٢٨.

١٠- المصدر نفسه ص٣٠.

١١- أبو شعر، أيمن، الشعر الروسيّ ١٩٠٠ -١٩٨٠ دمشق، ١٩٨٦ ص ١٥٤.

١٢- موراتـوف، قسطنطين، تاريخ الأدب الروسيّ، المجلد الرابع، لينينغراد دار العلم، ١٩٨٣ ص ٢٥٢: المصدر باللغة الروسية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٣- بلوك، ألكسندر، المؤلفات الكاملة. المجلد الخامس، لينينغراد، دار الأدب الإبداعيّ ١٩٦٢ ص١١٥. المصدر باللغة الروسيّة.

١٤- بلوك، ألكسندر المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، لينينغراد، دار الأدب الإبداعيّ ١٩٥٨.

١٥- بلوك، ألكسندر، المؤلفات الكاملة. المجلد الرابع، لينيغراد، دار الأدب الإبداعيّ، لينينغراد، ١٩٨٢

١٦- د. حسام الخطيب، جانب من الأدب والنقد في الغرب، جامعة دمشق، ط٦، ١٩٩٧ص١٩٥-١٩٦.

١٧- د محمّد مندور، في الأدب والنقد، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٣٨

١٨- محمّد فتوح أحمد، الرمز والرمزيّة في الشعر العربيّ المعاصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصورة في عصر العولمة

هبة الله الغلاييني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نحن محاطون اليوم بالصور، ففي كل زاوية نتلفت إليها تواجهنا الصور، الصور موجودة في كل مكان، في البيت حيث نجد التلفزيون والفيديو وألعاب الفيديو، وفي الشارع، وملاعب الكـرة، ووسائل المواصلات حيث الإعلانات الثابتة والمتحركة، المضيئة وغير المضيئة، لقد أصبحنا نعيش فعلاً في حضارة الصور ولم يعد ممكناً أن نفكر في كثير من أمور حياتنا السياسية والاقتصادية والتربويــة والترفيهية من دون أن نفكر في الصور، إن يومنا مزدحم بالأخبار

* كاتبة ومترجمة من سورية.

العمل الفني: الفنان مصطفى صافي.

السياسية التي تتدفق عبر أجهزة التلفزيون، من خلال النشرات الإخبارية والبرامج الحوارية والصحف اليومية، وهناك كذلك أخبار المال والاقتصاد، وهناك الأفلام والمسلسلات والأغاني والألعاب الرياضية، وهناك التفكير في نجوم هذه المجلات ومحاولات الشباب محاكاتهم والتوحد معهم، لقد أصبح عالم النفس البشرية عالماً تشغله صناعة الصورة إلى حد كبير.

أظهرت بعض الإحصاءات الحديثة أنه منذ ظهور التلفزيون المتعدد القنوات لم يشاهد نحو ٥٠٪ من الأطفال تحت سن الخامسة عشرة برنامجاً واحداً منذ بدايته إلى نهايته.

إن هذا يدل على وجود حالة من حب الاستطلاع البصري الشديد التي جعلت هؤلاء الأطفال يتحولون دائماً من قناة إلى أخرى هروباً من الملل وبحثاً عن الجديد الذي قد يكون موجوداً في قناة أخرى غير التي يشاهدونها، لقد جعلت مثل هذه الظواهر بعض المعلمين يقولون إن الانتقال إلى قرية الاتصالات العالمية، أو العالم الذي أصبح مثل القرية الواحدة التي تربطها الاتصالات الإلكترونية، قد كان انتقالاً جذرياً بشكل أثّر - على نحو خطر - في العلاقة التقليدية المعروفة بين التربية والثقافة، فقد حلّت ثقافة الصورة محل ثقافة الكلمة، ولم تعد العين المعاصرة عيناً بريئة أو ساذجة، فما نراه اليوم يأخذ شكله الخاص من خلال صور جرى إعدادها وتجهيزها بطريقة معينة من قبل، إن هناك فرقاً جوهرياً بين صور اليوم وصور الماضي، ذلك لأن صور اليوم تسبق الواقع الذي يفترض أنها تمثّله بينما كانت صور الماضي تجيء تالية للواقع ومتوقفة عليه.

لقد أصبح الواقع صورة شاحبة من الصورة، إن الصورة هي الأساس وليس الواقع، والصورة أصبحت تسبق الواقع وتمهّد له، الصور تحدث أولاً ثم تحدث المحاكاة لها في الواقع، لم تعد الصورة محاكاة للواقع، بل أصبح الواقع أشبه بالمحاكاة للصور، انظر إلى هذا في سلوك الشباب الذين يحاكون سلوك الممثلين ولاعبي الكرة ونجوم الغناء، ومما يرونه في الأفلام والمسلسلات، انظر إلى محاكاة الأطفال سلوك بعض الشخصيات الخيالية في برامج الكرتون وألعاب الفيديو، انظر إلى موضوع صناعة الصورة في سلوك بعض السياسيين وبعض نجوم المجتمعات الحديثة، إن صورة الميديا التي تمثّل بعض السياسيين في كثير من بلدان العالم اليوم يكون لها دورها البارز في نجاحهم في الانتخابات، وفي استمرارهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أداء مهامهم بشكل ناجح أو فاشل، وما تقدمه القنوات الفضائية اليوم من بعض الأحداث السياسية كثيراً ما يكون أشبه بالمجموعة أو الباقة البصرية المفعمة بالوقائع والصور والأحداث المثيرة للانفعالات والحواس والذكريات، والمشاعر مع أنها كثيراً ما تكون صوراً زائفة أو شبه حقيقية، ولا تتضمن الحقيقة كلها بسبب ما نعرفه اليوم عن مراقبة الصور والتحكّم فيها، وتوجيه الكاميرات إلى زوايا خاصة في عصر تتعالى فيه كل يوم صيحات الادّعاء بالإعلام الحر والمشاركة وديمقراطية المشاهدة، وما شابه ذلك من مزاعم، في مجال الاقتصاد أحياناً ما نجد الآن في مجتمع الاستهلاك إنتاجاً مستمراً للسلع يجري تحت وطأة الحضور الخاص والشهرة الخاصة لماركة أو علامة تجارية معينة، وتحت الإغراء الخاص بالإعلانات المصاحبة لهذه الماركة أو العلامة وهناك وعي متزايد كذلك في مجال الثقافة الفنية بأن الصور قد حلت محل الواقع الأصلي، ذلك الواقع الذي يتوقع من الصور أن تحاكيه أو تعكسه أو أن توازيه أو تخلفه حسب النظريات الفنية والنقدية الماضية،

لقد أصبح من المستحيل الآن الفصل بين الواقع والمتخيل، وقد أدى هذا إلى ظهور أزمات في مجال الفنون الحديثة، لقد أصبح الفن ضد الفن، وضاقت المسافة بين الثقافة العليا أو الراقية والثقافة الشعبية أو العادية، وتزايدت الشكوك حول موثوقية أو تفرّد الصورة الفنية الأصلية في عصر النسخ الآلي.

لقد أدّت عمليات توافر الصور ونسخها وتوزيعها على نحو جماهيري من خلال التكنولوجيا الحديثة إلى طرح تساؤلات مكرّرة حول فكرة التفرد القديمة الخاصة بأعمال فنانين كبار أمثال ليوناردو دافنشي وفان غوخ، وجرى المزج بين زجاجات الكوكاكولا وصور نجوم سينما أمثال إليزابيث تايلور ومارلين مونرو، وأصبحت الإعلانات التجارية تستخدم صور «الموناليزا» لدافنشي، أو «فينوس تخرج من البحر» لبوتشيللي في الإعلان عن منتجاتها من العطور أو غيرها من السلع، لقد أصبحت المحاكاة التهكمية والتناص البصري وتداخل الأزمنة والأمكنة والشخصيات والأعمال الفنية مكوناً أساسياً وآلية جوهرية من آليات عصر الصورة، إن العلاقة بين الخيال والواقع لا تطبّق الآن فقط، بل تُدمّر أيضاً، بحيث أصبحنا لا نعرف ما الواقع وما الخيال في عالم الصور المحاكية والمحاكاة الزائفة، لقد حطمت ما بعد الحداثة اليقين الحداثي في أصالة الصور كمتغير موثوق به أو أصيل أو منفرد، إن صور ما بعد الحداثة تعبّر عن طريقة صناعتها بشكل خاص، وتعرض لصيغتها غير الأصلية والمؤقتة، تعرض لسطحها الخاص المؤقت العابر، هل نلاحظ ما يحدث الآن في القنوات الفضائية العربية المخصصة لعرض الأغاني الحديثة المسماة «الفيديو كليب» وكيف يحدث إنتاج شبه يومي للأغاني الجديدة؟ هل نلاحظ هذا الاستبدال المستمر للمطربين؟ هل نلاحظ البروز لبعضهم أحياناً، بحيث يصلون إلى مرتبة النجوم، ثم السقوط المدوّي لهم ما دام شرائطهم أصبحت لا تباع كما كانت تباع في الماضي؟ إنهم قد تحولوا بدورهم إلى سلع تباع وتشترى ويجري احتكارها لسنوات تطول أو تقصر، ولم تعد القيمة المعطاة لأي مطرب قيمة فنية، بل قيمة تجارية يعلو معها وينخفض ويهمل حسب مبيعات شرائطه، لقد أصبحت أسماؤهم كثيرة مثل أسماء الزيوت والصابون وماركات الشاي و..إلخ، بحيث أصبح من الصعب أحياناً تذكّر أسماء كثير من هؤلاء المطربين، إنهم يظهرون فنشاهدهم ونتابعهم ويختفون فلا نتذكرهم، وقد تصبح أغنية معينة هي الأفضل والأكثر طلباً ومبيعاً بسبب الإلحاح اليومي في عرضها، وتكرار الملاحقة للمشاهدين والمستمعين بها، ثم تظهر أغنية أخرى للمطرب نفسه أو لغيره فنجد أننا سرعان ما ننسى الأغنية الأولى، بل قد يبدو ظهورها الآن مزعجاً ومنفراً وداعياً إلى تغيير قناة المشاهدة، إن التكرار والإلحاح آلية من آليات ثقافة الصورة عموماً، ومن

بين آليات التكرار والإلحاح في البلاد العربية تكرار الألحان الغربية بمطربين ومطربات عرب من دون الإشارة حتى إلى المصدر الذي تُنقل الأغنية منه، إن كثيراً مما تقدمه القنوات الفضائية العربية الغنائية أشبه بالمحاكاة السطحية لقنوات عالمية، والكثير مما يُقدّم يعتمد على الإبهار البصري على الرغم من فجاجة الكلمات بسطحيتها في أحيان كثيرة، فالمهم هو الإبهار بالألوان والإضاءة والتصوير والإغواء بالتلميحات أو التصريحات الجنسية في الحركة والكلمة، وإبراز بعض مكونات الجسد الأنثوي على نحو خاص، لم تعد هذه الأغاني مرتبطة بمنطقة الكلمة والعقل أو المشاعر، بل بمناطق الإغواء والشبق والتحريض الجنسي، ومن هنا كان هذا الإبراز الدائم والكشف الدائم لمناطق خاصة من الجسد، وكذلك التنغيم المستمر للصوت الأنثوي فيما يشبه النداء الجنسي المستمر، إن الجسد يستخدم الآن بكثرة في بيع الفن كما يستخدم الفن في بيع الجسد.

ثقافة الميديا والاستعراض:

لقد أصبح الاستعراض خلال السنوات الأخيرة أحد المبادئ المنظمة للاقتصاد والسياسة والمجتمع والحياة اليومية، وينشر الاقتصاد القائم على أساس الإنترنت العروض، بوصفها وسيلة للتشجيع والإنتاج وللتوزيع وبيع السلع، وتتدفق العروض بغزارة عبر ثقافة الميديا المتقنة تكنولوجياً لجذب انتباه المشاهدين، ولزيادة سلطة الميديا ومنافعها، وتتخلل أشكال الترفيه المتنوعة برامج الأخبار والمعلومات، كما أن الصحافة أصبحت صحافة المعلومات المكثفة، الكثيرة الصور القليلة الكلمات (التابلويد) وهذه صحافة منتشرة بدرجة كبيرة الآن.

وقد أصبحت الوسائط المتعددة (المالتي ميديا) الجديدة، التي توالف بين الإذاعة والراديو والسينما والأخبار التلفزيونية وبرامج التسلية، والمجال الواسع الانتشار الخاص بثقافة الفضاء، أصبحت أعمالاً لافتة للانتباه بدرجة كبيرة خاصة بالثقافة التكنولوجية، مما عمل على إنشاء مواقع كثيرة واسعة الانتشار على الأرض وفي الفضاء للمعلومات والتسلية، كما عمل في الوقت نفسه على تكثيف شكل العرض الخاص بثقافة الميديا.

كذلك يجري تشكيل الحياة السياسية والاجتماعية على نحو متزايد من خلال عروض الميديا، فالصراعات السياسية والاجتماعية تعرض على شاشات ثقافة الميديا على نحو متزايد بحيث تعرض مشاهد مثل قضايا القتل الحساسة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعمليات التفجيرات المسماة إرهابية، وعمليات مهاجمة الطائرات للمدنيين، والفضائح الجنسية للمشاهير من النجوم والسياسيين، وكذلك العنف المتفجّر في حياة الإنسان اليوم.

إن ثقافة الميديا لا تشغل الوقت، وتستنفد الطاقة فحسب، لكنها أيضاً تقدم مادة متزايدة للتخيل والأحلام وصياغة الأفكار والسلوك والشخصيات كانت العروض موجودة منذ القدم، حيث كان لدى الإغريق ألعابهم الأولمبية، وكذلك احتفالاتهم الشعرية والمسرحية، مسابقاتهم الخطابية العامة، وحروبهم العنيفة الدموية، وكان لدى الرومان ساحات عروضهم وطقوسهم السرية، واحتفالاتهم المعربدة، وكانت لديهم معاركهم السياسية والعسكرية واحتفالاتهم الكبيرة بانتصارات القياصرة على أعدائهم، الساحات التي كان تلقي فيها بالعبيد للأسود بينما تهتف الجماهير جزلة مهتاجة مبتهجة هاتفة للإمبراطور وانتصاراته، كذلك كانت هناك تلك الاحتفالات الخاصة الموجودة في القرون الوسطى التي كان منها أعياد الحمقى وعيد الحمار وغيرها.

هكذا، فإن فكرة العرض والاستعراض والمشهد العام لها جذورها القديمة في الحروب والسياسة والدين والرياضة، ولكن مع نمو تكنولوجيا المعلومات والوسائط المتعددة الجديدة، أصبحت العروض التكنولوجية كما يقول الباحث «دوجلاس كيلنر» من العوامل الحاسمة في تشكيل الثقافات والمجتمعات الحديثة، على الأقل في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، كما أن عروض الميديا قد أصبحت من الملامح المحددة والمميزة للعولمة.

يبني كيلنرتصوراته التي عرضها في كتابه «ميديا الاستعراض» على أساس الأفكار التي قدمها ديبور في كتابه ومجتمع الاستعراض والقائلة إن الاستعراض يوحّد ويفسّر تشكيلة كبيرة من الظواهر، وقد استمر مفهوم ديبور الذي ظهر خلال ستينيات القرن العشرين يدور وينتشر عبر الإنترنت، وعبر مواقع أكاديمية وثقافية فرعية عديدة حتى اليوم، إنه مفهوم يصف مجتمع الميديا ومجتمع الاستهلاك المنظّم حول الإنتاج والاستهلاك للصور والسلع والأحداث المعروضة.

بناءً على هذا المفهوم قال كيلنر إن عروض الميديا هي تلك الظواهر الخاصة بثقافة الميديا التي تجسّد قيم المجتمع المعاصر، وتعمل على توجيه الأفراد نحو طرائقهم الخاصة في الحياة، وتؤجج أو تغذي المنافسات والصراعات الخاصة بهذا المجتمع، وتحدّد كذلك الحلول الخاصة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بهذه الصراعـات، تشتمل العروض الحالية علـى الأعمـال الفنية البـارزة، والأحداث الرياضيـة، والوقائع السياسيـة، والأخبار المثيرة للاهتمام، والفضائـح، والمناظرات السياسيـة، والحـروب الثقافية، وكذلك ما يُسمـى بالحرب علـى الإرهـاب، كل ذلك من خـلال أشكال خاصـة بالميديا تجتذب الإحساس والانتباه البصري والسمعي على نحو خاص.

فمع دخولنا الألفية الثالثة أصبحت الميديا مجالاً مذهلاً من الناحية (التكنولوجية) كما أنهـا أصبحت تلعـب دوراً يتزايد يوماً بعد يوم في حياتنا اليومية، لقد أصبحت عروض ثقافة الميديا عروضـاً تخلب عقول الناس، وتغويهـم، وتدمجهم في مجتمـع الاستهلاك الزاخر بعلامات شهرة خاصة بعالم جديد من الترفيه والمعلومات والاستهلاك بشكل يؤثر -على نحو عميق- في التفكير والسلوك.

يرتبـط مفهـوم الاستعراضـ بمفهوم الانعزال والسلبية، وذلك لأن الخضوع للعرض الاستهلاكـي يجعل المرء يبتعـد عن حياته الإنتاجية النشيطـة، إن المجتمع الرأسمالي يعزل العمال عن النتاجات الخاصة بعملهم، ويفصل بين الفن والحياة، وبين الاستهلاك، من ناحية، والحاجـات الإنسانية والنشاط الموجـه ذاتياً، من ناحيـة أخرى، وذلك لأن الأفـراد يراقبون هنا، فيمـا يشبه التصور الذاتي، المشهد الخاص بالحياة الاجتماعية من داخـل بيوتهم، من خـلال تلك الحالة الخاصـة التـي يكونـون موجوديـن فيها، ويحـاول المشروع الموقفي علـى العكس من ذلـك، أن يتغلب علـى أشـكال الانفصال والانعزال حيث ينبغـي للأفراد، داخله، أن ينتجوا حياتهـم الخاصة، وكذلـك أشكال الممارسة الجماعية والموجهة ذاتياً.

إن الجانـب المهم الخاصـ بالمشهد هنا هو المشاهد، المشاهـد أو الرائي المستجيب والمستهلك لنظام اجتماعي يقوم على أساس الخضوع، والمسايرة، وكذلك الإعلاء من شأن الاختلافات القابلة للتسويق.. هكذا يشتمل مصطلـح العرض (أو المشهـد) على تمييز بـين السلبية والإيجابيـة، وبين الاستهلاك والإنتاج كمـا أنه يدين عمليـة الاستهلاك للمشهـد بشكل يخلو مـن الحياة الخصبة، فهـذا الاستهلاك هـو نوع مـن الاغتراب عـن الإمكانات الحقيقيـة الممكنة للإبداع والخيال الإنساني، إن المجتمع الاستعراضي المشهدي ينشر أسلحته على نحو رئيس، من خلال الآليات الثقافية لتزجية وقت الفراغ والاستهـلاك من خلال الخدمات والترفيه، وتتحكم فيه الإمـلاءات أو السنن الخاصة بالإعلانـات وثقافـة الميديـا التجاريـة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويشتمل التحول البنائي نحو أحد مجتمعات الاستعراض على نـوع من الامتداد للتحكم البيروقراطي إلى مجـالات الترفيه والرغبة والحياة اليومية.

خلال النصف الثاني من الألفية الثانية حازت فنون الترفيه حرية ومساندة كبيرتين، ومن ثم ازدهـرت ونضجـت منتجة لذلك وأصبح المسرح والأوبرا والحفلات الموسيقية والألعاب الرياضية مؤسسات أساسية للمتعة والترفيه.

وقد كان الترفيـه -وليس الهروب- هو المفهـوم الذي قاد عمليـات إنشاء الحدائق العامـة، والملاعـب الرياضيـة، والمسارح، وقاعات الحفـلات، وغيرها... وفي البيوت كان النـاس يستمتعـون بالقـراءة أو ألعاب التسلية المنزلية المعروفة ثم ظهرت الصحف والمجلات فأضافـت مصادر جديدة للمتعة وقضاء وقـت الفراغ، إضافـة إلى مصادر المتعة السابقة.

مـع التغيـر الكبـير في الاختراعـات التكنولوجيـة الخاصـة بتسجيـل الصوت ونقله، وكذلك تسجيل الصور ونقلها، تغيرت أشـكال المتعة والترفيه التي سعى الناس من أجلها لقـد جعلت السينمـا مكانة السلاح تتراجع نسبياً مثلما جعـل التلفزيون مكانة السينمـا والراديو تتراجـع نسبيـاً أيضاً، كمـا حلّت عمليات الاستمـاع إلى الموسيقى بشـكل حي ومباشـر والاستمـاع إليها عن طريق الأجهزة والوسائط التكنولوجية، لقد حوّل الراديو والتلفزيـون وأجهزة التسجيل البيوت إلى قاعات حفلات، وصالات عرض سينمائية، وحلبـات رياضية أيضاً، فلم يعد ضروريـاً الذهـاب إلى مكان الحـدث لأن الحـدث يأتينـا في بيوتنا حيـث نجلس أو نتكـئ في رقاد يشبه النـوم، وقد كانت هذه العملية الخاصـة بتقديم الترفيه في المنازل سريعة وشاملة، وقد أضيفت إليها بعد ذلك أجهـزة الكمبيوتـر المـزودة باتصالات مع شبكـة الإنترنت، والتي انتشـرت في أماكن كثيرة عبر العالم، وتكاثرت القنوات الفضائية بشكل قطري أو سرطـاني فأصبحت هناك قنوات جديدة تبث إرسالها كل يوم، وأصبح هـذا البث يتم على مـدار الأربع والعشرين ساعـة، وأصبحت الإعلانات عاملاً أساسياً بـارزاً في معظم هذه القنـوات -إن لم يكن كلها- كمـا أضيفت قنـوات الأخبار، التي يعدها بعضهـم امتداداً لعمليـات النميمة والقيـل والقـال والشائعـات القديمة، إلى مجال الترفيه هذا، فلقـد أصبحت الأخبار أيضاً نوعـاً من الترفيـه والتسلية في كثير مـن أحوالها وطرائـق تقديمها، فضلاً عن الأخبـار الطريفـة أيضاً التـي تختتم بها

نشرات الأخبار في كثير من القنوات الآن، حيث لم تعد الأخبار أخباراً سياسية فقط، بل هي أخبار السياسة والاقتصاد والأزياء، ونجوم الرياضة والاختراعات والفنون والناس العاديين أيضاً بحيث أصبح من الصعب الفصل بين الأخبار والترفيه في سعي القنوات الفضائية المحموم وتنافسها لجذب اهتمام المشاهدين وانتباههم، بل صدمتهم أيضاً، لقد أصبحت الأحداث البعيدة في متناول إصبع المشاهد أو المستهلك، ولم يعد هذا المستهلك يجلس في المقاعد الخلفية في المسرح، بل أمام خشبة المسرح، أي شاشة التلفزيون مباشرة، حيث يقوم بالأداء أمامه أعظم ممثلي العالم، ومطربيه ورياضييه، وسحرته، وباحثيه، وطباخيه، وسياسييه، وغيرهم، على هذه الشاشة البراقة الوامضة اللامعة.

وقد أصبح تنوع البرامج المقدمة كبيراً جداً، ففي حالة الدراما هناك الكوميديا، التراجيديا، والرعب، والتشويق، والخيال العلمي، والقصص العاطفية الرومانسية وغيرها، ولم تعد التقنية هي الاختيار، بل أصبح الاختيار هو المشكلة بسبب هذه الوفرة غير المسبوقة في القنوات والبرامج، ولكي تنجح المؤسسات التجارية في الأسواق العالمية التي تتنازعها المنافسات المستمرة، ينبغي أن تعرض وتدور صورتها واسم ماركتها المميزة، وهكذا تمتزج التجارة بالإعلان في تعزيز وضع المؤسسات أو المشاهد أو عروض الميديا.

إن شركات مثل ميكرو سوفت وآبل وإنتل وأمازون ومكدونالد وسوني وغيرها لا تتوقف أيضاً عن تقديم العروض المغرية للعملاء بالشراء بأسعار أقل وبمزايا أكثر، وهذه العروض هي من العلامات المميزة للثقافة المعاصرة، وما تقوم به بعض الشركات من تنزيلات في بعض المواسم، أو ما تقوم به دول عديدة الآن من تنظيم أشهر للتسوق يرتبط خلالها البيع بالترفيه، والتنزيلات على الأسعار بالحفلات الموسيقية والغنائية، كما في عروض هلا فبراير في الكويت ومهرجان دبي للتسوق في دولة الإمارات العربية المتحدة الذي أصبح أنموذجاً لكثير من المهرجانات المماثلة في عدد من البلدان العربية، وغيرها من الاحتفالات التجارية والترفيهية هي أمثلة أيضاً على مجتمعات العروض والاستهلاك، إن مهرجان التسوق ومعارض السيارات والكتب هي أمثلة واضحة على نزعة العرض والاستعراض هذه.

تضع الشركات علاماتها التجارية على منتجاتها وعلى إعلاناتها، وفي أماكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عديدة في الحياة اليومية، في الشوارع مثلاً، وفي قلب عروض الميديا ومشاهدها، مثل الأحداث أو المباريات الرياضية المهمة، وعروض التلفزيون وفي أفلام السينما، وفي أي مكان يمكنها فيه أن تجتذب عيون المستهلكين هكذا بعد الإعلان والتسويق والتشويق والعلامات العامة وعروض الترويج من الجوانب السياسية في المشهد التجاري في أسواق العولمة.

أمثلة للعروض الحديثة:

١- **عالم الشهرة** والمشهورين: في عالم عروض الميديا، حيث يكون المشاهير هم أيقونات ثقافة الميديا، نجوم الحياة اليومية النهارية والليلية، ولكي يصبح المرء مشهوراً ينبغي أن يُعترف به باعتباره نجماً مهماً يلعب دوره في مجال عروض الميديا، سواء أكان هذا المجال يتعلق بالألعاب الرياضية أم بالترقية أم بالأزياء أم بالسياسة، وللمشاهير مديرو أعمالهم ومديرو التصوير الخاصين بهم أيضاً، هؤلاء الذين يحاولون التأكد دوماً من استمرارية الإدراك الإيجابي من جانب المشاهدين لهؤلاء النجوم.

لقد أصبح نجوم أمثال مادونا وتوم كروز ومايكل جوردان وجنيفر لوبيز، وفي العالم العربي هيفاء وهبة مثلاً بمثابة المنتج والصورة، السلعة التي تباع باسمها وعلامتها المسجلة، بل التي تباع من خلالها سلع أخرى مثل البيبسي والكوكاكولا، لكن في ثقافة الميديا هذه.. على كل حال، يصبح المشاهير أيضاً صورة صنمية للفضائح، ومن ثم ينبغي أن يكون هناك جهاز للعلاقات العامة في خدمتهم يحاول أن ينجح في إدارة الصورة العامة لهم، وأن يتأكد ليس فقط من استمرار استحواذهم على قدر مرتفع من الطلب والمشاهدة، ولكن أيضاً على استمرارية وجود النظرة الإيجابية نحوهم، لقد كان ما أثير حول تحرش مايكل جاكسون ببعض الأطفال سبباً في انهيار الصورة الإيجابية العامة نحوه، وانهيار أسطورته الغنائية والفنية أيضاً.

٢- **الألعاب الرياضية**: لقد كانت الألعاب الرياضية أيضاً ساحة لعرض أحداث مثل الألعاب الأولمبية ومباريات كأس العالم، والبطولات الخاصة بالقارات، أو حتى الدول مثل إيطاليا وإنجلترا وألمانيا..إلخ وقد اجتذبت الألعاب الرياضية مشاهدين كثيرين، وكذلك إعلانات بمبالغ طائلة، إن مثل هذه الطقوس الثقافية تجسّد القيم العميقة للمجتمع (مثلاً: المنافسة، والفوز، والنجاح، والنقود، والإنجاز)، وتكون مؤسسات كبرى عديدة مستعدة لأن تدفع مبالغ طائلة كي ترتبط منتجاتها بمثل هذه الأحداث وببعض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفرق الرياضية أو حتى ببعض اللاعبين، إن ملاعب الرياضة وساحاتها نفسها تشتمل على منتجات إلكترونية تسهم في تكثيف العروض أو الحدث، مثل وجود لافتات إعلانات عملاقة مضيئة أو إلكترونية، أو وجود لافتات خشبية أو قماشية عليها بعض أسماء الشركات والمنتجات التجارية تظهر وتختفي خلال بعض اللحظات الحاسمة في المباراة.

كذلك تقدم المقاهي والمطاعم المباريات الرياضية على شاشات تلفزيونية كبيرة، فتشجع الروّاد على شراء الطعام والشراب وعلى تناوله وهم يستمتعون بمشاهدة فريقهم أو لاعبهم المفضل وهو يلعب ضد منافسيه، هكذا نجد مرة أخرى ذلك الارتباط الخاص بين التشويق والتسويق.

٣- السينما: كانت السينما دوماً مجالاً خصباً للعروض، فعالم هوليوود في أمريكا وبوليود في الهند يبرق ويلمع ويضيء، بالمعنى الحرفي والمعنى المجازي أيضاً، إنه زاخر بالضوء والشهرة والأزياء والمشاهد والإبداع، إن هوليوود تعرض أفلامها في قاعات كالقصور، وتكون عروض حفلات الافتتاح غارقة في الأضواء المتحركة، وكاميرات التصوير وتماثيل الأوسكار التي تضيء وتلمع والأفلام ذات التقنيات العالية التي تخلب الألباب.

٤- التلفزيون: لقد أصبح التلفزيون كذلك منذ ظهوره في أربعينيات القرن العشرين إحدى أدوات ترويج عروض الاستهلاك أيضاً، فلقد استخدم في بيع السيارات والأزياء والأدوات المنزلية وغيرها من السلع، إضافة إلى إدخاله أساليب جديدة وقيماً جديدة للحياة، إنه أيضاً المكان الذي قد تقدم من خلاله العروض الخاصة بالألعاب الرياضية والعروض السياسية وعروض الترفيه مثل حفلات الأوسكار، كما أن له خصوصية في تقديم الأخبار العاجلة والمعلومات والبرامج الثقافية وغيرها، ولأنه يتبع منطق التسلية المشهدية، يعرض التلفزيون حالياً تقنيات مبهرة عالية من الناحية التكنولوجية، وعمليات مونتاج سريعة وبرّاقة وعمليات محاكاة أو تخييل بالكمبيوتر وبمجموعة كبيرة كذلك من العروض والبرامج والأغاني والمسلسلات.

٥- المسرح: كان المسرح دوماً مجالاً خصباً للمشاهدة، أما خشبة المسرح الحديثة، فقد جرى تجهيزها واستغلالها درامياً ومعمارياً وموسيقيّاً لاجتذاب انتباه أكبر عدد من المشاهدين، لم تعد المسارح مقتصرة على تقديم المسرحيات، بل أصبحت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ساحة أو مشهداً لتقديم عروض الجاز والموسيقى الريفية وموسيقى البوب، وكذلك المسرحيات التي تمزج بين المسرح والموسيقى والسينما، والتي تهتم بمشهدية الصورة أو السينوغرافيا.

وما يسمى الآن بالمسرح التجريبي هو مسرح للصورة والحركة، يقلل من الكلام إلى أبعد حد، ويزيد من الصورة والإضاءة والموسيقى والحركة والإبهار إلى أبعد حد.

٦- **عروض الأزياء**: هي أيضاً مجال أساسي للاستعراض أو العرض، ويشكّل المنتجون والموديلز (العارضات والعارضون) وكذلك المنتجات الفعلية لمصانع الأزياء، قطاعاً فعالاً في ثقافة الميديا، إن مصممي الأزياء، أمثال ايف سان لوران أوفيرساتشي، هم من المشاهير أيضاً الذين يشكّلون عالم الأزياء والموسيقى والترفيه والسياسة والفن، بشكل عام، وقد جاء حادث قتل فيرساتشي ضمن الأخبار الأساسية في نشرات الأخبار في كثير من تلفزيونات العالم.

في عروض الأزياء اليوم، والتي كثيراً ما تقدم من خلال بعض برامج التلفزيون في بث مباشر أو عقب تسجيلها، نجد ذلك المشهد أو العرض المبهر، حيث عروض أضواء الليزر، ونجوم موسيقى البوب، والعارضات المشهورات، والعارضون المشاهير، والديكورات المبهرة الجاذبة للنظر في كل مكان داخل العرض، وفي ثقافة ما بعد الحداثة الخاصة بالصورة، أصبح الأسلوب والمظهر الخارجي شكلاً متزايد الأهمية في تحديد الذات وعرضها في الحياة اليومية، إن عروض ثقافة الميديا تعرض وتقول للناس كيف ينبغي لهم أن يظهروا وكيف عليهم أن يسلكوا أيضاً.

٧- **الفنون التشكيلية**: أصبحت المتاحف وقاعات العرض للفنون التشكيلية ساحات للعروض، حيث تقدم فيها الأعمال الفنية، أحياناً مصحوبة بالموسيقى والندوات، حيث يلبس الناس أفضل ما لديهم ويذهبون إلى المتحف أو قائمة العرض كما لو كانوا ذاهبين إلى حفلة موسيقية، كذلك فإن بعض المتاحف - مثل متحف جوجنهايم في إسبانيا - أصبحت تنظم فيها بعض عروض الأزياء، كما أصبحت عروض الميديا والأعمال المركبة التي تقوم على أساس تصوير أعمال فنية بالفيديو خاصة، أصبحت من العروض الأساسية في معارض الفنون التشكيلية.

٨- **العمارة**: أصبحت العمارة الحديثة يحكمها أيضاً منطق العرض، وقد لاحظ بعض النقاد أن متاحف الفنون قد فاقت بشكلها المقتنيات الفعلية التي تحتوي عليها من خلال جعلها المباني والمواقع أكثر مشهدية

من المقتنيــات نفسها، لقد أصبحت البيئات التــي توجد فيها المتاحف وقاعات العروض بيئات عرض فائقة، فيهــا تعرض الأعمال الفنية وتقــام المعارض وكأنهــا فن يعرض بداخله منــه، إن ذلك يتسق مع مشهدية ما بعد الحداثة، حيث مُــزج الزجاج والصلب الخاص بعمارة الحداثــة بمبانٍ ومساحات مزدانة بعلامــات مجتمع الاستهلاك والبنى المركبــة التي تــدل على القــوة المتصاعدة للتجارة وللرأسمالية التكنولوجية.

٩- الطعام: أصبح الطعام كذلك مرتبطاً بالعرض أو المشهــد في مجتمع الاستهلاك، حيث تكون طريقة التقديم في بعض المطاعم في مثــل أهمية الطعام والمأكــولات نفسها، فهناك كتب كثيرة تتحدث عن مباهج تناول الطعام الجيد ومسراته، وتعد أقسام الطعام في مجلات عديدة من الأقسام المهمة، حيث تعرض المأكــولات والأطباق بطرائق جذابة وألوان باهرة.

١٠- عروض ألعاب الفيديو والكمبيوتر: إضافــة إلى ما سبــق فإن عروضــ ألعاب الفيديــو والكمبيوتــر قد أصبحــت أيضاً مصدراً رئيســاً للمتعة من جانب المراهقين والشبــاب، ومصدراً للثروة أيضــاً بالنسبة إلى المنتجين لها، ففــي عام ٢٠٠١م وصلت مبيعــات شركات ألعاب الفيديو في الولايات المتحدة إلى نحو تسعة بلايين دولار.

لقد أسهمت هــذه الألعاب كما يقال في تزويد الشبــاب بمهــارات تكنولوجية عدة يحتاجــون إليهــا في اقتصاد الــدوت كوم dot.com وكذلك في شــن حروب ما بعد الحداثــة، إنها ألعاب تنافسية، وعنيفة، كما أنها تقدم أمثولات أو أخيولات للحياة في ظل الرأسمالية والعسكرية الحربية المتزايدة.

إنه عــالم أصبحت فيــه عروض الحياة موجودة على شاشــات الكمبيوتر والإنترنت وفي الفضــاء العام للصور، إنــه عالم يتعلم فيــه الشباب أنــه إذا لم يقتل فإنــه سيُقتل، وإذا لم يأكل فإنــه سيُؤكل، عالم تسوده القيم المادية والاستهلاكية، والعنف، والخوف، عالم أصبحت فيه الحدود بــين عروض الفيديو وعروض الحياة متداخلة، بل غير موجودة، لأنها واحدة في حالات كثيرة.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

نظريات جديدة في تشكل المجرات

موسى ديب الخوري *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نملك اليوم معطيات أكيدة تسمح لنا بمعرفة كيف تتشكل النجوم من المادة ما بين النجمية. لكن تشكُّل وتطور المجرات مسألة أكثر تعقيداً بكثير، وهي ترتبط ببدايات الكون وتطوره. ووفق فرضية جون هندريك أورت المقبولة عموماً كانت المجرات قد تشكلت ابتداء من سحابة من الهيدروجين تدور ببطء. وتكثفت فيها النجوم في البداية في نقاط موزعة عشوائياً في السحابة. وبما أن الغاز في تلك المرحلة لا يحتوي على عناصر ثقيلة (والتي

* باحث ونائب الجمعية الكونية السورية.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

لم تولد إلا في النجوم) فقد كانت نجوم تلك المرحلة فقيرة جداً بالمعادن.

أما بقية السديم فقد استمر في التطور بالانضغاط أكثر فأكثر في قرص يدور بسرعة كبيرة. وخلال عملية التكاثف هذه استمرت صيرورة تشكل النجوم مما ولد منظومات انتقالية. وأخيراً تركز الغاز في قرص دقيق جداً وبدأ تشكل النجوم كما نعرفه اليوم.

إن هذه النظرة المبسطة تخفي وراءها الكثير من التعقيدات. كيف ولدت بدايات السحب المجرية. ولماذا تكاثفت. وكيف انفصلت عن صيرورة تطور الكون المتوسع؟ وكيف ظهرت كبنى كونية منفصلة عن التجانس الكوني البدئي؟ ولماذا كانت أشكالها مختلفة؟ وما هي القوانين الناظمة لنشوئها أكانت عشوائية أم شواشية؟ سنحاول الإجابة على بعض هذه التساؤلات من خلال الأبحاث الحديثة التي ترجع إلى سنوات قليلة ماضية فقط.

دراسة أشكال المجرات وأصولها

كان علماء الفلك يعتقدون حتى الآن إن المجرات تتطور من شكلها الأبسط، أي العدسي، إلى شكلها الأعقد، أي الحلزوني. فما هي الأسس التي اعتمدوا عليها، وهل لا تزال هذه النظرة صحيحة؟

في عام ١٩٢٤م برهن عالم الفلك إدوين هبل أن المجرات عالم قائم بذاته يتألف من مئات مليارات النجوم، وأن المجرات ليست سدماً من الغاز والغبار في مجرتنا. وبذلك طرح رؤية جديدة للكون لم يكن أحد قد استطاع التوصل إليها قبله. وتظهر هذه المجرات بأشكال عديدة: عدسية متطاولة قليلاً، أو أقراص مفلطحة تلتف في حلزونات، أو غيوم عديمة الشكل. ومنذ ذلك الوقت ساد تصنيف هبل للمجرات من العدسية البسيطة إلى الحلزونية المعقدة. وكان هذا التصنيف يعتمد على تسلسل زمني بدءاً من المجرات الفتية إلى المجرات الهرمة. أما اليوم، فنعلم أن الترتيب يجب أن يكون معكوساً. فالمجرات تبدأ حياتها بشكل غير منتظم أو حلزوني، ثم بمساعدة تشكيلات مثل الأذرع الحلزونية، التي تحرضها التفاعلات بين المجرات، تكتسب كتلة وتتكاثف وتشكل كرات أكبر فأكبر. ثم يؤدي اندماج مجرات كثيرة إلى ولادة مجرات عدسية. وفي هذه الحالات كلها، فإن التحليل الشكلاني للمجرات يبين بنى تنمو آنياً بوساطة اللااستقرارية الثقالية. إن الجاذبية هي القوة الرئيسية التي تحفظ تجانس المجرة. فالنجوم تتجاذب فيما بينها، ووحدها سرعاتها النسبية تمنعها من التجمع في نقطة واحدة. لكن هذه السرعات ليست كافية مع ذلك لتمنع التجمعات المحلية على شكل أذرع حلزونية مثلاً. ومناطق التجمع

هذه هي التي توافق اللااستقراريات الثقالية.

تُعد المجرات الحلزونية أكثر المجرات انتشاراً في الكون، إذ تصل نسبتها إلى الثلثين. فدوران قرص مجرة حلزونية حول محوره يؤدي إلى قوة مركزية تُوازن الجذب الثقالي. والدوران في مجرة لا يتم كما في قرص صلب: فمركزها يدور بسرعة أكبر من طرفها، مما يؤدي إلى تحول البنية الدائرية إلى بنية حلزونية. ورغم أن ذلك يبدو واضحاً، لكن هذا الدوران التفاضلي هو الذي يطرح المشكلة. ففي حين أن نجماً يقع قرب مركز المجرة يُتم دورة في بضعة ملايين سنة، فإن نجماً آخر قرب حافتها سيحتاج إلى نحو مليار سنة. ولكن خلال مليار سنة يجب على كل تشكيل حلزوني أن يلتف ويتبدد في القرص: وهذا يعني أنه علينا ألا نرى اليوم مجرات حلزونية، بعد عشر مليارات سنة من تشكلها. وفي الستينات اقتُرح التفسير التالي: الحلزونات هي أمواجُ كثافة تدور بسرعة زاوية ثابتة، من المركز حتى حافة المجرة. وتجتاز نجومُ القرص المجري الموجةَ دورياً؛ فتدور بسرعة أعلى من الموجة في المركز وبسرعة أبطأ منها عند الطرف. ومن جهة أخرى، فإن موجة الصدم

التي يتعرض لها الغاز ما بين النجمي عند اجتياز الأذرع الحلزونية يحرض تشكل النجوم. ولا تحيا النجوم ذات الكتلة الأكبر، والأكثر لمعاناً بالتالي، إلا زمن اجتياز الذراع، أي نحو عشرة ملايين سنة، الأمر الذي يجعل الأذرع الحلزونية لامعة جداً بالنسبة لبقية القرص. فدوران مجرة بتأثير ثقلها يعمل على تركيز كتلتها باتجاه مركزها. وبالتالي فإن هذا المركز سيدور بسرعة أكبر لأن الكتلة ستزداد في هذا الموضع، أي إن قوة الثقالة ستزداد أيضاً. وتستجيب المادة

لذلك بالدوران بسرعة أكبر بحيث أن قوة النبذ المركزي توازن القوة الثقالية. ويشكل هذا الدوران حاجزاً أمام تركيز الكتلة. وبما أن العزم الحركي يجب أن يكون محفوظاً عموماً، فلا بد من منظومة تسمح بنقل هذا العزم الحركي نحو الخارج، وبعبارة أخرى كبح جسيمات المركز وتسريع جسيمات الطرف. والأذرع الحلزونية فعالة جداً من أجل ذلك. فمن السهل برهان أن الحلزونات التي تلتف بالاتجاه المعاكس للدوران هي وحدها تسمح بتفريغ العزم الحركي نحو الخارج. وهذا هو سبب دوران معظم الأذرع الحلزونية في الكون في هذا الاتجاه. وتقود هذه الأذرع عموماً إلى تشكيل عوارض متطاولة في مركز المجرة. وتوجد هذه البنى المستعرضة في ثلثي المجرات الحلزونية. وكان يعتقد لفترة طويلة أنها تشكل نوعاً متميزاً من المجرات، لكن النظرية الحديثة تقول إن العوارض يمكن أن تظهر وتختفي عدة مرات خلال حياة المجرة، مع مشاركتها في الوقت نفسه في بنائها.

لماذا تتجدد هذه البنى من عوارض أو أذرع بشكل منتظم، وما هي الشروط المؤاتية لتطورها؟ إن وجود الغاز في المجرة يبدد الطاقة المكتسبة في البنى اللامستقرة، مما يجعل المجرة حساسة للاستقراريات أخرى. وبالعكس، فبتحريض حركة الجسيمات في مجرة خالية من الغاز، فإن اللااستقراريات تزيد من ضغط السرعات وتسكّن الوسط. وبعبارة أخرى، فإن مجرة تملك الغاز تبقى فتية وحية. وعندما ينفذ الغاز، تهرم النجوم ولا تعود تشارك في لااستقراريات حلزونية: وهذا هو حال المجرات العدسية. وعندما يتشكل حلزون مستعرض في مجرة تحتوي على الغاز والنجوم، فإن العزم الحركي ينتقل نحو الخارج وتتكاثف المادة ويتضخم المركز. فإذا كان كبيراً جداً فإنه يدمر العارضة. ويتم ذلك بعد مرحلة انتقالية يتم خلالها تشكل بنى حلزونية أيضاً بسويات أصغر ضمن البنية الأساسية. وكلما تزايد تراكم المادة نحو المركز، تزداد سرعة دوران المركز بالنسبة لسرعة حافة القرص كما وتزداد السرعة الزاوية للأمواج التي يمكن أن تتطور في المركز. ويكون اختلاف السرعات كبيراً جداً بحيث أن القرص المركزي ينفصل عن القرص الخارجي، وتتطور موجتان بشكل منفصل، بحيث تدور الموجة المركزية أسرع بثلاثة إلى عشرة أضعاف الموجة الخارجية. وهكذا، مع استمرار تدفق المادة نحو المركز تختفي تدريجياً العارضة الأساسية. لكن إذا كانت المجرة تتلقى الغاز من الخارج فإن استقرارية جديدة تتطور وتخلق عارضة جديدة. ويمكن للمجرة أن تطور ثلاثة أو أربعة عوارض خلال عشرة مليارات سنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتتالي هذه العوارض والحلزونات هو الذي يسمح للمجرة بتركيز المادة نحو المركز وبالتطور بالتالي وفق متتالية تصنيف هبل.

أما بالنسبة للمجرات العدسية فكان الفلكيون يعتقدون أنها تتألف من منظومات نجمية مسطحة بسبب الدوران. ومنذ السبعينات بات معروفاً أن المجرات العدسية بطيئة الدوران وأن توازنها الثقالي مرتبط بالحركة العشوائية للنجوم، الذي يولد الضغط. ولكن على عكس الضغط الغازي الذي يكون موزعاً بشكل متجانس دائماً، فإن ضغط النجوم يمكن أن يكون أقوى في اتجاه معين، ومن هنا الشكل العدسي. إن بنية هذه المجرات لا تقل تعقيداً عن الحلزونية. فهي يمكن أن تكون مفلطحة أو متطاولة أو عدسية غير متناظرة الدوران بحيث يكون لها ثلاثة محاور مختلفة. إن الأشكال المتنوعة جداً للمجرات بات يسمح لنا بتتبع تطورها عبر سلسلة هبل. ويكون هذا التطور أسرع عندما تكون المجرات أعظم كتلة وتقع في محيط غني بالمجرات. وقد بات من الثابت الآن أن تناسبات مختلف الأنماط الشكلية قد تطورت خلال الأزمنة الكونية، كما ازداد العدد الإجمالي للمجرات.[1]

الولادة الكمومية للمجرات

تتفق النظريات الفيزيائية حالياً على ولادة الكون من انفجار بدئي. ما الذي حدث لحظة الانفجار الكوني الأول؟ وهل يمكن إرجاع ولادة المجرات أو الأسباب البدئية لتشكلها إلى بدايات تشكل الكون؟ وهل يمكن أن يكون لعالم الصغائر أو للعالم الكمومي الذي كان سائداً آنذاك علاقة بولادة البنى الكونية الكبرى بعد فترة طويلة من الزمن؟

لم يكن العلماء حتى فترة قريبة قد حاولوا الاقتراب من هذه التساؤلات. فمعرفة اللحظة الأولى من عمر الكون تعني معرفة لماذا كان الكون حاراً إلى هذا الحد الكبير؟ وما الآلية التي حرضت ولادته؟ وما هي الحالة الفيزيائية التي كان عليها الكون قبل ولادته؟ لم يكن العلم يستطيع طرح هذه الأسئلة حتى عهد قريب. لكن العلم استطاع الاقتراب من هذه الأسئلة خلال العقدين الأخيرين. ففي عام ١٩٨٠ قدم آلان غوث نموذج الكون المتضخم. ويرتكز سيناريو الكون المتضخم على نوع من الفراغ المزيف إن صح التعبير. وهو شكل للمادة يتميز بطاقة مرتفعة جداً وحقل ثقالي قوي دافع. والمقصود بكلمة مزيف هو عكس كلمة حقيقي أو عكس الفراغ العادي. فهذا الفراغ غير مستقر ولا يمكن أن يوجد إلا خلال فترة قصيرة من الزمن. ومعظم نظريات الجسيمات الدقيقة تتنبأ بوجود عدة فراغات مزيفة. ووفق هذا العالم

فإن الثقالة الدافعة لفراغ مزيف يمكن أن تولد فترة توسع كوني متسارع سماه التوسع التضخمي. وهذا التوسع البدئي سريع إلى درجة أنه يمكن أن يوسع جزءاً بسيطاً من الفراغ إلى نسب هائلة. وعندها مع تحلل الفراغ المزيف فإنه يفرغ طاقته في كرة من الجسيمات الأولية التي تستمر في التوسع إنما في إيقاع أبطأ بكثير. وهكذا فإن التوسع التضخمي ينتج كوناً حاراً ابتداء من لا شيء عملياً. فكل ما يلزم للبداية عبارة عن كون دقيق ممتلئ بالفراغ المزيف.

كيف يمكن معرفة أصول هذا الكون الذي يحتوي على الفراغ المزيف؟ يساعدنا الميكانيك الكمومي على الإجابة. فالآثار الكمومية تكون كبيرة عادة على المستوى ما تحت الذري ومهملة تماماً على المستوى الكبير الجهاري. وهكذا فإن الميكانيك الكوانتي ضروري لفهم حالة الكون البدئي الذي كان صغائرياً. وكان علم الكونيات الكمومي قد انطلق منذ الستينات لكن لم يمكن تطبيقه على بدايات الكون إلا مع ظهور نظرية التضخم الكوني. ووفق هذا العلم الجديد فإنه يمكن أن يظهر آنياً كون صغير من العدم. والعدم يعني هنا ليس فقط غياب المادة بل وأيضاً المكان والزمان. إن العالم الكمومي مختلف كثيراً عن العالم المألوف لدينا. فالأجسام الدقيقة لا تخضع لميكانيك نيوتن. وهي توصف بما يسمى التموجات الكمومية. وهذا يعني أن الحالة البدئية نفسها يمكن أن تولد عدداً من النتائج المختلفة التي لا يمكننا سوى حساب احتماليتها. وذلك لأنه توجد دائماً احتمالية كمومية لسلوك الجسيم بشكل لا يمكن توقعه على المستوى الجهاري. والمثال المدهش على ذلك هو ما نعرفه بالأثر النفقي. فمثلاً الكرة الموجودة في منخفض لا يمكن لها الانتقال وفق الفيزياء النيوتنية منه إلى انخفاض آخر يقع عبر مرتفع وستبقى دائماً في مكانها. أما بالنسبة للميكانيك الكمومي فهناك احتمال ولو ضعيف لإفلات الكرة من الحفرة خلال وقت صغير جداً خارقة بذلك قوانين انحفاظ الطاقة الكلاسيكية.

يرتكز إدراكنا للفراغ على هندسة مستوية إقليدية تفترض أن الفضاء يمتد إلى اللانهاية. ومع ذلك يمكن للفضاء أن ينحني وفق النظرية النسبية العامة بل وحتى أن ينحني على نفسه. ويصبح الكون عندها مكافئاً بثلاثة أبعاد لسطح كرة. ولهذا يقال إنه يمكن لمركبة فضائية أن تعود إلى النقطة نفسها التي انطلقت منها إذا استمرت بالاتجاه نفسه. فإذا كان كوننا يتوسع فهذا يعني أنه كان يمكن أن يكون صغيراً جداً في الماضي. ولدراسة التوسع التضخمي لهذا الكون فإننا نحل معادلات أينشتاين من أجل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كون مؤلف من فراغ كروي ممتلئ بفراغ مزيف متفجر أو مندفع. ويوافق الحل كوناً ينكمش ثم ينتفخ فجأة ويتمدد. وأصغر نصف قطر في لحظة الانتفاخ يتحدد بطاقة الفراغ المزيف. كلما كانت طاقة الفراغ شديدة كلما كان نصف القطر صغيراً. إن مرحلة التوسع هي وحدها الملائمة لسيناريو التضخم. لكن هذا الحل لا يفيد بالنسبة لمسألة البداية. ويأتي الحل من الأثر النفقي. فلو ماثلنا بين الكون المتوسع والكرة الواقعة في التجويف يمكننا أن نتساءل ما الذي كانت عليه الكرة قبل نزولها على منحدر الفجوة. في الفيزياء الكلاسيكية لا يمكن للكرة أن تصعد المنحني. لكننا نعلم الآن أن الكرة يمكن بدلاً من صعود المنحني أن تخترق الحاجز مباشرة. وهذا يعني أن الكون يمكن أن يخترق حاجز الطاقة وذلك ابتداء من حالة بدئية لأبعاد تنحو إلى الصفر وصولاً إلى نصف قطر الانتفاخ. وعندها تكون فترة الانكماش في حل الفراغ المزيف، فيبدأ الكون توسعه ويتطور بعد ذلك وفقاً لسيناريو التضخم.

عندما يبدأ تضخم الكون فإن أبعاد التخلخلات فيه تزداد بشكل أسي وسريع وتصبح أكبر بكثير من نصف قطر هبل. فإلى داخل نصف القطر هذا، أي حجم أكبر البنى الكونية الممكن رصدها، لا يعود من الممكن تمييز هذه التموجات الكونية أو التخلخلات عن الخلفية الكونية المتجانسة. وعندما ينتهي التضخم تكون المنطقة كلها قد ارتفعت حرارتها، لكن بما أن هذه الصيرورة محلية فإنها لا تنتج تخلخلات أبعد من نصف قطر هَبُل[٢]. وهي بالتالي لاتؤثر على التخلخلات الكمومية التي تتوسع بشكل فائق. من جهة أخرى، واعتماداً على معادلات النسبية لأينشتاين، فإن التباطؤ المفاجئ للتوسع يزيد بشكل من سعة التخلخلات على الرغم من أنها لا تتحلل أو تنفصل عن الخلفية الكونية المتجانسة. وبعد مليارات السنين تكون التخلخلات قد أصبحت جهارية وأصبح من الممكن أن يلتقطها نصف قطر هبل. وما أن تصبح ضمن نصف قطر هبل حتى تتمايز وتتحلل من جديد عن الخلفية الكونية على شكل لاتجانسات جهارية. والتخلخلات التي تهمنا منها هي التي تدخل في نصف قطر هبل ويكون لها حجم مماثل لحجم المجرات والحشود المجرية.

إن مواصفات هذه اللاتجانسات لاتتعلق إلا بشدة انحدار الميل الذي ينزل عليه التضخم. وتبين الحسابات المفصلة أن هذه المواصفات تتطابق تماماً مع السيناريوهات التي افترضت وجود مادة معتمة باردة والتي لم تكن مفهومة حتى الآن. وتكون كتلة التضخم من رتبة ١٠-١٤ كغ. وتبدو هذه الكتلة هائلة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالنسبة لكتلة الجسيمات الأولية المرصودة على الأرض (البروتون مثلاً نحو ١٠-٢٧ كغ)، ولكن، وربما ليس ذلك بمصادفة، فإن هذه الرتبة من مستوى الكتل التي تتنبأ بها النظريات الموحدة للقوى الأساسية.

إنها لنتيجة مميزة في الحقيقة. فنظرية التضخم تحل لغز أصل المجرات، ويمكن بالتالي مقارنة التضخم بنظرية كوبرنيكوس التي غيرت من رؤيتنا للكون وحلت مسألة الحركة التراجعية للكواكب. وهكذا فإننا بإعادة المجرات إلى أصول كوانتية فإننا نحل في آن واحد أيضاً مسألة العلاقة بين اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر. لا شك أن نموذج التضخم يطرح بحد ذاته مسائل كثيرة تحتاج إلى إجابة. فما هو التضخم أصلاً وإلى أي مجال نظري من الفيزياء والكوزمولوجيا يتبع؟ وعلى الرغم من أن كتلته البدئية تتوافق مع نظرية موحدة كبرى، لكن حتى الآن لا توجد نظرية تتوافق في معطياتها الأولية مع حقل يمكن أن يلعب هذا الدور التضخمي. وهكذا يحاول النسبيون أن يروا فيه حلاً هندسياً بإضافة عدد من الأبعاد على الفضاء. في حين أن الكموميين والمختصين بالأوتار الفائقة يحاولون ربطه بنظريتهم في التوسع الكمومي. وعلى أية حال، وعلى الرغم من أن أحداً بعد لا يعرف بالضبط ما هو هذا التضخم البدئي، لكن العلماء يتفقون أنه يحل بشكل جيد جداً مسألة أصل المجرات وتشكلها.(٣)

هل ولدت المجرات من شرخ في التناظر

يطرح العلماء كما رأينا نظريات جديدة حول تشكل المجرات ترجع إلى لاتجانسات بدئية في الكثافة الكونية أدت لاحقاً إلى ولادة البنى الكونية الكبرى. ما هي أسس هذه الأبحاث الجديدة من المنظور الرياضي والفيزيائي؟

إن تشكل البنى الكونية الكبرى هو أحد المسائل الرئيسية في علم الكونيات الحديث. والفكرة الأساسية في النظرية الجديدة هي أن تخلخلات بسيطة بدئية في الكثافة وسعتها الجاذبية أدت في النهاية إلى تشكل المجرات والحشود المجرية والنجمية والفراغات الكونية الكبرى إلخ. وثمة تقديرات بسيطة تبين ضرورة وجود مثل هذه التخلخلات البدئية من رتبة ١٠-٥ إلى ١٠-٤ من أجل تفسير تشكل البنى من خلال هذه اللااستقرارية الجاذبية. وقد اختفت هذه التخلخلات البدئية من على خلفية المشهد الكوني، لكن القمر الصناعي غوبي أعطى إثباتاً مدهشاً لوجودها ولهذه الفكرة الجديدة. من أين ولدت هذه التخلخلات البدئية؟ هناك تفسيران أساسيان مختلفان مطروحان حالياً. الأول هو سيناريو التضخم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكوني، ووفقه ظهرت فجأة تضخمات كمومية بدئية ثم تجمدت على شكل تخلخلات لكثافة الطاقة، وقد استعرضنا هذا الحل. والتفسير المحتمل الآخر قد لا ينفصل عملياً أو حتى نظرياً عن الحل الأول، ألا وهو التشوهات التبولوجية. والتشوهات التبولوجية هي عبارة عن لاتجانسات في كثافة الطاقة تتشكل عند انتقالات المرحلة أو الطور. وانتقال المرحلة أو الانتقال الطوري هو تغير مفاجئ لعدة خصائص فيزيائية لمنظومة ما عند حصول تغير مستمر في الحرارة. ومثال ذلك جليد الماء في درجة الحرارة صفر مئوية أو تبخر الماء في درجة الحرارة ١٠٠ مئوية. والتشوهات التبولوجية معروفة جيداً في فيزياء الجسم الصلب. ولكن ثمة فارق جوهري بين التشوهات التبولوجية في فيزياء الجسم الصلب وفي الكوزمولوجيا. ويتمثل هذا الفارق في درجة الحرارة التي يتم فيها الانتقال الطوري. ففي فيزياء الجسم الصلب تكون درجات الحرارة النموذجية بضعة آلاف درجة كالفن في حدها الأقصى، الأمر الذي يعني طاقات تقع بين ١٠ -٤ إلى ٠،١ إلكترون فولت. أما في الكوزمولوجيا، فإن حساباً بسيطاً يبين أن طاقة التشوهات يجب أن توافق درجة حرارة تصل إلى ١٦١٠ جيغا إلكترونفولط. إنها القيمة الضرورية لكي يستطيع الحقل الثقالي الذي تسببه التشوهات التبولوجية أن يكون هو أصل التخلخلات التي لاحظها القمر الصناعي غوبي. فالاختلاف بالتالي يصل إلى ١٠٢٦، وهي طاقة تفوق بمرات الطاقة العظمى التي يمكن الوصول إليها في أعظم المسرعات على الأرض.

ما هي الانتقالات الطورية التي شهدها الكون؟ إن كوننا في حالة توسع وهو يبترد. وكما في كل منظومة تتغير درجة حرارتها، تظهر انتقالات طورية. والانتقال الطوري الأحدث هو تلاقي الإلكترونات والنوى في ذرات حيادية. ولا شك أنه في الكون البدئي حصل انتقال طوري تحولت فيه الكواركات إلى باريونات أي إلى بروتونات ونوترونات. وحصل هذا الانتقال الطوري في درجة حرارة تتراوح بين ١٠٠ ميغا إلكترون فولط إلى ٢٠٠ جيغا إلكترون فولط، وتمّ التحول الكهرضعيف والذي تمايز فيه الأثر الكهرمغنطيسي عن تأثير القوة النووية الضعيفة. وفي درجة حرارة أعلى أيضاً تتوقع فيزياء الجسيمات الدقيقة انتقالاً طورياً يصف انكسار التناظر الفائق. وأخيراً من المتوقع حصول انتقال طوري في درجة حرارة هائلة تصل إلى نحو ١٦١٠ جيغا إلكترون فولط والتي تتوحد عندها كل تفاعلات القوى الأساسية باستثناء الجاذبية. ويسمى هذا الانتقال الافتراضي بانتقال النظرية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الموحدة الكبرى. وهو الانتقال الوحيد القابل لإنتاج تشوهات ذات طاقة كافية لتوليد البنى الكونية الكبرى. ويحاول العلماء اليوم التيقن من هذه الانتقالات الطورية وإثباتها رصدياً. وحده الانتقال الطوري الذي أدى إلى التحام النوى والإلكترونات مثبت اليوم. أما الانتقال الكهرضعيف فتتنبأ به النظرية الخاصة بالقوة الكهرضعيفة التي يوجد عليها الكثير من الإثباتات التجريبية. ولكن للتيقن منه مباشرة يجب أن نستطيع توليد بلازما في المختبر درجة حرارتها تصل إلى ٢٠٠ جيغا إلكترون فولط، وهو أمر بعيد عن التحقيق حتى الآن. أما الانتقالات الخاصة بانكسار التناظر الفائق فهي افتراضية تماماً بلا أي تأييد تجريبي. فالكوزمولوجيا تشكل بما تملكه من آثار التشوهات التبولوجية على الإشعاع البدئي المنفذ الوحيد التجريبي إنما غير المباشر لفيزياء الطاقات العالية.

كيف يتشكل التشوه التبولوجي عند حصول انتقال طوري؟ في غالب الأحيان يمثل الانتقال الطوري انكسار تناظر ما. فمثلاً الماء السائل لا يتغير بالنسبة للدوران في حين أن القطعة الجليدية تملك بنية بلورية وبالتالي فهي تتغير عندما نخضعها للدوران الأمر الذي يسمى انكسار تناظر الدوران. وانكسارات التناظر التي تنتج التشوهات التبولوجية موصوفة بشكل عام بوساطة عامل قياسي، أي بوساطة قيمة تساوي الصفر في الحالة المتناظرة في درجة الحرارة العالية والتي تصبح غير معدومة عندما ينكسر التناظر. وهذه القيم غير المعدومة هي التي تشكل ما نسميه بتغير الفراغ. فمثلاً حقل هيغز الرياضي يأخذ قيماً مختلفة لمواضع مختلفة منه. ولأسباب تتعلق بالطاقة يتم تخفيض أو تقليل هذه الانكسارات إلى حدها الأدنى. وفي غالب الأحيان لايكون من الممكن وفق تبولوجية تنوع وتغير الفراغ الوصول إلى حقل ثابت. وعندها يكون على الحقل لكي يقلص الطاقة الكلية أن يتخذ في بعض المواضع قيماً لا تنتمي إلى تغيرات الحقل أو الفراغ، والتي توافق طاقة أعلى. وهذه المواضع ذات الطاقة المرتفعة هي تشوهات تبولوجية. ويتم تحديد شكل التشوه في الزمكان من خلال تبولوجية التغير الفراغي. وبحسب هذه التبولوجية يمكن أن تتولد أربعة أنماط من التشوهات. وهي الأقطاب والنسج والأوتار الكونية والجدران الكونية. وتصنف هذه التشوهات في فئتين كبيرتين: التشوهات المحلية التي لا تتفاعل فيما بينها إلا عبر مسافات قصيرة جداً، والتشوهات العامة وهي أكثر امتداداً وتتفاعل على مسافات بعيدة جداً. إن الانعكاسات الكونية لهذه الأنماط المختلفة هي ببساطة وفق العلماء

المفتاح الذي قد يؤدي إلى تفسير ولادة المجرات والبنى الكونية الكبرى.[٤]

لا شك أن دراسة هذه التشوهات أمر يحتاج إلى تعمق في الكثير من المفاهيم الفيزيائية والرياضية، إضافة إلى أنها لاتزال قيد الدراسة والأرصاد القادمة ستكشف الكثير حولها. ويمكننا التأكيد أن مثل هذه التشوهات لا بد أن تظهر ضمن الأفق المرصود من كوننا. فالأفق الكوني في الزمن T هو المسافة التي قطعها فوتون منذ الانفجار الكبير حتى اللحظة T. وهذا يعني أنه لا توجد معلومات يمكن أن تتجاوز مسافات أكبر من الأفق الكوني. ولهذا السبب إذا حصل انتقال طوري في الكون المتوسع فإن تأثيراته على النقاط الأبعد عن بعضها بعضاً من الأفق الكوني تكون عشوائية تماماً. ويعني ذلك حصول نوع من التشوه بالنسبة لحجم الأفق الكوني.

فإن كان الأمر يتعلق بجدران كونية أو بمناطق استقطاب محلية، فإن كثافة طاقة التشوهات تتناقص ببطء أكثر من الكثافة المتوسطة للكون، وسرعان ما تظهر وتسيطر التشوهات على كثافة وتوزع الطاقة الكونية. وبالتالي يقود وجود الجدران الكونية إلى كون غير متناظر وغير متجانس بدرجة كبيرة مما يتناقض مع الأرصاد. إن كل انتقال طوري يظهر بسبب شرخ محدد في التناظر، أي إن عدد التناظرات يكون محدوداً، مما يقود إلى ما يسمى بالجدران الكونية. وبما أن كوننا متجانس نسبياً فهذا يعني أنه لم تحصل في درجات الحرارة العالية في تاريخ الكون القديم انكسارات محددة للتناظر.

أما مسألة المناطق المستقطبة فأكثر تعقيداً وأهمية. فإذا انكسر تناظر بسيط في درجات الحرارة العالية خلال انتقال طوري أو أكثر مؤدياً إلى الفيزياء ذات درجات الحرارة المنخفضة التي نعرفها، فلا بد عندها من أن تتشكل مستقطبات مغنطيسية، أي مستقطبات تملك شحنة مغنطيسية بالمعنى المألوف للكلمة. وبما أنها لا تعود تتفاعل بعد فترة وجيزة من الانتقال الطوري، فإنها لا تنعدم وسرعان ما تبدأ بالسيطرة على كثافة الكون. لكن لم يمكن اكتشاف أي من هذه المستقطبات حتى الآن. وهي نتيجة خطيرة جداً بالنسبة للعلماء: فإما أن النماذج الأبسط لنظرية موحدة في فيزياء الجسيمات الدقيقة هي نماذج خاطئة، أو أنه يجب إعادة النظر بالنموذج المعياري للانفجار الكبير.

وتعطي نظرية التضخم الكوني حلاً لهذه المعضلة. فخلال مرحلة التضخم الكوني انحلت المستقطبات إلى درجة أنه لم يبق منها سوى واحد فقط في كل أفق كوني. وعلى عكس الجدران الكونية والمستقطبات الكونية، فإن

النسج الكونية تتميز بكثافة تتناقص بسرعة كبيرة، وهذا يعني أن هـذه التشوهات ذات آثـار قليلة على المستوى الكـوني. تبقى إذاً الأوتـار الكونية، وهي تصبح فائقة الأهمية لأنها قابلة بشكل مبدئي لإنتاج آثار ملحوظة رصدياً.

كيف يمكن رؤية آثار الأوتار الكونية؟

لـو اجتاز وتر كوني كوننا، فإننا سنرى خلفه سلسلـة من الصـور المزدوجـة للمجرات. فبفضـل طاقته وتوتره أو شـده يولد الوتر الكـوني تشوهـاً في هندسـة الزمكان. وفي حالـة وتر كوني مستقيم يكـون هذا التشوه بسيطـاً: فالمستويـات المتعامدة مـع الوتر تصبح مخاريط. وبعبارة أخرى، تكون زاوية الدائرة المرسومـة في مستوي عمودي على الوتر الكوني ذات زاوية أقل من ١٨٠درجة. ولهذه الهندسة المخروطية نتائج هامة كثيرة. فهـي تنتج عدسـات تثاقليـة: فالفوتونات الصادرة عن مصدر ما مثل مجرة أو كوازار تنحرف عندما تجتاز حقلاً ثقالياً. فإذا كان هذا الحقل قوياً بمـا فيه الكفاية يمكن أن يرى الراصد عدة صور للمصدر نفسه. وفي حالة وتر كوني فإن الراصد الواقع على خط واحد مع الوتر ومع مجـرة تقع في المستوى الأبعد سيرى صـورة مزدوجة لهذه المجرة. فـإذا اجتاز وتر كوني كوننا فإننا سوف نرى خلفه سلسلة من الصور المزدوجة للمجرات أو الكوازارات البعيدة. لكن ليس من السهل رصد هذه الظاهرة. فالوتر الكوني لا يكون مستقيمـاً عموماً. وإضافـة إلى ذلك يمكن لمحيـط المجـرة أن يعدل أو يغـير صورتها وكذلك الأمر بالنسبة للتخلخلات العشوائية لهندسة الزمكان بين هذه الأجسام البعيدة والراصـد. وبالتـالي فالعلمـاء لا يتوقعون الكثير مـن التحليل الكمي لأثـر العدسات الثقالية.

غـير أن هنـاك خاصة أخـرى للأوتار الكونية يمكن رصدها، وهي إصدار الأمواج الثقاليـة. فثمة أوتار كونيـة منتهية تشكل حلقـات تكون في حالة نوسـان دائم. وهذه الطاقة التي تنوس هي أصل إصدار الإشعاع الثقـالي. إضافة إلى ذلك، فإن هذا الاشعاع هـو الآلية الوحيدة التـي يمكن من خلالها لحلقـات الأوتار الكونية أن تُحمل بالطاقة. وهو ما يسمـح لها بالاصطدام وبالتالي بأن تعدم بعضها بعضاً. ومن دون إصدار الطاقة فإن حلقات الأوتـار الكونية ستتراكم الأمر الذي لايتوافق مع تجانس كوني.

يمكن التنبـؤ بوساطة الحسابات بكثافة وبطيف هـذا العمق من الأمـواج الثقالية، ولكن لا تزال هـذه التنبؤات غير دقيقة في الوقت الحالي. إن عمق الأمواج الثقالي هذا يتمثل بتخلخل في هندسة الزمكان. والوسيلة الأفضل للكشف عـن هذه التخلخلات هي

البحث عن أثرها على التغيرات الفائقة الانتظام للإشعاع الصادر عن البولزارات المزدوجة. والحدود التي لوحظت لانتظام خمسة من البولزارات المنتظمة أدت لتحجيم نماذج الأوتار الكونية.

نجد بالتالي أن صعوبات كثيرة تعترض نظرية التشوهات الطبولوجية. ومن أهمها أيضاً نتائج التجربة التي قام بها القمر الصناعي غوبي، والتي بينت أن طيف التغيرات قريب جداً من طيف معروف تماماً هو طيف هاريسون زلدوفيتش. ويتحدد هذا الطيف بالشرط التالي: يجب أن يكون تغير أو نوسان كتلة في حجم من حجم الأفق ثابتاً خلال الزمن. وقد بين العالمان هاريسون وزلدوفيتش أن هذا الطيف هو الوحيد الذي لا يقود إلى تشكل عدد كبير من الثقوب السوداء على المسافات القصيرة ولا إلى انحرافات كبيرة بالنسبة لتجانس الكون وتناظره.

إن نموذج الكون المتضخم المنافس لنموذج التشوهات الطبولوجية يقود بشكل طبيعي إلى طيف هاريسون زلدوفيتش. والتشوهات الطبولوجية تولد هي أيضاً طيفاً حقيقياً. والحق أن الأرصاد تثبت وفق بعض العلماء أن التشوهات الطبولوجية تولد البنى الكبيرة وذلك اعتماداً على النماذج التي تعرضنا لها في هذا البحث وهي الأوتار والنسج الكونية والمستقطبات. ومع ذلك يجب أن نكون حذرين قبل تغيير نموذج فيزيائي كوني استمر بضعة عقود. ويبدو من السابق لأوانه مع ذلك رفض هذه الأفكار الجديدة لأنها تتوافق تماماً مع الأرصاد الحديثة ويمكن أن تحمل تغييراً كبيراً لرؤيتنا للكون ولتطور بناه الكبرى وأولها المجرات.

الهوامش

1- La Recherche No 305 Janvier 1998

٢- من المعروف أن ثابت هبل H يقيس النسبة الحالية لتوسع الكون. أما مقلوبه فهو زمن هبل، وهو يعطي الزمن الخاص بتطور الكون. وبجداء هذا الزمن بسرعة الضوء نحصل على نصف قطر هبل الذي يحدد مستوى المسافات الكونية الحالية، وهو لا يزال عرضة للنقاش بين العلماء.

3- La recherche, hors serie, Cosmos,p. 30, 1998.

4- La Recherche, hors serie, p. 36, 1998.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سمعان العمودي
التجربة الفريدة في التاريخ

فايز مقدسي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يُنظر اليوم إلى القديس/سمعان العمودي/ كواحد من أشهر القديسين السوريين المسيحيين ليس في وطنه سورية وحسب، بل وفي العالم أجمع. مثله في ذلك مثل القديس السوري الآخر /بولس/. غير أنّ شهرة /سمعان/، وعلى العكس من/بولس/، لا تعود إلى عقيدة أو فكر فلسفي أو ديني. فهو لم يخلف كتباً. ولا دعا إلى عقيدة معينة غير العقيدة المسيحية، شأنه في ذلك شأن /مار مارون/ السوري. إنما هذه الشهرة تعود إلى نمط الحياة

---

* باحث وشاعر سوري مقيم في باريس.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

النسكية الـذي كان أول من اعتمده، وعلى مدى أربعين عامـاً، أيّ الجلوس على عمود ليكـون أقرب إلى السماء وأبعد عن الأرض. مـع أن من يدرس سيرة حياته يرى أنه، رغم ابتعاده عـن الأرض فقـد كان قريباً جدا في حياتـه اليومية من الناس الذين كانوا ينظرون إليه باحـترام وتوقير. وكانوا يأتون إليه من مختلف الأرجاء للاستماع إليه وعرض مشاكلهم عليـه والأخذ برأيه والاستماع إلى نصائحه كما سوف نفصّل.

ولم تقتصـر شهرة سمعان على السوريين وحسب، بل امتـدت إلى الكثير من الأقاليم المجاورة. وذلك من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس، ومن ثم إلى أوروبة، حيث كانت قديسة باريس الشهيرة /جنفيف/ ترسل له بالسلام مـع التجار المسافريـن من فرنسا إلى سوريـة التي كانـت عاصمتها آنذاك / أنطاكية/ مركز المسيحية العالمي.

مـا تفرد بـه /سمعان/ هـو كما ذكرنا طريقـة تنسكـه في الجلوس علـى عمود. ويشـير أكـثر الذين كتبوا عنـه إلى أنه كان أول من ابتدع هـذه الطريقة التي سُميت/ عمودية/. وقد تابع تلامذته فيما بعد على هذا المنوال فأطلـق عليهم اسم العموديين. وصار هذا الاسم مشهوراً في العالم أجمع ولا يزال إلى اليوم. بحيث أن الكنيسة الضخمة التـي شُيـدت تخليدا لذكره بعـد موته في سوريـة، والتي لا تـزال آثارهـا قائمة إلى اليوم، والتي تحتوي على القسم السفلي من عموده،أصبحت مزاراً دينياً وسياحياً يقصده الكثير من الزوّار القادمـين من أكثر أرجاء المعمورة. وهـذه الكنيسـة، أو الكاتدرائية تُعتبر من أضخم كنائس العالم المسيحي مثلها في ذلـك مثل كنيسـة القديس/بطرس/ في الفاتيكان في إيطاليا.

وهـي قائمـة في شمـال سوريـة في المنطقة المعروفة اليـوم /بجبل سمعان/ أو /قلعة سمعان/. ودخل اسـم /سمعان/إلى اللغات الأوروبيـة في صيغة /Simon Le Stylit/. أيّ /سمعـان العمـودي/. ولقد أطلـق اسـم العموديـين علـى كلّ النساك السوريين من تلامذة /سمعان/ الذين قلدوا طريقـة معلمهـم في الجلوس علـى عمود مرتفع. والانقطاع عن الدنيا. وهم كثيرون. ولقد دامت الطريقة العمودية السورية زمناً طويلاً بعد وفاة /سمعان/، ولم تنحسر سوى في مطلع القرن السابع للميلاد. ومن الأمور الملفتة للنظر أثناء دراسة المدرسة العمودية أنها مدرسة تنسكية سورية خالصة. أو، وكما ذكر الباحث /اجناس بينا-PenaIgnace/ في كتاب /العموديون السوريون/، أن هذه الحركـة هي صنيعة الـروح السورية. وأنها

سورية المنشأ وليس ما يشوبها من عناصر خارجية. والغوص في التاريخ السوري القديم يبيّن لنا أن عادة الارتقاء نحو الأعلى هي نزعة قديمة جداً ومتأصلة في الفكر الديني- الروحي السوري.

وقد سبقت /سمعان العمودي/ بزمن طويل. ولعله أعاد أحياءها دون أن يتعمد. أو أنه عاد إلى تراث الأجداد في تنسكه في مكان مرتفع.

وتدل الوثائق القديمة المسمارية التي تمَّ اكتشافها في سورية الطبيعية والعراق على أن الخالق كان مكانه دائماً في الأعالي. ومن هنا أتى اسم اللّه، أيّ /المتعالي أو تعالى/. وهو دائماً في السماء. إنما مقره على الأرض هو رؤوس الجبال العالية. ويكفي هنا أن نشير إلى أنّ /البعل- السيد- الربّ/ الكنعاني كان مقره جبل /صفن/ قرب اللاذقية. أيّ الجبل الأقرع اليوم، كما نعلم من وثائق مملكة /أوغاريت/ السورية. حيث كان يُطلق عليه اسم /بعل- صفن/، أيّ، سيد أو ربّ الجبل. وأن اللّه باسمه الكنعاني- البابلي /عل/ يدل على العلو والارتفاع. كما أن تحليل اسم /بعل/ لغوياً يدل على أنه مركّب من حرف جر: /ب/ ومن لفظ /

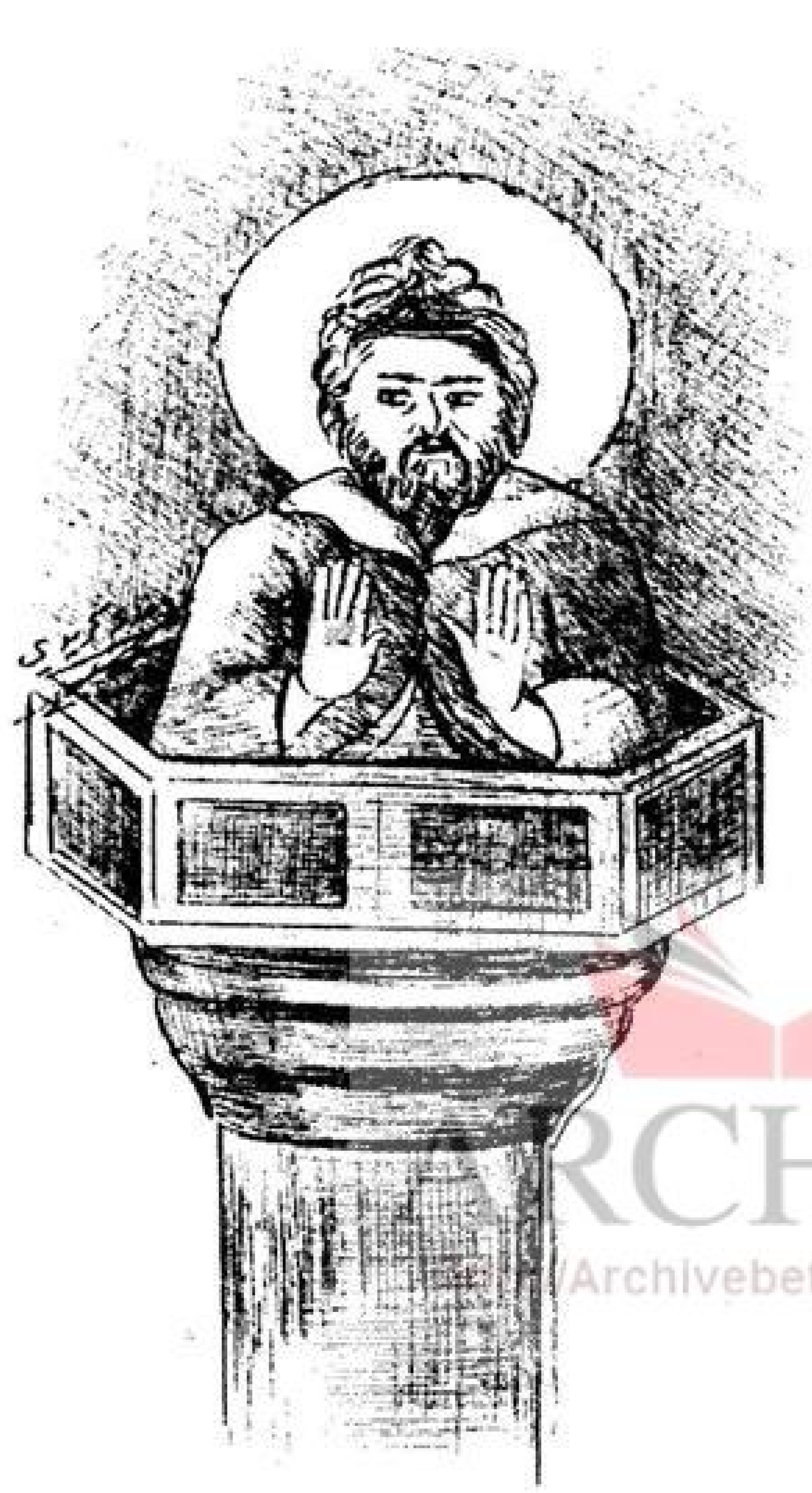

عل/. أيّ الذي /في/ أو /ب/ الأعالي. وهذه الصورة نعثر عليها راسخة في الفكر الديني في كل أرجاء الهلال الخصيب. فإذا انتقلنا إلى زمن أقرب إلى زمن /سمعان/ نجد الكاتب السوري /لوسيان السيميساطي/ الشهير في التاريخ بكتابه /الربة السورية/، والذي سبق/سمعان/ تاريخياً بحوالي أربعة قرون من الزمن. حيث أن سنة ولادته تعود

إلى مطلع القرن الأول للميلاد في مدينة / سيميساط/ السورية. وهو يعلمنا في كتابه المذكور كيف أنه تنقل في العديد من أرجاء سورية ولبنان، وحصل على معلومات ثمينة حول الديانة السورية القديمة.كما أنه شاهد بنفسه طرق وطقوس العبادة في المعابد الوثنية وفي العديد من المدن. وهو يذكّر على نحو خاص معبد مدينة/هيروبوليس/، أيّ، مدينة /منبج/ الحالية شمال- شرق / حلب/ في سورية اليوم. وجدير بالذكر أنها ليست بعيدة عن منطقة /جبل سمعان/.

أما الربة السورية المقصودة في عنوان الكتاب فهي /اتارجيتيس/، ولا ينخدع القارئ بصيغة الاسم اليونانية. فهذه الربة ليست سوى /عشتار- عشتروت/ الشهيرة بأسماء مختلفة منها /أفروديت/.

ويقول /لوسيان/ أنه حضر طقساً احتفالياً في معبد /منبج/ كان يُقام كل سنة والهدف منه طلب المعونة من الربة- السيدة /عشتار/، أو وبلغة اليوم المسيحية، شفيعة المدينة، بأن تمنح سورية الرخاء والرغد والسلام. والمؤلف يتحدث عن كاهن في المعبد كان يصعد إلى أعلى عمود من أعمدة المعبد. ويبقى عليه أسبوعاً كاملاً يتضرع باسم الناس، حيث أنه يكون أقرب إلى السماء في مكانه المرتفع فيصل صوته إلى السماء على نحو أسهل وأسرع من الآخرين.

وهذه الحكاية تبيّن مكانة المواقع العالية في الفكر الديني السوري القديم. ومن الملفت للنظر أن عادة إقامة نصب من الحجارة في الأماكن الجبلية لا تزال شائعة إلى اليوم في أرجاء سورية ولبنان على نحو خاص. وذلك من باب التضرع وطلب العون الإلهي.

هكذا نرى بوضوح أن قديسنا /سمعان/ قد قلّد أجداده عندما اعتلى العمود ليكون أقرب إلى الله. غير أنه لابدّ من التنويه أن / سمعان/كان، وفي العصر المسيحي- السوري الذي عاش فيه، أول من تعبّد على هذا النحو الذي لقيّ معارضة شديدة من قبل رؤساء الكنيسة الذين ربما أبصروا فيه ضرباً من العودة إلى الديانة السورية التي سبقت المسيحية، والتي اعتاد المؤرخون على نعتها بالوثنية. إنما كان من الصعب ردع الناس عن تكريم /سمعان/ على عموده، وقد رأوا فيه ما كانوا تعودوا أن يروه في طقوسهم الدينية القديمة. وهي طقوس سورية محلية انتقلت إلى العديد من الأقاليم عن طريق التجارة والسفر. وهو أمر اشتهر به أهل سورية. أيّ حب السفر والتجارة، منذ القدم. والتاريخ يحدثنا، وعلى سبيل المثال، عن شهرة النبيذ السوري، وعلى نحو خاص النبيذ الذي كان يُصنّع في منطقة /سمعان العمودي/ في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بلدتي /البارة/ و/كفر كرمين/. وهو كان المشروب المفضّل في /روما/ عند الأباطرة الرومان، وفي أكثر أنحاء أوروبة.

وهناك شهادة مهمة في هذا الشأن هي شهادة القديس /جريجوار/ من مدينة /تور/ فرنسا -القرن السادس للميلاد. حيث يذكّر النوعية المميزة والعالية الجودة للنبيذ السوري الذي كان يصل إلى بلاد الغوليين، أيّ /فرنسا/. ونذكر أيضاً شهادة هذا القديس حول انتشار التجّار السوريين في كلّ أنحاء المتوسط من /مرسيليا/ إلى /إسبانيا/ إلى /بريطانيا/ وحتى ضفاف نهر الدانوب. يقول ما ترجمته: «إنّ مهارة السوريين في التجّارة تبدو وكأنها تلد معهم، وعلى نحو غريزي، فتجعلهم يطوفون أرجاء العالم».

ما سبق يعطينا فكرة عن أنّ المكان الذي نشأ /سمعان/ فيه وتنسك، لم يكن صحراء نائية أو بيداء مقفرة. بل، وبالأحرى، منطقة شبه عالمية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية عندئذ. وهذا الواقع يفسّر الشهرة الكبيرة التي نالها /سمعان/، وكيف أن طريقته أصبحت بعد موته، وقد انتشرت في كلّ سورية، طريقة شبه عالمية. وهي طريقة كانت تقوم على هجر العالم /الجلوس على عمود/ مع البقاء في العالم. وهو ما فعله /سمعان/ كما سوف نبيّن. حيث ندر أن عاش ناسك مع الناس كما فعل قديسنا الذي نتحدث عنه والذي سلك طريقاً خاصاً به عزّ نظيره للخروج من العالم مع البقاء فيه. وهو أمر دفع أساقفة ما بين النهرين الذين جاؤوا لزيارته وهو على عموده إلى القول له: هناك طرق أخرى للابتعاد عن العالم وليس من الضروري الخروج عن المألوف.

وكما قال المؤرخ /إيفاجار-Evagar/ في /تاريخه اللاهوتي/ فإن العموديين السوريين: «قد عاشوا على منتصف الطريق بين السماء والأرض». لقد كانوا، رغم مشقة حياتهم، على تماس مباشر مع الآخرين من الناس العاديين في المجتمعات الزراعية. وفي الوقت نفسه على اتصال دائم مع الخالق. وهذا يشرح لنا حبّ الناس لهم. وتصرفات العموديين السوريين وهم على الأعمدة العالية بدت في غرابتها، كما ذكّر البعض، كمسرحية يأتي الناس ليتفرجوا عليها وقد أخذتهم الدهشة وأصاب الورع قلوبهم.

وقبل الدخول في التفاصيل الدقيقة في حياة /سمعان/، لابد من إلقاء نظرة تاريخية على قديسنا الشهير.

السنة المرجحة لولادة /سمعان/ هي سنة ٣٨٦ للميلاد وذلك في بلدة صغيرة من شمال سورية هي /سيس/. وكان في شبابه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المبكـر يرعى أغنام العائلـة. وهو أمر أتاح لـه دونما شك، وهو وحيـد في المراعي مع أغنامـه، فرصة التأمـل في الطبيعة وطرح العديد مـن الأسئلة حول الله وحول الحياة والموت والأولى والآخرة وعن مصير الإنسان في هـذا الوجود. مما يجعلنا نعتقد أنه كان مهيئاً للدخول في التجربـة الروحية ليجد أجوبـة على أسئلتـه، ولكـي يحصل على الراحة النفسية التي كان ينشدها.

وتقول الروايـة الكلاسيكية المعتمدة أنه ذهـب ذات يوم مثلج مـع أبويه إلى الكنيسة لحضـور القداس. وسمع الكاهن يردد كلام المسيح في موعظة الجبل وفيها:

(هنيئـاً للودعاء فإنهم يرثـون الأرض. هنيئـاً للجيـاع والعطاش إلى الـبر فإنهم يشبعون. هنيئاً للرحماء فإنهم يرحمون) إلى آخر الموعظة.

ويبدو أنّ هـذه الكلمات تركت في نفس الفتى /سمعان/ أكبر الأثر. وهي، وكما روى هو نفسه، قـد بدّلت حياته تبديلاً كلياً كما سوف نرى.

وما لبث أن راح يبحث عن طريقة تمكنه من التوصل إلى النقاء الروحي الذي أضحى مطلبه الأساسي. فالتقى بجماعة من النساك قرب بلدته فانضم إليهم وراح يمارس معهم الحيـاة النسكية. غير أنـه ما لبث أن طمح إلى الاقـتراب أكثر من الله. ووجد أن الأمر يتم بالمبالغـة بالتقشف واحتقـار الجسد. فمضى إلى دير يضم العديد من الرهبان في منطقة /تل عادة/ حيث أمضى حوالي عشر سنوات في التقشف والصلاة بحيث أنه كان لايتناول الطعام إلاّ مرة واحدة في الأسبوع. وكان يرفضـ أيّ علاج يحتـاج إليه. ويقهر جسـده على نحو لم يُعرف من قبل.مما دفع برئيس الديـر إلى الطلب منه مغادرة الدير خوفاً على الرهبان الآخرين من هذا النمط التقشفي.

بعد ذلك تنقطع المعلومات. ثم نعود فنعثر على/سمعان/ حوالي سنة ٤١٢ في بلدة هي اليوم التي تحمل اسمه.حيث استقر في دير صغير عاد فيـه إلى ممارسة نمطه النسكي الغريب، بل بالغ فيه مبالغة كبيرة. ثم ما لبث أن غـادر هذا المـكان إلى جبل قريب حيث أقام على قمته منفـرداً بعد أن ربط نفسه بسلسلـة حديدية حتى لا يتحرك، مضاعفاً بذلك مـن الألم الجسدي، ومنقطعاً كلياً إلى العبادة والصلاة والتأمل.

ما لبث اسم /سمعـان/ أن شاع وأصبح معروفاً في المنطقة. وصار الناس والفلاحون يأتون إليـه في كل يوم تقريبـاً، وقد أثارت طريقة حياته استغرابهـم. وأضحوا يكنّون له الكثير من الاحـترام، ويسألونه العون في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمراضهم ومشاكل حياتهم اليومية وكما سبق وأسلفنا، فقد انتشر اسم /سمعان/ خارج وطنه عن طريق المسافرين والتجار. فصار الناس من أقوام عدة يقصدونه.

أما هو، ولكي يتجنب مضايقات الزوّار، فقد أقام نصباً أو عموداً وجلس فوقه لينقطع إلى حياة التأمل وإماتة الجسد. ومنذ ذلك عُرف باسم /سمعان العمودي/.

يذكّر الأسقف /تيودوريتوس/ السوري في تاريخه عن/أصفياء الله/، الذي يعود زمن تدوينه إلى منتصف القرن الخامس الميلادي، أنه زار/سمعان/ ورآه على عموده أكثر من مرة. وذلك على مدى عشرين سنة. ومن المقدر، وعن طريق الحسابات التي أجراها المختصون حول تزايد ارتفاع العمود مع مرور السنوات، أن /سمعان/ قضى على عموده أكثر من أربعين سنة. وأن ارتفاع العمود قد بلغ أكثر من عشرين متراً.

كيف كان /سمعان/ يقضي يومه على العمود؟

تقول المصادر التاريخية الموثقة إنه كان يكرس قسماً من اليوم لوعظ وإرشاد الجموع التي كانت تقصده. وكان أيضاً يعالج مشاكل الناس، ويدعو الوثنيين منهم إلى المسيحية. وأما القسم الآخر، الليل في أكثر الأحيان، فكان مكرساً للتعبد والرياضة الروحية.

وهكذا نرى، ويا للغرابة، أنه رغم توقه إلى العزلة والاقتراب من السماء، فقد كان يعيش بين الناس وفي صلب مشاكلهم.

ويبدو أنه تمكن من التوفيق بين حياته الروحية وبين حياته الاجتماعية. ويذكر /تيودوريتوس/ أن الزوار كانوا يأتون إليه حتى من /إيطاليا/. وأن رؤوس الكنيسة في /أنطاكية/ وكبار رجال الدولة كانوا يزورونه للتبرك به. وكما ذكرنا فقد كان يرسل بسلامه وبركاته إلى القديسة /جنفيف/ في باريس. وكانت باريس آنذاك تدعى/لوتيسيا/. وذلك مع التجار القادمين من فرنسا أو بلاد الغال إلى سورية. وكانوا يحدثونه عنها كثيراً ويبلغونه سلامها. وهناك، وإلى اليوم، حي كبير وشهير في باريس بالقرب من /الحي اللاتيني/ يحمل اسم هذه القديسة معروف باسم /جبل القديسة جنفيف/.

أما عن عجائب /سمعان/ فـ/تيودوريتوس/ يقص أيضاً في تاريخه السالف الذكر أن /سمعان/ شفى أحد أمراء مدينة /الرقة/ من المرض. وأنه صلى وابتهل إلى الله من أجل العديد من النساء العاقرات فحملن وأنجبن أطفالاً. وأن أهل/فارس/ كانوا يدعونه/الرجل الإلهي/. أما حكايات تنسكه فكثيرة وهي تكاد أن لا تُصدق. ويذكر أحد الرهبان الذين قاموا بزيارته أنه شاهد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

/سمعان/ يصلـي، وأنه عد له حوالي ١٢٠٠ ركعـة أثناء الصلاة الواحـدة، ثم كف عن العد من الضجر. وكان /سمعان/ يأكل مرة واحدة في الأسبوع كما سبق. لذلك فقد كان بوسعه اتخـاذ وضعيات جسدية صعبة جداً أثناء الجلوس نظـراً لنحول جسده من قلة الغـذاء وهو قائم على عمـوده نهاراً وليلاً. ممـا كان يلهب مشاعر الناس. وقد بدا لهم ككائن خارق للطبيعة.

ويُقـال أيضـاً أنـه كان، وبعـد غياب الشمس، يقضي الليل كلّه واقفاً على رجليه، ساهراً حتـى الصباح. والأخبار حوله كثيرة كما قلنا.أما كيف استطاع /سمعان/ تحمل كل تلك المشاق التي تفـوق طبيعة الإنسان، وعلى مـدى أربعين سنة علـى الأقل، فهذا يبقى سـراً من أسـرار الأشخاص أصحاب التجربة الروحية.

كانت وفاة /سمعـان/ حوالي سنة ٤٥٩ للميلاد. فوضع جثمانه في تابوت من المعدن. ووضع التابوت عند قاعدة العمود. بعد ذلك يبـدو أن كنيسة أنطاكيـة، عاصمة سورية آنذاك، حاولت نقـل التابوت إلى العاصمة. غـير أن المعنيين بالأمر لقـوا مقاومة كبيرة مـن قبل السـكان المحليين الذيـن رفضوا تسليم جثمـان قديسهم. بحيـث أن رؤساء الكنيسـة اضطروا إلى العـودة برفقة كتيبة من الجيش لنقله إلى أنطاكية حيث تمَّ دفنه في احتفـال شعبـي ورسمي كبـير. غير أن نقل الجثمـان لم يمنع الناس من زيارة مكان العمود والتبرك به. حيـث أنه أصبح مزاراً دينياً عالمياً، وحيث تمَّ فيما بعد بناء كنيسة حـول العمود هي فريدة مـن نوعها وتمثل قمة الهندسة المعماريـة السورية كما يقول المختصون. من الناحية التاريخية فإن نمط الحياة القاسي جداً الذي انتهجه /سمعان/ يبدو، كما سبق وقلنا، صعباً على التصديق. وهو الأمر الذي أشـار إليه /تيودوريتوس/ في حديثه عن /سمعان/ الذي عرفه جيداً، وزاره عدة مرات كما سبق وأشرنا، فقال في مطلع حديثه عنه:

«إني أخشـى أن يحسب الذين يأتون من بعدنـا حديثي عارياً من الصحة، لأن هناك في الواقـع أشياء تفوق الطبيعة البشرية.... بحيـث أن الناس غير المثقفـين في الشؤون الإلهية يحسبون كل مـا يُقال لهم كاذباً.... أمـا الذين ضلعوا في شؤون الروح والله فلا يشكّون في أقوالي حول/سمعان/».

ويبـدأ /تيودوريتوسـ/ كلامـه بقص حكايـة تحول الشاب/سمعـان/ إلى الحياة النسكيـة كما سمعها منـه شخصياً. ويقول إنه بعـد حادثة القداس وكلام المسيح الذي سمعه /سمعان/ في الكنيسة أثناء القداس.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتي أشرنا إليها. فإن/سمعان/ قال له حول الكلام الذي سمعه على لسان المسيح في الكنيسة في مطلع شبابه:

«لقد التقطتُ بذار الكلام الإلهي هذا (كلام المسيح)، وخبأته في نفسي. ثم مضيتُ إلى ضريح الشهداء في جوارنا (شهداء المسيحية في عصر الاضطهاد الروماني)وارتميتُ على ركبتيّ وجبهتي على الأرض سائلاً ذاك (المسيح) الذي يريد أن كلّ الناس يخلصون أن يدلني على الطريق التي تؤدي بي حتى النهاية إلى التقوى».

ثم يتابع /سمعان/ الحديث فيقص على /تيودوريتوس/ حكاية حلم شاهده، أو رؤيا حدثت له، فيقول:

«كنتُ أرى نفسي أنني أحفرُ أساساً، وأن واحداً واقفاً إلى جانبي يقول لي أن أعمّق الحفرة. فتابعتُ الحفر كما أمرني. ثم حاولتُ من جديد أن أرتاح، ولكنه هذه المرة أيضاً أمرني أن أحفر بلا هوادة دون أن ارتاح من تعبي. وبعد أن كرّر أمره ثلاث مرات أو أربع مرات قال لي أخيراً أن العمق كاف. ثم أمرني حينئذ أن آخذ في البناء دون تعب لأن التعب كلّه قد زال فيقوم البناء بلا عناء».

ويقول /تيودوريتوس/ معلقاً على تلك الرؤيا إن الوقائع التي حدثت بعد ذلك تشهد بصحة هذه الرؤيا .فقد حدثت في حياة/سمعان/ أمور تفوق الطبيعة.

بعد ذلك يسرد المؤلف قصة ذهاب/ سمعان/ إلى الدير حيث قضى عشر سنوات ثم طُرد منه لسلوكه التقشفي الغريب، وبعد أن يأس القائمون على الدير من إقناعه بتغيير سلوكه.

ولقد روى رئيس ذلك الدير لـ/ تيودوريتوس/ الكثير من القصص حول تعذيب /سمعان/ لنفسه عندما كان في الدير. ويتابع المؤلف قائلاً إنه عندما ترك /سمعان/ الدير مضى نحو الأماكن المرتفعة فوجد بئراً خالية من الماء فنزل فيها واستقر، وصار يصلي ويسبّح باسم الله. ولما ندم رئيس الدير على كونه أبعد /سمعان/ أرسل مَن يبحث عنه. فسأل هذا الرعاة الذين كانوا في المكان. فقالوا له إنه في البئر. ثم نادوا عليه وأخرجوه بحبل من البئر بعد صعوبة كبيرة.

هذه الرواية تبيّن مدى الجموح الروحي الذي تميزت به تجربة /سمعان/.

ويروي المؤلف قصصاً أخرى شديدة الغرابة حول/سمعان/. ومنها أنه بقيّ أربعين يوماً صائماً عن الطعام. وكاد أن يهلك، لولا أنهم تداركوه في آخر لحظة فأنقذوه من الموت بأعجوبة .ويضيف المؤلف معلقاً على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الحادثة: «إن /سمعان/، ومنذ ذلك اليوم، وقد مضى عليه ثمان وعشرون عاماً، وهو يصوم أربعين يوماً في السنة. وأنه مع الوقت والتدريب أصبح الأمر أقل وطأة عليه. غير أنّ قوته الجسدية كانت تتلاشى بسبب الإرهاق فكان يستلقي شبه ميت. ذلك أنه كان يبقى أيضاً واقفاً على عموده أياماً عديدة وقد ربط نفسه بحبل على العمود كيّ لا تخذله قوته فيضعف وينزل». ويعلق /تيودوريتوس/، وكأنه لا يدري كيف يفسر قوة احتمال /سمعان/ لمثل تلك المجاهدات الجسدية، بقوله: «إن /سمعان/ كان يستمد قوته من النعمة الإلهية».

حول ثقافة /سمعان/ فمن شبه المؤكد أنه لم يكن شخصاً جاهلاً. بل كان يتمتع بمعرفة لاهوتية جيدة. ويدل على ذلك تفسيره لكلام الإنجيل لزائريه من أهل القرى القريبة، ودخوله في حوارات دينية مع بعض زواره من علية القوم. إضافة إلى كونه كان يعرف تقاليد وعادات أهل بلده. حيث أنهم كانوا كثيراً ما يأتون إليه لفض المشاكل القائمة بينهم. وكانوا لا ينقضون له حكماًكما تدل الوثائق التاريخية.

ويذكّر /تيودوريتوس/ في كتابه /أصفياء الله/ أن الزوار المتوافدين إلى /سمعان/ بعدد لا يحصى كانوا يتهافتون إلى لمسه والتبرك بلمس ثيابه الجلدية. ولكنه كان ينفر من ذلك من باب التواضع.

وأن /سمعان/ كان يعلم الفلاحين كيف سيكون الموسم الزراعي، وعن مجيء الجراد، حتى يحتاطوا للأمر.

ويقول المؤلف: «وليس ما أتينا على ذكره (من عجائب وغرائب) مجرد أقوال تُشيد بصحة هذه الأمور، بل هي الأعمال نفسها تشهد على ذلك وبأعلى صوتها».

بعد موت/سمعان/ تابع حواريوه طريقه في الجلوس على عمود. نذكر منهم هنا / سمعان الصغير/ الذي تنسك قرب أنطاكية. ثم /دانيل/ وكان عموده قرب القسطنطينية. ونذكر أيضاً /اليفوس/ و/لوقا/ العمودي.

ولقد حافظ سكان المنطقة على تكريم ذكرى وفاة /سمعان/ كل عام حيث كانوا ينشدون الأناشيد الدينية حاملين الأغصان، وهم يخترقون حقول الزيتون ماضين نحو نهر مدينة /عفرين/.

والكلام عن/سمعان العمودي/ كثير حيث أنه ترك في نفوس معاصريه والذين أتوا بعده أثراً يصعب أن تمحوه الأيام. وهو لا يزال إلى يومنا هذا محل الإعجاب والتقدير.

أما الأبحاث والدراسات عنه فهي كثيرة وبأكثر من لغة. ولعلّ أفضل ما نختتم به

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا البحث هو كلام /تيودوريتوس/ حيث قال في ختام الفصل الذي كرسه له في كتابه: «إنّ /سمعان/ كان فريداً بين سائر البشر».

المصادر الأساسية

١- تاريخ أصفياء الله. تيودوريتوس أسقف قورش.

2- Les StylitesSyriens– العموديون السوريون (بالفرنسية). تأليف:

Ignace Pena

Pascal Castellana

Romulad Fernadez

٣- كنيسة القديس سمعان العمودي. عبد الله حجار.

4- L'Orient des Premiers Chrétiens.

الشرق أرض المسيحية الأولى (بالفرنسية)، تأليف: J-CH et M.Sournia

5- La Déesse Syrienne.

الربة السورية (بالفرنسية)، تأليف:

L. de Samosate.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التساؤل الكانتي[1]
جان فرانسوا دورتييه[2]

❁
ترجمة وإعداد د. ماري شهرستان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عندما يسبح خيالنا

غالباً ما نفكر بشيء مختلف عن الذي نقوم بعمله. نجترّ مسائل، نخطط للمستقبل، نتخيّل، نتذكر، نهذي.. باختصار، نقوم بعمل ما ونحن نفكر بأمر آخر، نكون في مكان وذهننا في مكان آخر. وحتى لو كنا في وسائل النقل أو نقوم ببعض المشتريات، أو نشاهد التلفاز، أو نشرب القهوة، أو نكون في العمل، فإن ذهننا يشرد، إنه يفلت ويهرب ويغوص في أحلامه الكثيرة.

❁ باحثة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

لكن كيف يمكن قياس زمن التحلل هذا الفضفاض والمختلط بالنشاطات اليومية؟ باحثان من جامعة هارفرد خطرت ببالهما فكرة جديدة وغريبة لمحاولة التقاط الأفكار الداخلية لألوف من البشر. من أجل هذا الهدف، اعتمدا التقنية الحديثة للإيفون[3] التي أتيحت لهما. لقد أنشأا طريقة خاصة تسمح باستجواب مباشر لألوف من المتطوعين: ٢٢٥٠ استجابوا للنداء. وقبلوا على الفور أن يجيبوا عن أسئلة قد تأتيهم على هاتفهم الجوال في أي وقت من النهار. وكانت الأسئلة تدور حول ثلاثة مواضيع: ماذا تفعل الآن؟ -بماذا تفكر حالياً؟ ما تفعله أو تفكر به هل يسعدك أم لا؟

يشرد الذهن إلى مكان آخر خلال نصف الزمن

النتيجة الأولى هي التالية: وسطياً، يفكر الناس بموضع غير الذي يعملون به وذلك خلال نصف الوقت (وتحديداً خلال ٤٦،٩ من الوقت). ومهما كان نوع العمل الذي يقوم به الفرد فإن مقدرة التحلل والانفكاك تكون مرتفعة جداً.

هناك استنتاج هام من هذه الدراسة. الأفكار الداخلية ليست بالضرورة سارّة. وعلى العكس من ذلك، تبدو المعطيات وكأنها تبرهن وتظهر أن الشرود الذهني يرافق غالباً اهتمامات سلبية. فاستنتج الباحثون[4] في هذا الموضوع درساً فلسفياً: «العديد من الحِكم الفلسفية والدينية تعلِّم بأن السعادة ينبغي أن تتواجد في الحاضر وأنه ينبغي أن نتعلم كيف نقاوم الهروب المستمر لأفكارنا كي نستطيع العيش هنا والآن». ووفق هذه الحِكم «يكون الذهن الذي يشرد هو ذهناً تعيساً». فدراسة الباحثين تحاول برهنة أن هذا الدرس الروحاني هو درس حقيقي وصحيح.

لكن يمكننا أن نرد ونعكس الحجة بأن حالة التطواف بالفكر خارج الوقت الحاضر من أجل اكتشاف المستقبل والماضي والممكن، هي جزء من الوضع البشري. حتى لو كان ذلك لا يجعل الإنسان سعيداً...

يستطيع الإنسان أن يسافر عبر الزمن، بالفكر على أقل تقدير. ويمكنه أن يتذكر أوقاتاً عاشها، أو يمكنه أن ينطلق في المستقبل. من غير المفيد أن نعتبر أنفسنا وكأننا «جول فيرن القرن الواحد والعشرين Jule Verne: أن نتخيل المستقبل هو أمر شائع كأن نفكر بعشاء أو لقاء هام أو أن نخطط لعمل ما إلخ... منذ فترة أحرز علماء النفس تقدماً في دراسة قابلية الاستشراف. لقد وجدوا أن الآلية النفسية للاستشراف والتذكر هي نفسها: نتخيّل المستقبل استناداً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى مجموعـات الذاكرة(٥).

وهنـاك اكتشـاف جديد آخـر: لقـد تمَّ الاعتقـاد لفـترة طويلة من الزمن أن الاستشراف هو خصوصية بشرية فقط لكنهم اكتشفوا أن بعض القـرود قادرة علـى اجـترار نشـاط ما مقدمـاً وذلك قبـل بضع ساعات(٦).

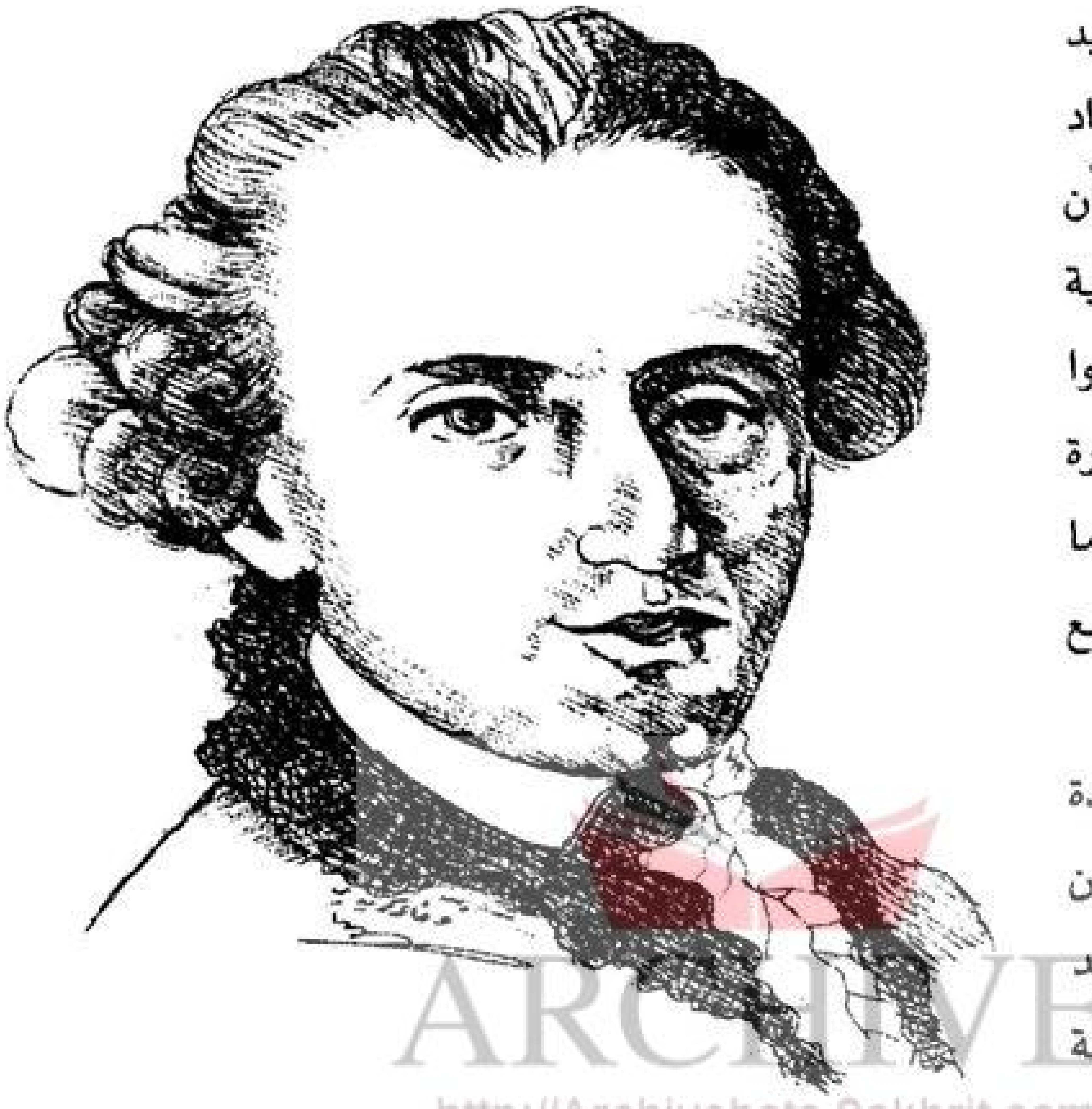

هناك دراسات جديدة أغنت هـذا الحقـل من البحـوث المزدهرة.لقـد برهـن باحثون أن «الرحلة الذهنية» عبر الزمن تنشط الأجهزة الحسية- الحركية المرتبطـة بـإدراك المدى. كمـا في نظرية النسبية عند أينشتاين، المكان والزمان ليسا مستقلـين سايكولوجياً. فريـق من جامعة «أبيردين» في اسكتلندا، أجرى دراسة مخبرية لقياس هذا الرابط بين الزمان والحركة(٧). المشاركون المتطوعون يقفون مجهزين بلاقط الحركـة؛ بعد دقائـق قليلـة وعندما نظل واقفين يبدأ جسدنا بالتأرجح بشكل طفيف مـن الخلـف إلى الأمـام. فنطلـب عندئذ من المتطوعـين لهذه التجربـة أن يتذكروا مشاهد ماضيـة أو أن يفكـروا بالمستقبل. اكتشف الباحثـون أن الشخص الذي ينغمر في ماضيه يتحرك مركـز ثقل جسده قليلاً إلى الخلف. وعندما يتصور الفرد المستقبل يحصل هذا التحـرك الطفيف إلى الأمام. يتناسب هـذا التأرجح مع اتجاه الزمن كما يدركـه الجسد. وهذا يتناسـب مع التشبيه البليغ الشائع الذي يجعلنـا نضع المستقبل في المقدمـة والماضـي في المؤخرة فوق سهم الزمـن. تبرهن هذه الدراسة إذاً أن عرضنا للزمن ليس مستقلاً عن المكان. وأن التشبيه

البليغ الـذي يجعلنا نفكر بالزمن من خلال «سهم الزمن» هو منغرس في نظام عروضنا للأمـور. وهذا تبيان للتجـارب التي تجرى حالياً حـول «المعرفة المتجسدة». «التسجيل الجسدي للعقل»، هـذا يعني الطريقة التي ترسـو بهـا أفكارنا التجريديـة في رؤوسنا بأشـكال ملموسـة ومادية جـداً، من صور وأشكال وحركات.

مـا يزعجنـي في هـذا البحـث أن استنتاجاته ظهرت عكس الحدس. عندي شعور أنـه عندما نفكـر بالماضي نميل إلى إحنـاء الرأس إلى الأسفـل (أي ننحني إلى الأمام). ألا يوجد على أي حال عبارة شائعة نقول فيها: «ننحني نحو ماضينا؟ وبالعكس عندمـا نفكر بالمستقبل يبدو لي أننا نرفع رأسنـا وأعيننا إلى الأعلـى، أي نميل نحو الخلف جسدياً...»

تقول الحكمة: لا تنظر خلفك!

«مـاذا فعلت في حياتـك؟ انظر خلفك قبل أن تستمر أبعد من ذلك» هذا ما تنصح بـه الحكمة. جيـد، إنني جاهـز للاختبار الوجـودي. فيبـدو أنه «عندمـا نعرف من أيـن أتينا نستطيع أن نعـرف إلى أين نحن ذاهبون» لِمَ لا؟ لكن هناك مقولة لأندره جيد Gide «ينبغي اللحاق بالميل الشخصي لكن صعوداً»

لقد تقرر وضعي المهني وأنا في الخامسة والعشرين مـن عمري[٨]. فقبـل ذلك كنت مليئـاً بالكبرياء والأوهـام مثل كل الحمقى الذين من عمـري. كان طموحي الشخصي مختلطاً بأوهـام فكرية حقيقية تدفعني إلى تحقيق «عمـل» كبير. كنتُ مثاليـاً خيالياً، رغـم أني قـد وقعـت بعدد مـن التجارب الفاشلة جداً بل الكاوية، مثل محاولات غير ناجحة وتراجعـات. لكنها كانت انطباعات المراهقة؛ وحتى الآن كل شيء طبيعي. ومثل العديد من المراهقين، تزوجتُ ثم طلقتُ، ثم تقدمتُ في الرياضة (بعد أن هُزِمتُ هزيمة كبـيرة في سباق الجري للـدورة الإقليمية)؛ ثـم حملتُ قيثارتي وتخيلـتُ طموحاً عابراً جداً بأن أكـون نجم الأغنية الملتزمة (لكنها مهنة فشلت عندما فشلتُ علنياً على مسرح الثانويـة في حفل نهاية العـام أمام الزملاء والأساتذة مجتمعين). ثـم شرعتُ لأن أكون ثوريـاً محترفاً؛ لقد كانـت الفكرة غبية: أن أحلم بأن أصبح «تروتسكي أو تشي غيفارا» في زمن المجمعات التجارية العملاقة، وزمن النوادي الليليـة، والتلفاز الملـون، وخمسة أسابيـع عطلة مدفوعة سلفـاً: لم يكن الأمر معقـولاً... وبعد خمس سنـوات من العمل النشـط مناضلاً لحساب منظمـة طائفية كانت تبتـز كل أعضائها، غـيرتُ طريقي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان عمري ٢٥سنة، كنت رب أسرة. وقد حان الوقت للانتقال إلى العمل الجدّي.

في سن ٢٥-٣٠ نبدأ بالهدوء والتوازن. فلم نعد نؤمن بالعجائب، بل ينبغي علينا أن نعيش حياتنا كبالغين، وأن نواجه العالم الواقعي. وفي الوقت نفسه، نكون في ريعان الصبا لكي نرفض

إن العمر الذي يحاول فيه الكثير من الشباب المندفعين تقسيم حياتهم إلى قسمين؛ من جهة العمل مهنياً لضمان المأكل والمشرب والملبس (لأنه ينبغي أن يعيش الإنسان بشكل جيد وأن يوفر لعائلته الحياة الكريمة). ومن جهة ثانية الأوقات الحرة - المساء والصباح الباكر، عطلات نهاية الأسبوع، والإجازات المكرسة بكاملها للأحلام الشخصية. إنه الوقت الذي لا نزال فيه صغاراً بحيث لا يمكننا أن نتنازل عن أحلامنا وماكرين بما يكفي لعدم الوقوع فريسة الأوهام وحدها. لذلك نتردد محتارين: «عمري ٢٥ سنة آه هل هذا صحيح؟ جيد، سأعطي لنفسي فرصة إلى الثلاثين للنجاح» ثم أصبح ٢٧ ثم ٢٨ و٢٩ و٢٩ ونصف.. ولم يحصل شيء. فالنجاح ليس على موعد معي! فنقول، هيا سأعطي لنفسي سنة أخرى ثم أصبح في الـ٣١ ثم ٣٢... ثم وأخيراً يحصل ما كنتُ انتظره! لكن ينبغي ألا نستبق الأمور.

في ذلك الوقت كنتُ قد حصلتُ على بعض الشهادات وأعطيتُ دروساً في علم الاجتماع، ونجحتُ في امتحان لأصبح (مرشداً للتوجيه) وانتهزت حرية الوقت المتاح في هذه الوظيفة التي لا تتطلب دواماً صارماً كي أعدَّ مشروعاً جديداً.

مشروعي؟ هو حلم كبير قد نضج بالسر. إنه هوى مضن، هدف جديد ومغامرة هائلة. نويت أن أكرس حياتي لفكرة. فكرة كبيرة جدّاً، عظيمة أعود لآخذ مشروع فلسفي من زمن المراهقة. وقد عمدته باسم «المسألة الرابعة» وذلك بالعودة إلى كانت Kant وإلى المسألة التي شغلت باله في نهاية حياته. فاكتشفتُ «المسألة الرابعة» بالصدفة، بعد ظهيرة ذات يوم دراسي، في غرفة التوثيق في الثانوية، عندما كنت أتصفح كتاباً فلسفياً. خفق قلبي للفكرة وانكببت أدرسها بحماسة لبضعة أسابيع، لكن سرعان ما خمد هذا الاندفاع وانتقلتُ فوراً إلى وهم آخر. عُزلت الفكرة- وظلت المسألة في زوايا عقلي. لكن هل نسيتها؟ أبداً لم أنسها. قفزتْ لاحقاً بعد بضع سنوات وكأنها فيروس كامن استعاد نشاطه فجأة. تتفاعل الأفكار أحياناً كالفيروسات.

ينبغي إعادة تناول هذه المسألة، إيقاظها وإحياؤها، قرنين بعد «كانط Kant»، إعادة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولادة هذا المشروع الجميل في علم الإناسة (الانتروبولوجيا) الفلسفي. لقد تمّ تناولها من قبل فلاسفة لكن وفق أسلوب نظري بحت دون أسس علمية متينة مبنية على الملاحظة. في ذلك الزمن لم يكن بالإمكان العمل والتحليل إلا وفق هذا السبيل لأن العلوم الإنسانية لم تكن موجودة بعد. والأبحاث العظيمة حول الوضع البشري كانت غائبة تماماً.

بينما بعد قرنين من الزمن أصبح الوضع معكوساً تماماً، فكدنا ننهار تحت ثقل المعطيات والأبحاث. لقد تراكمت المعارف والوقائع والنظريات والفرضيات والإصدارات لدرجة لم نعد نفهم منها شيئاً. لقد تمّ تجزئة المعلومات وتقسيم المفاهيم إلى أربعة لدرجة جعلتنا ننسى الهدف الذي انطلقنا من أجله.

ينبغي إذاً تناول المسألة وفق قواعد جديدة. جمع المعارف المتراكمة خلال قرنين من البحوث في العلوم الإنسانية، وفي البيولوجيا وعلم الأخلاق، ونظرية التطوّر، لكن من دون أن أنسى أنه عليَّ إرجاعها إلى المسائل التي انطلقتُ من أجلها. وجب عليَّ لذلك أن ألتزم في مشروع فائق الحد (وهذا كان أكثر إثارة): اكتشاف كل مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، دراسة العلوم الطبيعية، أن أدرس وأقرأ وأكتب، وأقوم بمطابقة المعطيات والنظريات وأن أرويها. وجب عليَّ أيضاً أن أقابل أخصائيين وأن أسألهم. وأن أقارن وأقيّم، وأن أقوم بوضع أحكام في النتائج والمحصلات؛ وأن أكون كاتب حوليات للعلوم والأفكار، وواضع خرائط للمعرفة، أن أكون موسوعياً، وباحثاً وكاتب مقالات. وأن أحل الألغاز الغامضة، وأن أكتب مقالات ثم كتباً. كل ذلك وأنا أحاول أن أجعل من هذا الشغف الجديد مهنة لي تجعلني أعيل نفسي وعائلتي...

وهل تعلمون؟ لقد سارت الأمور باتجاه إيجابي وسأروي لكم ما جرى بعد ذلك:

لقد تمَّ إنجاز جزء واحد من المسار، فلنعتبر أنه النصف. الطور الاستكشافي والموسوعي لعملي (طور تخزين الأفكار) ينبغي أن يتوقف بشكل مؤقت فقط. حان الوقت لاستنتاج دروس عامة ومجابهة المسألة الرابعة مباشرة. والحالة هذه: تناول المسائل التي طرحها «كانط» من جديد وأحاول أن أجد لها جواباً مختلقاً (ومؤقتاً) باستنادي إلى مجموعة الوثائق الأكثر متانة في العلوم الإنسانية. وهذا ما أنوي عمله في السنوات المقبلة. لا أعتقد أن الأمر مستحيل بأن أتناول من جديد على سبيل المثال المسألة الأولى التي طرحها «كانط» («هل يمكن

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

أن أعـرف؟») وأن أوضحها على ضوء تقدم العلوم النفسية المعرفيـة (والعلوم المعرفية بشكل عام)، وفلسفـة العلوم وتطور فلسفة العقـل. إنه عمل ضخم، أعترف بذلك، لكن الموضع يستحق الجهد والتجربة. لهذا السبب خاصة بين غـيره من الأسباب الكثيرة، إنني أعمل على تهيئة طبعة ثالثة لكتيبي «الدماغ والفكر». وبالتوازي مع هذا الإصدار سوف أقوم في الأسابيع المقبلة بالدخول ضمن فكر «إيمانويل كانـط» وهو عائد إلينا في القرن الواحـد والعشرين وينظـر ما جرى في علم الأفكار الذي يناديه في أمنياته سائلاً: «ماذا اكتشفتم منذ موتـي إلى الآن؟» هل لا تزال فلسفتي في المعرفـة سارية المفعول؟ «وماذا عن المسألة الرابعة؟» هل تمت الإجابة عليها؟ لقد قمتُ بهذا العمل منذ بضعة أسابيع وأنا أقوم بإحيـاء «فرويد» لاحتياجات القضية. ووجدتُ أن ذلك أمر منير جداً.

«المسألة الرابعة» طرحها «كانط Kant» في نهاية حياته. نحـن في عام ١٨٠٠ حيث يبلغ كانط مـن العمر ٧٦ عاماً. إنه في قمة مجـده، وشهرته تجتـاح كل أوروبة العلمية: حتـى نابوليون تمنى أن يشرح له فكره. لكن منـذ بضعة أشهر لم يعد هـذا الرجل سوى خيـال لنفسه، فهو قد بدأ يفقد وعيه، فقد أصيـب باختـلال عقلـي شيخوخي ومات عام١٨٠٤م شيخ ضعيف العقل بل فاقده.

فقد كتـب في مؤلفه المنطق عام ١٨٠٠: تعود الفلسفة بمجملها إلى أربعة مسائل:

١- ماذا يمكنني أن أعرف؟
٢- ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟
٣- ما هو الأمل المسموح لي به؟
٤- ما هو الإنسان؟

لقد اكتسب كانط Kant مجده الفلسفي من ثلاثة صروح له هي الانتقادات الثلاث: انتقـاد العقـل الصرف، انتقـاد العقل العملي، وانتقاد خاصية المحاكمة.

وكل انتقـاد يطال إحدى المسائل الثلاث الأولى في الفلسفـة. لكنه منذ بضع سنوات يعتقـد أن هـذه المسائـل الثـلاث يمكـن اختصارهـا في المسألـة الرابعـة: «ما هو الإنسان؟» وتتعلق هذه المسألة بمنهج جديد: هو علم الإناسة أو ما يسمى «الأنتروبولوجيا» وهـو يعرف على أنه العلـم العام للإنسان. مقصَده: فهم الطبيعة الإنسانية.

لكـن الأوان قد فات ويشعـر كانط بأن قواه قد خـارت. وكتابـه «الأنتروبولوجيا» كان آخـر كتبه. صدر عـام١٧٩٨م في العام الـذي كتب فيـه وصيته[٩]. وهـذا الكتاب ليـس بسوية بقية كتبـه. والموضوع لا يتعلق بمقدرته الشخصية. لقـد فهم «كانط» أنه

من أجل التصدي لمشروع كهذا الكتاب ينبغي أن تكون هناك علوم جديدة: علوم الإنسان (الأنتروبولوجيا) التي لم تكن بعد قد رأت النور في ذلك الزمن.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى هايدغر فهو يؤكد في «رسالة حول النزعة الإنسانية» أن مفهوم المذهب الأنسي لم يدرك كنه الإنسان تماماً. ويشير إلى أن المذهب الفلسفي الأنسي[10] الذي يتخذ من الإنسان في حياته الواقعية موضوعاً له ينبغي عليه أن يعتمد علوم الإنسان، أي الأنتروبولوجيا. والسؤال الوحيد الذي يمكن أن يقودنا إلى الجوهر الإنساني هو أصوله. «من أين أتينا؟» التي ستكون جواباً لـ «من نحن[11]؟»

نحن الكون لأن الكون في داخلنا، هذا يعني أننا نتألف من جزيئات كونية أولية. كل ذرات الهيدروجين التي تؤلف جسدنا أتت من الانفجار الكبير (البيك- بانك big bang) الأصلي الذي حصل قبل ١٣،٥ مليار عام. كما أن الخلايا المكونة التي تشكل جسمنا قد تشكلت في فترة لم يكن فيها نجمة واحدة أو مجرة أو كوكبة في السماء، على أي حال لم يكن هناك سماء لقد كان الكون كله بلازما (غاز محترق) آخذ بالتمدد. الانفصال بين الأرض (من بين مليارات من المجرات والنجوم والكواكب) والسماء (أي المسافة الباردة والفارغة تقريباً) يعود إلى قبل ٣٨٠ مليون سنة تحديداً. في البدء خلايا الهيدروجين التي فينا قد تصنعت بأقل من ثلاث دقائق أثناء البيك-بانك الأولي. الانفجار الكبير، وهي لا تزال اليوم بعد ١٣،٥ مليار سنة باقية حولنا وفينا.

الكواكب هي في داخلنا: كل الذرات الأخرى التي يتكون منها جسدنا: أكسيجين، كربون، كالسيوم، مغنيزيوم، إلخ، تأتي من قلب الكواكب. نعم من قلب الكواكب. وقبل أن تتجمع في جزيئات، ثم في خلايا، ثم في أعضاء وجسد مكتمل، عاشت داخل كوكب من الكواكب. في مركز الكواكب تشكلت كل ذرات الكون (عدا الهيدروجين الذي أتى مباشرة من الانفجار الكبير. في هذا الأتون انصهرت الذرات فيما بينها. وخلال مليارات السنين شعت النجوم وهي تنتج مليارات الذرات في بطنها المشتعل. وفي ذات يوم مات الكوكب. وانتشرت الذرات التي يتشكل منها في الفضاء. وهذه الذرات هي التي تشكل العناصر الصلبة في الكون: المعادن، الأملاح، الماء، الكائنات الحية، أنا وأنت. كل ذلك صنع انطلاقاً من عناصر أتت من قلب كوكب، الكون والكواكب هي في داخلنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحيط هو في داخلنا. يتألف جسدنا من الماء بنسبة ٦٥٪. مياه الأنهر والبحيرات والمحيطات. لكن من أين أتى هذا الماء؟ وكيف ولدت المحيطات؟

والفضاء أيضاً؟ اقترب حجر نيزكي من الأرض مؤلف من جليد وثلج مثله مثل الكثير من الأحجار أخواته. عندما كان يقترب من الأرض، وترتفع حرارته بالدخول في الجو، كان جليده وثلجه يذوبان وتسقط جزيئات الماء على الأرض. هناك ماء في كل أنحاء الكون وكل ماء الأرض يأتي من الفضاء. ومع مرور الزمن، شكلت الأمطار النيزكية الجليدية المحيطات والبحار.

قصة الحياة هي في داخلنا. لقد نشأت الحياة في المحيط. وخلال ثلاثة مليارات سنة ظلت في داخله. ثم خرجت أولى العضويات من البحار (الباكتيريا، والنباتات، ثم الحيوانات) واستعمرت الأرض. تعود سلالة الحيوانات الأرضية إلى ٦٠٠ مليون سنة تقريباً. ونحن، الحيوانات الأرضية، نعتقد أننا غادرنا محيطنا البدئي منذ زمن بعيد. وهذا الاعتقاد ليس صحيحاً. نحن نظل حيوانات بحرية بشكل أساسي. تشكل المياه المالحة كما سبق وذكرنا، ٦٥٪ من عضويتنا. ولكن بما أن جزءاً منها يتبخر (١،٥ لتر يومياً)، ينبغي علينا إعادة تشكيل الاحتياطي من دون توقف. فكل يوم، كل البشر، منذ الأزل وإلى الأبد، ينبغي عليهم أن يشربوا ويشربوا ثم يشربوا.

لذلك تطورت الحياة البشرية في البدء على ضفاف المياه. فالإنسان القديم بمراحله المسمى: ماهر habilis، والمنتصب erectus والعارف sapiens إلخ كان يعيش على ضفاف البحيرات والأنهار. ازدهرت أولى الحضارات في أحواض الأنهار الكبيرة كما في بلاد الرافدين في الشرق الأوسط، وفي الصين وفي مصر وأفريقيا وأمريكا، ذلك لأن الزراعة وإمداد المدن بماء الشرب أمور تتطلب الماء الكثير. في القرن الواحد والعشرين نعتقد أننا تحررنا من هذا الضغط المائي لأننا بنينا شبكات مائية متطورة توصل لنا المياه إلى البيوت. نفتح الصنبور فيسيل الماء. أمر سهل للغاية لكننا ننسى تبعيتنا له لأننا ينبغي أن نشرب لنستمر في الحياة، ولإمداد محيطنا الداخلي الصغير. في القرن الواحد والعشرين، هناك خطر من نشوب حروب مياه لأن الدول المحرومة منها سوف تعمل للحصول عليها من مكان آخر. وفي زمن الشابكة (الإنترنت) والحواسيب والجوال، نظل خاضعين لهذا العنصر الأولي كي نعيش. فقصة الحياة، وقصة الحيوانات البحرية ليست وراءنا ولم نتجاوزها بل هي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في داخلنا. فالنجوم والمحيطات هي في داخلنا.

النباتات والحيوانات هي في داخلنا. فنحن مدينون بشكل كبير للنباتات. لدعم جسدنا كل من يوم (لأن خلايا جسمنا تتجدد باستمرار من دون توقف) يلزم أن نصنَع المادة العضوية. غير أن جسم الإنسان لا يعرف أن يصنعها. النباتات فقط تعرف أن تصنع الجزيئات العضوية (ليبيد، بروتيد، غلوسيد، إلخ) انطلاقاً من مادة غير عضوية. لذلك تسمى النباتات «ذاتية التغذية autotrophe» أما الحيوانات فتسمى «عضوية التغذية hétérotrophe»: لأنها لا تعرف أن تصنع بنفسها ما يلزم الكائن الحي وينبغي عليها أن تبحث عن ذلك في النباتات أو في الحيوانات الأخرى، (التي هي نفسها تتغذى بالنباتات).

شكراً للنباتات لأنها لا تقدم لنا المناظر الطبيعية الخلابة فحسب بل أيضاً الأكسيجين للتنفس وكل المواد التي نحن بحاجة إليها لترميم جسدنا بشكل دائم.

الكون والكواكب والمحيطات والنباتات والحيوانات: كلها في داخلنا، وليس حولنا فقط...!

وإذا بحث الإنسان متجهاً إلى بداياته فسيرى عالماً: ملايين من الأجداد بينهم بعض الفلاسفة، عسكريين محترفين، ثم يرى الإنسان الأحفوري كرومانيون، والإنسان العارف. لكن عندما نغوص في الماضي السحيق هل نجد أجداداً يمكن أن نسميهم بشراً؟ أم قروداً؟ هل ينبغي علينا أن نقبل بفكرة سلالة مباشرة بين أشباه الإنسان وبين الجنس البشري؟

مثلما قلب الفجر الليل وجعله يهيم شارداً، فإن ظهور الإنسانية إلى ساحة التاريخ قذف بالحالة الحيوانية التي سبقتها إلى غياهب الظلام. لكن بالنسبة إلى البيولوجي ليس هناك من شك أبداً: «الإنسان هو حيوان» فهو يستند إلى براهين مأخوذة من دراسة التطور التي تبيّن أن الإنسان هو كباقي الكائنات الحية، نتاج الاصطفاء الطبيعي وأنه ينتمي إلى فريق الرئيسات (الفقاريات)[١٢]، وتقع مرتبته في القرابة بين الأجناس الأخرى وفق قربها أو بعدها، كما أن في مبحث تكوّن الأجناس وتطورها لا يوجد ما يسمى «عالم الإنسان» أو «مملكة الإنسان».. الفيلسوف يرى الموضوع بشكل مختلف: الإنسان ليس حيواناً،فهو يضع غالباً في المقدمة «الظاهرة الإنسانية» التي تُدخِل في علم الأحياء انفصالاً حاسماً شبيهاً بالذي يفصل عالم الحيوان عن عالم النبات. وبالطريقة نفسها التي يختلف فيها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأول عن الثاني ذلك أن النبات يستخدم بشكل مباشر الطاقة الضوئية وجزيئات أساسية لبناء الذات والاستمرار في الحياة وأن الحيوان لا يمكن أن يقوم بذلك إلا مداورة أي بشكل غير مباشر، بتناوله المواد العضوية فهو عضوي التغذية.[١٣]

المكتشفات الرائعة في علوم الحياة والتي تمت منذ بضع سنوات ينبغي ألا تترك أحداً حيادياً. فهذا التقدم غير المسبوق قلب تصوراتنا عن الكون لدرجة أنه قلب مفاهيم غالبية المسائل التقليدية الماورائية. فهذه الحالة تفرض نفسها أكثر من أي وقت مضى. ليس هناك من فلسفة يمكنها من الآن فصاعداً أن تنغلق في برجها العاجي مدعية أنها تجهل نتائج العلوم الطبيعية التجريبية؛ كما أنه ليس هناك من عالم بيولوجيا واعٍ للاستتباعات العملية للبحث الأساسي يمكنه أن لا يعير اهتماماً للرهانات الفلسفية حيث تقوم أعماله يومياً بطرحها في المجال العام. لذلك ينبغي على علماء البيولوجيا والفلاسفة أن يلتقوا كي يتوصلوا إلى فكر موحد حول هذه المسائل والتي تسمى «البيولوجيا الأدبية» والتي تعيّن الحدود في هذه المواضيع والمعايير والآليات.

في واقع الأمر، ومن وجهة نظر العلم، بالنسبة إلى معظمهم، ليس الإنسان سوى كائن في الطبيعة، حيوان بين غيره من الحيوانات. لكنه قد وهِبَ مزايا استثنائية مثل اللغة وبعض أشكال الذكاء النوعية، فأصبح على علاقة أصيلة مع الزمن ومع القيم الأدبية الأخلاقية والسياسية والجمالية....

ويعتقد معظم العلماء الاختصاصيين، واهمين، أن الفلسفة هي منهج كباقي المناهج العلمية حيث ينبغي أن يسود فيها حد أدنى من الموافقة على بعض المكتشفات العلمية الأساسية التي يمكن أن تشكل «قاعدة مشتركة» من المعلومات!..

هنا تبرز الحاجة عند إقامة الجدل إلى الالتزام بالمقارنة بين الميول المادية للبيولوجيا المعاصرة وبين تراث النظريات الفلسفية للحرية -أي فلسفة روسو وكانط وعلى وجه الخصوص «هوسرل»-. لأن هذا التراث الفكري ينص على أنه من الممكن الأخذ بعين الاعتبار النتائج العلمية للبيولوجيا من دون الخضوع للبيولوجية كعقيدة أي لتحوّل عقائدي، أيديولوجيّة عفوية، مع إعطاء الطبيعة حصتها من دون تبني مبادئ ميتافيزيكية لمادية لا ترى فينا سوى تواصل بين مملكة الحيوان والعالم الإنساني، بين كون الطبيعة وكون الثقافة..

كل ذلـك يعني أنه لا يمكن أن يتفلسف الإنسـان انطلاقاً من «لا شـيء» وحول «لا شـيء»، لذلك ينبغـي أن يتم نشـر «ثقافة علميـة عامة» في البشر قاطبة ولاسيما بين فلاسفة اليوم.(١٤)

الهوامش

١- نسبة إلى الفيلسوف الألماني «كانت Kant».

٢- جان فرانسوا دورتييه، رئيس مؤسسة العلوم الإنسانية، Jean-François Dortier .

٣- iPhone

٤- ماتيو كيلينكزورث ودانييل جيلبرت، الذهن الشارد هو ذهن غير سعيد،
Matthew A. Killingsworth et Daniel T. Gilbert A Wandering Mind is an Unhappy Mind. Science، Vol. ٣٣٠، n. ٦٠٠٦.(٢٠١٠)

٥- مقابلة مع «فان دير ليندن» العلوم الإنسانية رقم ١٧٧، كانون الأول ٢٠٠٦: «نتذكر لنستشرف»
Se souvenir pour anticiper », entretien avec M. Van der Linden, Sciences Humaines,n° 177, décembre 2006.

٦- «الاستشراف عند الحيوانات» لـجان فرانسوا دورتييه»
«L'anticipation chezles animaux», Jean-François Dortier.

7- Lynden K. Miles, Louise K. Nind and C. Neil Macrae (2010), Moving Through Time. Psychological science,.

٨- المعني: جان فرانسوا دورتييه
Jean-François. Dortier.

٩- حول نهاية «كانت» انظر: «الأيام الأخيرة لإيمانويل كانت» تأليف توما دو كنسي
Les derniersjoursd'Emmanuel Kant de Thomas de Quincey.

١٠- Humanisme الأَنَسيّة: نزعة إنسانية ذات ثلاث مذاهب ١-مذهب يعنى بتنمية مناقب الإنسان وفكره بمـا يتمثله من ثقافة أدبية وعلميـة؛ ٢- ومذهب مفكري النهضة الأوروبية في إحياء الآداب القديمة؛ ٣- ومذهب فلسفي يتخذ من الإنسان في حياته الواقعية موضوعاً له.

١١- عن كتاب: ما هو الإنسان؟ تأليف لوك فيري وجان-ديدييه فنسان صفحة ١٤٩،

Luc Ferry et Jean-Didier Vincent
Qu`Est-Ce Que L`Homme?.

١٢- أي في مقدمة الكائنات الحيّة.

١٣- عن كتاب: ما هو الإنسان؟ تأليف لوكفيريوجان- ديدييه فنسان صفحة ١٤٨،
Luc Ferry et Jean-Didier Vincent
Qu`Est-Ce Que L`Homme?.

١٤- المصدر السابق صفحة ٢٩٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نظرة إلى الخلْف!...

د. عبد الكريم الأشتر (*)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في العودة إلى جامعة دمشق، صحبتني الصورة الأخيرة للقاء عميد كلية الآداب بجامعة (العين)، في دولة الإمارات. رأيته عند باب مكتبه يتطاول، وسْط جموع الطلبة، خشية أن أغيب عن بصره. تقدَّمتُ منه فحييتُه، فطالعتْني في عينيه نظرة تنطق بما أراد أن يقول:

- الحمد لله الذي عجَّل برحيلك! وعسى ألا يغيب عنك ما خلَّفتَ في نفسي من أثر «طيِّب»!

(*) أديب وناقد وأستاذ جامعي، وعضو هيئة تحرير «المعرفة»، رحل عن عالمنا يوم الجمعة ٢٠١١/١٠/٧ وهذه المقالة، آخر ما أرسلهُ إلى رئاسة التحرير، رحم الله فقيدنا الكبير وأسكنه فسيح جنانه وإنا لله وإنا إليه راجعون.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

كنتُ أتمنى ألا يتمَّ وداعه على هذه الصورة الكئيبة، وأن أجد في نفسي، من ذكرى العمل إلى جانبه، معنىً جميلاً من معاني الصحبة الطيبة. ولكن الأمر تمّ على غير ما تمنيتُ. والذي أفدتُه منه هو الإدراك العميق لصفات مَن يَحسُن به ألا يتولّى، أعباء العمل الإداري، إذ الناس، بحكم التكوين، فريقان: فريق يرى الإدارة عبئاً يحمله إلى حين، وفريق يرى فيها امتيازاً يفعل معه ما يريد!

ووجدتُ أمور القسم، بعد العودة، تسير في دروبها المعهودة، فالدراسة يغلب على مناهجها المتَّبعة، بحكم التقيُّد المحكَم بالكتاب الجامعي، في المواد المختلفة، نزوع إلى حشو الذاكرة، لا إلى صحوة العقل وإثارة قواه ودعوته إلى تأمُّل «الحقائق» المعروضة، في ضوء الملابسات الفكرية التي ينتهي إليها الطالب!

وقد تكشف أوراق الأسئلة التي تُطرَح في امتحانات المواد المختلفة، عن هذا النزوع. بل لعلها تكشف عن منحى الواقع في العمل التربوي كله. فحين يكون القصد من التعليم -كما جاء في مراجعة بعض ما أخذتُ أوالي كتابته في الصحافة، بعد العودة من الإمارات- بناءَ شخصية الطالب، وتنشيطَ حركته الذهنية، وتقويةَ قدرته على التحليل والتركيب، وصولاً إلى فهم الفكرة فهماً ذاتياً، تَعكِس ورقة السؤال المطروح وجهتَه، في أي مادة من مواد الدرس. وحين تنحرف العملية التربوية عن مقاصدها الصحيحة، إلى حشو الذاكرة، وإملاء المعلومات الساكنة على العقل، وترويضِه على قَبول «المسلَّمات»، وقمْعِ نزوعه إلى فحصها وتكوين الرأي الذاتي فيها، تُفصِح ورقة السؤال عن مسلكها.

وربَّما قوَّى هذا النزوع، في الحكم على الواقع التربويّ، في المواطن التي خالطتُه فيها، ما كنتُ أراه في مواسم الامتحانات، حتى بات يخيَّل إليّ أن الدعوة إلى اصطحاب الطالب كتبه الدراسية إلى قاعة الامتحان، لا يقطع السبيل على الحكم الصحيح، فيما أفاده من الدرس! بل قد يقيمه وييسِّره ويقوِّيه معاً، إذ يكون السؤال موَجهاً إلى العقل وتكوينه فيما أفاد من درس المادة، لا إلى الكتاب وما فيه، وإن جمع الكتاب عناصر السؤال، في المادة المطروحة! وختمتُ هذا الرأي بما يشبه القول: ينبغي أن تظل الغاية من التعليم بناءَ الشخصية وتحريرَ

الفكـر، وتغذيـةَ النزوع إلى فحصـ الآراء المطروحة. ويلزم دائمـاً أن تعكِس الأسئلة، في الامتحانات، هذا النزوع.

علـى هـذا النحـو، عـدتُ أجمع بين العمل في الجامعـة، والكتابة الأسبوعية في الصحافـة، وأصبحتْ لي زاويـة أسبوعية، طالتْ عَقديـن من السنـين، عالجتُ فيها مجموعةً من قضايا الواقع، رغبةً في التماس الطريـق إلى فهمه، وتغيـير ما يمكن تغييره فيه:

وذلك على مثال ما يقـع، إلى اليوم، في بعضـ النـدوات التلفزيونيـة التي يختلط الـكلام فيها، وتتضـارب مسالك أصحابه، حتى ليصعب تتبُّعها، وفهـم نقاط الالتقاء والافـتراق في مقاصدها، ومـا يحسن، في النهاية، اختياره منهـا وطرحُه على الناس، مع الحرص، في طرحه، على وضوح التعبير ونضجه وبساطته في وقت واحد.

ومثـل الدعـوة إلى التوسُّـع في إنشـاء الجامعات، بإشراف الدولة ورعايتها، سعياً إلى الاحتفاظ بأبنائنـا وكفاياتهم، والإفادة من قدراتهم العلمية.

ومثل الرغبـة في الترويح عـن النفس، بالعودة إلى قاعدة الثقافة الأدبية، والوقوف علـى بعض طرائفهـا. ففي زاويـةٍ نُشرتْ بعنوان «الأجوبـة المستحسَنـة»، نقلتُ عن الحجاج سؤالَه أحدَ الخوارج:

- ما تقول في عبد الملك بن مروان؟

أجاب الخارجي: وما أقول في رجلٍ أنت خطيئة من خطاياه!

وفي جـواب آخـر للإمام علـيّ بن أبي طالب، وقد سأله سائل:

- كم بين السماء والأرض؟

فأجاب: دعوة مستجابة!

وسأله: كم بين المشرق والمغرب؟

فأجاب: مسيرة يوم للشمس!

ومثـل الرجوع إلى أدب المهجر، في زاوية بعنوان «سَعَة الروح»، وقفتُ فيها على بعض ما فعل بعض أدبائه، من الإخوة المسيحيين، في تعظيم الإسـلام وتكريمه: غادر بعضهم اسمـه الشخصـي إلى اسم رآه أقرب إليه «إلياسـ طعمـة - أبـو الفضـل الوليد»! واستشهد بعضهم، في شعـره، ببعض آيات القرآن! ووشـح بعضهم ديوانـه بالبسملة! ونظـم بعضهـم القصائد في عيـد المولد النبـويّ! ورفع بعضهم مجـد الإسلام فوق مجد الشمس! وانتهى بعضهم، وهو يستعرض فتوحات العرب المسلمـين، إلى أن يقول في نبي الإسلام:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الضادُ لولاك ما كانت مخلَّدةً
ولا رواها جمالٌ أنتَ موردهُ
إنْ كان للغرب عِرفانٌ وفلسفةٌ
فالشرق يكفيه ما أعطى محمَّدُهُ

كنتُ أجد في كتابة هذه الزوايا الصحفية متعةً تخفف من وقع توالي الأيامِ المتتابعة على نهج واحد، في الدخول والخروج، وتدقيق أوراق الامتحانات. فأخذت أتلمَّس في الكتابة، من حولي، الوقوفَ على بعض الغرائب، طلباً لفسحةٍ صغيرة، على هذا النحو:

«أليس غريباً أن تكون الثروة فينا مصدر ضعف، وهي في تاريخ الأمم كلها مصدر قوة»!

أوَليس غريباً أن نشغَل في الأرض أكثر مواطنها خطراً، في الحرب والسِّلْم، وأكثرَها ثراءً وأغناها روحاً، وأعرَقها تاريخاً، وأوفرَها حضارةً... ونقف بأبواب الآخرين، نسألهم ألا يبخلوا علينا بأكثر مقومات الحياة!

-٢-

وأصبح العمل في الجامعة، من الناحية الأخرى، يهيئ سبُل الدرس وتأليف الكتب الجديدة، على مثال «التعريف بالأدب العربي الحديث» (١٩٨٣م)، وقد ضممتُ إليه كتاب «الرواية في أدب النكبة» الذي صدر من قبل (١٩٧٥م).

ودُعيتُ، خلالها، إلى إذاعة حلقاتٍ في تقويمٍ جمالي للشعر العربي، منذ عصر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجاهلية إلى العصر الحديث، فكتبتُها على نهج خاص يجمع بين النقد والتاريخ، حتى يُفيد منها القارئ المختص والقارئ العام في وقتٍ واحد، وحرَصتُ على أن يشدَّ المستمعَ إليها ما وفَرْتُ لها من رشاقة العرض وخفة حركته، إلى سهولة اللغة والوقوف المركَّز على جوانب الجمال في ثروة العرب الشعرية، عبْر عصورها التاريخية.

استغرقتْ إذاعة هذه الأحاديث ثلاث سنوات، انتقلتُ خلالها من دمشق إلى حلب. وهي الأحاديث التي ضمَّها، بعد إغنائها وإعادة النظر فيها، كتابي «في ديوان العرب - أحاديث في الشعر والشعراء، من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث» بأجزائه الثلاثة. وكنتُ أتمنى لو أُتيح لي أن أستكمل فيه الكلام على الشعر والشعراء في الأندلس، لتجتمع أطراف الحلقات وتكتمل.

على أن هذا كله، من نواحيه المختلفة، لم يشغلني عن رسالتي الأولى، وهي المشاركة في تكوين الأجيال، بما تتيحه ليَ الساعات التي أتولى فيها تدريسهم، وتيسِّر السبيل إليه.

ولكني أحسستُ، بعدها، أن الأجواء خلتْ من فرص الترويح عن النفس، فأخذتُ أتطلع إلى السفر من جديد:

شاركتُ بعضاً من أهلي في السفر إلى الاتحاد السوفييتي القائم يومذاك، ولم أكن زرت بعض مدنه من قبل. فقضينا في موسكو أياماً زرنا فيها قبر (لينين)، في الساحة الحمراء. أخذتُ أتأمل جسده المحنَّط ونحن ندور من حوله، أحاول أن أستنطق لنفسي سماتِه، وأستوعب الهالة التاريخية التي نسجتْها أحداث الثورة الاشتراكية.

ورأيتُ، في الساحة التي تطلُّ عليها وزارة الخارجية، جمْعاً خليطاً من السيَّاح، من الرجال والنساء، في مظهرهم الغريب، وألبستهم الملونة، وشعورهم المصبوغة المذهَّبة، أشبه بكائنات هبطتْ من الكواكب الأخرى. وكانوا لا يفوزون من الروس إلا بالازدراء وقلة الاهتمام!

زرنا مصيف (سوتشي) وتابعنا فيها ألعاب السيرك. وطُفنا الأسواق، فلحظتُ فيها بعض مظاهر الفساد، في العرض والطلب، وعددتها، يومذاك، علامات لها مغزاها، مع ما كان يشيع في الأجواء، من حولها، من نُذُر التحوُّل القريب!

واستجبتُ، بعدها، لدعوة تلقيتها من المستشارية الثقافية الإيرانية لزيارة طهران، وكانت هذه زيارتي الأولى لها أيضاً. فشاركتُ

في ندوات ثقافية أقيمت فيها، وفي مدينة (قُم). ولم تكن حقائق ما أراه غريبة عني، فإن عملي في رسالتي، عن شاعر آل البيت (دِعْبِل بن علي الخزاعي) قرّبني منها، حتى لقد أخذتُ، في بعض المواقف، أذكّر نفسي بأصول الأسرة اليمنية.

ودخلنا بيت الإمام المنتظَري، نائب الإمام الخميني، وقتذاك، في (قم)، وكان، فيما علمتُ، بيت الإمام الخميني من قبل. قعدنا في باحته الواسعة، وأطلّ علينا الإمام المنتَظَري، من إحدى نوافذه المشرفة عليها، يشرح لنا مبادئ الثورة الإسلامية. وتُرجِمتْ لنا بعض أقسام الخطبة، فقرّبتْ إليَّ منها صفة الاعتدال في الخطاب، بما أوقع في نفسي، من بعد، احتمال إحالة بعض أسباب الخلاف، بين قادة الثورة، إليها.

ودخلنا قاعة المحاضرات في حسينية طهران، واستمعتُ إلى بعض مَن تكلّموا فيها. فلما وقفتُ ألقي كلمتي شمِلني إحساس غريب، غذتْه هتافات الحاضرين، على نحوٍ لم أعهدْه من قبل، في المواقف المماثلة. ولحظتُ تشوُّف بعضهم وتطاولهم لرؤية مَن يحمل اسم (الأشتر). حتى إذا انتهينا ونزلتُ عن المنبر، اجتمع من حولي رجالٌ منهم. سألني أحدهم:

- هل تنتسب إلى (مالك الأشتر) رفيق الإمام عليه السلام؟

أجبته، وأنا أجمع كلماتي في حرص:

- ذاك شرفٌ أتمناه ولا أدّعيه!

وقرأتُ، بعد أن خرجنا، وأنا أجيل النظر في رأس البناء، بيت المعرّي المعروف، يقول فيه:

وعلى الأفق من دماء الشهيدَيْ
نِ عليٍّ ونجلِه شاهدانِ

فكأنّي، من شدة تأثري به، في الظَرف الذي كنتُ فيه، أقرؤه لأول مرَّة!

وزرنا قصر الشاه، في شماليّ المدينة، فكأننا انتقلنا، من روعة ما مررنا به، في أحيائها، وجماله، إلى مدينة أخرى، لفرق ما بين الشمال والجنوب من بهاء العمران وفخامته! وقفتُ، عند مدخله، أتأمّل بقايا تمثالٍ للشاه، انفصل عنه الرأس، وبُتر نصف جسده الأعلى، فلم يبق منه إلا رجلاه على الأرض! معنىً سهْل الإدراك، فيما أرادوا، لمصير الحاكم المنفصل عن إرادة شعبه!

وأطلعونا، في داخل القصر، على أرجوحةٍ قالوا: إنها كانت تعين الشاه على الاستجابة للمرأة معه! وفي قاعة الاحتفالات الواسعة التي تزيد مساحتها على ثلاثمئة وستين متراً

مربعاً، تغطيها سجادة واحدة.... كان الشاه يقيم الحفلات! وفيهـا أصيبتْ زوجه «فرح ديبا»، وهو يراقصها، بالإغماء، فحملها بين يديه وخرج بها إلى أن أفاقتْ!

واستجبتُ أيضاً لدعوةٍ زرتُ، في أيامها، مع بعض الأصدقاء، مدينة (قسنطينة)، في الشرق الجزائـري، ألقيت فيهـا جملة من المحاضرات، وكسَبـتُ لقاء الدكتور (شكري عيَّاد)، ولم أكن لقيته من قبل. وجرى النقاش من حول النقد والنقاد العرب، وأثّر فيَّ كثيراً لطف حضوره ونعومة خطابه وعمقه.

رحلتُ بعدهـا، برفقة زوجتي وصديقي الدكتور (حَمَد الكبيسي)، إلى باريس ولندن. وزرنـا جامعـة كامبريدج، فذكـرتُ عندهـا أستاذي الدكتور (إسحق موسى الحسيني)، واسترجعـت حديثه عن أستـاذه الحاخام، أستـاذ العبرية فيها، وقوله له: تعالَوا نتَّحد، نحـن وأنتم، في وجه أكَلَـة لحوم الخنازير! وقد وجـدتُ باريس، كما يجدهـا زوّارها، أكـثر إشراقاً، وأقـرب إلى النفس، من لندن التي كنتُ أزورها للمرة الأولى.

ثم لما عدتُ، في أول السنة الدرسية، إلى جامعـة دمشق، وجدت، في انتظاري، رسالةً قصيرة من السيدة (وداد السكاكيني)، تقول فيهـا: إنها بحثت في السوق عن كتاب لي في النقد(١)، فلم تقع عليه. وتقول: إنها سألتْ عنـي فلم تصل إلى عنـواني، «فهل تتفضل بزيارتنا، إذ لا أخرج من منزلنا إلا قليلاً في هذا البرد..»!

كان الموقـف من السيـدة وداد، منذ ما يزيـد، قبلها، على عشرين عاماً، انتهى عند طلبي من إدارة مجلة (المعرفة) أن تقفل باب حوارٍ طـال بيننا، تناولنا فيـه، عبر الردود المتبادَلـة المنفعلة، كلاماً لي، نقلتُ فيه خبراً عن جبران، سمعته من ميخائيل نعيمة، يوم زرته في بيروت، وكنتُ أشرت إليه من قبل!

ثم تلقيتُ من السيدة وداد رسالة أخرى، بعد أن أرسلتُ إليهـا كتابين مـن كتبي، تكرِّمني فيها بصفـاتٍ تَحمَدها، وتشكر لي «إخلاصي لفقيدنـا المحاسني رحمه الله»، وتشير إلى ما كانت سمعتْه عني من الدكتور (منـدور). وتقـول: إنها رجعـتْ إلى كتابي «فكنـتُ، في إتقـان محتواه، مـن المحسنين الثقات». ورجَتْ، في آخر الرسالة، أن تراني وأسرتي في بيتها... «ولـكَ شكر المعتزَّة بك أخاً وصديقاً»!

ثم لم ألبـث أن جاءتني الدكتورة (عزيزة مريدن) تعرض علـيّ أن ترافقني إلى زيارة

السيدة (السكاكيني)، في بيتها! وأذكر أني خرجتُ من زيارتها، مع الدكتورة عزيزة، لا أكاد أتبين الطريق، فقد كانت في حالٍ محزنة من الضياع لا أقوى على وصفها!

-٣-

على أني، بعد العودة من دولة الإمارات، غادرتُ حيّ المهاجرين الذي سكنتُه، في دمشق، زمناً طويلاً، إلى حيّ المزَّة، في نهاية الشارع الطويل الذي يمتد من سوقها القديم، في بيتٍ يضمُّه بناءٌ ضخم ويشغَل حيِّزاً من أحد أدواره الشاهقة! وفيه بدأتُ أشعر بالحاجة إلى الراحة، بعد أن أخذتُ أقترب من الستين. وفيه صُغتُ المذكرات التي أخرجتها، من بعد، في كتاب «الصدى»، عن أيام العمل في الإمارات.

وفي هذا البيت رجعتُ إلى ما جمعتُ من دخْل السنين الطويلة، في الجامعات العربية التي عملتُ فيها، شرقاً وغرباً، فتيسَّر لي الاحتفاظ منه بمبلغ صغير اشتريتُ به بناءً منفرداً في حيٍّ بعيد من قلب المدينة، في حلب، لم يكتمل بناؤه، وأخذت أعمل في تجهيزه وتأسيسه. وبعتُ له أرضاً كنت اشتريتها بثمن بخس، ليتني ما بعتها!

وأخذتُ، من بعد، ألجأ إليه في الإجازات الصيفية التي أعود فيها إلى حلب، مع تنامي شعوري بقرب العودة إليها، في نهاية المطاف، والأولادُ في طريق الانتهاء من دراساتهم الجامعية، في كليات الطب، في جامعتي دمشق وحلب، إذ كانت دراستهم تنقسم بينهما، حسْب ما تمليه ظروف الحياة، بين الإقامة والرحيل. والدنيا كما نراها، من حولنا، بين أخذٍ وردّ، وعطاءٍ ومنْع، ونحن معها بين القدرة والعجز، وبين الرضا والتسليم، على مثال ما ردَّ به ولدي عليّ، وهو، في البيت، واقف على رأس شجرةٍ من الشجيرات التي زرعناها في بيتنا، في حلب، يقطف من ثمرها، ويعجز عن الوصول إلى غصونها العالية، وأراه أمامي يتطاول ليمسك بها، فأقول له، خوفاً عليه من السقوط:

- لا يا ولدي! اِعمل بقول السيد المسيح عليه السلام: «دعوا شيئاً لطيور الحقل»!

فردَّ عليّ وهو يضحك:

- والله يا أبي، لو كنتَ تراني أستطيع الوصول إليها، لم تذكر السيد المسيح، ولا طيور الحقل!

على أن الإحساس بقرب النهاية في

عملي بالجامعة، بدأ يعاودني في أوقات متقاربة، وازداد مع الأيام، تقارباً. فلما أزِف عام (١٩٨٨م)، وكنت بلغتُ فيها التاسعة والخمسين، تقدَّمتُ باستقالتي منها، مستفيداً من خطئي القديم، في الارتفاع بسنِّي سنة واحدة، ليتاح لي العملُ وقتها، كما أشرت من قبل، معلماً وكيلاً في بعض أرياف حلب!

أخذتُ أجمع كتبي وما كنتُ أحمله معي، استعداداً للعودة الدائمة إلى البيت الذي هيأته في حلب. وما أستطيع أن أصف ما كنت فيه، وأنا في مفترق الطريق، من حيرة الروح، إذ كانت دمشق أجمل مدن الدنيا في نظري، حتى لقد كنتُ أفيق أيامها، في الليل، فأنظر إلى جبل قاسيون، والأضواء تشتعل فيه، فأقول لنفسي: نِعْم النَّومة الأخيرة إلى جواره!

وبدأتُ أجدني، بعدها، أطيل التفكير في مراحل الطريق التي قطعتُها، لأنتهي، في كل مرة، إلى ما كنتُ أنتهي إليه، في مثل هذه الحال: إذ الحياة كلها سعي والتزام، يجمع مذاقها، على مرِّ الأيام، كل الطُّعوم: الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة. أقدارٌ لم يكن نصيبي منها حلواً تماماً، ولكنه لم يكن مرّاً أبداً. ولم يكن لإرادتي قدرة التحكُّم الحاسم في مواقفي منها، فقد أمْلِيَ عليَّ اختيارُ أولى خطواتي فيها، وكان عليّ أن أتابعها إلى النهاية.

لم أفتُر يوماً في السعي إلى كسب ثقة مَن أعمل معهم، ومن أعمل لهم. ولكني، في أكثر الأحيان، أراهم يميلون عني بأسماعهم إلى الصوت الخفيّ الصارخ في ذواتهم، يحرِّكهم من حولي، يسمعونه ولا أسمعه. فأتلمَّس صداه في مواقفهم: طمعٌ في الكسب، وسعي إلى كسب الرهان!

إذا كنتُ أحببتُ طلبتي، وأشعرتُهم بمحبتي، فلأني أحببتُ عملي، وشغلتْني محبته عن الصوت المنفرد الصارخ في داخلي، ولأني تمسَّكتُ، قدْر ما أستطيع، بسَعة النفس، وجعلتُها سبباً إلى قَبول ما لم أكن أقبله، لضيق الفكر أحياناً، أو للحَيرة في الفهم، أو جعلتها سبباً للرجوع عن الخطأ، والندم على الوقوع فيه.

لاشيء، في التربية، يعدل عَقد الصلات الحميمة بمَن نخاطبهم حيث يكونون. يسهُل، بعدها، عَقد المودَّات، وتقبُّل التوجيه. وتكون النهاية في إيقاظ العقل، وتحريك قدراته مع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حفظ الاستجابة الوجدانية، في النظر إلى الأشياء كلها.

تعلّمتُ، وأنا بينهم، أن أسعى لأجعل صلتهم بالكتاب صلة المحرِّك والمثير والمحاور، وأن أتقبَّل الفكرة معهم، وأجعل محبة اللغة طريقَهم إلى إتقانها والتعرُّف إلى مزاياها، وأن أعمل على توثيق صلتهم بالماضي والحاضر في وقتٍ واحد، فمن العمى المطبِق إضعاف صلتنا بالعصر، والاحتجاب عن الماضي وما تحقق لنا فيه.

على أن الطريق ما تزال مفتوحة، وما تزال منها مراحل صعبة يتعيَّن عليّ أن أقطعها...

وهذه نظرة إلى الخلف، تحاول أن تستجلي فيه بعض مصادر النور!..

الهوامش

١- تقصد: «معالم في النقد العربي الحديث».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحلة مع شيء من أفكار مالك بن نبي!

د. خير الدين عبد الرحمن *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان سبب بداية لقائي الأول بمن صار فيما بعد صديقا مقرباً لي كتاباً كنت أقرأه في مقهى. حدث ذلك قبل أربعين سنة. استفسر الرجل مني معتذراً لتطفله عن اسم مؤلف ذلك الكتاب، بعدما وقعت عيناه على عنوانه وهو جالس بمواجهتي إلى طاولة مجاورة. قلت له آنذاك: عنوان الكتاب (مشكلة الثقافة)، وهو مترجم من الفرنسية لمهندس كهربائي جزائري استغرقته شجون الفكر وشؤونه، فأبدع في عالمه، اسمه مالك بن نبي، وقد صدر ضمن سلسلة كتب عديدة للمؤلف بعنوان (مشكلات الحضارة). قال الرجل: لفت

---

* أديب وناقد ودبلوماسي سوري سابق.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

انتباهي أنك تمضي وقت جلوسك في المقهى بقراءة الكتب. هذا مستغرب من شاب في العشرين مثلك..

على الرغم من تنقلي المتكرر بعد ذلك من قارة إلى أخرى، ونقل إقامتي كل بضع سنوات من دولة إلى دولة، حرصت على التواصل مع ذاك الصديق بالرسائل، وبمتابعة إنتاجه الأدبي، كما كنت أهرع لزيارته كلما أتيحت لي فرصة المرور بالمدينة التي يقيم فيها. إلى أن حلّ مساء كنت فيه أحرك مؤشر المذياع متلهفاً لسماع أخبار الوطن العربي من أي إذاعة عربية كانت، وأنا في الطرف الآخر من كوكب الأرض، وإذ بصوت مذيعة من الإذاعة المحلية لمدينة صديقي ذاك يعلن عن مقابلة معه تذاع على الهواء مباشرة بعد فاصل قصير! قفز قلبي فرحاً، وأحكمت موضع المذياع ووجهة لاقطه، وأعددت شريطاً لتسجيل المقابلة، ثم اعتدلت في جلستي مترقباً سماع صوت صديقي بعد فراق عدة سنوات، منذ التقيته آخر مرة. بالغت المذيعة في تقريظ صديقي وتمجيده لعدة دقائق، مستعرضة الأوسمة والجوائز التي انهالت عليه، والكتب وأبرز مئات الدراسات والمقالات التي كتبت عنه وعن إنتاجه، والمحاضرات التي تحدثت عنه، وحفلات التكريم التي أقيمت له. ثم سألته المذيعة بعد التقريظ والتبجيل عن مفهومه للثقافة، فقال بتؤدة: «الحقيقة أن الثقافة هي -أعني في الواقع- (السقافة)، وتحديداً (سقافتنا) المعاصرة، مثل أي (سآفة) أخرى،هي -في الحقيقة- أعني أن السآفة هي هي لا تتغير..»! انتقلت المذيعة إلى سؤال آخر لم أحتمل انتظار جوابه عليه. مددت يدي لأدير مؤشر المذياع إلى محطة أخرى، لكن صدمتي كانت قد بلغت مداها، فقذفت المذياع إلى الأرض حانقاً، محبطاً!

دوّى السؤال متكرراً في خاطري آنذاك، مع تلاطم تلك الصورة السمعية ممتزجة مع الصورة البصرية للقائي الأول مع صديقي ذاك: هل يعقل أن تذوي ذكرى مفكر معرفي نادر مثل مالك بن نبي، ويضمحل تأثيره في عالم ثقافتنا العربية المعاصرة، بينما يشتد تلميع أمثال صديقي في سوق ثقافة باتت (سآفة)؟

لعلَّ المحبة الصادقة التي أكنها لصديقي ذاك تشفع لي باستذكار هذه الصورة على الملأ، دون أن أقع في سقطة غيبة أو نميمة. فأنا إنما أعرض أنموذجاً لما آلت إليه معايير النجاح والبروز والشهرة في كثير من مجالات حياة أمتنا المستباحة. لقد بات الرعب يجتاحني -لا الحنق فقط- كلّما فكرت بمئات ممن يرتعون تحت أضواء لا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يستحقونها، لمجرد تدخل إرادة جهة رسمية أو شبكة خفية، أو رغبة محفل ما، أو مـزاج صاحب نفوذ عابث، أو بريق رصيد مصرفي متورم لافتعالهم نجوماً! فليس هذا حال الساعين إلى نهوض!

أحـاول أحيانـاً تخفيـف وطأة المقارنـة/ المفارقة بين مالك بن نبي ومن يدانيه علمـاً وفكراً وبين نجوم (السآفـة) و(السقافـة) الملمّعـين، فأقول لنفسي: لكن مالك بن نبي إذ احترف التفكـير ومقارعة الاستعمار والانشغال بهمـوم الأمة والسعي إلى إنارة سبيـل إيقاظها من سبات طال أمده وانتشالها من هامش المجتمع الإنساني لتبدأ نهوضها الحضـاري، قد سعى أساسا إلى إرضاء ربه وإرضاء ضميره، وهذا حسبه. وهو قد نـال فرصته على أي حال، إذ تولى مسؤوليـة وزارة التعليـم حيناً في جزائر ما بعد الاستقـلال. كما نالت قلة من مبدعين عباقـرة آخرون فرصهـم في أقطار عربية وإسلامية أخرى. لكن جوهر مشكلة بن نبي ومشكلة هـؤلاء أيضاً كامن في عدم التقاط اللحظة الملائمة والتعاطي المناسب لتحريك الجسد العربـي/ الإسلامي المخدّر والمغيب فيمـا بين المحيطـين الأطلسـي والهندي.

وكذلك في إغفال آلية الحلول التي اجترحوها واقترحوها لخلل بنيوي جعل خفة التعاطي العام مع مأزق الأمة إدماناً، وجعل استقلال أقطارنـا خدعـة، وجعـل ثرواتهـا طريقاً لتعميـم المجاعـة والعوز والفاقـة والجهل على غالبية أفراد الأمة، واستخدم ادعاءات النهوض والتقدم والإنجاز والإعجاز قنابل دخانيـة لإخفاء انتشار مريـع لأمية سافرة لمئة مليون عربي، ولأمية مقنّعة رديفة يرزح تحت وطأتها أكثر من ضعـف هذا العدد. أمـا فلسطين التي تاجر بهـا أكثر الساعين إلى سلطة وعشاق الحكم والسطوة والشهرة طويلاً، عندمـا كان إطلاق الوعود والعهود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بتحرير فلسطين الناجز التام، مشفوعاً بأغلظ الأيمان، أقصر طريق إلى السلطان في مرحلة المتاجرة تلك، وأسهل سبيل إلى التشبث بالسلطة، فقد ظل ادعاء الوصل بها، بل والمغالاة أيضاً بادعاء أبوتها، خبزاً يومياً لهؤلاء. وما إن جدّ الجدّ، وبات الصراع يقتضي قتالاً حقيقياً وإعداداً مخلصاً وتصدياً مكلفاً وإدارة مخلصة واعية متزنة مؤمنة -لإطلاق حرب أناشيد من الإذاعات وشعارات في مهرجانات ومظاهرات في العلن وإبرام صفقات تفريط في السر- حتى تلاشت الوعود والعهود والأيمان المغلظة، وصار التسابق علنيا إلى خطب ود غزاة فلسطين ومغتصبيها إرضاء لراعيتهم الولايات المتحدة!

تجاوز الأمر التفريط بما بقي من فلسطين أرضاً وشعباً وحقوقاً ومصيراً إلى تكرار مآلها في أقطار أخرى، من الصومال إلى العراق، ومن السودان إلى اليمن، ولف النسيان والتناسي أكثر ما قد تقادم من أراض عربية اقتطعت وابتلعت من كل أطراف الوطن العربي: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بعدما بلغ التفريط بالقلب مداه في أعقاب المتاجرة والمساومة والخذلان والنكوص، وصولاً إلى فرض حصار (أخوي) خانق على شعب فلسطين، دعماً لحرب الإبادة الصهيونية الشاملة ضدهم.

مع حديث احتلال العراق وتمزيق السودان وتدمير اليمن، أذكر كيف شرح انبهاري الكبير بمالك بن نبي على الرغم من إعجابي بكتبه: (شروط النهضة، مشكلة الثقافة، فكرة الأفريقية الآسيوية، الظاهرة القرآنية، ميلاد مجتمع، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وجهة العالم الإسلامي..). فقد استفزتني كثيراً مقولته عن قابلية بعض الشعوب للاستعمار.. كنت فرحاً من حيث المبدأ بقراءة إنتاج مفكر جزائري عربي مسلم، وعى أن الثقافة امتياز نوعي للانسان على سائر الكائنات الحية الأخرى، بحيث أن الإنسان الحقيقي مخلوق ثقافي، يمكن قياس إنسانيته بثقافته، مثلما وعى أن ثقافة الشعب تحدد هويته وتميز شخصيته، لأنها أساساً إفراز المجتمع عبر تراكم تجاربه وإبداعاته الإفرادية والجمعية وتفاعل علاقاته على مدى عصور، وأدرك كذلك أن الثقافة ليست مجرد مجالات معرفية أو إشراقات إبداع أفراد عباقرة، وإنما هي اعتمالها الحي بالمجتمع وبالواقع على نحو يجعلها فعالية عامة حية تشكل جوهر تقدم المجتمع. كنت آنئذ شاباً مفعماً بالأمل والثقة بأمتي والحلم بقرب تحرير المغتصب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من وطنها وإعادة توحيدها وتجديد نهضتها الحضارية. لذلك شعرت بمهانة لمجرد القول بأن شعباً لديه قابلية فطرية أو بنيوية أو حتى مرحلية طارئة للاستعمار!

كنت قد قفزت إلى الرجولة مباشرة من طفولة سنتي العاشرة التي لم تشهد يوما انشغلت فيه عن متابعة ثورة الجزائر والامتلاء اعتزازاً وفخراً بكل بلاغ عن عمليات مجاهدي ثورتها. ومع كل بلاغ من تلك البلاغات كنت أشعر بغيرة إيجابية متطلعاً إلى يوم سماع أول بلاغ عن عمليات مجاهدي فلسطين. وقد جذبتني النواة الأولى للثورة الفلسطينية بحمد الله، حتى قبل الإعلان عن أول عملياتها المسلحة في فلسطين. والتزمت بها تنظيمياً في الشهور الأولى لكفاحها المسلح سنة ١٩٦٥م. كان التزاماً متصوفاً واعتزازاً بالانتماء، إلى أن كان لا بد من اختيار بين المبادئ ولعبة السلطة، بين الوطن والمصلحة الذاتية العابرة، بين مصير الشعب ومقامرة الإطار، فحسم الخيار فوراً يقين بضرورة التشبث بالمبادئ، والسعي للتوحيد ما بين الديني والقومي والوطني على قاعدة العمل الموحد لتحرير فلسطين، استكمالاً لتحرير الأمة بأسرها وتوحيدها، كي تجدد انطلاقتها الحضارية المنشودة بعد سبات طال أمده وتفاقم ضرره.

ما كان لعنفواني حين كنت ابن العشرين، أحلم باقتراب إشراق فجر جديد لأمتنا، أن يقبل مقولة مالك بن نبي بقابلية شعب للاستعمار. ظل هذا هو شأني على مرّ السنين، فكانت تلك نقطة افتراقي الجوهرية الوحيدة عن أفكار بن نبي، بينما وافقته على معظم المسائل الرئيسة الأخرى، مثل علاقة الحق بالواجب، حيث يصعد المجتمع وينهض ويصعد ويتقدم عندما تفيض الواجبات التي يؤديها بإخلاص ونزاهة وحماس عن الحقوق التي يطالب بها، بينما يتراجع ويسقط عندما تزداد المطالبة بحقوق على حساب أداء الواجبات. كذلك فكرته عن عالم الأفكار والأشياء، وفكرته عن نهاية القوة، ورؤيته للمعرفة التاريخية التي حلل عبرها حركة المجتمع الإسلامي إلى دورة ذات أربع مراحل: الروح والعقل والغريزة والانبعاث، مشدداً على اعتبار معركة صفين سنة ٣٢ هجرية أكبر وأخطر شأنا من معركة عسكرية، ففيها تزحزح مفهوم القيم في المجتمع الإسلامي وترجرج، وانشق الضمير الإسلامي في تأرجحه بين الواقع والمثال..

لكن تلاحق المحن والهزائم واستشراء الردة، وما أتاحه الله لي على مدى عدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عقود، خلال عملي سفيراً وبعد ذلك، من اكتشاف ما تحت السطح وخلف الأقنعة ووراء الستار، والاطلاع على كثير من خفايا وأسرار وارتباطات، بما لا يتاح ربما سوى لعدد قليل جداً من الناس، جعلني أقترب اقتراباً توفيقياً من رؤية مالك بن نبي تلك، تنزه الشعوب عن القابلية للاستعمار وتحصرها بفئات ومصالح وأطر متحكمة بتلك الشعوب، تقدم مصالحها الشخصية والفئوية الضيقة على مصالح الأمة، بل على مصير الأمة.

وحتى بعدما لوثت أقلام وأصوات ساقطة فضاءنا العربي بضجيج يسوّغ للاحتلال الأجنبي، بل ويمجده أيضا ويزعمه تحريراً!.. وبعدما انتشر فحيح ألسنة موغلة في الوقاحة والغي تجاهر بإنكار التناقض مع الاغتصاب الصهيوني والغزو والاحتلال الأمريكي، وتحرّم مقاومتهما. بل وذهبت بعيداً فتجاوزت الطرح المهزوم الذي فرط بأربعة أخماس أرض فلسطين المغتصبة منذ العام ١٩٤٨ وتنازل عنها لتعلن سقوط مبررات الصراع ضد الغزاة الصهاينة وتجعل التسليم باغتصابهم والتطبيع معهم شرطا للانتماء إلى العصر، وكأنما يتجاهل أصحاب تلك الأقلام والأصوات الأمر الإلهي: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم»، أو كأنما يزوّرون مدلوله لكي لا ينسحب على ستة ملايين لاجئ فلسطيني تمّ اقتلاعهم من عكا وحيفا ويافا والناصرة وطبريا واللد والرملة والمجدل وبئر السبع والقدس لثلاثة وستين عاماً خلت!

عند هذا الحد، كان لا بد لمكابرتي من الانكسار على صخرة الواقع المرير القاسي، دون التخلي عن القناعة بضرورة معالجة كوامن الخلل والقصور والتقصير فينا، وعلى أن «الذات منطلق الخلاص»، بحيث يجب أن يبدأ كل تغيير حقيقي من هذه الذات وبها تصويباً وتصحيحاً للأداء ومعالجة أو تبديلاً للأدوات. من هنا قبلت فهم مالك بن نبي لقابلية بعض الشعوب للاستعمار في بعض مراحل تخلفها وانحدارها، دون اهتزاز يقيني بأن ليل أمتنا لا بد بالغ نهايته، يليه انبعاث بإذن الله يجدد نهضتها الحضارية.

وإذ شدد مالك بن نبي على أن القابلية للاستعمار مشكلة العرب الكبرى -شأن شعوب أخرى مسلمة وعالمثالثية- فهو قد أكد من ناحية أخرى على أنه «ينبغي أن يرد المسلم تخلفه إلى مستوى الأفكار، لا إلى مستوى الأشياء» (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة). وقد شدد على أن هذه المشكلة مرض ثقافي أكثر منه سياسياً.

كما سعى مالك بن نبي في كتابه «مشكلة الأفكار» إلى تمحيص مواضع الخلل في الثقافة العربية – بل مقتل هذه الثقافة – واجتهد بأن الأمر يعود إلى نوعين من الجراثيم: جراثيم ميتة تعود إلى زمن مضى وبيئة تغيرت، وأخرى مازالت صلاحيتها قائمة، لكنها قاتلة لأنها تخص وسطا مختلفا وبيئة مغايرة. إن هذه الأفكار القاتلة تعمل على نحو إيجابي وجيد في ظروفها التي نشأت فيها، وفي البيئة المتوافقة معها أو التي أفرزتها، ولكن ما إن تنتقل إلى بيئة مغايرة حتى ينتشر ضررها ويستشري أذاها.

في كل الأحوال «لمشكلة الثقافة نوعيتها التاريخية والاجتماعية، في حدود الزمان والمكان، وإنَّ لكل ثقافة بحكم هذه النوعية وجودها الخاص الذي يرسم حدودها على الخريطة، إذا ما قررنا ذلك فمن العسير علينا أن لا نربط هذه الملاحظة النظرية بالمشكلات السياسية..». وهنا لاحظ بن نبي أنه بينما يأتي تعريف الثقافة لدى عالم الاجتماع الأمريكي أو في فكر الكاتب الماركسي مكتملاً ضمناً، بصورة أو بأخرى، لأن الثقافة «تتصل لديهما بفهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، أو في حيز القوة في نطاق فكري معين أيضاً... فإنه يأخذ في العالم العربي والإسلامي معنى آخر مختلفا تمام الاختلاف، إذ هو يتصل بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد»(مشكلة الثقافة، سبق ذكره، ص ٣٣)، فالثقافة لدى ميلاد المجتمع الإسلامي كانت جد متجانسة، وقد اتحدت حركات الفكر والعواطف ودوافع العمل والمعايير والقيم وشكل السلوك فيه، لكن تلك الوحدة قد تعرضت للتشتيت والتشظي والضياع والاختراقات الخارجية وغواية التبعية لمراكز ثقافية وحضارية أخرى والاستلاب لها في مراحل لاحقة، دون إغفال ثبات نسبي لغلبة الالتزام الديني والأخلاقي لمجتمعنا على العوامل والمؤثرات الأخرى غالبا عند منعطف التحول الحاسم.

كرر مالك بن نبي أن مرض القابلية للاستعمار، الثقافي في جوهره، هو الذي مهد الطريق لتدفق جيوش الغزو والاحتلال، وبالتالي فإن مؤشر نهوض الأمة هو اجتثاث جذر المشكلة، أي مرضها الثقافي المتمثل في القابلية للاستعمار، أكثر مما هو في مواجهة الاستعمار ذاته بجيوشه وأدواته وعملائه. ولا يولد المجتمع ولادة حقيقية على أي حال إلا عندما يتخلص من عالم الأشياء والأشخاص وينخرط في عالم الأفكار. لعلَّ بؤس أسر عالم الأشخاص هذا وما نجم عنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من كوارث تعيشها أمتنا حالياً جعلني أكثر التحذير من خطره وأدعو للفكاك من أسره المدمر (انظر دراستنا: هل يحتمل القرن الحادي والعشرون الأصنام الحية؟ المستقلة، لندن، ٣٠/٦/١٩٩٩ و٦/٧/١٩٩٩ ومقالتنا: (إلغاء دور العقل وإشاعة ثقافة الخضوع سلعة بائدة في عصر العولمة، المستقلة، لندن، ١٩/١٠/١٩٩٩م).

نقف هنا لنتساءل: أما كلّت الألسن العربية الشكوى من أن ما أقدم عليه فقهاء السلاطين من قول بوقف الاجتهاد، مذعورين من سيوف الجلادين، سبب رئيس في تخلف العرب والمسلمين؟ لطالما اعتبرنا أن أحد أبرز جذور مأزقنا القيمي والحضاري كامن في استمرار الجبن وتوالد الخنوع الذي قابل به من كانوا في جامع دمشق الكبير زياد بن أبيه إذ وقف يهددهم قائلاً: «البيعة لمعاوية ومن بعده لولده يزيد، وهذا السيف لمن لا يبايع»! فمنذ ذلك الحين أسقط قمع السيف شروط البيعة وجوهرها، واغتصب إرادة الأمة وصادر اختيارها، وأخضع البلاد والعباد لمغتصبي سلطة ويزعمون لأنفسهم قدسية، بل ويزعمون لأنفسهم -أو يزعم المنافقون لهم- عصمة ليست لغير الله. ولكن أما آن الأوان لوقف الشكوى والانتقال إلى وضع السيف عملياً في موضعه الصحيح، مسدداً نحو الغزاة والمحتلين والمغتصبين والمفسدين، لا مستبيحاً عباد الله ليحولهم عبيداً للسلاطين، تحالف السيف الذي توالد دبابة وطائرة ومدفعاً وسوطا وأقبية تعذيب ومسدساً بكاتم صوت مع رشوة بفتات ذهب أو بمنصب زائل يسترق الضمائر ويلوث النفوس ويفسد الأخلاق!

أنّى للأمة أن تنهض بغير اقتلاع جذور المأزق وعلة المرض الذي استشرى خللاً في بنيانها السياسي والمجتمعي والثقافي، وخللا في التربية الجمعية والفردية؟ لئن تأزمت أحوالنا بعد أن «تصاعد رعب غير مبرر من العدو الحقيقي، رافقه انتقال الانبهار المتعاظم به من اللاوعي إلى الوعي وصولا إلى تفاقم التسليم بالعجز إزاءه والاستسلام لشروطه» (د. خير الدين عبد الرحمن، من يدرك عصرنا؟ الرافد، الشارقة، أكتوبر ١٩٩٥).

إن تقلب السياسات والمواقف وإدمان الفشل والتراجع السريع إزاء غزو أو ضغط خارجي، والتعويض بتشديد قمع الداخل وإفساده، قد بات حافزا يعمم خفة التعاطي وضعف الالتزام وينقل عدوى الفشل وروح الهزيمة والاستسلام إلى سائر حلقات المجتمع. إن استيعاب جوهر سنن الله الثابتة التي شاءها قوانين للكون والناس، والوعي بهامش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتحول والمتغير الذي دعانا الله إلى التفكر والتدبر والتشاور والاكتشاف والتجديد فيه، شرط لتصويب مسارنا وانطلاق حركتنا المجتمعية بثبات نحو أهداف جمعية لا يجوز التخلي عنها بخفة عند أول عقبة، على نحو ما يفعل معظم حكامنا من الذين يتقافزون بين النقيض ونقيضه، ويحرمون حق الاختلاف، ويرفضون مبدأ التوافق والائتلاف، ويتوهمون احتكار الصواب والحقيقة والوطنية والوطن، ويربطون لقمة عيش المواطن بولائه الأعمى وانصياعه الآلي التام لهم، وتقافزه خلف تقافزهم ما بين الأهداف ونقيضها، وجاعلين من ثبات سلطانهم الثابت الوحيد في حياة الأمة.

لقد طغت نزعة الشخصنة في حياتنا العربية إلى حد السفاهة. لقد صارت كل الإنجازات والانتصارات المضخمة المبالغ بأحجامها ونتائجها، بل والوهمية الكاذبة غالباً، تنسب إلى فرد يتم تأليهه وإسباغ صفات الإعجاز والعبقرية والبطولة الخارقة والتفرد والقدرات الفذة عليه، في مقابل نسبة الهزائم والإخفاق والنكبات إلى أطراف أجنبية وعوامل خارجية وأسباب غيبية غامضة! صحيح أن التاريخ محكوم إلى حد ما بالدلالات الرمزية للأشياء، مثلما هو محكوم بوجودها المادي، لكن الإمعان في شخصنة هذه الدلالات الرمزية يقود إلى بسترة مسار التطور الإنساني والاجتماعي، ويكرس جاهلية الدوران حول محور «أنا» ومحور «هو»، ويحولهما إلى صنمين معاصرين، ويقمع في المقابل محور «نحن» ومحور «هم» إلى حد الإلغاء. لقد اشتطت شخصنة التاريخ والحاضر بأحداثهما ومساراتهما وتحولاتهما وتطوراتهما إلى حد تقديسهما وتكبيل الحاضر في أسر الماضي وتقديمهما نتاجا لأفراد معدودين، وتشويههما عبر تجسيدهما بشخصيات منتقاة انتقاء مغرضا يخدم أهواءً وأغراضاً محددة. لا يقتصر التخريب الناجم عن هذا الشطط على اختزال قسري لدور الأفكار والأمة والشعب والمجتمع إلى حد الإلغاء، وإنما يمتد هذا التخريب إلى تكريس لتجزئة التاريخ تجزئة ظالمة تعزل ظواهره المترابطة والمتكاملة عن بعضها بعضا، وتقولب جوهر هذه الظواهر بافتعال وتزييف وتزوير وتكييف اجتزائي انتقائي تشويهي. أول نتائج هذا السلوك تشتيت الوعي الجمعي وتشويهه، وتعطيل الوظيفة الكبرى للتاريخ من حيث كونه حاضنا لثوابت الماضي ومسارات تطوراته التي أسهمت في إنتاج وقائع الحاضر وتؤسس لتوجهات المستقبل. بهذا ينتفي الوعي بالتاريخ سبيلا لتحقيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعـي مستقبلـي. إن العبـث بالتاريخ من خلال اعتمـاد وقائع مجزأة وأحداث مشتتة وتحولات مسخها التطويـع الانتقائي الذي يمحورهـا حول شخصيـات تخدم مقاصد محـددة سلفاً يؤدي إلى تعميـم الإغراق في اعتماد ثوابت ماضوية مشخصنة مفتعلة أو مجتزأة أو مزيفة وجعلها إطاراً جامداً يقدم الماضـي المجتزء المبسـتر مرجعية للحاضر والمستقبـل، بما يشـل إرادة النهوض ويكبل حركـة التطور، فيصبح الاحتمـاء بالتاريخ موقفـا دفاعيـا سلبيـا متشرنقـا مفتقدا الرؤية الصائبة التي تحسن توظيف التاريخ وعوامـل وآليـات التحـولات الجذرية فيه لخدمة بنـاء مستقبلي. بهذا يتلاشى الفعل الجمعـي الإيجابي البنـاء إذ يفتقد شروط حركته، وتضمحل القدرة على التغيير الجاد والحقيقـي، لصالح شتـات تغيير مفتعل أو تابـع أو موهوم. إن منطلـق التفاعل المبدع الخلاق مع تجـارب التاريخ ودروسه كامن في الوعي بجوهره الرئيس المتمثل في سيادة مفهـوم التغير والتطـور إلى أمام، في سياق التطور الإنساني الشامل، لا الحركة الدائرية الاجترارية المتكررة، ولا التقليد الاستنساخي الذي يستسهل استيراد تجارب الآخر معلبة. يـؤدي قصور هـذا الوعـي أو افتقاده إلى تشويه تكوين وتوجهات الشخصية الجمعية، نظرا لاحتجاب حقيقة التاريخ كعملية مركبة لتقدم الحياة الإنسانية الذي يتم بحركة تطور تصاعديـة، لا باستنساخ تكراري للتحولات والأحـداث. إن المجتمـع -لا الفـرد- هو مصدر الحدث المستقبلي. وبالتالي لا بد من إدراك التوجهـات والآمال الجمعية، ومدى قدرة المجتمع على تحقيقها، أي إدراك مدى تـوازن الرغبات والآمـال والإرادة الجمعية وتطابقهـا مع القـدرات والطاقات وحسن تنظيمهـا والاستعداد لأداء الواجب لتحقيق تلك الرغبات والآمال، دون إغفال التأثيرات الخارجيـة الإيجابية والسلبية والاحتمالات المختلفة المواتية والمعرقلة. أي إنه لا بد من مراعاة دقيقة لحركيـة الحياة الاجتماعية عبر حـوار مع الوعي البشري الجمعي حول الأهداف والاحتمالات.

وإذ يتميـز عصرنـا بضمـور الفاعلية الفردية ومحدودية دورها -مهما تعاظم- في صنع التحولات الكبيرة، إذ إننا نعيش عصر مؤسسـات ومنظومات إنتاجيـة وخدماتية كبرى وتيارات فكرية واسعة فاعلة ومتفاعلة عبر المحيطـات والحدود ودفـق معلوماتي هائل وفيضان من المخترعات والاكتشافات والابتكارات، بحيث سرعان ما تذوي الخوارق الفرديـة المدعـاة، والمعجـزات الشخصية المزعومـة، والبطولات الوهميـة، وإن صار

تخريبها أشد هولا ووطأة، إذ يؤدي إلى اضمحلال المشاركة الجمعية، وضمور تحمل المسؤولية، وجمود حركة المجتمع وتفشي الأمراض فيه، واستشراء الفساد والإفساد. كما يصبح منطقيا في هذه الحالة أن يقوم العقل الجمعي بتحميل صاحب السلطان وبطانته كل المسؤولية عن الهزائم والكوارث والإخفاق، مثلما ادعى احتكار الانتصارات والإنجازات! النتيجة هي جمود حركة الفعل واضطراب التعامل والعلاقات المجتمعية.

نؤكد هنا مجدداً أن الحل لن يكون بقوانين يصدرها حاكم تمنع الكذب وتحظر النفاق وتحرم الكسل والتواكل والدعة وتحض على حب الوطن والأمة. التغيير الكفيل بالتصويب إرادة فعل ذاتية تبدأ من محاسبة النفس وتصويب أدائها، على مستوى الفرد ومستوى الأسرة ومستويات سائر الحلقات المكونة للمجتمع وصولا إلى الأمة بأسرها. إرادة فعل تنأى عن ازدواجية رفع الشعار والعمل بنقيضه، وتكف عن التأرجح العابث بين إدانة الذات بإطلاق، وقوقعتها في إحساس غير مبرر بالعجز المؤدي إلى الخنوع والاستسلام والتبعية للأعداء والخصوم من ناحية، وتبرئة الذات بإطلاق وتمجيدها بنرجسية غبية دعية غارقة في الوهم ومغيبة في خدر أمجاد ماض بعيد، بحيث تنسحب من العصر وتنزوي في هامش هامشه. التغيير الصائب إبداع عقل قادر على التحرر، يحترم ذاته فيفرض على الآخر احترامه، واجتهاد متجدد عبر تحدي شروط العصر المكانية والزمانية والإنسانية بما يثير استجابات فاعلة أصيلة ويبني حضارة أو يسهم في بنائها. التغيير أساسا ينطلق من الكف عن الترداد الببغائي لمقولات أخلاقية ودعوات إلى فضائل من قبيل قول نبينا صلى الله عليه وسلم مثلا: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، أو قوله «الدين المعاملة» ومثله كثير من أحكام وأحاديث وأقوال نستشهد ونتغنى بها وتكررها ألسنتا من دون ممارستها عبر الفعل بدلا من التكرار اللفظي، بحيث يسأل المرء نفسه في كل يوم وحين: هل أحب لأخوتي ما أحب لنفسي لكي أستحق ادعاء أنني مؤمن؟ أو هل ارتقت معاملتي لنفسي ولأسرتي ولمجتمعي ولأمتي، وبالتالي لخالقي، إلى مستوى يؤهلني للانتماء الحقيقي إلى دين قوامه المعاملة الحسنة؟

رحم الله مالك بن نبي الذي تداعت هذه الأفكار والذكريات والتأملات في رحاب ذكراه.

مصطلح السّخريّة وتجلّياته عند شعراء الرّفض المعاصرين

د. محمد سعيدي ✽

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

استفحلت السخرية في الشّعر العربي المعاصر حتّى أضحت ظاهرة فنيّة لافتة للانتباه، والأكيد أنّ الشّاعر الرّافض المعاصر لم يكن يرمي بأسلوبه السّاخر إلى المزاح وتمضية الوقت أو إلى التّهريج حتّى يصير الشّاعر أضحوكة والشّعر هراء بلا رسالة في الوجود، ولا سيّما أنّ الشّاعر الثّائر يسمو بإبداعه عن كلّ استهتار وأبعد ما يكون مستهتراً خواء، ومن هذا المنطلق سعيت أن أوضّح مفهوم السّخرية وأبيّن بعضا من تجلياتها في شعرنا المعاصر.

✽ ناقد وأستاذ جامعي (الجزائر- جامعة مستغانم).

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

إنّ معاجمنا اللّغويّة تطلعنا على دلالات واسعة لمفهوم السّخريّة، فالسَّخْرُ والسَّخَرُ والسُّخْرَةُ والسُّخْرِيَّة من لفظ سَخِرَ الذي يعني:

- الاستهزاء[١]
- القهر[٢]
- التذليل[٣]

وكأن الشاعر إذ يسخر إنما يرمي إلى الإذلال والاستهزاء - في آن واحد- بالذي يتناوله في خطابه الأدبي.

و«يعتبر أدب السخرية والفكاهة إحدى الوسائل الفنية البارعة في محاربة الأعداء، فقد زود الشعب بقدر من المناعة والحصانة النفسية وتحمل على رفع روحهم المعنوية، وتزويدهم بجرعة من الشجاعة، والقدرة على المجابهة والصمود والتحدي».[٤]

والسخرية عند شعراء الرفض ملمح فَنِّيٌّ وشعريٌّ «تصدر في سلوكها عن موقف رافض متمرد على الهيئة الاجتماعية والسياسية».[٥]

وهي ضرب من النقد اللاذع والموجع حين تستحيل الألفاظ إلى لسعات، والعبارات إلى سكاكين حادة تدمي الجروح المؤلمة، كما أنّها تقرع سمع القارئ وتُبقي أثر الموضوع في ذهنه وعقله، وتوقظ ملكة الانتباه والتذكر لديه.

وإذا كانت السخرية نقداً فهذا يقتضي من الشاعر أن يكون خبيراً بما ينقد، ذا دراية بمكامن النقص فيه، وفناناً ورساماً حيث يتسنَّى له الرسم بالكلمات شأن الرسام الذي يبدع في توزيع الألوان على لوحته. كما يشترط في الشاعر أن يحسن اختيار موضوعاته؛ إذ إنّ المهم منها وذا القيمة العالية هو الذي يلقى التجاوب والقبول لدى القارئ، وأمّا ما كان منها مستهلَكاً فهو أقرب إلى التصنع والتكلف ومذاقه يكون ممجوجاً، وأغلب الظن أنّه يسقط فيما يشبه الترف الفكري والبذخ الشعري، وشعراء الرفض أبعد الناس عن ذلك.

وإذا أحسن الشاعر الساخر التعبير عن مضامين موضوعاته وأبدع في انتقاء ألفاظه، وسكبها في قالب شعري يعلوه خيال وجمال، لا مراء أنه يكون أبدع أيما إبداع وسخَّر سخريته في تبليغ رسالة كيفما ارتضاها، سياسية كانت أو اجتماعية أو خلقية أو أدبية.

ومن تجليات الرفض - في بعده الوطني - ذلك الأسلوب الساخر الذي يتخذه الشاعر وسيلة للانتقاد والمواجهة وتعرية الواقع حيث تعدّ السخرية «وسيلة إلى التهذيب والتقويم والإصلاح والتطهير، كما أنها نوع من الزجر والردع، تخدم الفرد والمجتمع».[٦]

وهـي ظـاهـرة أدبية وفنية متأصلة في أدبنا العربي، وقد اعتلى عرشها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وصارت له مدرسة، قد نحصي من تلامذتها توفيق الحكيم، ورضا حوحو، وأحمد مطر، وغيرهم كثير. ففي قصيدة «أرجوزة الأحزاب»، يسلك الشاعر الغماري مسلك السخرية من أولئك الذين يعبثون بأقدار الجزائريين، ويتلاعبون بمصيرهم، فيطمعونهم غرورا، جريا وراء المكاسب الزائفة. وكم من الأموال الطائلة التي تذهب أدراج الرياح، وتلك الأحزاب والجمعيات في غفلة من مطالب الجزائريين. لا همّ لها سوى احتراف صنعة الكلام، وكم من الأخلاق الدنيئة التي تسربت إلى المجتمع الجزائري وأُغفِلَ الشعب عن مقاومتها وأشغل عن التصدي لأخطارها:

«يَا جَمْعِيَاتِ الزَّمَنِ الهُلاَمِي
أغْلَيْتُمُ الكَسَادَ فِي الكَلاَمِ
وَعدْتُم بِخَمْرَةِ الأوْهامِ
مَعْجُونَةً بِخَمْرَةِ الأحْلاَمِ

أُجِلُّ دِينُ اللهِ عَنْ «طَلِيعَهْ»
سَمِيعَةٍ – وَمَا وَعَتْ – مُطِيعَهْ

وَتَمْتَطِي أيْقُونَةَ «الشُّمَارَى»

وَتَصْنَعُ الإِنْسَانَ وَالأَقْدَارَا

يُعَلِّبُونَ الفِكْرَ كَالسَّرْدِينِ
وَيَعْشَقُونَ الرُّبَّ فِي العَجِينِ

وَالجِنْسُ عِنْدَهُمْ دَوَاءُ الجِنْسِ
فِي أُمَّةٍ مَشْدُودَةٍ لِلأَمْسِ

يَا شُعَرَاءَ «البِنْيَةِ التَّحْتِيَّهْ»
قَدْ سَقَطَتْ بُنَاكُمُ الفَوْقِيَّهْ»[٧]

إنّ مَلَكَةَ السّخر عند الشاعر الغماري، ضرب آخر من غيرته على مجتمعه، وملمح من إحساسه المرهف فلا يدع الشوائب تعلو صفحات وطنه البيضاء لتطمس معالمه. بل يرفض وينتقد وينصح ويصلح، فتتحول الكلمة عنده لسعات عقارب، ووخزات إبر.

إن الشعر الوطني عند الغماري يتنوع بين هجاء وتهكم، وحب ورفض. ذلك أنّ الشاعر يستقي فنه من واقع شعبه، يستشعر بؤسه وآلامه، وينهض بطموحه وأحلامه. ولم يعرف الشاعر البرج العاجيّ، بل هو ابن الشعب في غدوّه ورواحه، وفي بساطة عيشه. لا يتوانى في «شجاعة نادرة جدا وبتجاوز منقطع النظير إلى أن يرفض الواقع المتخلف، ويرفض معه كذلك توظيف شعره لغير الوطن الذي يعيش في الأعماق من أحداثه اليومية محاولا استشراف رؤية مستقبلية تحتضن آمال الجزائر وأبعاد مطامحها السياسيّة والاجتماعية».[٨]

إلاّ أن الشاعر أحمد مطر هو أحد كبار شعراء الرفض الذين اتخذوا من السخرية وسيلة لتعرية مفاسد النظم الاستبدادية، وتبيان مواطن الداء فيها، حيث تحظى السخرية بحيّز كبير من شعره، خصصها للمضامين السياسية في الأغلب، وتناول قضايا عديدة منها الحرية والظلم والعدالة والحكم.

يقول أحمد مطر في إحدى قصائده ساخراً ناقداً:

«جسّ الطبيب خافقي
وقال لي:
هل ها هُنا الألمْ؟
قلت له: نعم
فشقّ بالمشرط جَيْبَ مِعْطَفِي
وأخرج القلمْ
هزّ الطبيب رأسه.. ومال وابتسمْ
وقال لي:
ليس سوى قلمْ
فقلت: يا سيّدي
هذا يدٌ.. وفمْ
رصاصةٌ.. ودمْ
وتهمة سافرة.. تمشي بلا قدمْ»[٩]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و«لا يغرب عن البال أن في هذه السخرية شجاعة استثنائية، تصل بالشاعر أو الأديب إلى أن يغامر من أجل الآخرين، كما أن هذه السخريـة تعنـي حنيناً عميقـاً إلى الشفاء الروحيّ وحلماً بنظامٍ آخر»،[10] يطمح إليه الشاعـر حتى يبرأ من سقمه ويُبرئ مجتمعه مما أصابه من علل التخلف والحرمان. وإذا كانـت «السخرية تسـير في اتجاهين: اتجاه إيجابـي بنّاء واتجـاه سلبي هـدّام والهدم مرحلة حتمية في إعادة البناء[11]؛ فإنّ أحمد مطر يسعـى إلى تهديم ما يراه قاعدة تسير عليه كل سلطة في الوطن العربي وفي النُّظم المستبدة حيث تُكبل الحريّات وتقيد الفنانين والأدبـاء والكتّاب والشعـراء وتجعل منهم أبواقاً وإمعّات يمدحون سياساتها ويلتمسون لهـا الأعـذار في مقترفاتها مـن الجرائم والمظالم المسلطة على شعوبها.

وتكميـم أفـواه أصحـاب الكلمـة من المثقفين هي حرفة سلطوية عربية موغلة في القدم. إلا أن شاعر الرفض العربي المعاصر يثور عليها وعلى من سن لها قوانينها كالتي تحجر على الشاعر الحـر إبداعه وأفكاره، وقـد يُؤثر المنفى والتشرد والتغريب على أن يبقى موالياً مـوالاة تفقده شخصيته وتذلّه إذلالاً، ومن ثمّ يكتـب خائناً لشعبه وأمته، فأمـر كهذا غير مستساغٍ ولا يجدُ له شاعر الرفض مبرراً بأن يُرتمى في أحضان سلطة تبطش في كلّ حين بشعوبها.

فالقلم معادلٌ قـويٌ للسيف، فكما أن للسيف آثـاره في المعارك والحروب فكذلك إنّ للقلـم آثـارهُ في الإصـلاح والذود عن كرامة الإنسان. وهو وسيلـة الكتابة الأولى ورمز ما يخطه المبدع، فـلا يصح أن يؤسر وتؤسر معه الكتابة.

وكم كان القلـم مَجْلَبَـةَ هموم وهلاك لأصحابه وما هو سـوى قلم. ولكنّ مفعوله فتّـاك، قد يُسقِم صاحبـه، وقد يعزله عن مجتمعـه وقـد يسجنه بل قـد يقتله ويعدم وجوده. وشاعر الرفض المعاصر مدرك تمام الإدراك مآلـه ونصيبه مـن بطش الحاكم العربـي سواء أمر على ثورتـه أم انضم إلى لفيف الشعـراء المداهنين المتزلّفين، فهو في الأولَى مسجـون ومُطارد ومغـرَّب ومغتال، وفي الثانية هو ذليل وحقير ومستلَب وخانع، فبئس الحالتان همـا، وبئس العيش في ظل هذه الأحوال.

كمـا يسعـى الشاعر أحمـد مطر من جهة أخـرى، إلى بناء صـرح الكلمة الحرة ومن ورائهـا القلم النبراس الذي ينير دروب الشعـوب المقهورة لتسلـك مسالك الحرية، وتنجو من سراديـب الاستدمار والاستبداد والعسـف والقهـر، وتتطلّـع إلى السمـو

الحضاري الأخلاقي الذي طالما كان حلمها الأول، وتنعم بحرية قوامها تبجيل القيم واحترام الإنسان.

إنّ نصّ السخرية عند الشاعرين مصطفى الغماري وأحمد مطر يؤصّل لجانب فني آخر من جوانب الرفض وأوجهه المتعددة. فشاعر الرفض ليس يحترف المواجهة دائماً التي تصدمه بالمرفوض فكثيراً ما تملي عليه المواقف المتباينة مسالكَ فنية مختلفة بحسب تلك المواقف ولا يكون مغامراً بآرائه الثّائرة في كلّ الأحوال.

إنّ شاعر الرفض يملك زمام كلمته فيوجهها كيف يشاء، تارة بعداء وتوتر، وتارة أخرى بتؤدة وروية وطوراً يرسلها مع سخرية هازئة تبطن نقداً لاذعاً موجعا وإن كانت تعلوها ضحكات، وقد تقوى السخرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح هوجاء، مهشمة تنال من هدفها دون مواربة إذ لا تغلّفها أجواء المرح، وعندها تسمى تهكّماً.(١٢)

فليست السخرية إذاً ترفاً من القول، أو ألفاظاً يلوكه الشاعر تمضية للوقت أو عبارات يسلي بها نفسه أو قارئه، بل هي «طريقة للخلاص من الرقابة سواء أكان الرقيب سياسياً، أم ذاتاً عليا، وهي كثيرة الشبه «بالنفي» الفرويدي، الذي هو وسيلة تتيح لنا أن نقول: «لا أريد أن أقلقك» حين يكون في نيتنا شعورياً أو لاشعوريا، للقيام بذلك بالذات».(١٣)

فالنص الساخر «مجاز مضاد»(١٤) كذلك، يستفز، ويقلق، وينتقد، ويهدم، ولكنه مقابل ذلك يصلح ويبني،ويصف العلاج، وتلك هي رسالة شاعر الرفض المعاصر.

ومن القضايا الكبرى التي تناولها الشاعر بأسلوب ساخر جارح، وأفردها بأكثر من قصيدة، ذلك أنها قضية تمثل ظواهر اجتماعية وسياسية مستفحلة في المجتمع العربي، وهي تنخر جسده غدواً وعشياً. ومثلما أرقت الشاعر وقضّت مضجعه بل كانت سبباً في نفيه عن وطنه وتغريبه عن أسرته وأحبابه. فقد كانت كذلك سبباً في شل المجتمع العربي وكفكفته عن ركب الأمم المتحضرة. هي إذاً قضية الظلم والعدل، الاستبداد والحرية. وهي قضية مركبة ومتشعبة ذات جذور وفروع تلمح آثارها في المجتمع بكل أبعاده الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية. وهذا ما يفسر إيلاءها أهمية كبيرة، وحيّزُها ليس بالضئيل ولا المفتقر في شعر أحمد مطر.

يقول الشاعر أحمد مطر في إحدى قصائده اللافتة:

«اخْتَمَالآنَ أمامَ الشَّاعِرِ الحُرِّ
إذَا وَاجَهَ أسْوَارَ السُّكُوتِ.

احْتِمَالاَنْ:

فَإِمَّا أَنْ يَمُوتْ

أَوْ يَمُوتْ!»(١٥)

فلا مصير للشّاعر أو للأديب أو لصاحب القلم والكلمة؛ إن بقي في وطنه؛ سوى الموت. وبطريقة فنّية ساخرة، مضحكة ولكنّها مبكيّة في آن، يقدّم أحمد مطر لقارئه اختيارات الشّاعر العربيّ الّتي هيّ في الحقيقة «لا اختيار»: إمّا الموت أو الموت، وهو نهايته الحتميّة.

وهذا نقد لاذع لمن يتحكّمون في رقاب الأدباء والشّعراء والمفكّرين. والأدب لا يصير أدباً ولا الشّعر شعراً إن هوّ أضحى سَمْعَ وبَصَرَ المستبدّين، يحرّف الحقائق ويزيّف الرّؤى، فيصوّر مظالمهم عَدْلاً وسفاسفهم حِكَماً.

والسّخريّة عند أحمد مطر «تقوم على أساس وجود مَثَلٍ أعلى ينشده السّاخر، فإذا تعارض هذا المَثَلُ مع شخص أو فكرة أو نظام اجتماعيّ انبرى الأديب السّاخر للدّفاع عن مَثَله الأعلى عن طريق هدم النّموذج المخالف»،(١٦) والمثل الأعلى الّذي ينشده الشّاعر أحمد مطر هو العدالة والحريّة الّتي ترمي إلى السموّ برسالة الشّعر، وترتقي بالإنسان إلى التحضّر بكلّ ما تحمل الحضارة من فكر وذوق رفيعين. وفي مقابل ذلك، وللإحاطة بهذا المثل الأعلى بغية الحفاظ عليه وحمايته، ينتصب الشّاعر شامخا لمواجهة من يخدش حريّته أو يُكبّلُ إبداعه، فتُمسي كلمته وقصيدته خاوية جوفاء إلاّ من التملّق والنّفاق. «فالسخرية تنشد المثاليّة الراقيّة، والمثل الرّفيعة، فغرضها إلى الكمال أقرب منها إلى السّفه والتّدني. »(١٧)

وممّا يزيد السّخريّة إشراقاً وجمالاً وتأثيراً في النّفس، ومن ثَمَّ تُبلِّغُ رسالتها وتصل إلى مقصودها ،و لا سيّما لمّا تُصاغُ شعرا؛ هوّ ذلك الإيقاع الأخّاذ الّذي يختاره الشّاعر، وذلك المعجم الشّعريّ الّذي يحسن انتقاءه وسبكه، وذلك الخيال الّذي يُضْفيه على قصيدته، حتّى تكتمل هذه القصيدة قطعة فنّية وتفي بحاجات المتلقّي الذّوقيّة والشّعوريّة والفكريّة. يقول أحمد مطر في وَمْضَة من ومضاته الشّعريّة :

«رَأَيْتُ جُرْذاً

يَخْطُبُ اليوم عن النَّظَافَة

وَيُنْذِرُ الأوساخ بالعِقابْ

وَحَوْلَهُ

يُصَفِّقُ الذُّبَابْ!»(١٨)

ففي هذه المقطوعة الموجزة المبنى، القليلة الألفاظ، ذات المعاني المركّزة، يرسم أحمد مطر لقارئه صورة مكتملة العناصر

والأركان، قوامهـا الكلمـات والخيال، وفي صياغة ساخرة تثير الضّحك ابتداءً، ولكنّها تُبكي وتُدْمي القلوب والضمائر انتهاءً.

فازدواجيّة الخطاب في المجتمع العربي هيّ قِـوام سياسة الحكم فيـه، حيث تغيبُ القدوة الحسنة، ويحلّ محلّها النّفاق، «**وَأَنَّهُمْ يَقُولُـونَ مَـا لَا يَفْعَلُـونَ**»(١٩)، إذ مثلما نحن واجدون سلطانـا يُطعم شعبه خُطَبًا جوفاء مِلؤهـا الكذب، فكذلك نجـد مقابله شعباً يطعمه مجاملاتٍ ونفاقاً وغروراً.

وقـد أحسـن الشّاعر اتّخـاذ «الجرذ» رمـزا لأولئك الّذين احترفـوا الظّلم لكنّهم ينشـؤون الخطب ثنـاءً على العـدل، وهم سارقون لكنّهـم للأمانة مادحون، وهذا هوّ دأبهم، إذ كيف يُعقل أن يكون «الجرذ» –وهوّ الّـذي ألِفَ العيش في القاذورات والأوساخ– أن يتحـدّث عن النّظافـة. فهذا ضرب من المفارقة العجيبـة والجميلة الّتي تهدف إلى تصوير المتناقضات في المجتمع العربيّ.

و«الذبـاب» الّذي هـو رمـز المستلَبين المتملّقـين الّذين يشاركـون «جُرَذَهُمْ» فكره ووسطه، فلا يملكون أن يرفضوا أو يثوروا.

وكثيراً تُبنـى السّخريّة في قالب لافتة، والمقصـود «بالقصيـدة اللاّفتـة» هيّ تلك القصيدة الموجزة والمركّزة جدّا الّتي تصدر على شـكل ومضة أو إشراقـة، فتؤثّر تأثير الشّرارة الضوئيّـة (الكهربائيّة)، في الجسد وتفعل فعل السّحر في النّفس. تحمل أفكارا قليلة ولكنّها عميقـة ومكثّفة، وهيّ قصيدة «لافتة» تَلفت انتباه العقـل والنّظر؛ البصر والبصيرة ؛ تشحذ الفكـر وتستفزّ المشاعر والعواطـف. تلمحها مسطـورة أمامك فلا تقاوم نفسك حتّى تقبل عليها قراءةً وتذوّقا، شأنهـا شأن اللاّفتـة المعلّقـة الّتي تصدم الغادي والرّائح.

و«اللاّفتـات» في الشّعر العربيّ المعاصر هـيّ صنعة ونظـم الشّاعر المجـدّد أحمد مطـر. حيث استجاب لـروح العصر المتّسم بالخفّـة والسّرعة والقلق، فلـم يعد القارئ المعاصـر ذلك القـارئ الّـذي يتجشّم عناء الجلوس أمـام المخطوطات والكتب والموارد المعرفيّـة المختلفـة السّعاتِ الطّـوالَ، وهوّ يقلّـب الصّفحات، ويفتّش عن معارف، وقد لا يضفر بها، وإن ضفر فبشقّ الأنفس.

إنّ القـارئ المعاصر يبحث عـن السّهل المقتضب المباشـر، فقد أعيته هموم العصر وأثقلت كاهلَه تعقيدات الحياة ؛ والقصيدة المعاصرة هيّ إحدى مبتغيات القارئ المعاصر الّتـي تستجيب لمسلـك الاستسهـال الّذي ينتهجه، ولكنّها تدعـوه إلى التّأمّل وإعمال الفكر.

اتّضـح ممّا سلف أنّ مصطلح السّخريّة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوّ غير التهكّم والفكاهــة بغرض الضّحك والمرح. بل إنّ السّخريّة طريقة فنيّة ومسلك أدبـيّ - شعريّ ونثريّ - سـام لا يتأتّى إلاّ لمن ملك ناصيّة اللّغة، ووهب موهبة فطريّة، وتجربة أدبيّة صقلتها الدُّرْبَةُ وتشعّبُ الثّقافة وكثرةُ الاطّلاع الّذي لا يحدّه حدّ.

والسّخرية اتّجاه سلكـه شعراء الرّفض المعاصـرون نحـو التّصحيـح والإصـلاح، يشخّصـون الـدّاء ثمّ يصفـون دواءه، إنّهم يسخـرون فينتقـدون فيظهـرون مواطـن الضّعف ليُنبتوا فيها عناصر قوّة.

الهوامش

١- ينظـر ابن منظور: لسان العرب مادة سَخـرَ، ج ٦، تح: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي. لبنان. بيروت. ط١ ٦/٤/١٩٩٦م ص ٢٠٢-٢٠٣.

٢- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٣- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٤- السخرية في أدب اميل حبيبي: تأليف ياسين فاغور. تونس. سوسة. دار المعارف للطباعة والنشر ط ١ ص ٨٧.

٥- المرجع نفسه، ص: ٣٠.

٦- رابح العوبي: فن السخرية في أدب الجاحظ. الجزائر. د م ج. ط:١. السنة: ١٩٨٩م. ص: ٣٧.

٧- مصطفى الغماري: ديوان. براءة أرجوزة الأحزاب. ص: ٤٥ وما بعدها.

٨- د.عبـد العزيـز المقالح: الأبعاد الموضوعية والفنيـة لحركة الشعر المعاصر في اليمـن. لبنان. بيروت. دار العودة. ط: ٣. السنة: ١٩٨٤م. ص: ٦٠.

٩- أحمد مطر: لافتات، الأعمال الكاملة، لندن، ط:١، السنة: ٢٠٠٠م، ص: ٢١.

١٠- السخرية في أدب إميل حبيبي: ص: ٣٢.

١١- سيمـون بطيش: الفكاهـة والسخرية في أدب مارون عبود. لبنان. بيروت. دار مارون عبّود ط:١. ١٩٨٣م، ص: ١٧

١٢- سيمون بطيش: الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود. ص: ١٨.

١٣- روبـرت شولز: السيمياء والتأويل تر: سعيد الغانمي. لبنان. بـيروت. المؤسسة العربية للدارسات والنشر: ط١. ١٩٩٤م. ص:١٣١

١٤- نفسه، ص: ١٢٩.

١٥- أحمد مطر: اللافتات (الأعمال الكاملة). لندن. ط:١. السنة: ٢٠٠٠م. ص:٥١١.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٦- رحاب عوض: السخرية عند الماغوط. سورية. سلمية. دار الغدير. ط:١. السنة:٢٠٠١م. ص:٧٥.

١٧- د.عبد العاطي كيوان: الفكاهة والسّخريّة عند حافظ إبراهيم. مصر. القاهرة. مكتبة النّهضة المصريّة. ط:١. ١٤١٨هـ /١٩٩٧م

١٨- أحمد مطر: اللافتات (الأعمال الكاملة). لندن. ط:١. السنة: ٢٠٠٠م. ص:١١.

١٩- الآية ٢٢٦ من سورة الشعراء.

المراجع

١- ابن منظور: لسان العرب مادة سَخرَ، ج٦، تح: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي. لبنان. بيروت.ط١ ٦/٤/١٩٩٦م.

٢- أحمد مطر: لافتات، الأعمال الكاملة، لندن، ط:١، السنة: ٢٠٠٠م.

٣- ياسين فاغور: السخرية في أدب اميل حبيبي. تونس. سوسة. دار المعارف للطباعة والنشر. ط:١.

٤- مصطفى الغماري :ديوان: براءة، أرجوزة الأحزاب. الجزائر. دار المطالب العالية. ط:١. السنة: ١٩٩٤م.

٥- سيمون بطيش: الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود. لبنان. بيروت. دار مارون عبّود ط:١ ١٩٨٣م.

٦- د.عبد العاطي كيوان: الفكاهة والسّخريّة عند حافظ إبراهيم مصر.القاهرة.مكتبة النّهضة المصريّة.ط:١. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٧- د.عبد العزيز المقالح: الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن. لبنان. بيروت. دار العودة. ط: ٣. السنة: ١٩٨٤م.

٨- رابح العوبي: فن السخرية في أدب الجاحظ. الجزائر. د م ج. ط: ١. السنة: ١٩٨٩م.

٩- رحاب عوض: السخرية عند الماغوط. سورية. سلمية. دار الغدير. ط:١. السنة: ٢٠٠١م.

١٠- روبرت شولز: السيمياء والتأويل تر: سعيد الغانمي. لبنان. بيروت. المؤسسة العربية للدارسات والنشر: ط١. ١٩٩٤م.

القصة القصيرة جدّاً وتجليات قوس قزح

محمود علي السعيد ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتجلى ألوان قوس قزح الإبداعية في حدقة القصة القصيرة جدّاً (Very short story) بمختلف طعومها وتراتب أنساقها، بنسب ومقاسات، أشكال وحجـوم، أنماط وصيغ وأطر، تتفاوت ما بين جنس وآخر، تلعب فيها الزمرة الدمويـة الكتابية وفاعلية جينـات النص الوراثية وحيويـة النسغ ونضارة صيرورته القيمة المعيارية والدور المجلّي في التقريب والتبعيد، العلو والهبوط، القبـول والعزوف، الانصهار والملامسة، التعميق والتسطيح، نفردها في هذا

٭ شاعر- رائد القصة القصيرة جدّاً.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الحيز التنظـيري -دون إقصاء لأية جوسرة في صندوقهـا الجمالي -بإضـاءة خاطفة واجتزاء لافت.

١- منصة القص

تتصـدر قرابـة القصة القصـيرة جداً لصنوف سرديـات القص وسلالتها الأسرية الدرجة الأرقـى في سلم العطاءات الشاهق بأشكالـه اللؤلؤية المنضدة في واجهة قماشة المعمار الإبداعي الرخامية، وأنظومة جماله، فالحكائية بكل تلاوينهـا وتشعبات طرقها مرتكـز جوهـري وميزان ثابـت ومقعد لا تُخطئه العـين المعافاة أربأ أن أقول: الكليلة لـكل مسرود لفظـي تشاد طوابقـه بلبنات الروي ابتـداء بالحكاية (Fabula) وانتهاء بالقصة القصيرة جداً في راهنية الطرح وليس في سرمديته، تعريجاً على بضاعته الرائجة في سوق الكتابة العصري (بالمفهوم الإيجابي لمصطلحـي السـوق والبضاعـة) بصنفية القصير والطويل (القصة القصيرة والرواية) إضافـة إلى حضـور أضلاع مربـع السرد القصصـي (الحدث-الشخوص-الزمـان-المكان) في نسيج كينونة كلا النمطين القصة القصيرة جداً مـن طرف ولفيف السرديات المومـأ إليها من طرف آخر، مع الافتراق في توصيف حال كل ضلع، وصولاً إلى الإحاطة الضافية بكنه كل منهما بشروطه الواردة في السيـاق ومدى طاقته وذلك بعلو توتر نبض الحدث تصاعداً أو خفوتـه تنازلاً، اشتعال أفعال الشخوصـص أو كمونها، استطالة أذرع الزمـان تمدداً إلى دهور أو ضمورها تقلصاً إلى برهـات، وساعة فضاء المكان (القرية الكونية- الأمـداء الفضائية- رقعة اليابسة -بساط الأفـق) أو تضيّقه (تويجة قرنفلة- قلامة غصن- قطرة مطر- قصاصة ورق)، عـبر قنـاة مسطرة الـذوق النقـدي بثقله النوعـي المتسلـح بمتوالية إدمـان رياضة القراءة باستنطاق النص واستخراج مكامنه ومدخراتـه بشقيهـا العدديـة والهندسية واستطاعتهمـا، تعضدهـا لسعـة جمرات موقد التجربة المتأججة في جدلية الحضور والغياب، الوجود والعدم، السكون والحركة، المـادة والفراغ مع إلقـاء نصف نظرة ثاقبة علـى فـن الخطابة الـذي يقـوم بمنطقه التجريـدي على ظاهـرة التصويت شفاهاً وسليل أرومته النثريـة (ق.ق.ج) الذي يقوم بمنطقه التجسيدي (الكلمات) على ظاهرة التصويـت تحبيراً، متخطين عن سابق عمد وقصـد عتبة فـن كتابة الخاطـرة والمقالة وأخواتهمـا لتماهيهمـا مع جنـس القصة القصيرة جداً بمسلك السرد تسميةً فقط.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- منصة الشعر

تشعبت وشائج الصلة والملاقاة بين قصيدتي النثر والومضة والقصة القصيرة جداً على عدة محاور تعتلي المقدمة -الأكثر مضاءً ورفعةً- منها ثلاثة فقط لها من دلالة الثوب والمحتوى، الشكل والمضمون، الداخل والخارج، محورية المرمى وهدفية الثقل والضغط نوجزها بعجالة واقتضاب.

أ- الشعرية:

من أبجديات المنطق النقدي الإقرار القطعي بضرورة توافر الجرعة الشعرية بمرتكزها الإبلاغي الفاره في فرعي الإبداع المدرجين أعلاه القصة القصيرة جداً من هنا وصنوف مسرودات القص من هناك وذلك بتوجيه الراكبة القلمية إلى مريض (الإنزياح) Displacement بمفهوم المصطلح الغربي و(العدول) بمفهوم المصطلح الشرقي عبر إطلالة المجاز (Metaphor) بشطريه البديع والبيان المتجسد بأرصدة الأول (التورية -الطباق- الجناس- المقابلة) وأرصدة الثاني (التشبيه- الاستعارة-الكناية) من خلال استبصار ثاقب ومخيلة افتراضية وثّابة وتشوّف اختراقي سبّاق.

ب - عدم فراعة القامة:

تتمظهر عدم فراعة القامة - تمشياً مع عصر السرعة وطاقم تخلقاته المذهلة- بالقصر الملحوظ في المقاس، وضآلة الحجم بعدم الاكتظاظ في المعجم المفرداتي وذلك بالتعويل على الإضمار والاقتصاد والتقنين والارتكان لأصالة الجوهر وصميمية الفحوى وتجذير أوتادها دون فتح صنبور الكلم على مصراعيه بالاستفاضة اللفظية، وحشو القول وفضلته، وسقط متاع الإطناب، يضاف إليها الانتخاب المفرداتي الحذق والسبك الرائق المنمق الأنيق طراوة ولدانةً ورصانةً بمهارة أسلوبية وأبّهة مظهرية وتوظيف تشكيلي بهي خالب.

ج- المفارقة:

من أهم روافع النموذجين المقارن بينهما (القصة القصيرة جداً وقصيدتي النثر والومضة) المشار إليهما بالولاء ووفرة المجتنى عنصر المفارقة أولاً بشقيه المضموني والشكلاني، المضموني بالتسديد على دريئة المعنى الظاهري للفعل بينما المقصود المعى اللاطئ في جوف الباطن، والشكلاني بتصادمات الأضداد (contrast) المتأتية من فلسفة قيام أعمدة الوجود على الثنائية، برونقها الخارجي ومحمول دلالتها المكتظ بالانبثاق والفجاءة قصدية الإبهار الصاعق والمغنطة المرتجاة والانخطاف المكهرب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣- منصة التشكيل

بالحفر في باطن طبقات المصاهرة بين القصة القصيرة جداً والتشكيل (التصوير) بمسبار الذائقة البصرية (حاسة الرؤية) أو قل: بالعودة إلى عقر دار الفصيلين تتكشف نقاط إسناد جامعة تتبلور في النظام اللوني الماثل في هندسة البناء المفرداتي، والنظام المفرداتي الماثل في بناء هندسة اللون، من منطلق المقولة الدوارة على ألسن مناطقة الفن (اللفظة لون ناطق واللون لفظة صامتة) أولاً وبالتقتير اللفظي الضاغط على فيوض الإسراف في القص يقابله الجنوح إلى التجريد في النص التشكيلي وذلك بالإمساك بزمام اللون والخط وتوظيفهما باقتدار جمالياً بمعطى تجريدي مرمز دون الإسهاب برصف العناصر المجسدة بتراكم عددي وتراكب بنائي بطرائق المنهج الواقعي ومدرسته الأقدم العاجّة بالتشخيص التفصيلي ثانياً، إضافة إلى الموسيقى التدرجات اللونية (التونات) التي تقابلها موسيقى جرس تلاصق الحروف وتضافرها وخاصة سلسلة المخرج منها في الكلمة، وموسيق تجاور وتراصف الكلمات الصائتة في الجملة معرجين بتوسيع فتحة الفرجار قليلاً إلى فن النحت والعمارة بمصافحة سريعة لوضع الإصبع على نواة تشابه بين

حوارية مفردة النحت والعمارة (الكتلة) بتباين حجومها مع الفراغ وحوارية مفردة القصة القصيرة جداً (الكلمة المكتوبة) مع البياض وإن اختلف مقلع الاثنتين وإيلاء تقلبات طقس الحال وفق شحنة اليد المبدعة قسطاً من المقايسة والجدال بين الملامسة والخشونة في الأولى والكثافة والسيولة في الثانية والتصوير الضوئي (المتأرجح بين بين) المتقاطع مع القصة القصيرة جداً باللقطة البؤرية المركزة لقبس من تجليات وجوه موشور الحياة الجمالي، وزاوية الرؤية المفصلية المنتخبة، والمتناظر معها أيضاً بتجميد اللحظة المنظرية الإيجابية المنسلخة من جسد سيرورة عقرب الوقت لتوقع الباصرة والقلب في قفص ديمومة الإنشداه مع إطلالة ضوء شاحبة الطيف على (الفن التطبيقي) نخص التطريز منه أنموذجاً، فكما يقوم فن القص على الرسم بالكلمات يقوم فن التطريز على الرسم بالخيوط وإن تأرجح النعت في الفنيّن بين اللون المنبث في الخيط والنوع المنداح في الكلمة دون أن نغمط الموضوع حقه والتصوير حرارة موقده وعنفوان مؤداه واللذين كثيراً ما يكونان بكامل أوصافهما واختلاف أدواتهما محط راحلة الائتلاف وقطب توجهه.

٤- منصة الموسيقى

تآخت الذائقتان البصرية والسمعية في كنف حديقة الفنون الجميلة بقطوف أجناسها والتي اعتمدت قانون الأواني المستطرفة في الإحالات والتداخل دستور تعامل رافضةً كل الرفض منطق الاندماج والانصهار الكليين الذي يبهظها تبنيه فاختصت الأولى بالمرئي وتقلبت بين يديّ القصة القصيرة جداً والثانية بالمسموع وتقلبت بين يديّ الموسيقى مجسدتين خصائص التقارب والتوازي بين الجنسين، فالأدبية في نص القص السردي من خلال مكوناتها الصوتية الداخلية والخارجية (الكلمة والجملة) والموسيقى من خلال النغمة السابحة في ملكوت السمفونيات بتوزيعها الهرموني أو المقاطع الموسيقية (السكتشات) نقطتا تجاذب وتلاقح ترفدهما خصيصة الرؤيا الحلمية في صليات الموسقة، والاستبصار الحدسي في ترسيخ جماليات النص ونهوض مداميكه تتويجاً لمقولة حق يراد لها الإشهار والشيوع والإذاعة (اللون والكلمة والنغمة أقانيم تتبتل في محراب واحد وتطوف حول كعبة واحدة) فالنغمة كلمة، والكلمة نغمة لأن كلتيهما من مساق أزلي (في البدء كانتا معاً) ومنزع وجداني دلالي، ومقطع صوتي واحد وإن تباينت حال التشيؤ في الصورة والهيولى

ومزيـة الطـيران الحـر في الأولى والأقل حريـة في الثانيـة دون أن نبخس فن الغناء بثالـوث سطوعه (خامـة الصوت- مساحة الصـوت- التلوين الانسيابـي في الانتقال في المقامـات) والرقص- انصهار الجسد مع الـروح- (بالتشكيل الجمـالي- التقانة الفنية- تناسبية الإيقـاع مع الحركة وزخم مهاراتها التعبيريـة) حقهما في بضع قبلات شفيفه متبادلة مع جنس القصة القصيرة جداً لأنهما والموسيقى من فصيل فني واحد تمسدهـا في بحبوحة التجـوال والتموضع ساقية شحيحة بقطرات التماثل بالكاد تبل الريـق الذوقي وتقنع ملكـة المقارنة اسمها (فن التمثيل).

٥- منصة الدراما (المسرح- السينما- التلفزة)

تطل الدراما في ثلاثية العطاء المسرحي والسينمائـي والتلفزيوني مـن خلال صراع (conflict) الحيـوات وتـأزم الحـدوث واحتدامهـا وتسعـير جمـرات الأفعـال والسلوكات في محرق بؤري وتوتر تصاعدي تراقصـن في ملعـب قفلتها شظايـا قنبلة انفجـار الصدمـة (trauma) والصعـق الشعوري (سلباً أم إيجاباً) مما ينقش بصمة استمراريـة الأثـر وديمومته علـى صفحة تضاريس (أنا) المتلقي النفسية بينما هي في القصة القصيرة جدّاً أصداء ضوء، وهمسة حنجرة، وظِلُ قامـة، وطيف شكل فيها من الكهربـة رعشة، ومن المغنطـة نبض، ومن القشعريـرة خلجة، ومـن الجس لمسة، ومن الجنون مس، يشـدد أزرهما عبق التصوير المنبجس من أدبية المدونة السردية الناهضة على المجـاز في القصة القصيرة جداً وعبق اللوحات المشهدية المتضوعة ألقاً وبوحاً في الدرامـا حيث يعول في ظاهـرة الاستنشاق والشميم على رشاقة وخصوبة حاسة الحدس في الأولى وتوهـج وحدّة البصيرة في الثانية مع الإمساك بمقود ميسم الأفكار المتواشجة بـين الاثنتين في جـلّ الأحايـين، وإن كان لجملة مربعات رقعة الشطـرنج الإبداعية ومستوياتهـا الجمالية بهدفهـا التصويبي ومخططها المعلوماتي مرقـد دفء وروابط وصـال وقاسـم اشتراك وطبـاع غبطة من الصعوبة بمكان أن تتجاوزها راصدة التلقف الآني اللحظـي والقـادم المستقبلي العادية منهـا والمدربة حتى لـو اعتورها خيط من الإنهاك، أو مزقة من التخبط، أو شذرة من الضعف والبعثرة والخَوَرْ.

موباسان من الفانتاستيك إلى الجنون.. الهورلا نموذجاً

د. عبد الهادي صالحة ٥

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب الإبداع القصصي عند الكاتب الفرنسي غي دوموباسان الذي يعتبر من أبرز ممثلي المذهب الواقعي الطبيعي لا بل أكثرهم واقعية، بيد أنه رغم اغترافه من الواقعية الطبيعية فقد مال إلى اللاواقع وشغف في التعبير عنه لا بل اشتط في رسمه، وسخر قسماً كبيراً من قصصه لتصوير هذا اللاواقع المطبوع بروح الخوف والتشاؤم والقنوط واليأس حيث تتوق نفسه إلى التحرر والهروب

٥ أديب وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

من عالم المنطق والعقل والانضباط وإلى إطلاق سراح الخيال.. ولقد وصل هذا العشق للتحرر إلى حد اهتمامه بالجنون وبالأمراض العقلية والارتماء في أحضان الغيبوبة وفقدان الوعي والشعور والهذيان والهلوسة.

تطلق تسمية «الفانتاستيك le fantastique» الخارق للواقع على مؤلف مبني حول موضوع بروز اضطراب وتشويش ما مفاجئ في عالم الواقع المألوف والعقلاني. ويترافق هذا الاضطراب مع الشك الذي غالباً ما يشترك فيه القارئ والشخصية والذي يبقى دائماً ومستمراً على طول القصة حول طبيعة هذا الاضطراب والتشويش. وهذا العنصر المشوش يمكن أن يكون شبحاً، أو ميتاً حياً، أو تمثالاً يتحرك، أو قريناً، أو أي عنصر ما فوق طبيعي. يعرف بيير كاستيكس الخارق للواقع في الأدب بأنه الشكل المبتكر الذي يأخذه العجيب عندما يستحضر الخيال الأشباح التي يصادفها أثناء شروده المنعزل، بدلا من تحويل فكرة منطقية إلى أساطير، هذه الصور ليست سوى تمثيلات مختلفة للشيء ذاته. إن العنصر المشوش لا يحتاج إلى أن يكون منشؤه من عالم ما فوق طبيعي، ولا حتى أن يكون خارجا عن الشخصية؛ بل يمكن أن يشكل والشخصية كياناً واحداً.

حظي الأدب الفانتستيكي في السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً لدى القراء والنقاد وظهرت دراسات عديدة وانطولوجيات متنوعة وسلاسل أدبية خاصة بهذا النوع الأدبي.. نشأ الفانتاستيك وترعرع في الرواية، ثم انتقل إلى القصة وجرب فيها أهم تمثلاته للشرط البشري من خلال كبار مؤسسيه، أمثال هوفمان، وتيوفيل غوتييه، وبروسبير ميريميه، وإدغار آلان بو، وغي دو موباسان، وبرام ستوكير، وهنري جيمس، ولوفير كرافت، وفرانز كافكا الذين دشنوا أدبا فانتاستيكيا جديدا يتجذر في الخيال، ويشتغل بآليات جديدة ومواضيع مختلفة: بناء لعبي للحبكة، تجاوز لقوانين السببية الزمكانية، تجاور أو اختلاط الموضوعي بالذاتي، الاشتغال على الأسطورة وتوظيفها لتفسير الحالات النفسية الخاصة.

بدأت موجة الخارق للواقع في فرنسا في ١٨٢٠ وازدهرت في القرن السابق الذي «ترجع إليه موجة الإشراقيين (عنوان كتاب نشره نرفال في ١٨٥٢) والمنومين المغناطيسيين مثل سويدنبرغ ومارتين دو باسكوالي وسان مارتان ولافاتير ومسمر ومغامرون مثل جيرمان وغالغليوسترو الذين فتنوا العقول

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

على الرغم من ولعهم العام بالعلوم العقلانية.. ففي عام ١٧٧٢، نشر جاك كازوت «الشيطان العاشق» وهي قصة خيالية بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى مارست تأثيرها على تيوفيل غوتييه وجيراردونرفال وشارل بودلير. وكشفت مدام دو ستال في وقت مبكر في فرنسا شعر الشاعر الألماني نوفاليس والأساطير الجرمانية، وهذا الأدب بأكمله مليء بالحلم والتصوف. وأراد شاتوبريان رد الاعتبار إلى التقليد المسيحي للخارق، والذي كان احتقر منذ القرون الوسطى. وترجم نرفال فاوست للشاعر الألماني غوته.. وافتتن الرومانسيون في قلب الفترة الرومانسية بما فوق الطبيعي.. وعكف العديد من الكتاب الفرنسيين على الخارق للواقع تحت تأثير هوفمان أولاً، ثم إدغار بو الذي ساهم بودلير بترجمة أعماله، وكذلك تحت تأثير الروايات الإنكليزية السود للكتاب والبول Walpole وراد كليف Radcliffe أو لوفيس Lewis، المليئة بالأشباح وبالأخيلة، وبالقصور المسكونة، وبالسراديب وبالدهاليز المشؤومة والمكتنفة بالأسرار. ولقد اشتهر في هذا المجال أوجين سو (١٨٠٤- ١٨٥٧) وبول فيفال (١٨١٧ - ١٨٨٧) الذي كان للشيطان ولمخلوقاته دوراً جوهرياً يلعبونه في كتاباتهم. ووجد

جيل الشعراء والأدباء الذين ولدوا في بداية العصر وكانت تسيطر على نفوسهم مشاعر القلق والخيبة من العالم المعاصر وجدوا في الخارق للواقع ملجأ ومهربا إلى عالم ما ورائي... وأدى تقد م الرومانسية إلى مزيد من الاهتمام بمثل هذه المواضيع الصالحة للتعبير عن القلق الميتافيزيائي.. لقد خضعت الأجيال الرومانسية الأولى والثانية بشكل واسع لهذه التأثيرات، فظهر الخارق للواقع- كما أسلفنا - في الأجناس التقليدية مثل الرواية وفي الشعر ولكنه دخل أيضاً وبشكل خاص الحكاية أو القصة.. وكان القاص شارل نوديه (١٧٨٠- ١٨٤٤)، أول من التزم وسار على هذا الطريق. وبنشره «laVenusd>ile» (١٨٣٧) و«Lolis» (١٨٦٩)، أصبح ميريمييه أستاذاً حقيقياً في فن الخارق للواقع حيث لعب على تردد خالد بين الواقع وما فوق الواقع. أما باربيه دوروفيلي في شيطانياته ses diaboliques ١٨٧٤ وفيليه دوليل آدام في قصصه الأليمة contes cruels (١٨٨٣) فقد استعملا هذا الجنس للتعبير عن رفض أنوف ومستفز لعالم كان يبدو لهما قد ساخ في الترهات المبتذلة للحياة اليومية الرتيبة السطحية. ثم تحرك الشعراء الرمزيون بسهولة ويسر في عالم يتجاور فيه الغموض والحلم وعلوم السحر والتنجيم والتنبؤ بالورق أو الكيمياء. ويعرف رامبو ولوترىامون، كل على طريقته، في الإشراقات «illuminations» لرامبو أو «أغاني مالدورو» إلى المناطق الأكثر غموضاً وسحراً في الحياة النفسية. وتابع الكتاب السورياليون مثل آندره بروتون خاصة في كتابه «نادجا» هذا الاستكشاف في سراديب اللاوعي.

جاءت قصص موباسان الخارقة للواقع إذاً في فترة اتسمت بانتشار كبير ومتماسك لهذا النوع الأدبي أثناء هذه العقود الأربعة الممتدة من ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ ؛ وهي ترجعنا إلى مفاهيم «روح نهاية قرن» و«تحول قرن» التي تؤثر بشكل رئيسي على اختيارنا ،وتمثل هذه المرحلة عصراً انتقالياً ولد ظواهر انقطاع، وتوحي أيضا بفكرة تجديد استعمال تعبير «تحول قرن» من قبل النقد. على الصعيد التاريخي، وسمت نهاية قرن في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بتوازن نسبي للسلطات: التعزيز النهائي للجمهورية ،عهد الملكة فكتوريا وإعادة البناء الأمريكية إثر حرب الانفصال. حيث يستمر التصنيع وتبدو الحياة السياسية مأسورة باهتمامات اقتصادية ومالية: حمائية (مذهب حماية الزراعة أو التجارة أو الصناعة من المنافسة الأجنبية بفرض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسوم جمركية عالية على السلع المستوردة أو تحديد الاستيراد أو تشجيع التصدير) مع توسع استعماري وأشغال عامة على نطاق واسع، وتزايد وسائل الإنتاج.

وأخلت الغبطة (غبطة بدايات الثورة الصناعية) المكان للعلامات الأولى للاستيلاء النشيط للطبقة العاملة والزراعية في البلدان الثلاث ،وبدأت حركات إضراب ودفعت الحكام إلى التفكير باتخاذ إجراءات اجتماعية. وطبعت ولادة التنظيم النقابي، تقريبا في الفترة نفسها في الأمم الثلاث، بصعود قوي لطبقة العمال التي قلما مثلت حتى ذلك الحين. ومنذ بداية القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، حولت الاضطراب العمالي والإجراءات الاجتماعية تنظيم المدينة. ومنذ نهاية العصر هذه نجم عن ظهور الأزمات المتنوعة هذه خيبة أمل أثارتها الثورة الصناعية، والفكر الوضعي الذي يحركها والسياسة التي وافقتها. وبدأ الناس بإدراك صعوبات اقتصاد وضع على طريق الرأسمالية.

وفي فرنسا، فإن هزيمة ١٨٧٠ ومجازر الكومونة ١٨٧١، وأزمة البولنجية من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٩، وقضية تجارة جوقات الشرف في ١٨٨٧، وفضيحة قناة بنما ،واضطراب عدة فصائل ،وخصوصا الفوضوية ردعت الفنانين عن تعريض أنفسهم للخوض في الحياة السياسية.

أما في بريطانيا، فقد دفع العهد النفعي والمادي والبروتستاني المتزمت والفاضل للملكة فكتوريا نحو موقف انطواء فردي. باختصار، قدمت فوضى إعادة البناء الأمريكي واضطراب الحياة السياسية الفرنسية مشابهة أولية مع مشاعر الاستقرار والأمان: انعدام الأمن الموجودة في مفهوم أزمة الذات ،ولكن المشابهات تشهد أكثر على المستوى العلمي والفكري: مناخ أزمة وحركة اتهام جديدة أطلقت بانتشار النظريات التطورية الداروينية، وتشاؤم شوبنهور ورفض النموذج الوصفي وتطور العلوم النفسية. وبدا الإنسان والعالم محكومين بانحلال وبانحطاط ثم بنهاية محتومة، وبدت الأنا التي تكونه بعيدة المنال ومنقسمة ويستحيل ضبطها.

يضاف إلى هذه الاكتشافات تراجع ملحوظ جدا للإيمان الديني .هذه الأزمة طرحت ثانية للبحث المفهوم الذي يحمله الإنسان عن نفسه... إن نظرية التطور المقرونة بنظرية الوراثة، والتشابه والتماثل بين الجنون والعبقرية التي نادى بها لومبروزو، ونظرية الكوارث انتهت بزعزعة استقرار الفنانين،وخلقت فكرة عصاب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

غالبا ما ارتبط بأدب «نهاية قرن» وبالحركة المنحطة. في هذا العصر، أصبحت الأزمة الفردية موضوعاً رئيسياً ينظر العلم إليها ويعكسها مناخ تاريخي غير محدد وتغذيها سلسلة من الانقطاعات في المجالات الدينية والفنية والفلسفية. في الواقع، إن نظريات دارون التطورية ،والاكتشافات الفلكية والفيزيائية، ومذهب شوبنهور الفلسفي، ونظريات التحليل النفسي حول اللاوعي والأحلام والهذيان والعبقرية والعامل الوراثي أو التنويم المغناطيسي، وكذلك الاهتمام بتاريخ الحضارات والأديان غيرت بعمق المفهوم الذي يحمله الإنسان عن نفسه. وأعيد النظر بشكل متزامن بأعمدة الإيمان وبالعقل وأصل الإنسان وباستقرار وثبات الكون.

إن مجموع هذه الضربات الموجهة للنموذج الإنساني والاجتماعي الذي قلما اعترض عليه حتى الآن يوضح أزمة قيم لوحظت في مجالات متعددة .هذا الحضور الكلي للأزمة في مجالات وحقول للمعرفة الإنسانية المختلفة شجعت على التعبير المتميز الذي تستفيد منه في الأدب الوهمي لهذا العصر. وفي هذا السياق في وضع الأزمة ولد تمثيل الظاهرة النفسية في القصة الوهمية التي عكست الاضطرابات الخارجية وعبرت عن قلق وجودي ونقلت رؤية مختلفة عن الأنا، مألوفة وغريبة في الوقت ذاته، وضمت بالتدريج الجانب اللاواعي وغير المنضبط الذي يكونها.

وبالتالي، ولد هذا السياق الفكري تمثيلاً خاصاً وأصيلاً للأزمة نظراً لكونها تسبق الثورة الفرويدية. في ذلك العصر الانتقالي، أتاح شرح المعارف العلمية والباطنية تصوراً لاعقلانياً للعالم دون أن يقصى المتخيل أو ما فوق الطبيعي للنشاطات الوحيدة للفكر.. لقد أوضح، ونظر تطور التحليل النفسي مفهوم اللاوعي الذي صاغ أيضا ترتيبا للاضطرابات النفسية التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا .إن مفهوم «تحول قرن» الذي يتضمن فكرة انقطاع وتجديد، يظهر في تقنيات أدبية تتطور نحو ميزات القصة في القرن العشرين.

إن اكتشافات العلم الحديثة لم تجعل الإنسان أكثر حكمة ولا أكثر سعادة. بل على العكس، فإنها مالت إلى البرهنة على أنه ليس الساكن الوحيد للفضاء، ولكنه واحد من سكانه الأقل كمالا.. يعرض كامييه فلاماريون هذه النظرية في «تعدد العوالم المسكونة» (١٨٦٢) وفي كتابه «أراضي السماء (١٨٧٧)» يفترض كامييه أن سكان كوكب ساتورن شفافون، وأنهم سكان

مجنحون ويعيشون في مناخ أصفر برتقالي- هذه التفاصيل سيتذكرها موباسان وهو يكتب «الهورلا» و«الإنسان القادم من كوكب مارس». وفي عام ١٨٧٧يبرهن شياباريلي (عالم فلك إيطالي - ١٨٣٥- ١٩١٠) على وجود «قنوات» على هذا الكوكب واستنتجوا من ذلك بشكل طبيعي بأنها ابتكرت من قبل عقول ذكية. وأخيرا لاحظوا في السنوات الثمانين الأخيرة، في ألمانيا، ثم في تركيا، أغراض طائرة غير محددة الهوية وفكرة أنه يوجد «مركب كوكبي مقذوف في اللامتناهي من قبل كائنات مفكرة» (الإنسان القادم من كوكب مارس لموباسان) لا ينتمي إلى القرن العشرين..

نعم من الكواكب البعيدة يمكن أن ينبثق المنافس، خلف الإنسان: إنه لم يأتِ لخير البشرية، إنهم يتصورونه كهدام وليس كمنقذ.. يغرق هذا العصر إذاً في التشاؤم ويسيطر الشك وخيبات الآمل وتعظيم المشاعر المريضة ومعنى الانحطاط عليه ولقد عكس الفن ذاته هذا الشك وهذا الحزن وفي الموسيقى، تجاوبت التناغمات الرخيمة لغونود مع انطلاقات فاغنر المفرطة. وفي الرسم، قدم الانطباعيون رؤية مجزأة ومتحركة عن الواقع :وحملهم تفضيلهم نحو العناصر الهاربة، والسماوات المرتعشة والماء الجاري والظلال. وليس بعيدا عنهم، رغم الاختلاف الشديد عنهم عبررائيان مثل أوديلون وتشكيليا عن مؤلفات أو مواضيع تنتمي إلى مجال الخارق للواقع.. لقد أدرك موباسان ببصيرته النافذة التطور الجمالي لعصره وواكبه عن كثب رغم تمسكه بخصوصيته الجمالية.. لذا يمكننا القول إنه يمثل الحساسية الفنية المنحطة التي اتسم بها عصره.. ونصوصه -وخصوصاً منها الخارقة للواقع- تحمل آثار ذلك.. ولم تكن نتاجاته انعكاس عالمه الداخلي فقط، بل كانت تعكس أيضا، مثل مرآة مشوهة، وجه عصره.

مؤلفات وكتابات موباسان النظرية الخارقة للواقع

من «اليد المسلوخة la main d>ecorche»، النشر الأول لموباسان، إلى «من يعرف qui sait» في ١٨٩٠، لم يتوقف موباسان أبداً عن كتابة قصص خارقة للواقع. لا بل إنه درس «الخارق للواقع»[1] بشكل عام، في بضع صفحات موجزة وعميقة. كما عرض لنا موباسان أفكاره عن الخارق للواقع في قصة «الخوف» في عام ١٨٨٢ و١٨٨٤ وفي مقالات ثلاث، أهمها تحت عنوان بالتحديد «الخارق للواقع».. يبدو الخارق للواقع عند موباسان مرتبطا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالجنون وباختلال العقل المهزوم الذي تتناهبه تمثيلات وتصورات لا يستطيع السيطرة عليها. فمنذ قصصه الأولى درس موباسان تظاهرات الجنون، تلك التي كان يحللها الطبيب النفسي الكبير شاركو في استشاراته في مشفى السالبتريير... ترتبط مؤلفات موباسان الخارقة للواقع أكثر من أي إنتاج آخر بجذورها بالتربة الغنية لحياته الشخصية. إنها تعبر أفضل من أي مؤلف آخر عن تصوراتها ودوافعها ورعبها. ورث موباسان عن أمه التي كانت امرأة مريضة وزوجة مهجورة تعيش متنسكة- ميلها للبؤس وللتعاسة وطابعها الكئيب القلق ومرضها العصابي وشاطرها مبكراً شعوراً حزيناً بالهجر... وبعد عشرين عاما من انفصال والديه لم يستطع موباسان نسيان المشاهد الفظيعة التي كان يشهدها قبل أن ينفصلا، كما يعترف بذلك أحد شخصياته المثيرة للشفقة، الذي فاجأ والده ذات يوم وهو يضرب أمه: «كنت أحس بالانقلاب الذي يشعر به المرء أمام الأشياء ما فوق الطبيعية... لقد انتهى كل هذا بالنسبة لي. لقد رأيت الوجه الآخر للأشياء، الوجه السيئ.» هذا الاندهاش المرعب كان يشاطر به موباسان أبطال القصص الخارقة للواقع عندما كانوا يواجهون غير المقبول.

كان موباسان يتمتع بحساسية شديدة تختبئ بشكل دقيق تحت مظهر اللامبالاة، وحتى تحت القسوة، وفي وسط الملذات، يظهر لديه حزن مفاجئ وهيجان عصبي دون سبب وتشاؤم عند كل محنة. وكان يجهر قائلاً: «أنا من عائلة مسلوخين؛ ولكنني لا أقول هذا ولا أبديه بل أظن أنني أخفيه بشكل جيد جداً.»[٢] كما كان يردد باستمرار «في بعض الأيام، أشعر بالرعب من كل موجود لدرجة أنني أشتهي الموت.. وفي أيام أخرى، على العكس، أستمتع بكل شيء مثل حيوان»[٣] منذ ١٨٨٠ أخذ موباسان يعاني من اضطرابات بصرية. وفي العام التالي، فقد بصره لساعات. هذه الآلام كانت تترافق مع آلام عصبية مؤلمة لم يستطع التخلص منها، وكان الدواء الوحيد هو الأثير الذي يتبعه إحساس بالسعادة العميقة والنشاط الذهني الكثيف واللذيذ، إنه «الإحساس الغريب والساحر بالفراغ» الذي يحسه في كل جسده، جسد أصبح خفيفا، كما لو أنه «كان يتبخر» من الداخل هذا النوع من «التبخر» الخاص، يصبح له بسرعة غير محتمل. وعلى الرغم من العزاء العابر الذي سببه الأثير، كان ينتاب موباسان أكثر فأكثر شعور عميق بالقلق.. كان لديه انطباع بأنه ملاحق. وعندما كان ينظر إلى نفسه طويلاً

في المـرآة لم يكن يتعرف علـى صورته. كان موباسان يحب المـاء ويفضله على العناصر الأخرى. يقول غاستون باشلار: «إن الكائن المستسلـم للماء هو كائـن في حالة دوار،إنه يموت كل دقيقة، شيء ما من جوهره يجري دون توقـف»[٤] ويضـاف إلى ذلك تصورات حلمية، في «الهـورلا»، أيضاً، تحت سلطان الكائـن غير المنظـور، وكذلك تحـت تأثير المخدرات، يشعـر الراوي بتصورات غريبة: يرى «فراشة، كبيرة مثـل مئة كون.. يذهب من نجمة إلى أخرى، وهو يرطبها ويعطرها بالنفس المتناسق والخفيف لجريانه!» ولكن هذه الرؤية الرائعة، بعد أن سحرت البطل، فإنهـا ترهبـه. ومنـذ ١٨٨٢، أخذ يصاب بنوبات هلوسـة وبتوهم رؤية الذات تكررت في ١٨٨٧: «كلمـا عـدت إلى منـزلي، رأيت قريني». وفي عام ١٨٩١ يعاني موباسان من آلام في عينيه وأسنانه ورأسه ومعدته. وأخذ يشعـر أنه أصبح مجنونـا، وبأنه لم يعد سيد نفسه وكلماتـه. وكان ما يزال يأمل أن يجد عـزاء له في مدن مائية (villes d'eaux)، ثم على الشاطئ اللازوردي، بالقرب من أمه التي كان تسكن في نيس.

كان موباسان يشعر منذ زمن طويل بهذا التفتت التدريجي لكيانه الذي أفضى به في ١٨٩٢ إلى الشلـل العـام. وفي كانون الثاني ١٨٩٢- وفي سن الواحـدة والأربعين، وبعد عودتـه من بيـت والدته يحـاول موباسان الانتحـار فينـزع الخادم السـلاح من يده. ويدخل إلى مصح عقلي للدكتور بلانش، في باسي. وفي ٨ تموز ١٨٩٣ يموت موباسان.

تنتمي قصص موباسان الخارقة للواقع في الواقع جميعها ماعدا «للبيع»، و«النائمة l'endormeuse» و«الإنسـان القـادم من كوكـب مارسـ» إلى مجال الحلـم أكثر مما تنتمي إلى مجال الكابوس. هناك في قصصه الخارقة للواقـع بساطة مدهشة للموضوع: الإلهام يولد من تجربـة ذاتية، وعوضا عن أن يعالج موباسان الخارق للواقع كما لو أنه أتى من عالم خارجي وغريب، يبرزه ويخرجه لنا في فضاء مألـوف وداخلي... هو فضاء الوعي الذي هدمه الجنـون، كما يظهر لنا جليـا في قصة «الهورلا» (١٨٨٧) والتي هي موضوع دراستنـا[٥]. يتصف الخارق للواقع عند موباسان بثلاث ميزات أساسية: يستند الخارق للواقع عنده أولا على الواقع، ويتميز بتدخـل السـر في إطار الحيـاة الواقعية[٦] ويتناول الخارق للواقع ثانيا قصصا بسيطة وساذجـة تأتي مـن «براعة عالمـة» وتغرق القارئ في الشك والتردد..

أما الميزة الثالثة فهي -حسب موباسان- وكما يراها الكاتـب الأمريكي لوفكرافت[٧]

تحالفه مع الخوف. يشدد موباسان في مواضع متعددة على هذه النقطة.. هذا الخوف ليس نقص شجاعة أمام خطر حقيقي، ولكن شعور غريب وقوي أمام خطر غير مفهوم يهاجم الكائن بأكمله ويفتت قواه الحية.. يحتل الخوف، هذا المكون الأساسي والجوهري للخارق للواقع الذي يرافق الجنون ولا ينفصل عنه مكاناً مميزاً في مؤلفات موباسان. هذا الانجذاب الرهيب لـ «الخوف من الواقع»، «الخوف الغامض من اللامرئي، الخوف من المجهول»(٨) هذا الخوف ذاته الذي يصيبنا برعشات قلق وهلع - تعبر عنه بدقة شخصية من شخصيات حكاية «الخوف» بشكل أفضل: «عندما أخرج ليلا، كم أرغب بالارتعاش من هذا القلق الذي يجعل النساء العجوزات يرسمن إشارة الصليب على صدورهن على طول جدران المقابر، ويدفع إلى الهرب أخر المؤمنين بالخرافات والأوهام الباطلة أمام الأبخرة الغريبة المتصاعدة من المستنقعات والأوهاج المستنقعية العجيبة» وتستمر الشخصية بالقول أنه مع «ما فوق الطبيعي، اختفى الخوف الحقيقي من الأرض، لأن المرء لا يخاف حقاً إلا مما يجهله» والذي تعطينا تعريفاً رائعاً له شخصية أخرى من شخصيات حكاية «الخوف» (١٨٨٤):

«الخوف (والرجال الأكثر جرأة ينتابهم شعور بالخوف)، إنه شيء مرعب، إحساس فظيع، مثل تفكك الروح، وتشنج مرعب للفكر والقلب، حيث أن تذكره وحده يصيبنا بارتعاشات قلق(...) وهذا يحدث في ظروف معينة غير طبيعية، تحت بعض التأثيرات الغامضة، في مواجهة أخطار غامضة. هل الخوف الحقيقي هو شيء شبيه بتذكر رعب خارق للواقع مضى»(٩)

لعب موباسان دوراً أساسياً في تجديد الفانتاستيك وظهر من خلال مقاربته لهذا الجنس كاتباً حداثياً وخصوصاً في قصصه الأخيرة حيث يقارب اللاعقلاني من دون شرح أو تفسير، وكما لو أن الأمر يجري تقريبا من تلقاء ذاته... وهكذا بدا موباسان قريبا من كتّاب العبث الذين يصورون اليوم عالما مفككا لا يحكمه ضابط أو قانون...

ويمكن القول: إن معظم حكاياه الخارقة للواقع هي حكايا قلق نفسي وكرب وجودي، ليس فقط القلق العرضي الذي يشعر به المريض أمام حدث لا يفسر، ولكنه قلق وجودي عميق.. إنه قلق أمام سر الحياة والموت. تعتبر قصة «الهورلا» (١٨٨٧)، التي نتخذها نموذجا من أكثر القصص إيلاما وسحرا وجاذبية حيث تصور مأساة الهلع من الرعب الذي لا يتغذى من ظواهر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خارجية، ولكن من قلق مرتبط بالهشاشة النفسية للكائن البشري كما يظهر لنا جليا في هذه القصة حيث يستمد روحه وغذاءه من الدوافع الباطنية العميقة (الانحراف والشذوذ الجنسي وغريزة القوة في «مجنون؟» والتيمية في «الجمة». ولكن القصص التي سبقت «الهورلا» وحضرتها ومهدت لها الطريق نوعاً ما، هي سلسلة قصص مرتبطة برابط موضوعاتي واضح في «الخوف» حيث يقبل موباسان فرضية وجود اللامنظور، اللامرئي الذي تغوص فيه مجموع الحياة الإنسانية، ويعتبر الإنسان -حسب رأيه- لعبة في أيدي قوى غامضة ينكشف وجودها في الحوادث الغريبة ؛ يعيش موباسان في قصصه- كما أسلفنا- تجربة تراجيدية للخوف حيث يتساءل: «لماذا نخاف؟» «ماذا تخبئ هذه المعتقدات والخرافات والمفهوم ما فوق الطبيعي للعالم؟» (الخوف) ويستفيد الكاتب من كل هذا ليبرر مجموعة من الأفكار المتأثرة بالحنين لقرن فنتازي وخيالي وجمالي. زد على ذلك فإن نزعته العلمية الواثقة في بداياته فسحت المجال شيئا فشيئا لموقف أكثر تمييزا حيث يظهر تأثير أفكار منتشرة رائجة ترتبط بالخفي: إذا كان العلم يحمل لنا نتائج أكيدة، فإنه لايمكن أن يضئ سوى جزء من الواقع، ذلك الجزء الذي يقابل اتساع وامتداد حواسنا. وينسحب الأمر كذلك على قصص «ظهور» و«هو؟» و«الجمة» التي تعالج جميعها وجود كائن ما فوق طبيعي، هذا الوجود يظهر تقريبا دائما مزيفا في النهاية.

العنوان

.الهورلا Le Horla هو اسم منحوت من مقطعين «Hors» التي تشير إلى الخارج والبعيد عن الناس، بينما «La» تشير إلى المكان القريب... وتصف توترا بين الداخل والخارج، بين الحاضر والغائب.. أطلق موباسان هذا الاسم الذي لا يحيل دلالياً أو مورفولوجياً إلى أي شيء محدد أو معروف على كائن خفي لا منظور... إنه يمثل كائنا لا يخاف التقهقر، ولا الانحلال، ولا التدمير. لا يمكن إدراكه بوساطة الحواس كاملة فهو شفاف ذو جسد مجهول، وروح وشبح.. وجوده ثابت يعلن عنه من خلال ظواهر خارقة للواقع..

الحدث

تروى القصة التي يجري حدثها في زمننا المعاصر على شكل يوميات خاصة والتي تؤرخ بشكل محدد (من ٨ أيار حتى ١٠ أيلول) ولكنه حدث ذو فجوات، وبدقة مزيفة، ولا يوجد إشارة للسنة... بطلها إنسان عطال وميسور الحال وسعيد ولكنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مختل عقليا يشهد بشكل مرعب غزو فكره من قبل استيهام ازدواجية الشخصية.. يسجل هذا الشخص المقتنع تماماً بأن كائنا غير منظور وقوي يسكنه، كائناً شريراً يجرده من إرادته، يسجل لنا اضطراباته وأحلامه وأدق حركاته ليفهم ما يحدث له وليدفع وليطرد بعيدا عنه هذا الهاجس.

يبدأ السارد بالحكي عن شعوره بخطر يحدق به.. ومن شدة فزعه، يحلم بكابوس كل ليلة، حيث يرى كائنا يأتي لخنقه.. الشيء الذي يدفع به إلى البحث عن علاج له في الطب والسفر.. وعندما يعود إلى بيته يعاوده الكابوس المرعب ثانية. فيتأكد السارد بأن الكائن الخارق يشرب الماء والحليب أثناء نومه المضطرب والمتقطع. يقوم السارد بزيارات إلى باريس تساهم في نسيانه هذه الكوابيس والهلوسات. ويحضر عشاء عند ابنة عمه حيث يتعرف على الدكتور بارانت، وهو اختصاصي في التنويم المغناطيسي.. هذا الأخير يعلن أن الاكتشافات العلمية الجديدة ستدمر -حسب رأيه- الاعتقادات بالخوارق، ومن جملتها الاعتقاد بالله.؟! ولإظهار براعته، يخضع الدكتور بارانت قريبته لتجربة التنويم المغناطيسي، ويطلب منها أن تقرض قريبها مالا في صباح الغد، ويوقظها بعد ذلك. تنفذ القريبة الأمر في صبيحة الغد. وكان لزاما تدخل الدكتور بارانت لإلغائه.

هذه التجربة خلخلت السارد، الذي بدأ يبحث عن المتعة خارج بيته الذي يعود إليه ويظن أنه شفي من هلوساته. لكن أثناء جولة في حديقته، يرى ولأول مرة أن الكائن الخارق يصبح شيئا مرئيا...حيث يرى يداً خفية تقطف الورود... يمتلئ قلبه فزعا لهذا المنظر. فالسارد يحس شيئا فشيئا أن الكائن الخفي يضيق عليه ويحبسه، فيفرض عليه إرادته ورغباته، ويمتص كل طاقته. ولدى قراءته لمقال علمي حول الظواهر التبعية الجماعية بالبرازيل، يعتقد السارد أن الهورلا جاء على متن سفينة شوهدت على نهر السين منذ ثلاثة أشهر.. فيخطط لتدمير هذا الكائن، فيحرق منزله وبداخله الخدم...

منذ السطور الأولى للقصة التي تبدأ بمشهد وصفي/سردي يمهد لأحداث دخول الكائن يحيلنا المؤلف إلى العالم الداخلي: مستوى السرد الذاتي ويتمثل في ضمير المتكلم المباشر. مشاهد سردية لا ينتظمها سياق زمني ولا سياق مكاني. تنتمي بعض المشاهد الزمنية إلى الماضي وينتمي بعضها الآخر إلى الحاضر، وأيضا تنتمي بعض المشاهد المكانية إلى الماضي والبعض الآخر

إلى الحاضر. وينحصر الخطاب السردي في موضوع الحكاية التي يعتمد عليها الراوي في تشكيل البناء السردي. فهي حكاية شخصية منعزلة يغزوها كائن غير منظور. فالعلاقة بين الحكاية التي يستند عليها الراوي والقص المروي هي علاقة تقاطع كما هي في العلاقة الزمنية بين القصة والحكاية المروية كما أشار (جنيت). فأحداث ابنة عمه ورحلاته جزء من النسيج القصصي الذي اعتمد عليه الراوي وهو جزء مكمل لسرده الخاص في تراتب أحداث القصة وتصعيدها سواء بتراتب زمني أو مكاني بالنسبة إلى مركز أو بؤرة الأحداث المروية.

هذا الاعتراف أو التحليل الذاتي لحالة جنون و/أو استلاب من قبل قوة خارجية عن الراوي وشريرة تضع أمامنا قصة ذات إلهام خارق للواقع لا يمكن فصلها عن مناخ نهاية عصر منقسم بين الوضعية المنتصرة والتي ترتكز انتصاراتها الفلسفية على التقدمات المدهشة للعلم الحديث، وعودة قوية لكل المكبوت اللاعقلاني (موجة المدنية للمغنطة والإخفائية والتوصيفية لعلم الفلك الباطنية «ترافقت مع حركة الإحياء المسيحي(...) وارتبط رفض العالم الصناعي مع ردة الفعل ضد هذه الوضعية.»[١٠].

«الهورلا» والقرين

إن أهم المواضيع الرئيسية التي تميز عالم موباسان الخارق للواقع: ازدواجية الشخصية، استقلالية الأغراض، وغياب الركائز الزمكانية، ولقد أجمع كتاب السيرة الذاتية لموباسان أنه كان يصاب بهلوسات يرى من خلالها قرينه. وخارج هذه الشهادات المحددة، يحمّل المؤلف ذاته أثر هذا الحدث مع أول نص «دكتور هيراكليوس جلوس»، أو أيضا مع قصة القلق لهلوسة في «هو؟». وموضوع القرين هو في طور التكوين في قصة «على الماء» و«مجنون؟» يقول موباسان: «الأنا المقدامة عندي تسخر من الأنا الجبانة، ولم يحدث لي كما حدث ذلك اليوم حيث لم أدرك التناقض بين الكائنين القابعين بداخلي، أحدهما كان يريد، والآخر كان يصمد»[١١].. «أمتلك قوة فظيعة، ربما نستطيع القول: أن كائنا آخر مسجون بداخلي، ويريد باستمرار الهروب(...) نحن اثنان حلا في جسدي المسكين، إنه هو،هذا الآخر، الذي غالبا ما يكون الأقوى، مثل هذا المساء»[١٢]. ولكن في «رسالة مجنون» و«الهورلا» يأخذ هذا الكائن بعده الحقيقي: «كائن غير منظور» وهو يتعلق بالوحش وبمصاص الدماء، وبالشبح، وبالقادم من كوكب آخر -يجسد الآخر، يعني ذلك الكائن ذاته الذي يهدد

هوية البطل وهو يبحث عن الحلول مكانه- وبشكل خاص، يريد أن يسرق منه صورته. هذه الذات الأخرى/هذا الهو الآخر (أو على الأقل، هذا الآخر الذي يريد الاستيلاء على ذاته والذي يكتشفه راوي «الهورلا» أمام مرآته يشكل، حسب رأي ماكس ميلنر، جزءاً «من بنية الوجوه الأبوية وذلك بقوة انتمائه إلى جنس كائنات أعلى مقاما وقوة تتلاعب بمصير الجنس البشري»؛ وهذا لا يبقى دون نتيجة إذا تذكرنا أن البطل وجد ملجأ أمومياً في بيته: «لا يمكن للعلاقة الثنائية مع الأم،مع خطر الابتلاع الذي تحمله، لا يمكن لهذه العلاقة أن تنقطع بشكل سعيد إلا بالالتحاق باسم الأب، الذي يدخل الطفل في نظام اللغة والقانون. ولكن الهورلا لا يحمل اسما(...) والصورة الأبوية هي مكان فارغ، وبهذا الفراغ يشعر البطل نفسه مهددا»[١٣] هذا الفراغ هو الذي سيلتهم ظله... وتجدر الإشارة إلى أن هذا الإثبات لا يشكل سوى حلقة من سلسلة، ولكن ربما تكون الأكثر إلحاحاً – لظاهرة المغنطة التي تجذب الراوي إلى محاكمات دقيقة لتحديد سحر الريح، والغوايات المضللة للسوائل العصبية؟ زد على ذلك، فإنها تظهر الأدوات الأكثر تعذيبا في «الهورلا»، أدوات النهاية والسيطرة على الإنسان من قبل قوة خفية غامضة. ..حسب رأي مسمر Mesmer، أن «الشرط الأول للمغنطة، هو الإرادة»، ينجم عنها، مرة أخرى أيضا، أن هذه القدرة الإرادية هي فخ يستولي على الآخرين وهو يأخذ بمجامعهم – لدرجة أن هذا السائل الفتان من جهة أخرى يخضع لسيطرته ممغنط قصة «مجنون؟» إن السلطة الماكرة الخادعة التي يمارسها التنويم المغناطيسي تمثل الجدلية العامة للنتاج الموباساني: جدلية الفخ (الخديعة) الذي اجتذب بطعم بوساطة قوة لا يمكن إمساكها، وكذلك بوساطة هاجس، أو من خلال الآخر الذي يفرض نفسه (المرأة على سبيل المثال).

يقيم الهورلا قطيعة بين امتداد الواقع وتمثيله من قبل الذات المدركة، ويقدم راوي «الهورلا» خطاباً متناقضاً حول وضع الإدراك الحسي للواقع الإشكالي، ويبرهن على عجز الحواس الإنسانية على إدراك مجموع وجوه هذا الواقع... هذه التأكيدات التي تبرر -حسب رأيه- إمكانية وجود غير منظور تبقي الشخصية رغماً عنها منشطرة بين نقص حسي (حواس ناقصة وعاجزة) وإفراط يعني تطور زائد للإدراك الحسي. يقول الراوي إن حواسه مشحوذة ومتأهبة وخصوصاً أمام حالة إنذار حسي يثيره الرعب.هذا الشعور بالقوة الحسية الزائدة

يعمل كقوة ما فوق طبيعية، ويمنح الشخص طاقة وقدرة فوق بشرية، وتتحول هذه الحدة سريعاً إلى قوة ساحرة وإلى صفاء ذهني زائد عن الحد وطاقة رؤيوية.. إن نمط الإدراك الحسي هذا يقع في قلب إشكاليات الذات وعلاقتها بالعالم. وتستخدم الشخصية أو تبدو تؤمن أن إثارة مفرطة للحواس تسمح لها برؤية غير المنظور. ونستطيع القول أن كل مغامرة خارقة للواقع عند موباسان تبدأ على مستوى الإدراك الحسي وأنها أولاً إدراك حسي تائه لم يعد يستطيع أن يتوافق بشكل موضوعي مع الواقع. هذه الفكرة الدائمة حول نقص وعجز حواسنا هي حسب رأي موباسان الحاجز الوحيد الذي يفصلنا عن ما فوق الطبيعي.. إن موضوع عجز الحواس الإنسانية وإمكانية عيش تجربة حدة حساسية حسية عالية تدفع وتثير إذاً الشخصيات الرئيسية عند موباسان لإعداد نظرية ترمي إلى البرهنة عن ظهور كيانات غير منظورة. وبالتدريج وبشكل منهجي، يتمكن موباسان من إيصال القارئ إلى الإيمان بوجود كائنات غير واقعية وشريرة: «لماذا، كيف يحدث هذا؟ هل يعرف المرء السبب؟ ولكن ماذا يعرف المرء؟ كل شيء غامض. نحن لا نتواصل مع الأشياء إلا بوساطة حواسنا البائسة، الناقصة، العاجزة، الضعيفة جداً لدرجة أنها بالكاد تمتلك القوة للتثبت مما يجري حولنا»(١٤) «حقيقة على الأرض، خطأ في مكان أبعد، أستنتج من هذا أن الأسرار التي نستشفها مثل الكهرباء، والتنويم المغناطيسي، وإنفاذ الإرادة، والإيحاء، كل هذه الظواهر المغناطيسية لم تعد خافية علينا، لأن الطبيعة لم تهبنا، ولم تزودنا بالعضو، أو بالأعضاء الضرورية لنفهمها»(١٥)

تخضع قصة «الهورلا» بشكل دقيق لقواعد صارمة ومحددة، وتجدر الإشارة أن القصة الخارقة للواقع ليست نتاجا هوسياً لعقل مريض، ولكن نتيجة عمل معقد انطلاقاً من مخطط معين ومحدد الذي يمثل هذا الجنس الأدبي. إن فروض القصة الخارقة للواقع هي كذلك لدرجة أنه يستحيل أن يوجد تصادف ما بين العناصر العميقة التي تتكون منها هذه القصص وبين الاضطرابات المحتملة لكاتبها. ولهذا السبب يصمم بعض النقاد الكبار على رفض مقولة أن «الهورلا» هي تمثيل وتصوير لحالة سريرية وخصوصا أن موباسان تابع بجد دروس الطبيب شاركو في مشفى السالبيتريير مثابرا في ١٨٨٦ و١٨٨٧ حول الهستيريا، والتي كان الناس في الأوساط الباريسية المستنيرة كثيراً بدؤوا بالعلم بأبحاث فرويد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلمـاء نفـس آخرين مـن فيينـا، وهذه الأبحاث لم توضع مع ذلك في متناول الجميع إلا في وقت لاحق جدا. وبتخليه عن الشكل التقليـدي للقصـة أصبح موباسـان أحد أساتذة الخـارق للواقع الحديث... بيد أننا لا نستطيـع أن ننكر أن موباسان استفاد من تجاربه الخاصـة ودمجها في كتاباته، وعمل علـى توظيفهـا، مثل جنون أخيـه الأصغر (هـيرني)، واضطرابه العقلـي، لقد مسرح موباسـان في «الهورلا» كمـا في العديد من حكاياه، شخصاً مجنوناً، ومن المعلوم أنه هو نفسه أصيـب باضطرابات ذهنية ومات في الظروف التي تحدثنا عنها، إذا ربما يصف لنـا ويمثـل ويصور جنونـه الخاص به بما لا يقبل الجدل والشـك. واهتم مثل معظم معاصريه بالتطورات العلمية، وخصوصاً في مجال التحليـل النفسي، وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب الطبيعيين أولوا جانباً واسعاً من مؤلفاتهم لتحليل حالات سريرية. ويجوز لنا أن نقول إن هذه القصة تشكل خرقا لقواعد التصوير الواقعي الأكثر بدائية، أو لتمثيل عصاب صاعق الذي ربما يشكل حالة فريدة في حوليات التحليل النفسي. ويمكن اعتبار النـص القصصي الخارق للواقع الموباساني تجـاوزاً فنيـاً للواقعية التي كانـت عنوان عصره الأدبي، وليس انعكاساً فقط لظروف التجربة التي عاشها أواخر حياته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

1- Le Gaulois - octobre- 1883 .

2- Maupassant, «A une inconnue», 1890, cite par A.Lumbroso, Souvenirs sur Maupassnt (Slatkine,1981,p.223).

3- Maupassant, «Sur l'eau», Albin Michel, 1954-P.85-

4- Gaston Bachelard, «L'eau et les reves», Josi Corti, 1942- p.9.

5- Maupassnt ,«Le Horla», édition presentée par Andre Fermigier, Gallimard, 1986 5 –

6- p. g. castex –le conte fantastique en France de Nodier a Maupassant j.corti, 1951,p.8

7- H.P.Lovecraft,Epouvante et surnaturel en literature (traduction de B.De Costa, Paris,1969 –

8- Maupassant, «la Peur, Apparition», Gallimard Flammarion, p.98

9- Maupassant.«Contes de la becasse.Preface de J.Chessex.Commentaires et notes de L. Forestier».

10--Jean Yves Tadie. «Introduction a la vie litteraire du xix siecle. Bordas.1984.p.118

11-Maupassant .«La Maison Tellier». preface. commentaries et notes de P.Wald – Lasowski.p.8

12-Maupassant. «la Peur. Apparition».ibid. p.112

13-Max Milner. «La Fantasmagorie». P.U.F.1982. pp.11313 114-

14-Maupassant. «Un fou ?. Apparition». Gallimard. Flammmarion. p.1112

15-Maupassant.«Lettre d'un fou». Le Horla «Gallimard. Flammarion. p. 38»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مكتبة: «تشيستربيتي» تحفة «دبلن» الخالدة

محمد مروان مراد ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على خليج واسع مطّل على البحر الأيرلندي، تنهض مدينة «دبلن» عاصمة جمهورية أيرلندا، شامخة بأوابدها الشهيرة: القلعة التاريخية، والمتحف الوطني للفنون، وجامعة دبلن الكبرى التي تأسست عام ١٥٩٥م باسم كلية «ترينتي» ولابد أن تقفز إلى الذاكرة عند الطواف بتلك المعالم وجوه أعلام الأدب الإنكليزي المعاصر الذين تركوا بصماتهم المبدعة في سجل الفكر العالمي: «جوناثان سويفت» (١٦٦٧-١٧٤٥م) الكاتب الساخر الذي خلّدته

٭ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

«رحلات جليفر» والشاعر المسرحي والغنائي «وليم بتلرييتس» (١٨٦٥- ١٩٣٩م) والذي أسهم في الحركة الوطنية الأيرلندية من خلال مسرحياته، والروائي الشهير «جيمس جويس» (١٨٨٢- ١٩٤٢م) مؤلف رواية «يوليسيس» الخالدة.

ثمة شخصية موهوبة نذرت جهدها ومالها للحركة الثقافية من خلال ميدان آخر تجسّد عملها في جمع التراث الأدبي العالمي، واحتضانه في ركن فسيح بالجامعة الأيرلندية، ليبقى في عهدة أمينة تتولى إحياءه ووضعه في خدمة الباحثين والمؤلفين من كل أنحاء العالم.. وفي ذلك الركن تتربع مكتبة «تشيستر بيتي» بمكنوزها من المخطوطات والمصاحف النادرة القادمة من أركان العالم الأربعة..

من هندسة التعدين إلى جمع المخطوطات:

الفرد تشيستر بيتي، مؤسس المكتبة التاريخية العامرة، ايرلندي الجنسية ولد في مدينة «نيويورك» الأمريكية عام ١٨٧٥ وتعلّم فيها.

وفي عام ١٨٩٥ انتسب إلى كلية هندسة التعدين في كولومبيا حيث تخرج بتفوق عام ١٨٩٨، وفي شتاء العام نفسه غادر نيويورك متجهاً إلى دنفر في ولاية كولورادو التي كانت وقتئذ مركز صناعة تعدين النحاس الأمريكية..

أهم شيء كان يتميز به، هو أنه كان يتمتع بقدرة عالية على الحكم الجمالي ويحسن الحكم على القيمة الفنية للصورة أو الرسم أو الخط.

وقد أصبح تشيستر بيتي جامعاً للمخطوطات في جدية واهتمام منذ عام ١٩١٣ إثر زيارة قام بها للشرق الأوسط، فقد عثر مصادفة على مجموعة كبيرة من المخطوطات الإسلامية التي كانت معروضة للبيع بأثمان زهيدة، سواء لشدة حاجة صاحبها الأصلي إلى المال أو لأنه لم يكن على درجة من الوعي بحيث يقدّر قيمتها أو أهميتها.

ومنذ تلك اللحظة أقبل تشيستربيتي على شراء المخطوطات والأعمال الفنية العربية والفارسية والهندية.

ولم يكن يقتصر على جمع الطبعات الأولى فقط، بل إنه كثيراً ما كان يشتري الكتاب بسبب تجليده أو ما يزينه من رسوم..

كذلك لم يهتم بشراء مخطوطات عصر معين، بل إن مجموعاته المختلفة أصبحت تضم ما يبرز تاريخ الحضارة ابتداءً من عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد وحتى اليوم..

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ومن أقـدم ما نجح في الحصـول عليـه: مجموعة ألـواح الطـوب البابليـة، وأوراق الـبردي المصريـة واليونانية، ومنها على سبيل المثال صحيفـة من البردي كتبـت في عهـد رمسيـس الخامـس، وهـي تمتـاز بأهمية خاصـة لأنها تضم بعض أغاني الحب المصرية القديمة في نصوصها وهي كاملة تماماً..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكـن أشهـر مجموعة مـن أوراق البردى في مكتبة تشيستربيتي هي الصحائف التي تضـم الكتاب المقدس باليونانية، وقد اكتشفـت في الفيوم المدينة المصرية العريقة حيث كانت مدفونة في مكان كان من قبل سرداباً لكنيسة قديمة، وحصل عليها تشيستربيتي من بائع في القاهرة عام ١٩٢٩، ولكنـه لم يعلن اكتشافه على العالم إلا عام ١٩٣١ عندما تأكد من صحتها- وطبعاً كان البائع لا يعرف قيمتها أو قدرها..

وفي فـترة الانتظار كان علمـاء الكتاب المقدس يفحصـون أوراق الـبردي بسرية تامـة لتحديد تاريخها وعمرها، وقد اتضح بالفعـل أن أوراق البردي هذه كانت أهم فئة مـن المخطوطات المتعلقـة بالكتاب المقدس التي اكتشفت منذ اكتشاف قانون سيناء عام ١٨٤٤، واتضح أيضاً أن أجزاء سفر التكوين التي حصل عليها تشيستربيتي كانت أقدمها في الوجود..

البداية من القاهرة:

في شتاء عام ١٩١٣م وصل بيتي وزوجته الجديدة إلى مصـر للمرة الأولى، وقد أسرا تماماً بجمال وادي النيل وآثاره الأسطورية، ووجدا المناخ ملائمـاً جداً فقررا شراء بيت

هنـاك بحيث يتمكنان من قضـاء كل شتاء فيه. وقد بنى بيتاً بالقرب من الأهرام فيما بعد وأحاطـه بالجنائن وبساتـين البرتقال وأطلق عليه اسم «البيت الأزرق».

وكان من عادات بيتـي أن يتمشى حول الأسـواق وفي أحياء القاهرة القديمة، وكان يصادف أثنـاء هذه الجولات عـدداً كبيراً من المخطوطات القديمـة المتعددة الأنواع، وكان يجـد في دكان صغير هنـا على سبيل المثال نسخة من القرآن كتبت لأحد سلاطين المماليـك، أو ربما رسالـة في الجفر مزيناً بالرسـوم الغريبة التي سبق أن أعدت لمكتبة اسطنبـول الملكية، وقد يجد هناك في زاوية مكتبة قديمة يغطيها الغبار نسخة قيمة من ديـوان حافظ أو سجـلاً مرقعاً من الرسوم من بلاط الإمبراطور الهندي جهانكير.

لقد وجد بيتي كل هذا وأكثر، إلا أن الشيء العجيب هو أن عدداً ضئيلاً جدّاً من الناس كان يبدي أي اهتمام بهذه النفائس الموجودة أمـام أنوفهـم. فقد كان أغلـب الأوروبيين الذيـن يهتمـون بجمع المخطوطـات (...) الغربية الوسيطية على الأعمال الإسلامية. أمـا السبب في ذلك فبسيط بطبيعة الحال، إذ كانت الدراسات الإسلامية آنذاك لا تزال حقلاً علمياً جديداً، كما أنه بغض النظر عن المستشرقين الذين كانوا يعملون في المتاحف الكبيرة، فـإن عدداً صغـيراً من الجامعين كان يهتـم اهتمامـاً خاصـاً بالمخطوطات الإسلامية، وهكذا فقد كان من السهل على بيتي أن يشتري روائع المخطوطات والأعمال الفنية بأبخس الأثمان.

وبهـذه الطريقـة بـدأ بتكويـن إحدى أدق المجموعات الخاصـة من المخطوطات الشرقيـة، ورغم أن بيتـي لم يكن قادراً على قراءة سطر واحد مـن أي من المخطوطات التـي كان يشتريها، إلا أنه استطاع أن يكوِّن مكتبة ينـدر أن تضاهيها مكتبات أخرى في أي مكان في العالم.

روائع التراث من أسواق الكتب:

لم يقتصر بيتي على شـراء المخطوطات مـن القاهـرة، لأنه بعد عودتـه إلى أوروبة بدأ يبحث في أسواق الكتب في لندن وباريس للحصول على المؤلفـات العربية والفارسية التي كانت تظهر من حين لآخر.

وقـد نال مساعدة كبـيرة بالمشورة التي كان يسديها إليه «إدوارد إدواردز» الذي كان يعمل آنـذاك في قسم المخطوطات الشرقية في المتحف البريطاني، وكان لبيتي وإدواردز طريقة في الشراء مكّنتهما من الحصول على أعمال نادرة كثيرة، فحـين كان وكلاء بيتي ينصحونـه بشراء كتاب مـا، كان يدفع ربع الثمـن أو ثلثه كعربون، ثم يعطي الكتاب إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إدواردز لفحصه، فـإذا نصح إدواردز بيتي بشرائه بادر بدفع بقية الثمن.

وكان لبيتي عـدة وكلاء يعملون لحسابه في الشـرق، ولعـلَّ أشهر اثنـين منهم كانا ساركيسيـان، وهو تاجر كتب أرمني، وا.س. يهودا، مستشرق يهودي من شمالي أفريقيا.

وكان لسركيسيان محل في شارع سليمان باشـا في القاهـرة، وقـد أصبـح مخزنـه أحـد مراكز الشرق الأوسط لشـراء وبيع المخطوطـات الشرقية وكانت له خبرة كبيرة في هـذا الحقل وكان يشتري أحياناً مكتبات بكاملهـا ثم يعرض ما فيها من نفائس نادرة على بيتي.

أما ا.س يهودا، فقد اشترى لحساب بيتي ما يزيـد على الألف مخطوطـة، أي بعبارة أخرى، ما يزيد على ثلث المجموعة الحالية من الكتب والأعمال العربية.

وقبـل أن ينتقل بيتـي إلى أيرلندا عام ١٩٤٩م أودعـت المكتبـة في منزله اللندني «بارودا هاوس»، وفي خـلال الفترة الواقعة بـين عـام ١٩١١ و١٩٤٩م كان بيتي يسمح لمستشرقـي العالم على اختـلاف جنسياتهم بفحـص ودراسـة مخطوطاتـه بـكل دقة وتفصيـل. وأكثر من هذا، فقـد شغل كبار علماء العصر على حسابه الخاص في تدوين وفهرسة ونشر وطباعة مجموعته.

كنوز التراث الفكري في مكتبة «شيستر بيتي»:

(١) المخطوطات العربية الإسلامية:

لا بد وأن تمتلـك الدهشة كل من يزور مكتبة «تشيستر بيتـي» وبشكل خاص حين يطـوف بمجموعات المخطوطـات العربية والإسلامية النادرة وتتألف هذه المخطوطات التي نسقها وفهرسها المستشرقان ا.ج.أربري من كامـبردج. والألماني باول كاله، من ثلاثة أنواع: نسخ قديمة جـداً، ومؤلفات فريدة، ومخطوطات نسخت بيد المؤلف نفسه.

هناك مثلاً نسخة تعود إلى أوائل القرن الثالث عشـر من «صور الأقاليم» من تأليف الأصطخـري (٣٤٠هـ/٩٥١م) وقد زينت بخرائط دقيقة، ومؤلف غير معنون للكاتب الأندلسي المعافري المالقي (المتوفى ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م) يحتوي على مقالات لنساء شهيرات كعائشة بنت طلحـة وأم الدرداء من دمشق الشام المشهورة بعلمها في الفقه وعلم الكلام، والشاعرة ليلى الأخيلية مع بعض أشعارها، وهناك أيضاً مخطوطة نفيسة لفهرست ابن النـديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م) ونسخة من «أدب الكاتب» لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦هـ/٨٨٩م) مخطوطة بيد ابن الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) وهنـاك عمل فريد عـن مشاهير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رجال مدينة إربل «تاريخ إربل» للمستوفي الأربلي (المتوفى ٦٢٧هـ/١٢٢٩م).

وتحتوي المكتبة أيضاً على نسخة من المقامات الحريرية تحتوي على حاشية كتبت بيد المؤلف أبي محمد القاسم الحريري (المتوفى في ٥١٦هـ/١١٢٢م) ومؤلف نادر لكاتب مجهول عن البيزرة بعنوان «كتاب البيزرة» الذي كتب على ما يبدو للخليفة الفاطمي العزيز (المتوفى في ٣٨٣هـ/٩٩٣م) وهناك كتاب عن النحو نسخة الجغرافي الشهير ياقوت (المتوفى في ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وقد كتبه في مرو، كما نرى من الخاتمة: «وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان في عشية الأحد لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان (سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م) ياقوت بن عبد الله الحموي المولي الرومي الأصل..» وهناك أيضاً مخطوطة عن السيمياء والعلوم الصوفية وتشير خاتمتها إلى أنها نسخت في قلعة مصياف في سورية (٦١٥هـ/١٢١٨م) بيد القائد أبي فراس بن القاضي نصر.

وخلافاً للمخطوطات المكتوبة في العالم العربي نفسه، هناك مخطوطات عربية أخرى من عدة بقاع أوروبية وأفريقية، فهناك مثلاً: كتاب نادر في العقائد بعنوان «عقيدة ابن إصبع الغرناطي» وكان صاحبه الأندلسي قد وهبه إلى مسجد «سويفة الدوح» في غرناطة قبل القرن الثاني عشر الميلادي، وتضم المكتبة أيضاً عملاً رائع التجليد مزيناً بالرسوم من أفريقيا الغربية بعنوان «كنوز الأسرار في الصلاة على المختار» للشيخ عبد الله الخياط بن محمد الهاروشي المغربي، ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب قد نسخ لأحد الأمراء المسلمين في أفريقيا الغربية في بداية القرن التاسع عشر.

المخطوطات الفارسية - ٣٠٠ مجلد:

إن الميزة الفنية لمجموعة تشيستر بيتي لاتقل أهمية من دون شك عن الميزة الأدبية، وفي الواقع فإن تاريخ الفن الإسلامي بكامله يمكن دراسته من المخطوطات الموجودة في المكتبة - من القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورغم الاعتقاد السائد حول تحريم الإسلام للرسم والتصوير الشكلي، إلا أن فن تزيين المخطوطات بالرسوم ازدهر في العالم الإسلامي طيلة العصر الوسيط، وخاصة في بغداد العباسية، والقاهرة المملوكية، وإيران الصفوية، واستانبول العثمانية.

ومن بين البلدان الكثيرة التي كانت تهتم بفن الرسم يمكن اعتبار إيران أهمها قاطبة، ومن المعروف أن المخطوطات كانت تزين بالرسوم التوضيحية في عهد السلاجقة، وحتى قبل ذلك، كما نرى مثلاً من مخطوطة

«ورقـة وكلشـاه» في متحـف طوبقابـو في استانبـول، رغم أنه ليس مـن المحقق فيما إذا كان أصل هـذه المخطوطة من إيران أو الأناضول. ومع ذلك فـإن معرفتنا بالرسم الفارسي لا تبدأ إلا بعد الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر.

ويوجد في مكتبة تشيستر بيتي نسخة من بستان سعدي مزينة برسوم يفترض أنها من عمل «بهزاد» في شبابه.

والمخطوطة على أسلوب «بهزاد» وتنمّ عـن دقة متناهيـة في التنفيـذ وحيوية في الحركـة وتوازن في الألـوان كما أنها تظهر الملامح الشخصية الفردية للوجوه.

وقـد ازدهرت خارج البلاط الملكي عدة مدارس محلية للرسوم ولعلّ أطرافها وأهمها المدرسة التركمانية التـي وجدت في القرن الخامس عشر.

ويوجـد في مكتبـة تشيسـتر بيتـي مخطوطات عدّة من هـذه المدرسة، أبدعها وأدقهـا جزء من كتاب يدعـى «خاورنامه» وقد نسخ عام ١٤٨٠. ويحتوي على قصص أبطال الإسلام الأولين وخاصة أولئك الذين يتصلون بالإمام علي، والصور في حجم كبير غير اعتيادي وقد رسمت بألوان زاهية جداً، وهي ليست مثقلـة بالتفاصيل الدقيقة كما تميل بعض المنمنمات الفارسية إلى ذلك.

وبالإضافـة إلى المخطوطـات الفارسية التي جمعت لمزاياها الفنية، فقد تم الحصول على عدد كبير من المخطوطات الأخرى من أجل نصوصها، فهنـاك مثلاً نسخة قديمة جداً مـن رباعيات عمر الخيام مؤرخة عام ١٢٥٩م.

وهي تعتبر مـن أقدم النسـخ المعروفة للرباعيات وقد قام ا.ج. أربري بنشرها عام ١٩٤٩، وهناك قاموس طبـي فريد بعنوان «المجموعة المبـارزة» تمّ نسخه عام ١٣٨٩م وكذلـك توجد ترجمة فارسية مشهورة جداً لكتاب يحتوي على أقوال منسوبة إلى الإمام علي تمّ نسخه عام ١٣٢٩م.

المخطوطات التركية - ١٧٠ مجلداً:

المعلـوم مـن المصـادر التاريخيـة أن السلاطين الأتراك كانوا يشجعون التصوير وأن بعضهـم كان يستعـين الأوروبيـين والإيرانيـين ليعملوا عندهـم في استنبول. فقد استدعى محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) الرسـام الإيطـالي «جنتيلـي بيلليني» إلى استانبـول حيث رسم صـورة السلطان التي تشاهد اليـوم في المتحف الوطني في لندن. وهناك رسام إيراني وهو شاه قولي كان يعمل في بلاط سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ثم أصبح وزيراً أعلى لدى السلطان.

ورغـم عمـل الفنانـين الإيرانيـين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والأوروبيين المهاجرين فقد نشأت مدرسة وطنية للتصوير بعد حين في تركيا، أطلق عليها اسم «المدرسة العثمانية» وكان مركزها القصر الملكي، لأن الأغلبية من المخطوطات التي زينت بالرسوم في تركيا كانت تنتج للمكتبة الإمبراطورية، ويوجد في مكتبة تشيستر بيتي عدة مخطوطات من المحتمل أنها أنجزت للسلاطين ولعلَّ أشهرها «سليمان نامه» و«زبدة التاريخ».

أما كتاب «سليمان نامه» فتأريخ لفتوحات السلطان سليمان القانوني، وقد كتبه «لقمان عشوري» عندما كان شاهنامه جي السلطان، أي «مؤرخه الرسمي» ويحتوي الكتاب على ٢٥ صورة رائعة تظهر جميع تفاصيل عمليات سليمان العسكرية، وفي الحقيقة فقد تخصص المصورون الأتراك في هذا النوع من المخطوطات، ويبدو كتاب سليمان نامه في كثير من الوجوه كسجل فوتوغرافي للعصر.

أما الكتاب الثاني «زبدة التاريخ» فقد ألفه «لقمان عشوري» وهو يشتمل على تأريخ العالم من آدم حتى العهد الإسلامي، وقد قام بتزيين هذه المخطوطة المؤرخة عام ١٥٨١م بالرسوم المصور الشهير «صنعي» الذي يحتمل أنه رسم كذلك خريطة العالم الرائعة التي تظهر في المخطوطة أيضاً.

المخطوطات المغولية الهندية – ٧٤ مجلداً وسجلاً مصوراً:

كان من نتائج غزو «بابر» لهندوستان تغلغل الحضارة الإسلامية في الهند، وكان «بابر»، حفيد تيمور، و أخلافه رعاة كبار للفن والأدب وقد شجع كثير منهم فن الرسم بوجه خاص، ولعلَّ أهمهم في هذا الحقل الإمبراطوران أ كبر (١٥٥٦-١٦٠٥م) وجهانكير (١٦٠٥-١٦٢٨م). وكان أحد أهداف «أكبر» إحياء مدرسة للرسم، ولتحقيق هذه الغاية فقد أنشأ معهداً ضمَّ أكثر من مئة فنان هندي يعملون تحت إشراف فنانين من إيران، وكان المعهد يحتوي كذلك على عدة مخطوطات فارسية مزينة برسوم كبار الرسامين أمثال «بهزاد».

وفي نهاية القرن السادس عشر نشأت مدرسة وطنية حقيقية للرسم في الهند المغولية كنتيجة للتأثير الذي مارسه فنانو كشمير وكجرات والبنجاب.

ومن المخطوطات التي زينها بالرسوم فنانو بلاط الملك «أكبر» كتاب «أكبر نامه» أي سيرة أكبر، وتوجد نسخة منه في مكتبة تشيستر بيتي. وهناك احتمال كبير أن النسخة الرائعة الموجودة في المكتبة تمَّ إنجازها للإمبراطور نفسه.

وخلال حكم «جهانكير»، ابن أكبر، ازدهر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فن تصوير الشخصيات، وهناك عدة رسوم شخصية لجهانكير، إما لوحده أو محاطاً برجال بلاطه.

وكان الكثيرون من رجال الحاشية يقلدون الإمبراطور بحيث أخذوا يكلفون الرسامين بعمل صور شخصية لهم أيضاً، ويوجد في مكتبة تشيستر بيتي ألبوم يحتوي على رسوم عدة رائعة وصور من بلاط «جهانكير» أتمها كبار رسامي العصر أمثال: بدارث وبجتر وفرخ بيكك وكوردهان وأبو الحسن، ويوجد في الألبوم صورة رمزية بديعة رسمها أبو الحسن الذي منحه جهانكير لقب «نادر الزمان». وتظهر هذه الصورة الإمبراطور واقفاً على كرة موضوعة على ظهر ثور، ويرتكز الثور على سمكة كبيرة.

ويوجد فوق رأس الإمبراطور ملاكان أحدهما يحمل سيفاً، والآخر يحمل ثلاثة سهام، وفي هذه الصورة يمكننا أن نرى براعة الفنانين الهنود الممتازة في حقل رسم الصور الشخصية، وهو حقل كانوا أسياده بدون منازع.

ورغم أن إيلخانيين المغول الذين حكموا إيران كانوا أجانب، إلا أنهم بذلوا ما في طاقتهم لتشجيع ازدهار الرسم في تلك البلاد. وكانوا يكلفون الفنانين بتزيين كتاب الفردوسي العظيم الشاهنامه بالرسوم، وهو مؤلف ظل بعد ذلك مصدر الإلهام الرئيسي للرسامين الفارسيين.

وأشهر نسخة من كتاب الشاهنامة تدعى «ديموت شامه نامه» كانت قد نسخت حوالي عام ١٣٤٠م وربما في تبريز، التي تعتبر رسومها من روائع الفن العالمي، ويوجد حوالي ستين صفحة من هذه المخطوطة النادرة، منها تسع صفحات في مكتبة تشيستر بيتي، وقد يكون من الجدير أن نذكر في هذا المجال أن صفحة واحدة من هذه المخطوطة بيعت عام ١٩٦٩ في لندن بثلاثين ألف جنيه.

وفي نهاية القرن الخامس عشر بدأ عهد جديد في الرسم الإسلامي تحت رعاية «حسين ميرزا» حاكم هرات في شرق إيران، وكان أحسن رسام في ذلك العهد كمال الدين بهزاد.

مخطوطات ولوحات فنية نادرة:

كانت مكتبة تشيستر بيتي تضم في فترة ما عدداً كبيراً من المخطوطات الغربية إلا أن أغلبها بيع بعد وفاة السير تشيستر بيتي عام ١٩٦٨..

والباقي منها له أهمية قصوى، فعلى سبيل المثال يوجد «كتاب الساعات» الرائع الذي كتب بأمر من عاشق الكتب الكبير

الأمـيرال كوتيفـي الفرنسـي حـوالي عام ١٨٤٥م.

وهـذا الكتاب عبـارة عـن ١٤٤ لوحة جميلة في حجم صغير جداً قام برسمها كبار فناني بدفورد. ويقال إن الأميرال كوتفي كان يأخذها معه في رحلاته..

كذلـك تضم مجموعـة تشيسـتر بيتي مخطوطـات أرمينية لها وضـع خاص لدى المؤرخـين نظراً للمركز الـذي كانت تحتله أرمينيا بين بيزنطـة والعالم الإسلامي، وقد نجـح القادة المسلمون فعـلاً في نقل الرسم البيزنطي إلى مراكز التأليف والمخطوطات في عواصم العالم الإسلامي..

وتعـود روائـع هـذه المخطوطـات إلى القرنـين الثالـث عشر والرابـع عشر، وقد زين بعضها برسوم أعظـم الرسامين، ومن بينها أيضاً عدد كبـير من المخطوطات من أصفهان، وفيها أيضاً خمسون مجموعة من المخطوطـات الأثيوبية التـي زينت برسوم «منمنمـة» كثيرة وكلهـا ذات طابع أفريقي قوي..

وهنـاك مجموعة صينية عبارة عن ١٧٠ صحيفة منها ٣ مجلدات من موسوعة قديمة كانـت قد ألفت بأمر مـن الإمبراطور العالم «تشيين لـونج» «١٧٥٦-١٧٩٥م» وبلغ عدد مجلداتهـا ألفـي مجلد، وقـد حفظت هذه المجلدات في المكتبـة الإمبراطورية في بكين إلى أن قامـت ثـورة البوكسر عـام ١٩٠٠م عندما أحرقت البنايـة أثناء المعارك، وبعد الحريق تمَّ إنقاذ بعض المجلدات ونقلها من الصين، وبالتالي استطـاع تشيستر بيتي أن يشتري ثلاثة مجلدات منها.

وهناك أيضـاً تعويذة سحرية بوذية من القرن الثامن عشر كتبت على ورق وأحيطت بمعبد مصغـر، ولها أهمية كبيرة حيث أنها أقدم أنموذج معروف لنص مطبوع.

والمجموعـة اليابانية تحتـوي على مئة صحيفة ملفوفة من الرسوم، ولبعضها قيمة صناعية خاصة لأنهـا تحتوي على تسجيل لعمليـات زراعـة الشـاي وصناعة الحرير وكذلك معلومات عن التعدين والمناجم.. وهنا تنعكس اهتمامات تشيستر بيتي الأصلية، إذ إنه بدأ حياته كمهندس تعدين..

وهناك ما يقرب من الألفي عمل مطبوع باليابانيـة بالإضافـة إلى عـدد من الكتب المطبوعة بالكليشيهات الخشبية، وتمثل هذه الكتب جميع عظماء فن الطباعة اليابانيين من أمثال هوكوزاي، وهيروشيجي، وأوتامارو وغيرهم..

جواهر المصاحف الشريفة:

إضافـة إلى كل الكنـوز السابقة تحتوي المكتبـة على نخبـة بديعة مـن المصاحف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النفيسة من أنحاء العالم الإسلامي ابتداءً من الأندلس حتى الصين، ومن أغلب العصور التاريخية.

ولا شك أن أشهر المصاحف الموجودة في المكتبة، النسخة التي نسخها الخطاط العظيم «ابن البواب» في بغداد عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، كما يتضح من الخاتمة: «كتب هذا الجامع علي بن هلال بمدينة السلام سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة، حامداً لله تعالى على نعمه ومصلياً على نبيه محمد وآله ومستغفراً من ذنبه». وقد قال منظم فهرس مجموعة المصاحف، المستشرق آربري: إن مجموعة المصاحف في مكتبة تشيستر بيتي الفائقة في الحجم والجودة والتنويع، تضم نماذج مدهشة من كل قرن وكل أسلوب بحيث توضح بكمال يثير الدهشة تاريخ النسخ الفني للقرآن الكريم.

كان تشيستر بيتي مشهوراً بالكرم خاصة فيما يمس الكتب والمخطوطات، ولكن قمة كرمه وسخائه أنه عندما توفي عام ١٩٦٨م وهب مكتبته بأكملها للأمة الأيرلندية.. هذه المكتبة التي تضم الآن أكثر من اثني عشر ألف مخطوط وعمل فني..

وستظل بطبيعة الحال كنزاً عظيماً للحضارة الإسلامية وترحب دوماً بالباحثين من جميع أنحاء العالم ليقوموا بدراسة ثروة الآداب العربية المحفوظة بين جدرانها، ويفيدوا من معينها الثر، بعد أن يعيدوا إليها الألق ونبض الحياة.

المصادر

- كنوز مكتبة تشيستر بيتي: ديفيد جيمس- ترجمة. محمد علي حشيشو
- نوادر المخطوطات الإسلامية في مكتبة دبلن: د. حسين مؤنس- مجلة الهلال القاهرة.

حوار العدد

التخت الشرقي: ميدان آخر للمرأة السورية

إعداد: عادل أبو شنب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن يعزف الرجل على آلات موسيقية.. مسألة مألوفة، لكن أن يتألف تخت شرقـي موسيقي من نساء سوريـات، فها هنا المسألة الجديدة، حتى لا نقول غير المألوفة، مع ذلك نشأت فرقة للتخت الشرقي النسائي في سورية، قوامها نسـاء فقط، تقودها السيدة «وفاء سفر» العازفـة على الناي، ومن عناصره ديمـة موازيني العازفـة على القانون، وأخريات يعزفـن على الرق والكمان والعود وغيرها، وذلك يشكل ظاهرة جديدة متحدية.

أديب وقاص سوري

إنهـا فرقة مثـيرة، خاصـة وأنها زارت الصين واليونان والإمارات وهولندا وألمانيا، واستقبلت استقبالاً رائعاً.

وإنـه ليسعدني ألا أحـاور المشرفة على هذا التخت الشرقـي النسائي السيدة وفاء سفـر فقط في «المعرفة» لهذا الشهر، بل كل عضوات الفرقة ديمة موازيني ورزان قصار ورحـاب عـازار وسيلفي سليمـان مطربة الفرقة.

* * *

العازفات والآلات..

السـؤال الأول إلى السيدة المشرفة على الفرقة وفاء سفر:

- هـل عرفتنـا علـى فرقـة التخت الشرقي التي أنت تشرفين عليها؟

• هي فرقـة لا حظ للعازفـين الرجال فيها، فهي تتألـف من عازفات نسوة فقط، يتقن العزف على الآلات الشرقية المعروفة.

- ما هي هذه الآلات الشرقية؟

• هـي الآلات التقليديـة المعروفـة في التخت الشرقي، العود والقانون والناي والرق والكمان، وطبعاً هناك من تغني.

- من التي تغني، وعلى من توزع الآلات الموسيقية؟

ذكريات مع سعاد محمد

• سيلفـي سليمان هي التـي تغني الآن، والآن العازفـات هـن ديمـة موازيني على القانون، ورزان قصار على الكمان، ورحاب عـازار على العـود، وخصـاب خالد على الرق، أمـا أنا فأعزف على النـاي، وطبعاً هناك سيدات ومغنيات أخريات يعزفن على الآلات نفسها، لكن اللواتي ذكرت أسماءهن هن اللواتي اشتركن في حفلة مسرح الحمراء التي جرت في أواخر تموز عام ٢٠١١ بعنوان «ذكريات مع سعاد محمد».

ولقد جد السـؤال التالي، بعد أن ذكرت السيدة وفاء حفلتهن الأخيرة:

- ماذا عزفتن في حفلة المرحومة سعاد محمد؟

• عزفنا وغنـت سيلفي أغنيات معروفة لسعاد محمد: «أوعدك» و«وحشتني» و«فتح الهـوى شباك» و«من غير حـب» و«يا بخت المرتاحين» و«بقى أنت كده» وغيرها.

زيارات الفرقة..

ووجهـت السؤال هذه المـرة إلى عازفة الكمان رزان قصار:

- مـا هـي الفعاليـات التـي قدمتها الفرقة في الخارج خاصة، وكيف استقبلتن خاصة وأنه من غير المألوف وجود عازفات لا عازفين في فرقة عربية؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

• يمكن أن تستغرب ظاهرة العازفات في بلد عربي، ولكن في البلدان الغربية التي زرناها كان كل شيء عادياً، لأن تلك المجتمعات قد ألفت فرقاً موسيقية مؤلفة من نساء ورجال، بشكل مشترك، أو مؤلفة من جنس واحد أيضاً.

- ما هي الدول التي زارتها فرقة التخت الشرقي النسائية؟

• زارت الفرقة ألمانيا وإيطاليا واليونان وهولندا والصين.

ومن الدول العربية زارت الفرقة دولة الإمارات العربية المتحدة، وهناك رحلات إلى دول عربية وأجنبية قريباً.

إحياء التراث

وسألت خصاب خالد عازفة الرق:

- ما هي أنواع الموسيقى التي تعزفها الفرقة؟

• الموسيقى الشرقية، أقصد العربية، والتراث الغنائي العربي لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش والموشحات وخاصة التراث الشامي الأصلي. إن هدفنا هو إحياء التراث الموسيقي والغنائي العربي.

النساء لا الرجال..

وكان يدور في ذهني سؤال ألح علي فوجهته إلى عازفة القانون ديمة موازيني أولاً وهو:

- هناك حالات يصعب على النساء التعايش معها، العزف على القانون مثلاً، ونفخ الناي كمثل آخر، فكيف استطعن التغلب على هذه الصعوبة؟

• ربما لنثبت أن المرأة لا تقل عن الرجل، وهذا ما أثبته أنا بالعزف على القانون، الأذن الموسيقية واحدة عند الرجل والمرأة، والقدرة على العزف مميزة، يقدر عليها الرجال والنساء بالكيفية نفسها، أما النفخ في آلة الناي، فأحيلك إلى المشرفة على الفرقة عازفة الناي السيدة وفاء سفر.

وأجابت السيدة سفر:

• أستعير كلمات الزميلة موازيني، فالنساء كالرجال قدرة وأداء.

ظاهرة ملموسة

وسألت رحاب عازار عازفة العود:

- هل تشجعين المرأة، بشكل عام، على ممارسة العزف أولاً، وعلى الانضمام إلى فرقتكن ثانياً؟

• أشجع الفتيات على محاولة تعلم العزف، أما مسألة الانضمام إلى الفرقة، فهذه لها تقاليد، أهمها أن تكون المنضمة متقنة للعزف على الآلة التي تعزف عليها، وأستطيع أن أذكر بأن هناك موهوبات كثيرات في حكم المنضمات للفرقة، مما يعني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن موجة عـزف المرأة باتـت الآن ظاهرة مرئية وملموسة.

اشتد عودها..

- من هـو صاحب فكرة تأسيس هذه الفرقة؟

وهتفن جميعاً بصوت واحد:

• لا نعرف، لكن هـذه الفرقة حلم راوَد كثيرين، موسيقيين وإداريين حتى قيّض له أن يرى النور قبل ٨ سنوات، وقد ازدهر وصال وجال، وكان حصـاده عشرات الحفلات في داخل سورية وخارج سورية، في البلدان التي ذكرناها سابقا و سنزورها لاحقاً .

وقالت ديمة موازيني:

• لقد اشتد عود فرقتنا، وصارت حقيقة موسيقية معترفاً بها.

ووافقـت السيدة وفـاء على كلام ديمة وقالت:

• أن مستقبـل الفرقة منوط بالدم الذي يرفدهـا دائماً، حتى إن غيـاب عازفة من الفرقـة لأمور تتصل بحياتها الشخصية لن يزعـزع الفرقة، لأن ثمة رديفـات مهيئات للعزف أبداً.

سؤال افتراضي

وقلت:

- هناك سؤال خارج السرب، خطر لي الآن.

وقلن جميعاً:

• ما هو؟

قلت:

- هل هناك فكرة أن تتحول الفرقة، أحياناً، إلى فرقة مودرن تقدم موسيقى وأغاني حديثة؟

وحدث لغط بين العازفات، فقطعته بأن قلت:

- إنه سؤال افتراضي، لأنني أعرف أن فرقتكن هي فرقة تخت شرقي، والسؤال يعني خروجكن عن مبادئكن.

وقالت وفاء سفر المشرفة على الفرقة:

• مع أنه سؤال افتراضي، يؤسفنا أن نقول بأننا ملتزمات بأن نحيي تراثنا الموسيقي الشرقي، سؤالك يقود إلى فرقة أخرى، نحن بعيدات عنها.

حرج آخر الحوار

الواقع أنني وقفت في أسئلتي عند هذا السؤال الافتراضي، ولكنني حرت أية صورة ألتقط للعازفات والمغنية، لدقيقة أحسست بالحرج إذا ما سألت المشرفة صورتها، ولم آخذ صور الباقيات، أخيراً أحست ديمة موازيني بحرجي، وكنت قد وسطتها ووسطت أباها صديقي السيد حسان موازيني بأنني أريد صورة للمشرفة، فأفهمني الصديق أنه لا يقوى على طرح مثل هذا السؤال عليها، والجميع شاعرات بأدوارهن في الفرقة، ولم تطل حيرتي، فأخذت صورة تجمع العازفات مع بعضهن، (قدمت لي الصور ديمة شكراً) ورأيت أن ذلك سينجيني من الحرج، وهكذا كان.

• • •

أشادت صحف البلدان التي زارتها فرقة التخت الشرقي النسائية سواء في أوروبة أو في الصين أو في الإمارات بالفرقة، وعدت إنجازاً فنياً كبيراً لسورية، يواكب الإنجاز الذي حققته الدراما التلفزيونية في سورية في السنوات الأخيرة. صحيح أن فرقة التخت الشرقي النسائية بعيدة عن الإعلام كما هي الدراما، لكنها تمشي بخطى ثابتة في إحياء الموسيقى الشرقية، واستحضار الأغنيات التي عاشت في الزمن الماضي الجميل.

إن هذه الفرقة كسب للفن السوري المزدهر أولاً، وهي إنجاز هائل في ميدان كان وقفاً على الرجال، في بلادنا على الأقل ثانياً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ⊙

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدن المنسية:

ضمن سلسلة «رواد المشرق العربي» صدر عن دار الكتب الوطنية في هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث كتاب جديد بعنوان «المدن المنسية في بلاد العرب» للرحالة ستيوارت إرسكين، ترجمة عبد الإله الملاح، متضمنا العديد من الرسوم التوضيحية بريشة الميجر بنتون فليتشر.

⊙ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

تضمن الكتاب ٢٨ فصلاً تناول العديد منها: البتراء في حقب مختلفة، المدينة النبطية، خزنة فرعون، القلعة الصليبية، الكرك، القلعة الإقطاعية، مدن السها، مدينتا عروعيرومخايرس، مأدبا، ربة عمون، فيلادلفيا، مدن الحلف العشر «الديكابوليس»، بطليموس فيلادلفوس الثاني والمسرح الإغريقي، جرش، حكاية جراسا، معبد أرتميس، المسرح، العصر الفضي، الأفلاطونيون الجدد، الجغرافيون العرب والحجاج المسيحيون.

ويكشف المؤلف في كتابه العديد من المفاجآت التاريخية، ويقدم قراءة نادرة لمدن أخرى سهلية وجبلية وأخرى تطل على الصحراء أو تقترب من البحر، باحثاً عن خفايا تاريخها الطويل الممتد بجذوره العميقة في التاريخ، فيما تتضمن لائحة الرسوم في الكتاب توصيفا لخزنة الفرعون وكل ما يتعلق بمدينة البتراء بأروقتها ومداخلها ومسارحها، وتلك المدن المنسية والمناطق المحيطة، منها رسومات توضح وادي موسى ووادي عربة، وشروق الشمس وغروبها في منطقة البحر الميت من جبل الزيتون، فضلا عن العديد من الآثار الرومانية في عمّان، وكذلك مدينة جرش ببوابة النصر وشارع الأعمدة والرواق والمعابد والحمامات الرومانية والساحة العامة.

وكانت دار الكتب الوطنية في هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث قد أطلقت في العام ٢٠٠٩م سلسلة رواد المشرق العربي، حيث هناك عشرات الأعمال المتعلقة برحلات الرحالة الأجانب إلى المنطقة العربية، وخصوصاً منطقة الخليج العربي، العائدة إلى فترات زمنية مختلفة، كانت إما طيّ النسيان الكامل، وإما غير مترجمة بعد إلى اللغة العربية.

وقد سعت دار الكتب الوطنية إلى سدّ هذه الهوة، انطلاقاً من أهمية تجميع هذه المادة الكبيرة في مكان واحد، مما يوفر معرفة أعمق وأوسع، سواء بالرحلات نفسها، أو بملامح المنطقة وثقافتها وتراثها، خلال فترات قلّ فيها التأريخ والتدوين. ومن هنا كان إطلاق سلسلة رواد المشرق العربي، التي نشر عشرات الأعمال منها حتى اليوم، ولم يكن الهمّ نشر هذه الأعمال فحسب، بل تدقيقها ومراجعتها مراجعة صحيحة، بحيث تخرج بأقلّ قدر ممكن من الأخطاء والمغالطات.(١)

وفاة المؤرخ خوان برنيت:

ودعت الساحة الثقافية والأكاديمية الإسبانية مؤخراً المستعرب والمؤرخ الإسباني خوان برنيت، الذي وافته المنية في مدينة برشلونة الإسبانية عن عمر يناهز ٨٨ عاماً.

قدّم برنيت خلال مسيرة حياته الكثير من الإنجازات والإسهامات التي تخدم الثقافة العربية والإسلامية، ونشر العديد من الأبحاث والدراسات القيمة، التي تصب في هذا المنحى ومن أبرزها: ترجمته للقرآن الكريم، والكتاب التراثي ألف ليلة وليلة واللذان أعيد طباعتهما أكثر من مرة على مدار عدة سنوات، إضافة إلى كتبه «أصول الإسلام» و«الأدب العربي» وغيرهما، إضافة إلى كتابه القيم «ما تدين به أوروبا للإسلام الإسباني» والذي ألفه عام ١٩٧٤م وترجم إلى العديد من اللغات منها العربية، وأصدره اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام ٢٠٠٤م في ترجمة لعبد الله محمد الزيات تحت عنوان «الأصول العربية للنهضة الأوروبية».

ولد برنيت الراحل في برشلونة عام ١٩٢٣م ونال شهادة الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية عام ١٩٤٨م عن أطروحته حول عالم الرياضيات المسلم ابن البناء المراكشي، وعيّن أستاذاً للغة والآداب العربية في جامعة برشلونة حتى تقاعده منها، ونال العديد من الجوائز المهمة من بينها جائزة الشارقة للثقافة العربية التي منحتها له اليونسكو عام ٢٠٠٤م على مجمل أعماله التي تجاوزت الأربعين كتاباً وأكثر من ٣٠٠ بحث ومقال يؤكد فيها أهمية دور الثقافة العربية في إسبانيا والغرب عموماً.(٢)

سفينة رباعيات قديمة:

قام الباحث الإيراني محمد افشين وفايي بالاشتراك مع ارحام مرادي بتحقيق وتصحيح «سفينة رباعيّات قديمة» وهي عبارة عن نسخة مخطوطة من «كشكول قديم» وجدت فيها «١٧ رباعيّة جديدة» لعمر الخيّام، لم يسبق اكتشافها، منذ أكثر من ثمانية قرون، في أيّ كتاب أو مخطوط سابق، وستصدر عن دار نشر «سخن» ضمن مجموعة «كنز السفن الفارسيّة القديمة» وهو اكتشاف مهم جدّاً سيعين الخيّاملوجيين والمترجمين كثيراً، وربّما سيدفعهم إلى إعادة النظر في بعض أو العديد من المسلّمات السائدة المتداولة والمتعارف عليها، وبالأخص مايتعلّق بعدد الرباعيّات الأصيلة لعمر

الخيّـام وفلسفته المستقـاة والمستنتجة من تحليل رباعيّاته.

وهـذه النسخة المخطوطة مـن «سفينة رباعيّات قديمـة» محفوظـة في مكتبة آية الله مرعشـي في «قم»، وهـي تشتمل على «١٢٥٩ رباعيّـة» «٩ رباعيّات منها مكررة» ومن الشعراء الذين وردت رباعيّات منسوبة إليهـم: عمر الخيّام، أوحـد الدين كرماني، جمال رزاق، خطيب هـروي، زكي مراغي، سعـد سلمان سنائـي، سـوزني سمرقندي، صدر خجندي، عائشـه سمرقندي ومحمد شرف شفروه ونجيب عمر كَنجه.

رغـم أنه لا يوجـد تاريخ مـدوّن لهذه المخطوطـة، لكن نوع الخط والـورق يؤازر الحدس علـى أنها تعـود إلى أواخر القرن السابع الهجـري أو إلى مطلع القرن الثامن الهجـري «أي ق ١٣ و١٤ م» وقـد رتبـت الرباعيّـات بطريقتـين: الأولى على أساس المواضيع والثانية علـى أسماء الشعراء: في وصف الربيع، الفراشة والشمعة، في الدعاء للملك، وفي حلول شهر رمضان، وثمّة «٨٧٤ رباعيّة» من الـ«١٢٥٠ رباعيّة» ترد مع أسماء شعرائها، والبقيّة مجهولة المؤلفين.

ولقـد وردت فيهـا «٤٤ رباعيّـة» لعمر الخيّـام، و«٢٧ رباعيّة» لمبـارك شاه، و«٢٣ رباعيّـة» لجـلال هرمـي، و«٢٢ رباعيّـة» لمحرومـي، و«٢٤ رباعيّـة» لنجيـب عمـر كَنجه، و«١٣ رباعيّـة» لمجدي بغدادي، و«٤ رباعيّات» لعين القضـاة الهمداني... وثمة «١٠» رباعيّات باسم أجنبي وهو غير مشخص أهو «اسم» أم «تخلّص»؟ وثمة رباعيّة واحدة لأحدهم اسمـه أحمد سياه وبضع رباعيّات لأرشد البلخي كلاهما غير معروف.[٣]

الكتب النادرة:

تضـم مكتبة الإسكندريـة مجموعة من المكتبـات المتخصصـة للطفـل، والنشء، والفنـون والوسائط المتعـددة، والمكفوفين وضعـاف البصر، والخرائـط، والأوعية النـادرة والمجموعـات الخاصـة، وتحتوي ذخيرة غنية من الكتب النادرة والمجموعات الخاصـة وآلاف المخطوطـات الأصليـة، والمصادر التراثيـة المطبوعة، ومجموعة من أندر الكتـب، إضافـة إلى المكتبات الكاملة المهداة من كبار الشخصيات.

ويبلغ عدد الكتب النـادرة التي تحويها مكتبـة الإسكندرية أكثر مـن ١٦ ألف كتاب تمتد تواريخ نشرها من أواخر القرن الخامس عشـر، حتى أوائـل القرن العشريـن. ويتم

تحديد ندرة الكتـاب بناء على عدة معايير، أهمهـا: تاريخ الطباعة، ونوعها (كالطبعات الحجريـة، أو النافـدة، أو المحـدودة، أو ذات التجليـد والتصميـم الخاص، أو المزوقـات، أو المنمنمات). وتتعـدد الكتب النـادرة المقتناة؛ومنها: أوائـل المطبوعات، والطبعات الحجريـة، والنسخ طبق الأصل «الفاكسميلي».

وتتوافر بمكتبة الإسكندرية خمسة كتب لاتينية من أوائل المطبوعات؛وهي تلك التي تمَّ طباعتها بـين عامَيّ ١٤٥٠ و١٥٠١، مثل كتاب: MARTIALISEPIGRAMMATA

الـذي تمَّ نشره في فينيسيـا عام ١٤٨٢ ويضـم قصائد قصـيرة ساخـرة للشاعر الرومـاني مارتياليسـ (٤٠- ١٠٣) ومعها تعليقات وشروح كتبها دوميتيوسكالديرينوس (المتوفى عام ١٤٧٧).

كمـا تحوي المكتبـة أكثر مـن ٤٠ كتاباً صدروا في القرن السادس عشر؛ مثل: كتاب «أشهر جزر العالم»، الصادر في فينيسيا عام ١٥٧٦، لمؤلفه تومازو بوركاشي، وهو من أهم الكتب التي تناولت وصفا دقيقا لأشهر جزر العـالم. ويتضمن الكتاب صـوراً توضيحية وخرائط لتلك الجزر، رسمها النحات الشهير بورو جيرولامو (١٥٢٠-١٦٠٤).

ويصل عدد مطبوعـات القرنين السابع عشـر والثامن عشر المتاحة بالمكتبة إلى أكثر من ٢٣٠ كتاباً؛ منها:

NOUVELLE RELATION EN FORME D'UN JOURNAL D'UN VOYAGE FAIT EN EGYPTE EN (1672 ET 1673).

يعد هـذا الكتاب الصـادر عن مطبعة اتيان ميشاليـه في باريس عام ١٦٧٧ لمؤلفه فانسلـب VANSLEB (١٦٧٩-١٦٣٥) من أهم الكتب التي تناولت تاريخ مصر في تلك الفترة. كان فانسلب قد تمَّ تكليفه برحلة إلى مصر والحصول على عدد من المخطوطات، وبالفعل أحضـر للمكتبة الوطنيـة بفرنسا ٦٠٠ مخطوطة بالعربية والفارسية والتركية والعبرية والقبطية من حلب والقسطنطينية والقاهرة.

وتضـم مكتبـة الأوعيـة النـادرة والمجموعـات الخاصة العديد من الطبعات الحجريـة النـادرة مثـل كتـاب «تخطيط الأراضـي» الصادر عن مطبعة دار الطباعة العامرة ببولاق عام ١٨٤٤، وهو مترجم عن اللغة الفرنسية للمؤلف لاكروا، وترجمه إلى العربية إبراهيم أفنـدي رمضان، بمدرسة المهندسخانه الخديوية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما تضم مكتبة الإسكندرية كذلك عدداً من النسخ طبق الأصل «الفاكسميلي»، وهي نسخ تحاكي الأصل من حيث الخصائص المادية والحبر المستخدم ومادة الورق، ومنها إنجيل جوتنبرج، وهو نسخة طبق الأصل من الطبعة الأولى للكتاب المقدس، وهو أوّل كتاب يطبعه الألماني يوهان جوتنبرج مخترع الطباعة الحديثة.

وتوجد بالمكتبة نسخة خطية نادرة (طبق الأصل) من المصحف الشريف الذي كتبه الخطاط الشهير ابن البوّاب المتوفى ببغداد سنة ٤١٣ هجرية (١٠٢٢ ميلادية) وهو الذي طور الكتابة العربية وأكد أهمية النسب الهندسية للحروف، ولذا عرف خطه بالخط المنسوب. كتب ابن البواب عدة نسخ من القرآن الكريم يقال إنها ألف نسخة، لم يبق منها كاملا إلا هذه المخطوطة المحفوظة اليوم بمكتبة شستر بيتي بأيرلندا.

ويتم التوسع في اقتناء الكتب النادرة عن طريق الإهداء والتبادل والحصول على صور رقمية من المقتنيات النادرة والنسخ طبق الأصل «الفاكسميلي» المتاحة من الكتب النادرة.(٤)

توت عنخ آمون وسكان غرب أوروبة:

قال فريق من العلماء المتخصصين في دراسة الجينات البشرية بسويسرا: إن سبعين بالمئة من الرجال البريطانيين ونحو نصف الرجال في غرب أوروبة تربطهم صلة وراثية بالفرعون المصري توت عنخ آمون، وذلك حسب ما صرح به علماء مركز IGENEA في زيوريخ المتخصص في أبحاث الوراثة والحمض النووي الذين تمكنوا من رسم خارطة الشفرة الوراثية لتوت عنخ آمون بعد حصولهم على عينة صغيرة من أنسجة موميائه.

وأظهرت دراسة هذا المركز أن توت عنخ آمون ينتمي وراثيا لمجموعة تعرف باسم هابلوغروب R1B1A2 ينتمي لها كذلك أكثر من نصف الرجال في غرب أوروبة، الأمر الذي يعني أنهم وتوت عنخ آمون ينحدرون من النسل ذاته، في حين أن أقل من واحد بالمئة فقط من الرجال في مصر اليوم ينتمون لمجموعة «هابلوغروب» الوراثية، حسب زعمهم.

وقال رومان شولز مدير المركز: إنه «من المدهش أن ينتمي توت عنخ آمون وراثياً لمجموعة أوروبية وليس لمجموعة من المجموعات الوراثية الموجودة في مصر»، مضيفاً «إن نحو سبعين بالمئة من الرجال في أسبانيا وستين بالمئة من الرجال الفرنسيين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينتمون للمجموعـة الوراثية ذاتها الخاصة بالفرعـون الذي حكم مصر قبـل أكثر من ثلاثـة آلاف عـام، ممـا يعتقـد أن أجداد توت عنخ آمون وسكان غـرب أوروبة كانوا يعيشون في منطقـة القوقاز قبل نحو تسعة آلاف وخمسمئة عام».

ويعتقد الخـبراء السويسريون أن هجرة أجداد تـوت عنخ آمـون مـن القوقاز إلى أوروبة بدأت مع انتشـار الزراعة قبل نحو سبعـة آلاف عام من ميـلاد المسيح، لكنهم يقولـون إن أسباب الهجرة إلى مصر لا تزال غـير معروفـة، ويركز الخـبراء حالياً على البحث عن البشر الموجوديـن اليوم والذين يعتبرون الأقرب مـن الناحية الوراثية لتوت عنخ آمون، الذي اعتلى عرش مصر وهو في التاسعة من عمره وكان والده الملك إخناتون وجده أمنحوتب الثالث.(٥)

مئوية كونراد دودن:

تحتفل ألمانيا هـذا العام بمئوية كونراد دودن، الـذي وحـد قواعد اللغـة الألمانية بتأليفه معجماً لقواعد الإملاء والهجاء للغة الألمانية.

ويـرى باحثون وأدباء ألمان أن دودن رغم مرور زمن طويل على وفاته يبقى علماً مخلداً في تاريخ اللغة الألمانية، باعتباره قد منح كل الألمان آنذاك، ولاسيما الطبقة غير المتعلمة، التي كانـت تشكل أغلبيـة الشعب الألماني، فرصـة تعلم اللغة وممارستها بشكل صحيح وبشـكل موحد لا يختلف عليـه اثنان، وما تزال أعماله التي تركهـا تشكل جزءاً مهماً مـن حياة كل ألماني وكل متعلم للغة الألمانية، سواء أراد ذلك أم لا. لكن طريق دودن لإنجاز هذا العمل لم يكن سهلاً على الإطلاق، فقد قوبلـت فكرة توحيد قواعـد اللغة الألمانية في بدايـة الأمر بالرفض الشديد من قبل مستشار الرايخ الألماني أوتو فون بسمارك.

ولد كونـراد دودن في الثالث من يناير/ كانون الثاني ١٨٢٩م في قرية صغيرة في مدينة لاكهاوسـن والمعروفة اليوم باسـم فيسيل. كان والـده ضابـط سكة حديـد، وأسلافه من العائـلات العريقة في المدينة. ذهب إلى المدرسـة الثانوية المحلية في فيسيل وحصل علـى الشهـادة العليا فيها ثم بـدأ بدراسة علوم اللغة وآداب اللغة الألمانية والتاريخ في جامعة بون. ولعدم تمكنه من تمويل دراسته الجامعية اضطـر إلى ترك الجامعة وانتقل إلى مدينـة فرانكفورت ليعمل فيها كمدرس خصوصي.

وبعد اجتيازه امتحاناته الجامعية في عام ١٨٥٤م، قيمت اللجنة القائمة على الامتحانات مستواه بالمقبول، ونصحته بضرورة تحسين معلوماته القواعدية في اللغة. بعد دراسته الجامعية بدأ دودن بكتابة أطروحة الدكتوراه، ولكنه لم يكملها وانتقل إلى جنوة ليعمل فيها كمدرس خصوصي، حيث تعرف على أديلينهياكوب، ابنة القنصل الألماني في ميسينج وتزوج منها. وعمل بعد ذلك مدرساً حتى عين مديراً لمدرسة باد هيرفيسفيلد الثانوية في ولاية تورينغن.

وتوضح قصة كتابة دودن لأول معجم موحد لقواعد الإملاء والهجاء الألمانية، مدى إصراره وإيمانه بفكرته التي كان لها تأثير كبير على اللغة والتواصل بين الشعوب الناطقة بالألمانية. فقد ذاع صيت دودن قبل إصدار معجمه الأول، إذ نشر قبلها إصدارات لقواعد اللغة الألمانية وأول قاموس لغة في عام ١٨٧٢م. أما فكرة توحيد قواعد الإملاء والهجاء للغة الألمانية فقد كانت محل نقاش قبل أن يصدر دودن معجمه اللغوي الأول، حيث اجتمعت الدول الناطقة باللغة الألمانية من أجل الاتفاق على قواعد موحدة للإملاء.

ولكن توصيات المؤتمر لم يتم الاعتراف بها، بسبب معارضة مستشار الرايخ الألماني آنذاك، أوتو فون بسمارك لفكرة المشروع، حيث قام بعدها بمنع استخدام هذه القواعد في الدوائر البروسية. لكن رغم فشل المشروع الأول لم يقلع دودن عن فكرته وعن السعي لتحقيق هدفه، حيث واصل العمل بعد ذلك على كتابه «المعجم الشامل لقواعد الإملاء في اللغة الألمانية» وهو ما كان يعرف بـ«معجم دودن الأول» وكان حينذاك في الواحد والخمسين من العمر. وقد لاقى معجمه نجاحاً في كل الدول الناطقة باللغة الألمانية، وأصبح المرجع الرئيسي للغة الألمانية. وقضى دودن بقية حياته في إصدار معاجم جديدة.(٦)

مخاطر تهدد صناعة الثقافة:

حذر كاتب متخصص بالثقافة الرقمية من قيام الإنترنت بتدمير صناعة الثقافة عبر القرصنة الرقمية وتفاقم جشع الشركات الإلكترونية وسحق النتاج الموسيقي والسينمائي والصحفي.

وقال الكاتب روبرت ليفين: إن كبرى الشركات الأميركية لإنتاج المحتوى الموسيقي والسينمائي فقدت مواردها لحساب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القرصنة المتصاعدة على الإنترنت، وأضاف إن كل الذي كان يباع صار مجانا سواء بشكل مباشر أو عبر القرصنة الإلكترونية، مشيراً إلى حال شبكة «ان بي سي» التلفزيونية التي فقدت مواردها وقلصت آلاف فرص العمل لديها بسبب شيوع المادة الإلكترونية، وإلى صحيفة «واشنطن بوست» التي أغلقت مكاتبها في مدن أميركية كبرى وأوقفت إصدار العديد من مطبوعاتها بسبب ركود الصحافة الورقية لحساب الإلكترونية على الإنترنت.

وأكد ليفن أن العديد من شركات الإنتاج السينمائي تواجه المشكلة نفسها بعدم قدرتها على جمع إيرادات مقابل إنتاجها بسبب أن الأفلام باتت تصل إلى المستخدم مجاناً على الإنترنت عن طريق القرصنة، لافتاً أن الجمهور لم يفقد شهيته للصحافة والتلفزيون والسينما والمعارض، لكن كل نتاجات هذه الثقافة باتت تصله على كمبيوتره الشخصي بطريقة أسهل وأرخص، الأمر الذي دمَّر سوق صناعة الأعمال.

ونبَّه روبرت ليفين إلى أن هذا الوضع غير المقونن ليس النتيجة الحتمية للتكنولوجيا، إذ إن شركات صناعة المحتوى الثقافي لم تتوان في تطوير أدواتها وتقديمها بطريقة معاصرة للمستخدم، لكنها اصطدمت بإزعاج وتطفل القراصنة، قائلاً: إن هذه المشكلة المتصاعدة لم تعد تقتصر على المنتجين والموزعين في تعارض مصالحهم، بل إن محركات البحث مثل «غوغل» لم يعد يهمها بيع نتاج وسائل الإعلام، وأضحت تقدم للمستخدمين المادة بأسرع وقت ممكن بغض النظر عما إذا كانت قانونية أم لا، في حين تسعى شركة «أبل» لخفض الأسعار لترويج منتجاتها الفنية.

وتبدو المشكلة الأكبر من وجهة نظره في صراع الشركات التكنولوجية مع المستثمرين في وسائل الأعلام لتطوير أعمالهم التجارية والجدل الأخلاقي المترتب على ذلك وعما إذا كانت تفكر هذه الشركات بالمستخدم عند تقديم المنتج أم بمصالحها الخاصة.

وإذا كان هذا الصراع يصب في خانة المستهلكين الذين باتوا يحصلون على مايريدون بأقل تكلفة مالية، إلا أن المشكلة الاقتصادية -حسب روبرت ليفين- ستنعكس على الشركات على المدى الطويل، وخلص روبرت ليفين إلى أن الضغط يتصاعد لفرض قانون عن حقوق التأليف والنشر على الإنترنت، لكن الحقيقة أن صناعة الثقافة

الإلكترونية تعيش الفوضى في بنيتها التحتية لاقتصاد القرن الحادي والعشرين، وهذا ما دعا بعض المؤسسات وبعض المخرجين السينمائيين والمؤلفين والموسيقيين والكتاب وخبراء القانون وصانعي القرار إلى بحث «التهديدات والفرص» التي يطرحها الإنترنت على صعيد الملكية الفكرية في عصر التكنولوجيا الرقمية.(٧)

توثيق لغات سكان أستراليا:

أطلق باحثون أستراليون مشروعا مدته ثلاث سنوات لاكتشاف لغات السكان الأصليين المنقرضة، وقالت مكتبة ولاية نيو ساوث ويلز إن ثمة مقاطع متفرقة من العديد من اللغات التي انقرضت وجدت في أوراق كتبها مستوطنون أوائل في استراليا.

وكان هناك نحو ٢٥٠ لغة من اللغات التي يتحدثها السكان الأصليون الذين يقدر عددهم بمليون شخص قبل الاستعمار البريطاني لاستراليا عام ١٧٨٨م، ظل منها بضع عشرات في مجتمعات محلية محدودة للسكان الأصليين الذين يبلغ عددهم نحو ٤٧٠ ألف شخص في أمة تعداد نفوسها ٢٢ مليون نسمة.

وقال جورج سوريس وزير الفنون في ولاية نيو ساوث ويلز أن «اللغات الوطنية الشفاهية والمكتوبة تمثل العمود الفقري للثقافة» في البلاد، وأضاف «وحفظ لغات ولهجات مواطنينا الأصليين مشروع مهم جداً في هذا الصدد».

وقال نويل نيلسون الذي يعمل مديراً تنفيذيا لشركة التعدين الانجلو- أسترالية العملاقة ريو تينو التي تدعم المشروع إن الوثائق المباشرة للمستوطنين الأوائل في مكتبة الولاية «شيء فريد»، ونقل عنه قوله: إن هذه الوثائق الأولى هي في الغالب السجلات الوحيدة الباقية عن العديد من اللغات الأصلية المنقرضة، وأضاف إن المشروع سيربط الناس مع الثقافة الأصلية وسيقدمها إليهم.

ويشير مسح حكومي أسترالي أجري في عام ٢٠٠٤م إلى وجود ١٤٥ من اللغات الأصلية ما زال التحدث بها قائماً في استراليا، وإن ١١٠ من هذه اللغات مهددة بشدة بالانقراض.(٨)

من وراء مقتل ألبير كامو:

أفاد جوفاني كاتيللي وهو أستاذ جامعي إيطالي أن حادث السير الذي قضى فيه الكاتب الفرنسي ألبير كامو العام ١٩٦٠م

عـن ٤٦ عاماً قد يكـون من فعل عملاء في جهاز الاستخبـارات السوفياتيـة السابق، مستنداً في ذلك على استنتاجات استخلصها من يوميات الشاعر التشيكي يان زابرانا.

وقال كاتيللـي: إن النسخة الأصلية من يوميات زابرانا ضمـت مقطعاً لم يترجم في النسخـة الإيطالية، وفيه تحدث زابرانا عن لقـاء مع روسـي مقرب مـن الاستخبارات السوفياتية، روى له بعضـ المعلومات بهذا الخصوصـ، مؤكداً أن حـادث السير الذي قتل فيـه كامو العـام ١٩٦٠م دبرته أجهزة الاستخبـارات السوفياتيـة. فقـد عطلوا أحد إطارات السيـارة بوساطة أداة مزقت الإطار، موضحاً أن الأمر لهذه العملية صدر شخصيـا عن وزير (الخارجيـة السوفياتي ديمـتري شيبيلوف (مكافأة) على مقال نشر في آذار/مارسـ ١٩٥٧م وقد حمل فيه كامو صراحـة وبالاسم على الوزير بسبب أحداث المجر».

إلا أن هـذه الروايـة كما يبـدو لم تقنع الفيلسوف الفرنسي ميشـال أونفري الذي سيصـدر في كانون الثاني/يناير المقبل سيرة عن الكاتب الفرنسي، فقال: لا أظن أن ذلك ممكـن فالـكاي جي بي كان يملـك وسائل للتخلص من كامـو بطريقة مختلفة»، معللاً رأيـه بأن كامـو كان في ذلك اليـوم عائداً بالقطـار وقد اشترى له بطاقة وفي اللحظة الأخيرة، قرر العودة مع ميشال غاليمار (ابن شقيق الناشر غاستـون غاليمار). والسيارة كانـت ملـكا لغاليمـار»، مشـدداً على أن «السوفيات ربما كانوا يرغبون بالتخلص من كامو هذا مؤكد، لكن ليس بهذه الطريقة».

كما شـكك برواية كاتللـي عضو معهد دراسـات الأنظمـة التوتاليتاريـة في براغ فويتشكريبكا معتبرا أنـه «لا يمكن التحقق منهـا»، ولذلك سيبقى مـوت كامو الحائز علـى جائـزة نوبـل في حادث سيـارة عام ١٩٥٧م لغـزاً من الألغاز التـي قد تتكشف أسرارها ذات يوم.

يشـار إلى أن كامو كان كاتبا ملتزماوقد احتـج علـى القمـع الدموي للثـورات في برلين الشرقيـة (حزيـران/ يونيو١٩٥٣م) وفيبودابست (أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦م). ومن أهم رواياته: الطاعون والسقوط.(٩)

تولستوي في كتاب جديد:

بمناسبة مرور مئة عام على وفاته، صدر مؤخراً في لندن كتاب يتنـاول حياة الأديب الروسـي الكبير ليو تولستـوي وضعته روزا

مند بارتلات، ساعدهـا في إنجازه في فترة قصيرة نسبياً وجودها في جامعة أوكسفورد، وتخصصها في تاريخ الثقافة الروسية.

وذكـرت مـاري دجفسكـي أن الكتاب يوضح أنه على الرغـم من انتماء تولستوي إلى عائلـة بورجوازيـة ثريـة، إلا أنه تخلى عـن كل الإغراءات، وانزوى في عالمه، باحثاً في الطبيعة والأحداث عـن أجوبة واضحة للأسئلـة التـي كانـت تؤرقـه عـن الدين والكنيسـة والسلطـة، وأن كتابات تولستوي استطاعـت أن ترسـم صـورة حيّـة للفقر والإرهـاب والتعسف والقمـع الأعمى، كما استطاعت الكاتبة التعاطـي عن دور المرأة في حياة تولستوي، وكيف استطاعت زوجته سونيا أن تهتـم بعائلتها الكبيرة من دون أن تمنع زوجها مـن تحقيق الأمور التي تسعده وترضيه.

وأكـدت دجفسكي أن روزا مند بارتلات تمكنـت مـن إحيـاء شخصيـة تولستوي الأسطورية، وفي اختيـار المحطات الرئيسة التي نقلته من عالم الأثرياء إلى عالم الفقراء والمهمشين.(١٠)

سجل تعازي في رثاء بايرون:

عُـثر في سـوق خيرية بولايـة جورجيا الأميركيـة على كتاب مفقود يتضمن كلمات الرثاء التي سُجلت في نعي الشاعر البريطاني بايرون.

ويحـوي الكتـاب الـذي فقدتـه أسرة الشاعـر كلمـات مشاهـير مـن معاصريه بينهم الشاعر الايرلنـدي توم مور والكاتب الأميركي واشنطن آيرفنغ ومارتن فان بورن الذي أصبح الرئيس الثامن للولايات المتحدة في عام ١٨٣٧م.

وكان الكتاب وضع في مقبرة عائلة اللورد بايرون في مقاطعة نوتنغهامشر وسط انكلترا حيث دُفن الشاعر بعد إعـادة جثمانه من اليونـان في عـام ١٨٢٤م. وامتـلأ الكتاب بكلمـات الرثاء حتـى زادت على ٨٠٠ كلمة بحلول عام ١٨٣٤م.

واختفى الكتاب بعد هذا التاريخ. وصدر تقريـر عن اختفاء الكتـاب في عام ١٨٤٩م يقول إن راعي كنيسة في المنطقة أعطاه إلى صديق. وفي عام ١٨٩٠م قال تقرير آخر إن الكتاب انتقل إلى الولايات المتحدة مع عائلة مهاجرة.

وظهـر الكتـاب أخيراً في سـوق خيرية نظمتهـا كنيسـة في مدينة سافانـا بولاية جورجيا عـام ٢٠٠٨م حيـث عُرض عاريا

بلا غلاف، صفحاته حائلة بعد أن تبرع به شخص مجهول. وتجاهله زوار السوق إلى أن تلقفته الطبيبة المختصة بأمراض النطق مارلين سولانا في اليوم الأخير من السوق وابتاعته مقابل ٣٥ دولارا.

وإذ أدركت الطبيبة قيمة الكتاب قامت بعملية بحث على الإنترنت قادتها إلى المكتبة الوطنية في اسكتلندا حيث أكد لها أمين المكتبة ديفيد ماكلاي أنه الكتاب المفقود لكلمات الرثاء التي كتُبت في نعي بايرون، حيث تبرعت بالكتاب للمكتبة الاسكتلندية التي تضم أكبر مجموعة من الوثائق والمواد عن الشاعر بايرون في العالم. وتعتزم المكتبة نشر صور من صفحات الكتاب على الإنترنت لتكون في متناول الجمهور.

وقال أمين المكتبة الوطنية في اسكتلندا: إن الكتاب لقية ثمينة تُعطي فكرة مثيرة للاهتمام عن سمعة بايرون بعد وفاته. وقالت إدارة المكتبة إن الكتاب بحاجة إلى ترميم وصيانة وبعد ذلك سيكون متاحا للزوار لمئتي سنة أخرى. ومن بين الذين سجلوا كلمات في رثاء بايرون الجنرال النابليوني لامان ورفيق بايرون الكونت بيترو غامبا ودوق ساسكس والناشر جون ماري. وقالت المكتبة الوطنية في اسكتلندا إن أسماء الأشخاص الذين سجلوا كلمات رثاء في الكتاب تبين نمو السياحة الأدبية كظاهرة ثقافية في تلك الفترة.(١١)

منزل آلن بو:

قال جيف جيروم، المسؤول عن المنزل الصغير الذي أقام فيه الكاتب الأمريكي إدغار آلان بو خلال سنوات، والذي حولته بلدية بالتيمور إلى متحف: إن هذا المنزل مهدد بالإقفال بعد حزيران ٢٠١٢م، الأمر الذي أثار اعتراض محبي بو الذي يعتبر أبو الرواية البوليسية.

وكانت بلدية بالتيمور التي تدير المنزل-المتحف، أوقفت، قبل سنتين، دفع مبلغ ٨٥ ألف دولار كان يشكل موازنة المتحف لأنها تعاني من «عجز تاريخي».

وقال توم ستوسور مسؤول البلدية: لقد اضطررنا إلى خفض نفقاتنا وحصرها بما هو أساسي، والأجهزة المالية لم تعتبر منزل بو من الأساسيات، مؤكداً أن القرار «لم يتخذ بخفة». إنما، ومنذ اتخاذ القرار، يستمر المتحف في عمله بفضل التبرعات والهبات، إلا أن موارده بدأت تنضب.

وفي خطوة عملية على قرار إغلاق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتحف بدأ محبو أعمال إدغار آلن بو بتعبئة الصفوف، فوردت إلى البلدية عريضة، تضم ٥٩٠٠ توقيع، وتطالبها بالعودة عن قرارها. وعرض فنان بيع لوحة غرافور، مستوحاة من قصيدة ««الغراب»، وهي أشهر قصائد بو. وأطلق مطعم حملة «بينيز فور بو» (قروش من أجل بو)

ويقع المنزل-المتحف بعيداً من وسط المدينة، ويستقبل خمسة آلاف زائر سنوياً، وتبدو للداخل، على رفوفه مجموعة أطباق كان سكان المنزل يستخدمونها للأكل، إضافة إلى مكتب نقّال، ونعي بو في صحيفة محلية، وبورتريهاتز

يذكر أن آلن بو عاش في هذا المنزل وهو شاب، من ١٨٣٢م إلى ١٨٣٦م، مع عمته وجدّته، فضلاً عن نسيبته وزوجته فيرجينيا. وقد كتب في المنزل العديد من قصصه. والمنزل هو أقدم مقر إقامة للكاتب لا يزال قائماً حتى الآن، والكاتب مدفون على بعد مئات الأمتار منه.(١٢)

وفاة شامي كابور:

توفي الممثل الهندي الشهير شامي كابور، نجم السينما الهندية خلال أعوام الخمسينات والستينات، والملقب بإلفيس بريسلي بوليوود، عن عمر ٧٩ عاماً في إحدى المستشفيات بمدينة بومباي.

ولد كابور في ٢١ أكتوبر من عام ١٩٣١م بمدينة بومباي، وينتمي إلى عائلة كابور الشهيرة جداً، التي ارتبط اسمها بعجلة الاقتصاد الهندي لأجيال طويلة. كان تسلسله الثاني من بين الأبناء الثلاثة لأسطورة السينما الهندية بريذفيراجكابور، وهو عم النجمة كارينا كابور، التي تعد واحدة من أبرز الممثلات المعاصرات في هوليوود، وشقيق كل من النجمين المعروفين راج كابور وشاشي كابور. وأما شامي كابور الذي دخل عالم التمثيل في عام ١٩٥٣م، فقد لعب بطولة العديد من الأفلام، منها «ليلة في باريس»، و«جاينا تاون»، و«جنكلي»، وآخر أفلامه كان «ساندويتش» في عام ٢٠٠٦م.

وقد عرف عن شامي كابور أنه صاحب الحركات الراقصة، والقريبة من أسلوب إلفيس بريسلي، لكنه في سنوات حياته الأخيرة اهتم بمجال الكومبيوتر والإنترنت، وكان من أوائل نجوم السينما الذين انضموا إلى شبكة الاتصال الاجتماعي «تويتر».

بدأ كابور حياته الفنية عام ١٩٥٣م في فيلم «جيفانجيوتي» واشتهر بأعماله المفعمة

بالرومانسيــة والغناء والرقصــ، وغالبا ما كان يقارن بمغني الــروك الأميركي ألفيس بريسلي بسبب أدائه الراقص في أفلام مثل «تومســا ناحين ديــكا» (لا مثيل لك) و«ديل ديكي ديكو» (امنح قلبك وسترى) و«جانغلي» (بري).

وكان حــب كابــور للموسيقــى هو أحد أسرار نجاحه، إذ كان يختار بنفسه الأغاني التــي سيرقص عليها لكي تتلاءم مع أسلوبه المفعــم بالحيوية. ومن أبــرز أفلامه أيضا «بروفيسور» و«شاينا تاون» وغيرها.[١٣]

إحالات

١- وكالة الأنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٢- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

٣- وكالة الأنباء الكويتية «كونا» WWW.KUNA.NET.

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG.

٥- وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM.

٦- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٧- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٨- وكالة فرانس برس WWW.ARABO.COM.

٩- موقع ألف ياء WWW.ALEFYAA.COM.

١٠- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

١١- موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM.

١٢- موقع العرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO.

١٣- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب الشهر

الشرق الأوسط

ولغة الإعلام والسياسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن ⊙

إن قراءة أولية في تاريخ سورية ومحيطها الجغرافي، تدفعنا إلى النظر في الوسائل السياسية التي استخدمت لإبراز حجم الصراع الذي كان قائماً في تلك الفترة، وامتداداته إلى الآن المعاصر. ولعلَّ دراسة الخطابات والرسائل في القديم من الزمن السوري يفصح بلا شك، عن حجم اللغة المتداولة في التعبير عن هذه العلاقات السياسية. ولعلَّ في ذلك جدل العلاقة بين الإعلام

⊙ باحث سوري.

والسياسة. بين اللغة والمتغيرات السياسية في العالم ككل. وظلت هذه الجدلية متظهرة بأشكال عدة. من خطابات إلى سفارات . ومن ثم من سفارات إلى جرائد ومجلات ومن ثم من جرائد ومجلات إلى وسائل إعلامية مرئية ومسموعة ثم من فضاء كوني شاسع إلى قرية كونية صغيرة تسطع. من خلال تكنولوجياتها تقديم ما يحصل في هذا العالم بحركة بسيطة لجهازإالكتروني.

ومنذ القدم وهذه المنطقة السورية تاريخياً، تمر بتداخلات عدة. وتستهدف بفترات تاريخية. ولعلَّ منذ بدايات التحرر من الاستعمار الأوروبي وحتى الآن وهذه المنطقة هدفاً أولياً من قبل القوى الاستعمارية العالمية للإبقاء على وضعية مختلفة اقتصادياً وسياسياً وفكرياً لمجتمعه. محاولات مدروسة ومعللة من قبل روّادها من المستعمرين القدامى. وهو ما تشهده هذه المنطقة حالياً في حملة شرسة سنحاول تبيان أسسها في هذه العجالة.

❁ ❁ ❁

الكتاب مثار البحث يقع تحت عنوان: «الشرق الأوسط ولغة الإعلام والسياسة بين الحقيقة والفضيحة». مؤلف الكتاب دبلوماسي وسفير سورية في بلدان عدة «عبد الفتاح عمورة». الكتاب في الجزء الأول منه، وبعنوان فرعي هو «طرق التحليل والترجمة». وهو من إصدارات، دار الشروق للطباعة والنشر. من إصدارات العام /٢٠١١م/ ويقع في /٢١٠/ صفحات من القطع الكبير.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول: تحليل الكلام الصحفي والسياسي.

إن الصحافة الغربية بما هي نتاج معرفي تعمل من خلال أيديولوجية مرسومة مسبقاً، يقوم بادارتها هيئة التحرير والجماعات العاملة فيها والمالكة لها. وبالتالي هي انعكاس لسياستها تجاه المجتمع والمجتمعات الأخرى. والعاملون في سلكها الصحفي والسياسي يتركون بصماتهم ومشاعرهم ومعتقداتهم فيما يكتبون، مستندين إلى موروث معرفي هو تركة من التاريخ الاستعماري والإمبريالي والصهيوني. وهم يرون الآخر من خلال ما يراه موروثهم المعرفي هذا، لا من خلال قراءة أولية لتراث الآخرين.

وللتعبير عن هذه الأيديولوجيا، يتبعون

أساليب لغوية متعددة للتعبير عن نواياهم ويختارون مواضيع إشكالية مثار جدل في مجتمعهم، مثل قصص الإرهاب والدين والعرق واللون والهجرة والأقليات والأمن والديموقراطية..إلخ.

والمتتبع للطرق التي تغطي بها وسائل الإعلام الغربية والأمريكية والصهيونية أحداث الشرق الأوسط يرى التشابه واضحاً من حيث اعتبار الحق باطلاً والمعتدي هو الضحية ويصبح الآخر ملاماً بالعموم، والضحية إرهابياً على الدوام.

من هذا المنطلق فإن على المحلل السياسي لصحافة الغرب قراءة اللغة التداولية للنص ومدلولاتها السياسية والاجتماعية، وأن يبحث عن مجمل القوى والعناصر الداخلية في سير ومعرفة الرسالة الموجهة، إضافة إلى اللغة الإيمائية البدنية لمستخدمات الحواس التي تظهر على وجه المتحدث وأعضائه البدنية.

الفصل الثاني: الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان وطريقة تحليل تصريحات المسؤولين الإسرائيليين بشأنها.

تتبع الصحافة وسائل متعددة في نقل

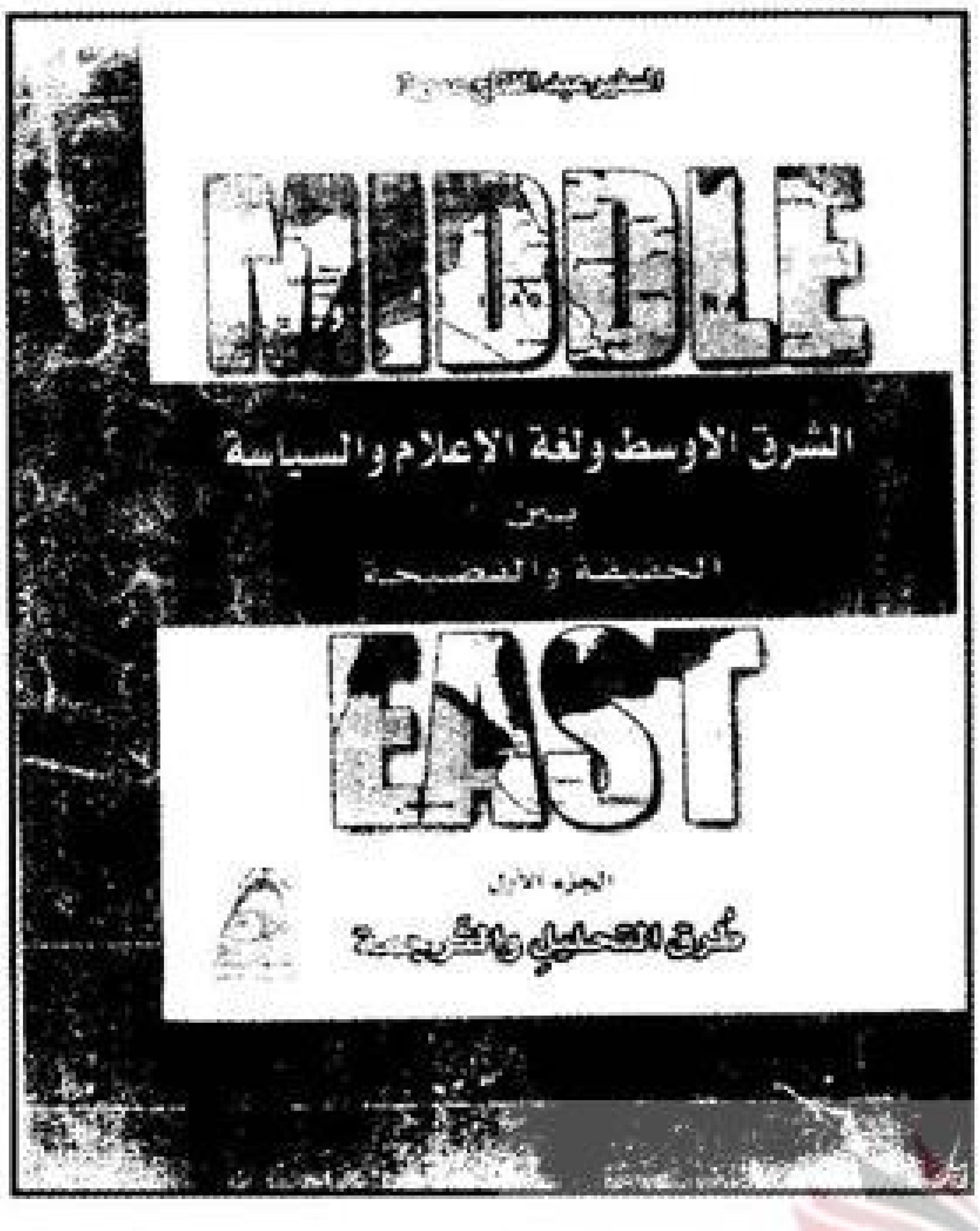

الخبر: لغوية ودلالية وتركيبية وبراغماتية وسيميائية. إضافة إلى أيديولوجية تعبر عنها ومنها. بطبيعة الحال فإن تحليل الخبر أو المقال أو التصريح يستند إلى معرفة المحلل كل الوسائل: اختيار الكاتب المتكلم لعنوانه ومفرداته وجمله وتراكيبه واستعاراته، وعلامات الترقيم، وصيغ المبني للمجهول والمعلوم. وكذلك استخدام أسلوب في ترتب الكلام والجمل، واختيار الفكرة. والصحافة الإسرائيلية في تغطيتها للأحداث في لبنان اعتمدت على الأمور التالية:

١- تصعيد الأعمال العدوانية ضد لبنان متذرعة بأعمال وهجمات حزب الله على جنودها وعملائها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- ضرب البنى التحتية اللبنانية بشكل سافر مما يشكل خرقاً لتفاهم نيسان.

٣- توجيه رسالة لسورية ولبنان عبر استخدام القوة العسكرية على أمل جعل سورية ولبنان ترضخان لمطالب وشروط إسرائيل.

٤- الخاتمة التي تحتوي على تسلسل الأحداث.

٥- الجزء الذي يسقط فيه الكاتب أحداث القصة على الواقع.

الفصل الثالث: بنية الخبر الصحفي وطريقة تحليل مضمونه.

يجب التمييز بداية بين الخبر الصحفي والإذاعي. فالأول أكثر طولاً من الثاني، وبالتالي، فإن تفاصيله أكبر، ويحتوي تعقيدات أكثر. ففي الخبر الإذاعي، يتم استخدام: صوت المذيع، ونبرة صوته، وسرعة كلامه كعناصر لغوية في نقل الخبر. ويضاف إليه في الخبر التلفزيوني: علامات الوجه والحركات والصور..إلخ. أمنا في الخبر الصحفي فهناك: خصائص اللغة المكتوبة من علامات الترقيم، والاقتباس، وتركيب الجملة، وربط الجمل والفقرات وترابطها المعرفي، وترتيب الأحداث واختيار الأفكار والمفردات.

إن أهمية الملخص أو الفقرة الأولى هي أن النقطة الأساسية للقصة الإخبارية واضحة، وله وظيفة العنوان في القصة الروائية التي يسردها الكاتب، ومن خلاله يتم تلخيص الخبر ، وفي القصة الروائية التي يرويها الفرد. فإن شكل القصة يتضمن المكان والشخصيات، ومتى، وأين، ومن قام بالعمل، وماهية العمل. أما الرأي أو التقييم فهو وسيلة يتم من خلالها الإعراب عن أهمية القصة في السرد الروائي لها. كما أن القصة الإخبارية لا تتضمن خاتمة، والسبب أنها هي نتيجة إخبارية للقصة لتحديد أن القصة قد انتهت. أما في الخبر الإذاعي والتلفزيوني فإن الخاتمة موجودة، لأنها ليست خبراً فردياً. ولأن هذه العناصر تظهر من خلال صوت وشكل وحركات المذيع.

الفصل الرابع: قمة جنيف ووسائل الإعلام العامية والهندية.

يأخذ المؤلف الصحافة الهندية كنموذج لتغطية قمة جنيف والذي نلخصه بالتالي: تابعت الصحف الهندية قمة جنيف،

ونشـرت كل مـا صدر من تعليقـات حولها بين التشـكك والتفاؤل بالنتائـج. والتأييد لوجهة نظـر إسرائيل، والانتقـاد لسورية. وقـد قدَّمـت الصحافة الهنديـة كل ذلك عـبر الاقتباس مـن وكالات الأنباء العالمية: من تصريحـات أمريكية وسورية وإسرائيلية وعربية. وقـد استقته من مصادر ذات بعدٍ سياسي وأيديولوجي، ومن خلال وضع اللوم على «سورية» بصفتها الطرف الذي يرفض التعاون.

إن أهـم ما يلفت نظـر القارئ في قمة جنيف هو التالي:

١- أدخل الإسرائيليون عنصراً جديداً في مباحثات السلام الشرق الأوسطية عندما تحدثت إذاعة الجيش الإسرائيلي عن تعويض سوريـة حاجتها من المياه مـن خلال سماح تركيا بتدفيق المزيد من مياه نهر الفرات إلى سورية مقابل السيطـرة على المياه السورية من بحيرة طبريا ونهر الأردن. وهو ما يدفع إسرائيـل إلى إقامـة حلـف استراتيجي مع تركيا.

٢- تصريحات «كلينتون» حول موقفه من الأرض بقوله: «إن على الطرف السوري ألا يتمسـك بما يراه الحـل الوحيد «بل أن يقدم التنازلات لإسرائيـل. وبالتالي يكشف عن عمق الخلافات بـين الطرفين السوري والإسرائيلي.

٣- خطورة تصريحات «شيمون بيريز» التـي تعني أن لإسرائيـل القدرة على محي سورية من الخارطة إذا اضطرت لذلك.

الفصل الخامس: دور الفعل الأدائي في تحليل الكلام.

في فلسفة اللغة يأخذ الكلام صفة تحديد حقيقـة معينة، صحيحـة أو غير صحيحة، بينما أضاف علماء اللغة أن الكلام المنطوق يعبر عن سؤال واحد، في صفـة التعجب أو الرغبـة أو التهديد..إلـخ. وقـام علماء اللغة بتقسيم اللغـة بحسب مدلولاتها، مما استدعى التسـاؤل حول ماهيـة الكلام أو التصريـح، وما هي حـدود وتعريف كل من الكلام المنطوق؟

واتفـق الفلاسفـة وعلمـاء اللغـة: أن التصريح يجب أن يكـون قابلاً للتحقق من صحتـه، وليس كل ما ينطـق مصرح به، بل هناك مـا هو شبه مصرح بـه. وهنا تكمن قـدرة المحلل اللغـوي على معرفـة البعد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحقيقي للكلام المنطوق.

وبالتالي على المنطوق أن يلبي الشروط والحالات التالية:

١- إن الكلام المنطوق لا يصف أو ينقل شيئاً واحداً على الإطلاق.

٢- إن نطاق الجملة هو فعل أو جزء من فعل.

كما حدد الفلاسفة وعلماء قواعد اللغة شروطاً معينة لإتمام إخراج هذا الكلام:

١- يجب أن تكون الظروف المرافقة لإخراج الكلام ملائمة.

٢- يجب أن يكون الفاعل في الجملة الضمير (أنا).

٣- يجب أن يكون الكلام المنطوق صحيحاً أو غير صحيح.

٤- يجب أن تكون الظروف منسجمة مع الكلام المنطوق.

٥- يجب أن تكون كل الإجراءات المتبعة في إخراج الكلام أمر متفق عليه بين المتكلم/ المستمع.

٦- يجب أن يكون الكلام معبراً عن مشاعر المرء وأفكاره ونواياه.

وبهذا ندرك أن الكلام المنطوق يمكن أن يعبر عن مضمون معين، ونية معينة، وهدف محدد بشكل ضمني أو علني.

وبالتالي، فإن الكلام السياسي يحمل في طياته عدداً من المعاني والمضامين، ويلجأ السياسي إلى هذا النوع من اللغة لإضفاء الغموض على كلامه حتى يترك المجال أمامه مفتوحاً للحفاظ على نفسه

❁ ❁ ❁

الفصل السادس: اللغة والترجمة.

عرف بعض علماء فقه اللغة، بأن اللغة هي الوسيلة التي يتمّ بوساطتها تناقل الأفكار بين أفراد المجتمع الواحد، أو المتحدث والمستمع، وإن الكلمة والعبارة والفقرة والجملة، وحتى النص يحمل معاني تختلف من شخص لآخر، حسب الزمن والصيغة والنص والطريقة التي يتم من خلالها نقل ما يريده المتكلم إلى مستمعه أو إلى الرأي العام.

فاللغة، لا تنقل المعنى بحد ذاته، بل هو وسيلة الوصل والتواصل بين أفراد المجتمع، ولكل نص أو قول معنى أو معان متعددة. إذن توجد علاقة بين الكاتب والمتكلم والقارئ/المستمع، وتستند إلى مخزون من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعلومـات، وهذه المعلومات هي التي تجعل المستمع/القارئ يتصـرف وفقاً لما سمعه أو قـرأه. إذن، الخطوة الأولى هي ضرورة فهم الكلام أو النصـ، والثانية هي الإنجاز، قد يكون هو نفسه الذي أراده الكاتب أو المتكلم أو غـيره. إذن لابد من فهـم النص والكلام فهماً دقيقـاً قبل الخوض في عملية ترجمة الكلام أو النص.

أمـا الترجمة فتم تعريفهـا بأنها عملية استبـدال مفـردات مـن النصـ الأصلي بمفردات أخرى مرادفة لها ذات معنى في لغة أخرى. وتعتمد الترجمة أساساً على المعاني، لأن الإفهام هو علة الـكلام، ثقافياً وعلمياً وحضارياً، وما اللغة إلا أداة لخدمتها. وعلى المترجم أن يتوصل إلى بيان أمر المعاني، كيف تتفق وتختلف، وتجتمع وتفترق، وهي وليدة البيئة والثقافة والعادات والمجتمع.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع: لغة الصحافة وآلية الترجمة.

إن أوّل شيء يجب البحث عنه هو تحديد معنـى المفـردات أو الكلام ثـم العلاقات البينيـة بـين عناصر الجملة التـي تساعد على فهم سياق النصـ. ولابد للترجمة من العمـل على تحصيـل الـكلام أو البلاغ أو النص، أو مركباته، وفرزها وتحديد فقرات وجمل النص لكي يتمكن المترجم من تحديد دقّة المعاني، وإعـادة تركيبها وصياغتها في جمل وفقرات ذات معنـى في اللغة تنسجم وخصائص تلك اللغة.

إن أوّل ما يلفت القارئ إلى لغة الصحافة هو تميزها بفقرات وجمل قصيرة، وانعدام المسافـات بينهـا، لتسهيل عمليـة القراءة، ولإعطاء عدد من الأفـكار. كما أن طباعة الأحـرف وشـكل الحـرف المطبـوع تميز لغـة الصحافة، أما علامـات الترقيم فيتم استخدامها بشكل تام كوسيلة لخدمة أغراض متعددة. كما هناك ترابط الجمل أو وصلها، والتـي غالباً ما تبدأ بحـروف العطف. أما تركيب الجملة فغالباً ما يكون بيانياً،وتكون ظرفية على الأغلب الأعم. وأخيراً لابد من التطرق إلى المفـردات والألفاظ التي تتميز بهـا اللغـة الصحفية التي فيهـا إبداعات وتراكيـب اسميـة معقدة. وفيهـا تستخدم العبارات كمفـردات. ولهذا على المترجم أن يتعمق في البنى التحتيـة والتراكيب في لغة

الصحافة، وكذلك عليه أن يلم بالخلفية الثقافية والأيديولوجية والمفهوماتية للتعابير اللغوية الصحفية.

الفصل الثامن: لغة السياسة والترجمة.

يقول الكاتب الإنكليزي جورج أورويل، إن السياسة هي جزء لا يتجزأ من الحياة، لذلك فالحياة واللغة والسياسة مكملة لبعضها، ويستخدم رجال السياسة نمطاً معيناً من اللغة بهدف التأثير على الرأي العام. وغالباً ما تتميز لغة السياسة بالغموض وعدم الدقة والتكرار. وباستخدام تعابير لغوية معينة. لذلك فهو يعبر عن الفكر الذي يحمله. تعكس نواياه وهدفه وثقافته بدلاً من حقيقة المدلول الأساسي لما اختاره من مفردات وعبارات.

وهذا التحليل يرتكز. على نقاط متعددة منها

١- البحث عن الأفكار والمعاني المخبأة في كلمات المتكلم من خلال معرفته بالعلاقة بين المتكلم والمستمع.

٢- ترابط الجمل والعبارات وانسجامها مع الفكر من عدمه.

٣- انسجام النص مع الفكر والفكر مع اللغة المستخدمة.

ولهذا لابد للمحلل من معرفة علم السوسيولوجيا وبنية الكلام، وعلم الدلالة، وعلم البراغماتيا وعلم اللغة واللسانيات.

بروكلمن مستشرق ألماني أنصف العرب

رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يحتل كتاب «تاريخ الأدب العربي» بأجزائه الخمسة الضخمة التي قام بتصنيفها المستشرق الألماني الشهير «كارل بروكلمن» (١٨٦٨-١٩٥٦) مكانة كبيرة لدى الباحثين والدارسين العرب والأجانب، لأنه مازال -حتى الآن- المرجع الأساسي والوحيد في كل ما يتعلق بالمخطوطات العربية وأماكن وجودها ونجد من المفيد التوقف عند ملامح أساسية من حياة وأعمال هذا المستشرق الكبير الذي ارتبط خياله بالمشرق

وأخبار اللغات القديمة فدرس العربية والعبرية والآرامية والسريانية وهو لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية، والتحق بجامعة روستوك في ربيع عام ١٨٨٦م ودرس إلى جانب الشرقيات- الفيلولوجيا الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) والتاريخ، وفي ربيع ١٨٨٨م انتقل إلى مدينة (ستراسبورغ) لتعلّم اللغات السنسكريتية والأرمنية والمصرية القديمة، ليحصل على الدكتوراه، ويعيّن مدرساً في هذه المدينة، وليواصل دراساته العربية، ويستمر في التنقل من مكان إلى آخر، ليحصل على دكتوراه التأهيل عام ١٨٩٣م برسالة عنزانها «عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي» في مختصر السّير والأخبار، وفي هذه الأثناء كان «بروكلمن» مشغولاً بجمع مواد «المعجم السرياني» لأن الحاجة آنذاك كانت تدعو إلى وضع معجم سرياني، ذلك أن المعجم السرياني الذي وضعه «كستلوس» وطبع عام ١٧٨٨، قد نفذ، منذ وقت طويل، كما أن الدراسات في النصوص السريانية كانت تدعو إلى تجديده وإضافة الكثير من المواد إليه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يزال «كنز اللغة السريانية» الذي وضعه بروكلمن عام ١٨٦٨م خير معجم لهذه اللغة، وحافلاً بالكثير من المواد التي لا يمكن الاستغناء عنها، وقد اعتمد في تصنيفه على الكتابات السورية ومواعظ «مارأفرام السرياني»، وزوّده بوثائق مهمة جعلت منه المعجم الوثيق الأساس، وألحق به ثبتاً لاتينياً سريانياً، وصدر بحلته الكاملة عام ١٨٩٥م.

وفي آب من عام ١٨٩٥م، سافر بروكلمن إلى لندن بدعوة من «ادوار سنحاء» للاشتراك بتحقيق مخطوط «طبقات ابن سعد» وقام بمهمته أحسن قيام فحقق الجزء الثامن منه وطبع في برلين عام ١٩٠٤م، وفي أثناء وجوده في لندن انتهز

الفرصة فقام بنسخ نسخة من «عيون الأخبار» لابن قتيبة، الذي تولى أمره فيما بعد بنفسه، ووجد من يقوم بطبعه في مدينة «فيمار» الألمانية، شريطة أن يقدم إليه بروكلمن في الوقت نفسه كتاباً آخر أوفر حظاً من الرواج، لأن النص العربي لـ«عيون الأخبار» لا يهم إلا القليل من المتخصصين في المكتبات العامة، وكان هذا الشرط، هو الذي دفع بروكلمن إلى تصنيف كتابه العظيم «تاريخ الأدب العربي».

يحدثنا بروكلمن عن تاريخ تأليفه لهذا الكتاب فيقول: إنه فكر في مشروعه هذا منذ مدة، وقد أعطاه الناشر مكافآت متواضعة مع آلة كاتبة، وظهر الكتاب في أربعة أجزاء ثم أعاد بروكلمن طباعة الطبعة الأولى في مجلدين مع توسّعات كثيرة وجعلها متمشّية مع طبعة الملحق بين عامي ١٩٤٣و١٩٤٩م وهكذا أصبح الكتاب في وضعه النهائي مؤلفاً من خمسة أجزاء «مجلدات».

تقوم فكرة «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمن على التفاصيل الدقيقة، مع العلم أنه كان يقول: لم يحن بعد الوقت لتصنيف شامل للأدب العربي، بالمعنى الأوسع، أي كل الإنتاج في كل فروع العلم، وهذا أمر ينبغي التنبه إليه، فكلمة «أدب» في عنوان الكتاب تعني: مجموع ما كتب باللغة العربية في كل فروع العلم، لأن ما طبع منه قليل جداً بالنسبة إلى ما لا يزال مخطوطاً، كما أن القليل من هذا المطبوع هو الذي نشر نشراً علمياً نقدياً محققاً، ومن هنا أدرك أن كل بحث في تاريخ النتاج الأدبي والعلمي عند العرب يجب أن يسبقه، أداة له كتاب شامل يسرد عنوانات ما بقي من هذا التراث، وما طبع منه، مع استثناء الكتب المجهولة.. وكان من الطبيعي أن يقع في مثل هذا العمل الجبار أخطاء في أرقام المخطوطات، وفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التواريخ، فضلاً عن الأخطاء الناجمة عن المصادر التي استعان بها، وخصوصاً فهارس المخطوطات، ونحن نعلم بالممارسة أنه لابد من وقوع أخطاء، وربما عديدة، وخاصة في تحقيق هويّة المؤلفين، لأن الكثير من المخطوطات لا تحمل أسماء مؤلفيها.

وصدرت ابتداءً من عام ١٩٠١م سلسلة عن «تاريخ الآداب في الشرق» فشارك بروكلمن فيها بتاريخ موجز للأدب العربي، وأعيد طبعه مرة ثانية في عام ١٩٠٩م، كما كتب كتاباً آخر في هذه السلسلة وعنوانه «تاريخ الآداب المسيحية في الشرق وفيه تناول تاريخ الأدب السرياني، وتاريخ الأدب العربي المسيحي» وفي المدّة الواقعة بين ١٩٠٧و١٩١٣م ألف أكبر كتبه أصالة وأحبها إلى نفسه بعنوان «موجز النحو المقارن للغات السامية» في جزأين.

في عام ١٩٠٩م شغل بروكلمن منصب أستاذ في جامعة «هالة» الألمانية حيث قضى فيها أعماله حتى عام ١٩٢٢م، وأتم كتاب «موجز النحو المقارن للغات السامية» فظهر الجزء الثاني منه وهو المخصص لنظم هذه اللغات، وفي الوقت نفسه أخذ في إعداد الطبعة الثانية من «المعجم السرياني» لكن قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)عاقه عن الاستمرار في العمل، لأن كثيراً من النصوص السريانية التي نشرت في تلك الفترة -خارج ألمانيا- لم تكن تصل إلى ألمانيا، لكنه بدأ طبعه عام ١٩١٨م، وظهرت الكراسة الأولى منه عام ١٩٢٣م، لكن لم يتم طبعه بكامله إلا في عام ١٩٢٣م، وكان حجم هذه الطبعة الجديدة، نحو مثلين من الطبعة الأولى، إذ أضاف إليه الكثير من الشواهد، ومن معاني الألفاظ، وتوسّع في الاشتقاق

إلى درجة أنه صار صالحاً ليكون أداة للمزيد من البحث في المقارنة بين اللغات السامية من حيث الاشتقاق والصلات.

وإلى جانب اللغات السامية عني بروكلمن باللغة التركية، وكان كتاب «ديوان لغات الترك» لمحمود بن الحسين الكاشغري، قد نشر إبان الحرب العالمية الأولى، في استانبول، فاستخرج منه بروكلمن أبنية الفعل في اللغة التركية، كما استخرج منه بقايا الشعر التركي القديم والحكم الشعبية الواردة، وواصل بعد ذلك دراساته التركية فكان كتابه «نحو اللغة التركية الشرقية الواردة في اللغات المكتوبة الإسلامية آسية الوسطى» وفيه تناول تاريخ النطق وصرف ونظم اللهجات التي استعملتها الشعوب التركية في وسط آسية منذ اعتناقها للإسلام في القرن العاشر الميلادي.

واستمر بروكلمن يعمل ويحاضر ويكتب في تاريخ العرب واللغات القديمة التي مرت عليهم حتى وفاته في عام ١٩٥٦م، وكان منْ أنصف مَنْ كتب عن حضارة العرب وتراثهم الثقافي واللغوي والفكري.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com